

دولة بنى مهدى فى اليمن

أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(٥٣٣ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٧٤ م)

الدكتور
نهلة رزق محمد أحمد

مركز الاسكندرية للكتاب
٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة
الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨

دولة بنى مهدى فى اليمن

أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(٥٣٣ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٧٤ م)

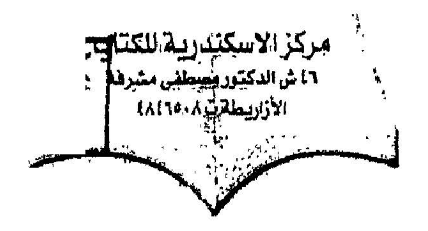
دولة بنى مهدى فى اليمن

أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(٥٣٣ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٧٤ م)

الدكتور

نهلة رزق محمد أحمد



رقم الايداع : ٢٤٧٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولى : ٩٧٨-٩٧٧-٣٨٨-٣٣-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء آية ١١٣

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	ط – م
دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث	ن – ذ
التمهيد	١–٣٢
- مكانة مدينة زبيد	٢–٣
- الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي	٤–١٣
- انقسام اليمن إلى دويلات	١٣–١٩
- عهد الدولة النجاحية في زبيد وعلاقتها بآل مهدي	٢٠–٣٢
- ظهور بني مهدي سياسيًا	٣٢
الفصل الأول	٣٣–٧٧
الأحوال السياسية عهد دولة بني مهدي	
- قيام دولة بني مهدي	٣٤–٣٧
- بداية النشاط الديني لعلي بن مهدي	٣٧–٣٩
- البيعة الأولى لعلي بن مهدي ٥٣٨هـ/١١٤٣م	٣٩–٤٢
- البيعة الثانية لعلي بن مهدي ٥٤٥هـ/١١٥٠م	٤٢–٤٣
- أسباب ثورة علي بن مهدي على الدولة النجاحية	٤٣–٤٨
- حصار زبيد	٤٨–٥٠
- استيلاء علي بن مهدي على زبيد وتوطيد سلطانه عليها	٥١–٥٣
- وفاة علي بن مهدي وتولي ابنه مهدي الحكم	٥٤
- سياسة مهدي في توطيد سلطانه بتوسيع نطاق دولته	٥٤–٥٦
- وفاة مهدي وتولي أخوه عبدالنبي الحكم	٥٦–٥٧
- سياسة عبدالنبي في توطيد سلطانه واتساع ملكه	٥٧–٦١
- العلاقات السياسية لدولة بني مهدي مع حكام اليمن	٦٢–٦٦
- التحالف القبلي ضد عبدالنبي بن مهدي	٦٧–٧١
- علاقة دولة بني مهدي بالمخلاف السليماني	٧٢–٧٧
الفصل الثاني	٧٨–١٠٧
الفتح الأيوبي وسقوط دولة بني مهدي في اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م	
- الفتح الأيوبي لليمن	٧٩–٨٠
- أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن	٨٠–٨٨
- حملة تورانشاه إلى اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م	٨٨–٨٩
- فتح زبيد والقضاء على دولة بني مهدي	٨٩–٩٢

- سيطرة تورانشاه على اليمن ٩٢
- القضاء على نفوذ بني مهدي في اليمن ٩٢-٩٤
- أسباب هزيمة دولة بني مهدي وانتصار الجيش لأيوبي ٩٤-٩٥
- نتائج الفتح الأيوبي لليمن ٩٥-٩٦
- عناصر الجيش والسياسة العسكرية لدولة بني مهدي ٩٦-١٠٧

الفصل الثالث ١٠٨-١٥٦

الأحوال الاقتصادية عهد دولة بني مهدي في اليمن

- الزراعة ١٠٩
- العوامل المؤثرة في الزراعة (عوامل طبيعية ــ أساليب الزراعة ــ الزرع والحصاد ــ المحاصيل الزراعية) ١٠٩-١٢١
- الحرف وأهم الصناعات : ١٢١-١٣٢
  - صناعة المنسوجات ــ الصباغة والزخرفة ١٢٢-١٢٦
  - الصناعات الجلدية ١٢٧-١٢٨
  - صناعة العطور ١٢٨
  - صناعة النبيذ ١٢٨-١٢٩
  - الصناعات الغذائية ١٢٩
  - الصناعات المعدنية ١٣٠-١٣١
- التجارة في زبيد : ١٣١-١٣٩
  - التجارة الداخلية والأسواق ١٣١-١٣٤
  - التجارة الخارجية وطرقها برًا وبحرًا ١٣٤-١٣٧
  - الصادرات والواردات ١٣٧-١٣٩
- النظام المالي : ١٣٩-١٥٦

أولاً : الموارد الشرعية : ١٣٩-١٤٢

أ- عشور الأرض (الخراج) ١٣٩-١٤٠

ب-عشور التجارة ١٤٠-١٤٢

ثانيًا : الموارد غير الشرعية : ١٤٣-١٤٤

- المصالحات ــ الغنائم ١٤٣-١٤٤
- طريقة تحصيل الأموال ١٤٤-١٤٦
- المعاملات المالية ١٤٦-١٥٥
- دراسة تحليلية لدرهمي عبدالنبي بن مهدي ١٤٩-١٥٢
- الموازين والمكاييل والمقاييس في زبيد ١٥٣-١٥٥
- معوقات التجارة ١٥٥-١٥٦

الفصل الرابع ٢٠٨-١٥٧

الأحوال الاجتماعية عهد بني مهدي في اليمن

- عناصر السكان : ١٦٩-١٥٨
  - القبائل ١٦١-١٥٨
  - العناصر الأجنبية ١٦٣-١٦١
  - أهل الذمة (النصارى ـ اليهود) ١٦٦-١٦٣
- طبقات المجتمع ١٧٥-١٦٦

أولاً : طبقات الخاصة : ١٦٦

- الحكام ١٦٨-١٦٦
- زعماء القبائل ١٧٠-١٦٩
- العلماء والقضاة ١٧٤-١٧٠
- كبار الملاك ١٧٥-١٧٤

ثانيًا : طبقة العامة ١٧٨-١٧٥

- الجند ١٧٦-١٧٥
- العامة ١٧٦
- الفلاحون ١٧٧-١٧٦
- أرباب الحرف والصناعات ١٧٨-١٧٧
- الرقيق ١٨٠-١٧٩
- الأخدام ١٨١-١٨٠

- مظاهر الحياة الاجتماعية : ١٩٢-١٨٢
  - العادات والتقاليد ١٨٢
  - المأكل والملبس ١٨٧-١٨٢
  - الزواج (الخطبة ـ المهر ـ الطرح ـ الطلاق ـ الولادة) ١٩٢-١٨٧
  - الأعياد والاحتفالات (الدينية ـ الشعبية) ١٩٤-١٩٢
- العمران : ٢٠٨-١٩٤

أولاً : العمائر الدينية ٢٠٢-١٩٤

- الجوامع والمساجد ١٩٨-١٩٤
- المدارس ١٩٩-١٩٨
- الخانقاوات ٢٠٠
- الأربطة ٢٠٠
- الجنابذ ٢٠١
- المشاهد ٢٠١
- الأسبلة ٢٠٢

ثانيًا : العمائر المدنية : ٢٠٢-٢٠٦
- القصور والقلاع ٢٠٢-٢٠٤
- المنازل ٢٠٤
- الخانات ٢٠٤-٢٠٥
- الوكالات أو السماسر ٢٠٥-٢٠٦
ثالثًا : المنشآت الحربية والدفاعية : ٢٠٦-٢٠٨
- الأسوار ٢٠٦-٢٠٧
- الأبواب ٢٠٧
- الأبراج ٢٠٧-٢٠٨
- مرافق أخرى في زبيد (الحمامات) ٢٠٨

الفصل الخامس ٢٠٩-٢٨٧

الأحوال الثقافية في عهد دولة بني مهدي في اليمن

- المؤثرات الثقافية ٢١٠-٢١٧
- خصائص الحركة العلمية ٢١٧-٢٢٢
أولاً : شمولية المعرفة ٢١٧-٢١٨
ثانيًا : الرحلة في طلب العلم (الرحلة الداخلية ـ الرحلة الخارجية) ٢١٨-٢٢٢
ثالثًا : حركة التأليف ٢٢٢-٢٥٧
- الدراسات الدينية ٢٢٢-٢٢٨
- في مجال التفسير ٢٢٢-٢٢٣
- في مجال الحديث ٢٢٣-٢٢٤
- في مجال الفقه ٢٢٤-٢٢٨
- الدراسات اللغوية : ٢٢٨-٢٣١
- في علم النحو ٢٢٨-٢٣٠
في علم اللغة ٢٣٠-٢٣١
- النشاط الأدبي في الشعر ٢٣١-٢٥٠
- الدراسات التاريخية ٢٥١-٢٥٤
- الدراسات العلمية ٢٥٤-٢٥٧
- المذاهب الإسلامية في اليمن : ٢٥٨-٢٧٥
أولاً : المذهب الشافعي وجهود علمائه ٢٥٩-٢٦٤
ثانيًا : المذهب الزيدي وجهود علمائه ٢٦٤-٢٦٨
ثالثًا : المطرفية وجهود علمائها ٢٦٨-٢٧٢
رابعًا : المذهب الإسماعيلي وجهود علماء الشيعة ٢٧٢-٢٧٥
- الدعوة الطيبية في اليمن ٢٧٥

- دور العلم والمعرفة والمراحل التعليمية ٢٧٥-٢٩٤
أولاً : المراحل التعليمية ٢٧٥-٢٧٨
ثانيًا : مراكز التعليم ٢٧٩-٢٨٠
ثالثًا : مجالس التعليم ٢٨٠-٢٨٤
رابعًا : وظائف التدريس ٢٨٥-٢٨٦
خامسًا : أوقات الدراسة ٢٨٦
سادسًا : الإجازات ٢٨٦-٢٨٧
الخاتمة ٢٨٨-٢٩٤
الملاحق ٢٩٦-٣٠٠
الخرائط والصور ٣٠١-٣٢٢
قائمة المصادر والمراجع ٣٢٣-٣٥٥

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد ... تُعد الدراسة في التاريخ اليمني ولاسيما الإسلامي من أمتع الدراسات التاريخية وأصعبها في ذات الوقت.

ذلك لأن الدراسة التاريخية اليمنية تبرز مستوى رقي المجتمع اليمني أو تدهوره ممثلاً في النظم الإدارية والمالية والاقتصادية والقضائية والعسكرية وأيضًا حياته الاجتماعية والعلمية، وكذلك توضح لنا المزيد من المعلومات التاريخية السياسية اليمنية بشكل عام ومدى تأثيرها على تاريخها الحضاري.

غير أنه من الصعوبات التي تواجه الباحث في تاريخ اليمن بوجه عام هي العوامل الطبيعية والقبلية، فهي الأكثر تأثيرًا وسيطرة على المجتمع اليمني، حيث أثرت هذه العوامل الطبيعية على حياة اليمنيين السياسية والاجتماعية والثقافية تأثيرًا كبيرًا على مدى عصورهم المختلفة، مما أدى إلى انعزال بعض المناطق عن بعضها بحواجز جبلية، فنشأت كل منطقة منعزلة عن الأخرى، لها نظامها الذي يحميها وينظم علاقتها بغيرها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية وأدى ذلك إلى سيطرة العصبية القبلية، وهذا ما نراه مجسدًا في الزعامات القبلية.

وقد أثرت مختلف الطموحات السياسية في أوضاع اليمن القبلية، فتصارعت القوى المتعاصرة — في القرن السادس الهجري — مع بعضها البعض وتبادلت النصر والهزيمة، وأطيح بأسر حاكمة لتحل مكانها أخرى إلى حين، وتمكن بعضها من السيطرة على ممتلكات البعض الآخر، فكانت الغلبة للقوة والتحالف القبلي.

ففي المجال السياسي كانت اليمن منقسمة إلى عدة دويلات مختلفة الاتجاه، ففي المناطق التهامية وخاصة زبيد، أيدت الدولة النجاحية، الخلافة العباسية وهي وريثة الدولة الزيادية في زبيد، فكان النجاحيون عبيدًا لهم وتمكنوا من السيطرة على الدولة بعدئذ وأبقوا على مذهبها السني في الفترة ٤٠٣-٥٥٤هـ/١٠١٢-١١٥٩م. أما منطقة شمال هضبة صنعاء وخاصة

صعدة، فكانت بها الأئمة الزيدية الذين كانوا مستقلين عن الخلافتين (العباسية والفاطمية) وذلك من سنة ٢٨٠-٦١٤هـ/٨٩٣-١٢١٧م حتى تقلص نفوذهم على يد الملك المسعود الأيوبي. وفضلاً عن ذلك كان هناك الزريعيون في عدن ويسيطرون على أَبْيَن وتَعِزْ، وهم من أتباع الدولة الإسماعيلية في الفترة ٤٧٠-٥٦٩هـ/١٠٧٨-١١٧٤م ،ثم آل حاتم في صنعاء، وكانوا على المذهب الإسماعيلي أيضًا في الفترة ٤٩٤-٥٦٩هـ/١١٠١-١١٧٤م، كذلك كان آل مهدي في زبيد، الذين قضوا على حكم النجاحيين وخلفوهم في زبيد في الفترة ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م، ثم الأيوبيون، الذين عملوا على توحيد اليمن من ٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٤-١٢٢٩م.

وفي حالات نادرة[1] فقط حاولت الخلافة العباسية استعادة قوتها ومجدها في إقرار ما تراه مناسبًا، بحكم كونها الخلافة الإسلامية المهيمنة، وقد ساعدها على ذلك كونها ظلت ـ في زمن الانقسامات والفوضى العسكرية[2] ـ الغطاء الشرعي والروحي الذي لجأ إليه المتقاتلون أحيانًا للحصول على الشرعية من الخلافة الإسلامية، وظلت تلك الأوضاع على حالها حتى مجيء الأيوبيين إلى اليمن فتغيرت الخارطة السياسية في اليمن لصالحهم.

أما من ناحية الوضع المذهبي لليمن في القرن السادس الهجري، فقد انتشرت فيها جميع المذاهب الإسلامية، نظرًا لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، فانتشر مذهب الإسماعيلية في مغارب اليمن الأعلى فضلاً عن نجران وعسير، وانتشر مذهب الإباضية في غرب صنعاء وفي شَظَب وفي حضر موت، أما الزيدية فانتشرت في صعدة وما حولها، بينما انتشرت مذاهب أهل السنة في بقية اليمن. أما المذهب الصوفي، فاعتنقه علي بن مهدي مؤسس الدولة المهدية ونادى به في بداية تكوينه لدولته في مدينة زبيد، وبالفعل نجح في ذلك.

وينتج عن ذلك أن اتجه أصحاب كل مذهب في استقطاب أنصاره بناء على فكرتهم المذهبية، فادعى أصحاب كل مذهب أنهم أحق في تولي السلطة السياسية دون غيرهم من الفرق، وأوردوا لذلك الأدلة والبراهين والحجج التي تؤيد رأيهم ويقتنع بها أنصارهم.

---

(1) على الرغم من أن الدولة النجاحية كانت ممثلة للخلافة العباسية وأن سيطرتها يجب أن تمتد على اليمن كله، إلا أن الصليحيين تمكنوا من إزاحة نفوذهم عن معظم مناطق اليمن، وذلك بسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تتمكن من صد الفاطميين عن السيطرة على مصر والشام.

(2) المقصود بالانقسامات ظهور السلاجقة وسيطرتهم على الخلافة العباسية في ذلك الوقت والصراع على السلطة في بغداد فيما بينهما.

واستخدم أصحاب كل مذهب أسلوبًا خاصة بهم في دعوة الناس إلى مذهبهم السياسي، فالشيعة الإسماعيلية اتخذوا أسلوب الدعوة السرية ثم استخدموا القوة للوصول إلى السلطة، أما الزيدية فاستخدموا الدعوة إلى الإمام بظهوره داعيًا إلى نفسه بالإمامة وشاهرًا سيفه ضد السلطة المخالفة له مذهبيًا مدعيًا أنه أحق بالسلطة دون غيره، وتسترت دولة بني مهدي في بدايتها خلف المذهب الصوفي معلنة مبادئها التي تُظْهر الزهد والورع والتسامح لاستمالة الكثيرين إليها من الأنصار، بينما عول أهل السنة على تأييد السلطة الدينية الشرعية وهي السلطة العباسية، فنشأ صراع مستمر وقتال مرير حول السلطة بين كل تلك الفرق. ولم يكن هذا الصرع سببه الخلاف المذهبي الديني فقط، بل كان سببه أيضًا الخلاف السياسي حول اعتلاء السلطة.

ويُعد موضوع الدراسة لدولة بني مهدي في اليمن في الفترة التاريخية ما بين ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م، من الدراسات التي تعالج بعض الجوانب من التاريخ السياسي والحضاري لليمن كدراسة علمية منهجية والتي لم يركز عليها أو يستوفها بعض الباحثين لاسيما في المجال الحضاري، باعتبار أنها فترة تاريخية قصيرة مليئة بالأحداث والصراعات والعلاقات المتشابكة المتداخلة، الأمر الذي يحتاج إلى جهد لاستخلاصها وإبراز نتائجها، كذلك ندرة المعلومات الخاصة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية من جانب المؤرخين القدامى، مما استلزم إتباع المنهج التاريخي الذي يعتمد على النصوص من المصادر الأصلية لتفسيرها لهذه الدراسة وتوضيح سياسة دولة بني مهدي وما اتسمت به من شدة وعنف وتأثير هذه السياسة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد اليمن، ومهما كان قصر فترة البحث فهي تعبر عن الأوضاع السائدة وقتذاك.

وتتألف هذه الدراسة من خمسة فصول فضلاً عن التمهيد والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية وبعض الملاحق والصور والخرائط الخاصة بفترة البحث.

تناول **التمهيد** : **الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي،** حيث كانت اليمن مفككة سياسيًا ومجزأة إلى وحدات سياسية متعددة تحكمها زعامات قبلية مختلفة، تتبع كل منها مذهب مختلف عن الأخرى، فمنهم من يدين بالولاء للخلافة العباسية، أو الخلافة الفاطمية، ومنهم من يستقل بالسلطة والمذهب كالزيدية.

ويوضح الفصل الأول : **السياسة الداخلية لدولة بني مهدي في زبيد،** وينقسم إلى عدة عناصر منها توضيح قيام دولة بني مهدي وسياسة حكامها في توطيد وتوسيع سلطانهم

في اليمن وتأثير ذلك على الأحداث السياسية في اليمن، بداية من محاولات علي بن مهدي في الاستيلاء على الحكم وإسقاط الدولة النجاحية في زبيد، ونجاحه في ذلك الأمر، ثم توريث الحكم في أولاده من بعده مع التوسع الذي شمل كثير من بلدان اليمن، مع توضيح العلاقات الداخلية والخارجية لدولة بني مهدي.

بينما يتناول **الفصل الثاني : أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن وسقوط دولة بني مهدي**، وتتبع الفتح الأيوبي للقضاء على نفوذ دولة بني مهدي كله مع توضيح آن السياسة العسكرية كانت سببًا من أسباب انهيار الدولة

ويأتي **الفصل الثالث : بالبحث في الحالة الاقتصادية في عهد دولة بني مهدي**، من حيث الثروة الزراعية والأساليب المتبعة فيها للزراعة وأهم المحاصيل ووسائل الري، أيضًا التعريف بالحرف وأهم الصناعات الخاصة بالثروة المعدنية، وأهم الحِرَف اليدوية، وكذلك صناعة الجلود والنبيذ والمنسوجات، ولا نغفل التجارة الداخلية وأهم الأسواق والسلع التجارية، وأيضًا التجارة الخارجية وأهم طرقها سواء كانت طرق برية أو طرق بحرية.

فضلاً عن النظام المالي الذي اتبعته دولة بني مهدي من حيث الإيرادات والمصروفات والمعاملات المالية التي من خلالها تُنشر عُملة لدولة بني مهدي وتحديدًا في فترة حكم عبدالنبي بن مهدي وذلك عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م مع التحليل والتوضيح لأهمية هذه العملة وما تحمله من نقوش وبيانات.

وقد استعانت الدراسة لأول مرة بنشر نموذج لعملة عبدالنبي بن مهدي وتحليل الكتابات والنقوش الواردة بها، حيث أنها لم تنشر في مصدر أو مرجع من قبل.

بينما يتناول **الفصل الرابع : الحياة الاجتماعية في عهد بني مهدي**، من حيث عناصر السكان وطبقات المجتمع اليمني، وتوضيح عاداته وتقاليده، وخاصة في مدينة زبيد، ودور بعض المنشآت والمؤسسات الاجتماعية في ذلك الوقت.

أما **الفصل الخامس فيتناول : الحياة الثقافية**، موضحًا فيه أسباب النهضة الثقافية في اليمن والحركة العلمية من حيث مؤثراتها ومراكزها المتعددة، وخصائص الحركة العلمية من رحلات داخلية وخارجية في طلب العلم، وأيضًا توضيح المذاهب الفقهية وأثرها في التقدم الفكري، ومدى جهود علماء السنة والشيعة في نشر العلوم المذهبية داخل وخارج اليمن.

وأخيرًا هذه دراسة متواضعة لإبراز سياسة دولة بني مهدي في اليمن في مختلف النواحي سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، وتوضيح نتائج هذه الدراسة وأسباب سقوط هذه الدولة، وأسأل الله التوفيق، وحسبي أنني اجتهدتُ وبذلتُ الجهد وأنفقتُ الوقت الكثير مع نية خالصة لإعداد هذه الدراسة.

وفي النهاية أحمدُ الله تعالى الذي أعانني على إتمام هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم، ثم لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر شكري وعظيم امتناني وتقديري واحترامي للأستاذ الدكتور **محمود عرفة محمود** على معاونته الصادقة لي في إعداد هذه الدراسة، فقد استفدتُ من فيض علمه ونصحه الدائم لي منذ أن كان الموضوع فكرة حتى خرج إلى حيز الوجود، وأشهدُ أن توجيهاته السديدة وإرشاداته واضحة في كل صفحات الرسالة، لذلك لا يوفيه الشكر وإن كثر، إنما الذي يوفيه جزاءه ويعطيه أجره هو الله وحده عز وجل، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

كما أقدم شكري وامتناني لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور **عبادة عبدالرحمن رضا كُحيلة** على كل ما أمدني به لهذه الدراسة من معلومات قيمة وتوجيهات سديدة، فجزاه الله عني خير الجزاء ومتعه الله بكامل الصحة والعافية، كما أشكره مرة ثانية لتفضله بمناقشة هذه الدراسة.

كما أتقدم بجزيل الشكر ووافر احترامي إلى الأستاذ الدكتور **محمد عيسى الحريري** أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة المنصورة، على تفضله بمناقشة هذه الدراسة.

كما أقدم شكري الذي يعجز لساني عن انتقاء كلماته، وعرفانًا بالجميل إلى **أبي وأمي**، اللذان شجعاني ووضعاني على بداية الطريق إلا أن إرادة الله لم تشأ أن يستكملا معي هذا الطريق، لهذا فإنني أهدي هذا العمل إلى روحهما رحمهما الله وجعله في ميزان حسناتهما، وأسكنهما فسيح جناته.

وأتقدم بالشكر إلى كل الذين ساعدوني وقدموا لي التسهيلات في سبيل إعداد هذه الدراسة وأخص بالذكر زوجي الدكتور **محمد أحمد إبراهيم** فجزاه الله عني خير الجزاء ومتعه بالصحة والعافية هو وأسرته.

وفي الختام الشكر أيضًا لكل أساتذتي وزميلاتي في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة والسادة أمناء مكتبات جامعات القاهرة وعين شمس والجامعة الأمريكية ومكتبة

الإسكندرية ودار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية، والمكتبـة اليمنيـة للـدكتور السفير اليمني **عبدالولي الشميري** بالقاهرة.

عرض لأهم مصادر البحث

اعتمدتُ في دراستي هذه على مجموعة من المصادر الأصلية اليمنية وغير اليمنية، سواء عند الحديث عن الناحية السياسية أو الاقتصادية أو المذهبية أو الاجتماعي، إلا أنني حرصتُ على أن تكون الأولوية للمصادر اليمنية، لاسيما المعاصرة لفترة البحث أو القريبة منها لمؤرخين يمنين أو غير يمنيين، مخطوطة كانت أم مطبوعة، مع الاستعانة ببعض المراجع الحديثة التي تقوم بدراسة وتحليل بعض الموضوعات الخاصة بالدراسة والتي وردت في المصادر اليمنية، ولما كان المقام لا يتسع لذكر أهمية كل مصدر من هذه المصادر، فإن الباحثة ستكتفي بذكر بعضها.

فالفصل الأول الخاص بالأوضاع السياسية في بلاد اليمن في عهد دولة بني مهدي، اعتمدتُ فيه على كثير من المصادر المخطوطة والغير مخطوطة يأتي في مقدمتها : مخطوط لمحمد بن محمد بن منصور بن أسير الذي كان حيًا سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣م وهو " **العقد الفريد في تاريخ مدينة زبيد** " وتكمن أهمية هذا المخطوط في التعريف بدولة بني مهدي بداية من ترجمة لمؤسس هذه الدولة وهو علي بن مهدي الرعيني مستعرضًا دوافعه لإنشاء هذه الدولة، ومرورًا بالأحداث السياسية التي شهدها هوَّ وأبناؤه في توطيد سلطانهم في زبيد خاصة وفي اليمن عمومًا، بعد القضاء على دولة بني نجاح وكذلك علاقتهم بالدول اليمنية الأخرى والحروب التي كانت قائمة بينهم بين نصر وهزيمة حتى قدوم بني أيوب إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م.

وتوجد نسخة المخطوط في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٣١٨ ورقة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٢ تاريخ.

ومخطوط لأبي الحسن علي بن الحسن بن محمد بن إسماعيل الخزرجي الشافعي الزبيدي النسابة المعروف بابن وهاس ت٨١٢هـ/١٤١٠م. بعنوان " **العسجد المسبوك والزبرجد المكوك فيمن ولي اليمن من الملوك** "، وهو يتناول تاريخ اليمن السياسي والثقافي، ويخص بالحديث دول اليمن المستقلة حتى سنة ٨٠١هـ١٣٩٨م، مرتبًا على اثنى عشر فصلاً، وتأتي دول بني مهدي في الفصل الرابع، بداية من تأسيسها ومرورًا بأحداثها التاريخية السياسية في اليمن مع الدول اليمنية موضحًا العلاقة بينهم والتي كانت تتسم بالصراع والحروب الدائمة.

وتأتي أهمية هذا المخطوط لما أوضحه لنا من نسب علي بن مهدي وبعض صفاته وعلاقاته السياسية المختلفة مع حلفائه وأعداءه وأساليبه العسكرية، كما استعرض المخطوط بعض النواحي الاقتصادية والعمرانية لدولة بني مهدي في اليمن.

وهذا المخطوط في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٣٩٨ ورقة، ميكروفيلم رقم ١/٧٣٦.

كذلك كان مخطوط ابن وهاس الزبيدي ت ٨١٢هـ/١٤١٠م، بعنوان " **الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الإسلام** " أهمية كبيرة للبحث فقد أشار هذا المخطوط للفترة السياسية لحكم دولة بني مهدي وبعض الأحداث السياسية الملازمة لمدة حكمهم والصراعات التي كانت قائمة مع الإشارة لمدى نتائجها على دولة بني مهدي، مثل التحالف القبلي الذي كان بين بني حاتم في صنعاء وقبائل بني همدان، وكذلك العلاقات السياسية بين الدولة الصليحية بقيادة الملكة أروى بنت أحمد والدولة الزريعية في عدن، ومدى تأثير ذلك على دولة بني مهدي سواء بالسلب أو الإيجاب.

وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٢٤٧ ورقة، ميكروفيلم رقم ١١٨٢ تاريخ.

كذلك كان مخطوط يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد اليمني ت ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م وعنوانه " **أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن** "، أهمية كبيرة من حيث كم المعلومات التي استعنتُ بها في هذه الدراسة، فكان به معلومات هامة لكثير من الأحداث السياسية في دولة بني مهدي، موضحًا فترة حكم كل حاكم وأهم ما قام به من أعمال سياسية وحربية وعلاقاتهم السياسية بدول اليمن الأخرى، كما أوضح لنا أسباب خروج الأيوبيون من مصر إلى اليمن وانتصارهم على دولة بني مهدي والقضاء على دولتهم في اليمن.

وهذا المخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ١٦٣ ورقة، ميكروفيلم رقم ٦٤ تاريخ.

ومن المصادر المطبوعة، استفاد البحث من كتابي عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الدَّيْبَع الشيباني ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م، وهما كتاب " **الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد** "، وهو تاريخ عام لمدينة زبيد مستعرضًا فيه ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح وذكر وزرائهم، وذكر الملوك الصليحيين، وقيام دولة بني مهدي

الـسيري، وزوال ملك الحبشة وانقضاء دولتهم، وذكر دولة بني أيوب وأول دخولهم الـيمن، موضحًا علاقة بني مهدي بالخلافة العباسية، وهذا الكتاب تحقيق الدكتور يوسف شلْحُد.

وكتاب " **قرة العيون في أخبار اليمن الميمون** " وهو تاريخ عام لدويلات اليمن منـذ فجر الإسلام حتى عصره، وأوضح فيه بعض النواحي السياسية والإدارية، وبعض الإشارات عن النواحي العسكرية لدولة بني مهدي، وكذلك النواحي المالية والعمرانية.

كما كان لكتاب **تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد** ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وهو " **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن** "، فائدة كبيرة للبحث، إذ أمدني بمعلومات هامة عن الحياة السياسية لم ترد في مصادر أخرى كعلاقة علي بـن مهـدي بأنصـاره وبعـض التفاصيل عن حروبه مع الدول اليمنية المناوئة له، كما أوضح العوامل التي ساعدت علي بن مهدي في استيلاءه على مدينة زبيد، وتوطيد سلطانه لها، ومدى اتساع ملك عبدالنبي بن علي ابن مهدي الذي وصل وامتد إلى كل اليمن، ومقدار ما في خزائنه من مال وكنـوز، التـي استولى عليها الأيوبيون بعد ذلك عند قضائهم على نفوذ بني مهدي وزوال حكمهم في اليمن.

يتناول الفصل الثاني من الدراسة الحياة العسكرية والجيش في دولة بني مهدي، موضحًا أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن، والتعرض لأسباب ونتائج سقوط وانتهاء دولـة بني مهدي في زبيد واليمن. ومن أهم المصادر التي استعنتُ بها في هذا الفصل، مصدر **لابن حاتم، بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد اليامي الهمداني**، ت بعد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، وهو بعنوان " **السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك الغز بـاليمن** "، تحقيـق المستشـرق الدكتور ركِس سميث، ويُعد هذا الكتاب من أهم المصادر عن الحكم الأيـوبي فـي الـيمن، واستفادت منه الدراسة، بداية من وصول الحملة الأيوبية إلى اليمن بقيـادة توزانشـاه سـنة ٥٦٩هـ/ مارس ١١٧٤م، وضبط الأمور في زبيد بعد القضاء على دولة بني مهدي بمساعدة الأشراف السليمانيين، وتوضيح مقدار الغنائم التي استولى عليها الأيوبيين مـن آل مهـدي متمثلة في الحصون ما بها من كنوز وأموال، مع استعراض أسباب ونتائج انتصـار حملـة الدولة الأيوبية على دولة بني مهدي.

كذلك استفدتُ من كتاب ابن شداد، **بهـاء الـدين أبـو عبـدالله محمـد الأنصـاري** ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، بعنوان " **سيرة صلاح الدين** " المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسـن اليوسفية، وهو من المصادر المهمة التي تتناول حياة صلاح الدين الأيوبي مع الاسـتعراض

لتواريخ الحملات الصليبية، وأسباب توجيه حملة تورانشاه إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، ثم الاستيلاء عليها بعد القضاء على دولة بني مهدي وبعض الدول الأخرى في اليمن.

كما أمدنا كتاب أبو شامة، **شهاب الدين أبو محمد بن عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي** ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، بعنوان " **الروضتين في أخبار الدولتين** "، بمعلومات دقيقة عن تاريخ الدولة الأيوبية بداية من صلاح الدين الأيوبي، وتصديه لمؤامرة عمارة اليمني في مصر، وخروج تورانشاه بحملة عسكرية لفتح اليمن والاستيلاء عليها، موضحًا أسباب هذه الحملة، وأهم نتائجها والقضاء على دولة بني مهدي واستقرار الأمور لدولة بني أيوب.

ومن المصادر المهمة أيضًا كتاب للكبسي، **محمد بن إسماعيل الكبسي** ت ١٣٠٨هـ/١٨٩٩م بعنوان " **اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية** "، والذي أمدنا بمعلومات هامة توضح العناصر التي اشتركت في جيش دولة بني مهدي من أهل الجبال وأهل القرى وما كان لذلك من تأثير على جيش آل مهدي من حيث القوة والعدد.

ومن أبرز المصادر التي استعانت بها الباحثة في **الفصل الثالث الخاص بالحياة الاقتصادية**، كتاب **لأبي محمد بن مسعود بن علي بن أحمد بن المجاور البغدادي النيسابوري** ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وهو بعنوان " **صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز** "، المسمى تاريخ المستبصر، تحقيق أوسكر لوفغرين، وهو من أهم المصادر التي تتعرض للنواحي الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، وخاصة فترة بني مهدي وبني زريع وبني أيوب وتظهر أهميته لأنه قريب المعاصرة لفترة الدراسة، فيقدم لنا معلومات متعددة عن النواحي الاقتصادية، مثل الزراعة وأنواع الفاكهة، وطرق المواصلات في أنحاء اليمن، كما يصف لنا صناعة الجلود والملابس في زبيد، ويصف لنا حركة النشاط التجاري في عدن وصنعاء، وأهم الصادرات والواردات كما يشير إلى البلدان التي تتعامل مع اليمن تجاريًا.

ومن الكتب المهمة في هذا الفصل، كتاب للملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وهو بعنوان " **ملح الملاحة في معرفة الفلاحة** "، الذي أورد فيه الكثير من المعلومات الزراعية الهامة، مثل أماكن الزراعة في اليمن وزبيد وأنواع المحصولات الصيفية والشتوية، وأوقات الزراعة والحصاد وأنواع التربة وعملية الزراعة والري وتصنيف أنواع الغلات الزراعية وكيفية تخزينها، وكذلك الإشارة إلى المواسم المرتبطة بالزراعة عند أهل زبيد.

ومن الموسوعات المهمة كتاب **لأبي العباس أحمد القلقشندي** ٧٥٦-٨٢١هـ/١٣٥٥-١٤١٨م، بعنوان **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** "، ويعرض القلقشندي فيه معلومات أدبية وتاريخية وجغرافية خاصة ببلاد اليمن، ففي الجزء الخامس تحدث عن مدينة زبيد اقتصاديًا، موضحًا المحاصيل والأسواق والمعاملات المالية والأسعار والطرق التجارية المؤدية إلى اليمن، كما ذكر ملوك بني مهدي تباعًا في الحكم وسنى الولاية، كما أورد في كتابه بداية ونشأة مدينة زبيد مرورًا بمراحلها التاريخية لملوكها من بني زياد ثم بني نجاح ثم بني مهدي ثم بني أيوب ثم دولة بني رسول.

يُضاف إلى ذلك كُتب الجغرافية والرحلات، لما لها من أهمية في تحديد مواقع بعض المدن والطرق الخاصة بالدراسة، بجانب المعلومات التاريخية، ومن أهم كتب الجغرافيا كتاب **لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي** ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م، بعنوان " **نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق** " وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه قدم للدراسة معلومات مهمة عن اليمن وزبيد وبعض القرى وطرقها بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالزراعة وأنواعها وأهم المحاصيل، وطرق الري وموارد المياه، والتعدين، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها زبيد مع توضيح طرق المواصلات التجارية سواء كانت برية أو بحرية، وطرقة جباية الضرائب وتحصيل الأموال.

ومن كتب الرحلات التي أفادت الدراسة، كتاب **لمحمد بن عبدالله اللواتي الطنجي** (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٣٠٤-١٣٧٨م)، بعنوان " **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** "، المعروف بمهذب رحلة ابن بطوطة، وقد ورد به معلومات هامة ذات طابع جغرافي وصفي لليمن وزبيد، وكذلك معلومات عن النواحي الاقتصادية متمثلة في أنواع الزراعة والري وأهم المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها زبيد وأوقات حصادها، وأهم الصناعات الغذائية القائمة عليها، كما أوضح لنا طرق التجارة البحرية مع ذكر بعض الصادرات والواردات مع الدول الأخرى، ليس ذلك فقط وإنما أمدنا بمعلومات ذات طابع اجتماعي، فوصف عوائد الناس ومظاهر احتفالاتهم الخاصة بزبيد.

أما الفصل الرابع الخاص بالأحوال الاجتماعية في بلاد اليمن في عهد دولة بني مهدي، اعتمدتُ فيه على كثير من المصادر، ولعل أهمها كتاب لنجم الدين عمارة بن أبي **الحسن علي الحكمي اليمني** ٥١٥-٥٦٩هـ/١١٢١-١١٧٤م، وهو بعنوان " **المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد** "، المعروف بتاريخ اليمن، ورغم مما فيه من أخطاء تاريخية، لاسيما

فيما يتعلق بالدولة الزيادية، إلا أنه أفاد الدراسة كثيرًا حيث أنه كان معاصرًا لكثير من الأحداث وقريبًا من علي بن مهدي فترة من الزمن، وكذلك لأنه من أهم وأقدم المصادر التي تعرضت لأخبار اليمن، فنقلت عنه المصادر التي أتت بعده، وتم تحقيقه أكثر من مرة، حيث قام المستشرق الألماني (كاي) بتحقيقه سنة ١٣١٠هـ-١٨٩٢م، وألحق به تعليقات مهمة، وقام الدكتور حسن سليمان بترجمة هذا الكتاب وأضاف إليه بعض التعليقات التي زادت من أهمية هذا الكتاب وطبع في القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، كما طبع في اليمن سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، وأخيرًا قام الأستاذ محمد بن علي الأكوع بإعادة تحقيق كتاب عمارة مرة أخرى، وأضاف إليه القسم الخاص بالشعراء اليمنيين أو الوافدين على اليمن، وهذا الجزء لم يوجد في المخطوطة التي اعتمد عليها المستشرق كاي، وهذا الجزء أفاد البحث كثيرًا، لاسيما عند الحديث عن الشعراء. وكان من الضروري للدراسة، الإلمام الكامل بالمعلومات التي وردت لعمارة حيث أن كتابه كان بمثابة سجل كامل لسائر مناحي الحياة التاريخية في اليمن، سواء كانت سياسية أو إدارية أو قضائية أو عسكرية أو مالية أو اقتصادية أو فكرية، وتعرض للدول المستقلة بها، وأهمها الدولة الصليحية والنجاحية والزريعية وآل مهدي، كما أنه أورد إلينا معلومات هامة عن الطبقات الاجتماعية وخاصة الأدباء والشعراء في اليمن.

يضاف إلى ذلك كتاب **لنشوان بن سعيد الحميري** ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م، بعنوان " **ملوك حمير وأقيال اليمن** "، الذي أمدني بمعلومات هامة عن القبائل اليمنية، وخاصة التي كان لها دور في التحالف السياسي مع الدول المستقلة في اليمن وخاصة الدولة الزريعية في عدن والدولة الحاتمية في صنعاء ودولة بني مهدي في زبيد، كذلك أورد الكتاب معلومات عن قبيلة حمير وبطونها وما كان لها من دور في أحداث اليمن السياسية والاجتماعية.

ويعتبر كتاب **عبدالله الطيب بامخرمة** ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م، وعنوانه " **تاريخ ثغر عدن** "، من المصادر المهمة حيث أن مؤلفه أورد لنا معلومات غزيرة عن طبقات التجار التي سكنت اليمن، لاسيما مدينة عدن، موضحًا علاقات التبادل التجاري بينهم وبين تجار مدينة زبيد، من حيث السلع الواردة من خارج اليمن وتوضيح أهم معوقات التجارة بداية من البحار ثم في جباية الضرائب في الموانئ التجارية، فاستفادت الدراسة منه اجتماعيًا واقتصاديًا.

أما الفصل الأخير والخاص بالأحوال الثقافية والصراعات المذهبية التي وجدت في اليمن في فترة حكم بني مهدي، والتي كانت قائمة على كثير من الاختلافات السياسية التي

توضح أن اليمن في ذلك الوقت كان به المذهب السني والمذهب الشيعي والمذهب الزيدي، وكذلك مذهب التصوف، فاستعنتُ بكثير من المصادر المخطوطة وغير المخطوطة، سواء كانت سُنية أو إسماعيلية أو زيدية أو تصوفية كُتبت بأيدي مؤرخين يمنيين، هذا بالإضافة إلى كتب الفرق والمذاهب التي كتبت بأيدي مؤرخين وعلماء غير يمنيين.

المصادر السنية أهما : مخطوطة **لعبدالرحمن بن علي الديبع** ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م بعنوان " **فضائل اليمن وأهله** "، تحدث فيه عن فضل أهل العلم في اليمن وخص بالذكر زبيد واصفًا أنها اختلفت عن غيرها من مدن اليمن من حيث طلبة العلم وكثرة العلماء وحفظة القرآن، كما أنه أورد كثير من الشعر والشعراء ومنهم عمارة اليمني مستعرضًا مرثيته التي قالها في وفاة والد صلاح الدين الأيوبي، كما أن المخطوط أوضح لنا أشهر المساجد في زبيد ودورها الثقافي.

وهذا المخطوط في معهد المخطوطات العربية، ١٠ ورقات، ميكروفيلم رقم ٢٤٨٦ تاريخ، ونسخة أخرى ميكروفيلم رقم ١١٦٢ تاريخ في أربع ورقات.

أما كتاب **عمر بن سمرة الجعدي** ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م بعنوان " **طبقات فقهاء اليمن** "، أمدني بمعلومات غزيرة وثرية عن فقهاء اليمن ومحدثيها السنيين وجهودهم في نشر الفكر السُني في بلاد اليمن وزبيد، مستعرضًا فقهاء الشافعية في صنعاء وعدن وعلى امتداد منطقة تهامة، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عصر المؤلف، وما صنفوه من كُتب، وما عقدوه من حلقات ومناظرات علمية.

كما أفدتُ منه كثيرًا في الحديث عن المراكز العلمية للمذهب السُني، والرحلات العلمية داخل وخارج اليمن طلبًا للعلم.

وترجع أهمية هذا الكتاب أنه معاصر لموضوع الدراسة، فقد عاصر مؤلفه حكم الدولة الزريعية، ودولة بني مهدي، وبداية حكم الأيوبيين، فأورد لنا الكثير من فقهاء وعلماء القرن السادس الهجري، وعنه أخذتُ الكتب التي أتت بعده، وكذلك هو من أهم الكتب فائدة للدراسة في النواحي الثقافية والدينية والمذهبية لليمن .

كما كان لكتاب **بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي** ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م بعنوان " **السلوك في طبقات العلماء والملوك** "، أهمية كبيرة للدراسة، وهو تحقيق محمد بن الأكوع، وهو يترجم لفقهاء الشافعية وعلمائها منذ فجر الإسلام حتى عصره، ورغم أنه يعتمد في

معلومات كتابه على مصادر من سبقته من الكتب مثل طبقات ابن سمرة وتاريخ صنعاء للرازي، إلا أنه يضيف معلومات كثيرة عليها استقاها من مصادر أخرى وأضاف كثيرًا من المعلومات للأشخاص الذين ترجمت لهم هذه الكتب.

ويُعد هذا الكتاب مصدرًا مهمًا في الحياة العلمية، لأنه يحتوي على الكثير من المعلومات في النواحي الفكرية والدينية والمذهبية، ويمتاز الكتاب بإيراد أسماء أماكن هؤلاء الفقهاء والعلماء.

أيضًا كتاب بدر الدين **الحسين بن عبدالرحمن بن محمد الأهدل** ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م بعنوان " **تحفة الزمن في ذكر سادات اليمن** "، تحقيق عبدالله الحبشي، اعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على كتاب السلوك للجندي، بل ويُعد مختصرًا له ثم أضاف إليه ترجمة العلماء ومنذ وفاة الجندي إلى عصره وقد أفاد هذا الكتاب الدراسة في الجوانب الفكرية والعلمية والمذهبية لليمن.

وعند الحديث عن المذهب الإسماعيلي، اعتمدتُ على كثير من المصادر الإسماعيلية ومن أهمها : **مخطوط لعماد الدين إدريس بن علي بن عبدالله اليماني** ت ٧١٤هـ/١٣١٤م، بعنوان " **كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار** "، وهو أحد دعاة الإسماعيلية الفاطمية في اليمن، ويوضح هذا المخطوط مبادئ الدعوة الإسماعيلية مع دور الدعاة في نشر المذهب الإسماعيلي في اليمن، وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ١٩٠ ورقة، ميكروفيلم رقم ١١٨٤.

أيضًا مخطوط عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبدالله الأنف ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، بعنوان " **نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار** "، أفاد الدراسة كثيرًا عند الحديث عن الدعوة الإسماعيلية باليمن والجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية سواء كانت سياسية أو دينية من جل نشر المذهب الإسماعيلي متصلاً من أيام منصور اليمن ابن حوشب حتى أيام المؤلف، وعلى الأخص منذ سقوط الدولة الصليحية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م وحتى سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م، ويعطي المؤلف أهمية خاصة للدعوة الإسماعيلية والعلاقات بين الطائفتين الإسماعيليتين في اليمن، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رقم ٢٢٥٣.

ولنفس المؤلف عماد الدين إدريس بن الإنف، كتاب عنوان " **عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى المختار ووصية علي بن أبي طالب قاتل الكفار وآلهما الأئمة**

الأطهار عليهم صوات الله العزيز الغفار "، وهو يبحث المظهر الديني للدعوة الإسماعيلية منذ نشأتها وحتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري، ويقع في سبعة أجزاء، أطلق المؤلف على كل جزء منها " سُبْع " وهو لفظ ذو دلالة عند الإسماعيلية الذين يُعْرَفون " بالسَّبْعِيَّة " نسبة إلى إمامهم السابع محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وهو من الكتب التي تؤرخ للدعوة الصليحية في اليمن، وقد جعل وضع المؤلف كداعٍ مطلق للدعوة الطيبية في اليمن والمصادر والوثائق الإسماعيلية النادرة التي اطّلع عليها من كتابه المصدر الرئيسي لدراسة الدعوة اليمنية، فذكر دور الداعي علي بن محمد الصليحي للدعوة الفاطمية في اليمن وخلفائه من بعده، موضحًا الحروب والانتصارات والهزائم التي صاحبتها من خلال تراجم لأهم رجال الدولة والدعوة. كما تناول تفاصيل هامة لتتمة عهد المستنصر بالله وقيام الدولة الصليحية في اليمن، والانشقاق الذي أعقب وفاة المستنصر، وعهد المستعلي بالله والآمر بأحكام الله وبداية فترة الدعوة الطيِّبية في اليمن.

وعند الحديث عن المذهب الزيدي كان من الطبيعي أن يكون جلّ اعتمادي على كتب الزيدية مخطوطة أو مطبوعة، ومن أهمها مخطوط **لحميد أحمد المحلي** ت بعد سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، بعنوان " **الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية** "، وترجم هذا المخطوط لأئمة الزيدية في اليمن والجهود العلمية لهم، وما صنفوه من كُتب وما عقدوه من حلقات علمية، هذا بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالناحية السياسية والحروب التي خاضها هؤلاء الأئمة ضد أعدائهم.

وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم برقم ٩٥٦ تاريخ، وبدار الكتب المصرية رقم ٢٣٨٧٥ تاريخ : الجزء الأول ميكروفيلم رقم ٣٥٢٥٦، وصفحاته ٢٨٢ ورقة، والجزء الثاني : ميكروفيلم رقم ٣٥٩١٢، وصفحاته ٢٤٨ ورقة.

وأيضًا مخطوط **ليحيى بن الحسين** ت ١١٠٠هـ/١٦٨٨م، بعنوان " **المستطاب في تاريخ علماء الزيدية الطناب** " والمسمى " **طبقات الزهر في أعيان العصر** "، أو " **طبقات الزيدية الصغرى** "، وهو من المصادر التي أرَّخت للمذهب الزيدي في بلاد اليمن، وترجمت لعلمائه الذين قاموا بدور كبير في نشر الفكر الزيدي، والتصدي لخصومه، وقد رتب المؤلف تراجمه على طبقات، والمخطوط من أهم المصادر للبحث في النواحي الثقافية والمذهبية للمذهب الزيدي ــ المطرفية والمخترعة ــ فهو يوضح نشأة المذهب الزيدي وانشقاق المذهب المطرفي والمخترعة عنه والصراع فيما بينهما، وأهم مراكزهم العلمية وما بذله العلماء من

مجهود في نشر مذهبهم وما صنفوه من كُتب وما عقدوه من حلقات علمية، وقد رتب مؤلفه تراجمه على طبقات. وهذا المخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم رقم ٣٢٩ تاريخ.

ومن مصادر الدراسة عدة سير للأئمة الزيدية مثل كتاب **سليمان بن يحيى الثقفي** ت بعد ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وعنوانه " **سيرة الإمام أحمد بن سليمان** " وورد به معلومات عن علاقة الإمام أحمد بن سليمان بدولة بني مهدي والحروب التي قامت بينهما، بجانب بعض المعلومات عن الصفات الشخصية والسياسية للإمام أحمد بن سليمان والتي توضح مكانته للمذهب الزيدي في اليمن آنذاك من خلال مؤلفاته الفكرية التي أثْرت المذهب وحققت له الانتشار في بقاع كثيرة من اليمن.

التمهيد

التمهيد :

تعد مدينة زَبيدْ[1] من المدن التي حظيت بمكانة سياسية واقتصادية وعلمية طيلة حقبة طويلة من تاريخ اليمن، فكانت عنصرًا هامًا ومؤثرًا في كثير من الأحداث التاريخية في اليمن، خاصةً المرحلة السابقة على قيام دولة بني مهدي " موضوع الدراسة ".

ومدينة زَبيدْ إحدى قواعد بلاد اليمن[2]، يحدها من الجنوب واديها المسمى زبيد، ومن الشمال وادي رِمْع[3]، ومن الشرق الجبال الشامخة والحصون الباذخة، والمعاقل المنيعة، والمساكن الرفيعة، ومن الغرب البحر الأحمر، وهي أعظم مدن اليمن، وأكبر من صنعاء، وبينها وبين صنعاء أربعون فرسخًا[4].

ومساحة زبيد تبلغ عشرة آلاف وتسعمائة ذراع[5]، أي إنها ستمائة وخمسة وأربعون وثلث معاد[6].

---

(١) زبيد : بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناه من تحت، كان اسمها قديمًا بلاد الحُصيب نسبة إلى وطن الحُصيب بن عبد شمس،، ثم غلب عليها اسم الوادي الذي تنتمي له " وادي زبيد " وهي مدينة مشهورة باليمن. ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، م٢، ج٤، ص٤٦٨.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، تحقيق : محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ، ص٢٥٨.

(٣) رمع : بكسر الراء وسكون الميم، أحد الوديان الكبيرة التي تصب في البحر الأحمر. اليعقوبي : كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص٣١٨.

(٤) الفرسخ مقياس من مقاييس المسافات مقدارة ثلاثة أميال والميل البري = ١,٦٠٩كم. زين العابدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، ص٤٠٢.

(٥) الذراع : وحدة قياس طولي يبلغ ٠,٥٨م. (زين العابدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢٧٦).

(٦) المعاد : في عرف أهل اليمن، قطعة من الأرض مربعة، لكل جانب منها قصبتان والقصبة تساوي ٣,٥٥م. ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص١٣.

وهي من حيث خطوط الطول أربع وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربع عشرة درجة وعشر دقائق[١].

وأول من اختط المدينة محمد بن عبدالله بن زياد الأموي[٢]، بأمر من الخليفة عبدالله المأمون بن هارون الرشيد، في شهر شعبان سنة أربع ومائتين للهجرة (٨١٩م).

ومدينة زبيد مُسَوَّرة[٣]، وركب بالسور أربعة أبواب[٤] : أحدهما ينفذ إلى الشرق وهو المسمى باب الشّبَارِق[٥]، ثم حصن قوارير. والثاني إلى الشمال، وهو المسمى باب سَهَام، ينفذ إلى وادي رِمَع وسَهَام، وهو واجهة المدينة. والثالث إلى الغرب، وهو الذي يسمى باب غُلافقة[٦]، ينفذ إلى غلافقه وإلى الأهْوَاب[٧]. والرابع إلى الجنوب، وهو المسمى باب القُرْتُب[٨]، ينفذ إلى وادي زبيد ثم إلى قرية القُرْتُب.

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج٥، ص٩، ١٠.

(٢) ابن عبدالمجيد اليماني : بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق : عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السَّنْباني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٣٨؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج٤، ص٢١٣..

(٣) شمس الدين الأنصاري : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، أتوهارسوتز، ليبزيج، ١٩٢٤م، ص٢١٦؛ الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٠٦.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص٤٩؛ عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٤٨؛ محمد الأكوع الحوالي : اليمن الخضراء، مطبعة الساعدة، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٨٨.

(٥) الشبارق : نسبة إلى قرية الشبارق الواقعة شرق المدينة. ابن الديبع : المصدر السابق، ص٤٩.

(٦) غلافقة : بضم الغين، بلدة ساحلية بالشمال الغربي من زبيد، المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، منشورات دار الحكمة، صنعاء، ١٩٨٨م، ص٤٨٣.

(٧) الأهواب : ميناء صغير لمدينة زبيد، وهو بالقرب منها ويمتاز بجمال الطبيعة. المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص٥٢.

(٨) القرتب : بضم القاف والتاء، بلدة وضاحية من ظاهر جنوب مدينة زبيد، وينسب إليها الباب الجنوبي لمدينة زبيد. الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص١٢٠.

الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي :

كانت اليمن في القرن الخامس الهجري مفككة " سياسيًا ومجزأة " إلى وحدات سياسية متعددة تحكمها زعامات قبلية مختلفة أهمها قبائل حِميَر وقبائل همدان، فاليمن الأسفل كان مقسمًا بين قبائل حمير وكانوا غالبًا ما يخضعون لحكام تهامة باعتبارهم ممثلين للخلافة العباسية.

وكان اليمن الأعلى مقسمًا بين قبائل همدان والزيدية، فكانت قبائل همدان تطيع حكام تهامة، وأحيانًا تستقل بالسلطة عنهم، وتارة تطيع الزيدية، ومن ثَمَّ نرى حكم هذه الزعامات القبلية لليمن[1] آنذاك كالآتي :

١- **بنو مَعْن** : وهم من قبيلة ذي أصبح ثم من حمير حكموا مدن، عدن ولحج وأبْيَن وحَضرَمَوْت والشِّحْر[2].

٢- **بنو الكَرَنْدى** : وهم من حمير حكموا مخلاف المعافر ومخلاف الجَنَد بحصونهما مثل السِّمْدَان والسَّوَأ والدُمْلُوة، وصَبْر وذُخَر ثم توسعوا نحو مخلاف جعفر، فسيطروا على مخلاف عَنَّة (العدين) بمدنها مثل المُذَيْخِرَة وذي جِبْلَة **وحصونها مثل التَّعْكَر**[3].

---

(١) محمد عبده السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص٧.

(٢) أبْيَن : مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن (الحجري: بلدان اليمن، م١، ص٥٥). عمارة اليمني : تاريخ اليمن، تحقيق : حسن سليمان محمود، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٥٦؛ ابن الديبع : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٣٤.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٦، ٥٧؛ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، تحقيق : أوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، ص٧٢، ٧٣؛ الوصابي : تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق : عبدالله الحبشي، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص٢٩.
السِّمْدَان : حصن شامخ في بلد الرجاعية من بلاد المغافر يضرب به المثل في المناعة والحصانة. (المقحفي : معجم البلدان، ص٣٢٥). السَّوَا : من أعمال تعز وهي عزلة كبيرة، اتخذها ملوك بني الكرندي مركزًا لهم في ق٤هـ، (المقحفي : معجم البلدان، ص٣٣١). الدُمْلُوة : حصن عظيم باليمن يقع في جنوب الجند كان يسكنه آل زريع (ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ص٣١٢). صَبِر : اسم الجبل الشامخ العظيم المطل على تعز فيه عدة حصون وقرى (الحجري: بلدان اليمن وقبائلها، دار =

٣- **بنو أصبح** : وهم من حمير حكموا المناطق الواقعة شرق وشمال مدينة (إب) مثل حصن حَبّ (بعدان) وعَزّان وبيت عز والشِّعر وأنْور والنقيل والسَّحُول، ثم صارت تلك المناطق تحت حكم بني التبعي(١).

٤- **بنو وائل** : وهم من الكلاع ثم من حمير حكموا المناطق الواقعة غرب وشمال مدينة جِبْلة مثل مخلاف وُحَاظَة بحصونها مثل يَرْيَسْ ودَهْرَان ويَفوز وعِزّان

= الحكمة اليمانية، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، م٢، ص٤٦٢). نَحِز : جبل ببلاد المعافر ويعرف اليوم بجبل حبش (الحجري : بلدان اليمن، م١، ص٣٤٠؛ المقحفي: معجم البلدان اليمنية، ص٢٤٩). التَّعْكَر : هو أشهر جبال اليمن علوًا وحصانة، وكان من معاقل الصليحيين الهامة (المقحفي : معجم البلدان، ص٩١؛ الحجري : بلدان اليمن، م١، ص١٥٥). مخلاف الجند : مسماه بَجند بن شهران بطن من المعافر وبينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخًا وبها مسجد بناه معاذ بن جبل (رضي الله عنه) (ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ص٨٠؛ الأنصاري : تحفة الدهر، ص٢١٧). المعافر : يقع في جنوب وغرب تعز، ونسبة إلى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن الهميسع بن عمرو بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ (المقحفي: معجم البلدان، ص٦٠٧). مخلاف جَعْفَر : يطلق على بلاد إب والعدين وما حولهما، وهو منسوب إلى جعفر أحد مماليك محمد بن عبدالله ابن زياد مؤسس دولة بني زياد (المقحفي : معجم البلدان، ص١٢٣). مخلاف عنّة : واد مشهور من بلاد العدين غربي إبّ ويصب في وادي زبيد (المقحفي : معجم البلدان، ص٤٧٠).

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٧؛ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٢، ٧٣؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق : عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص٢٤١؛ الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٣م، ص٢٥، ٢٦.

حصن حبّ : حصن منيع من معاقل اليمن وأصعبها في بعدان (المقحفي : معجم البلدان، ص١٤٧). حصن عَزّان : من حصون ريمة باليمن مطل على مدينة إبّ من الزاوية الشرقية الشمالية (المقحفي: معجم البلدان، ص٤٤٢). بيت عز : من حصون اليمن في بعدان كان لعلي بن عُواض (ياقوت : معجم البلدان، م١، ص٤١٠). حصن الشِّعر : في ناحية النادرة متصل ببعدان شرقًا (الحجري : بلدان اليمن، م٢، ص٤٥٤). أنْور : حصن وبلدة في ناحية المخادر جنوبي مدينة إبّ (المقحفي : معجم البلدان، ص٤٩). النقيل : هو نقيل صيد، جبل عظيم، والنقيل بلغة أهل اليمن العقبة، وهو بين مخلاف جعفر وبين حقل ذمار (ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص٤٠١). السحول : قاع معروف ما بين مدينة أبة جنوبًا وحتى قفر يريم شمالاً (المقحفي : معجم البلدان، ص٣٠٧).

والخضراء[1] وشعب ومدينتهم شاحط ثم حل محلهم بنو التبعي في الشمال وبنو الكَرَنْدي في الجنوب.

٥- **بنو التبعي** : وهم من حمير حكموا المناطق الشمالية لمدينة ذي جبلة مثل حصن خدد (جبل حبيش) والشوافي أولاً، ثم توسع حكمهم نحو المناطق الشمالية والشرقية لمدينة إب، فسيطروا على حصن حب وعزان والشعر والسحول[2].

٦- **بنو عبدالواحد** : وهم من حمير أيضًا حكموا المناطق المجاورة لباجل مثل أعمال بُرَع والعَمَد ولَعْسَان[3].

٧- وبالنسبة إلى **قبائل همدان** حكم قوم منهم حصن أشْيَح (آنس) ومُقْرى ومخاليفها[4].

٨- **آل الضحاك الهمداني وأبى الفتوح الخَوْلاني والأئمة الزيدية** : حكموا صنعاء وما حولها، ودار صراع كبير بين هذه القوى الثلاث حول السيطرة على صنعاء،و كانت كل قوة من القوى الثلاث تسيطر على صنعاء لبعض الوقت، إلا أنَّ آل الضحاك كانوا أكثر تلك القوى سيطرة عليها[5].

---

(١) حصن بريس : أحد حصون مخلاف وحاظة (المقحفي : معجم البلدان، ص٧٠٩). ذَفرَان : من قرى اليمن (ياقوت : معجم البلدان، م٢، ص٣٢٨). يَفُوز : من حصون حمير (المقحفي : معجم البلدان، ص٧١٥). الخضراء : حصن باليمن في جبل وصاب من عمل زبيد (ياقوت : معجم البلدان، م٢، ص٢٣٨).

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٣٥ : ٣٣٧.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٨؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ط١، ج٢، ص٢٢٩؛ محمد السروري: تارخ اليمن، ص٩.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص٥٨.

أشيح : اسم حصن منيع عال جدًا في جبال اليمن (ياقوت : معجم البلدان، م١، ص١٦٤). مقرى : هو الاسم القديم لما يدعى اليوم (مغرب عنس) من بلاد ذمار ونسبها ـ كما يذكر الهمداني ـ مقرى بن سبيع بن الحارث بن زيد الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زبيد بن سدد بن حمير بن سبأ الأصغر (ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص٢٠٠، ٣٠١؛ المقحفي : معجم البلدان، ص٦٢٤).

(٥) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٦٤، ٦٥؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٢٤٢؛ محمد أمين صالح : تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٤٩؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج٢، ص٢٣٠.

٩- **الأئمة الزيدية** : حكموا صعدة[١] وما حولها.

١٠- **بنو شاور**[٢] : حكموا مغارب اليمن الأعلى أو مغارب صنعاء.

١١- **قوم من حراز**[٣] : حكموا حصن مسار.

١٢- **بنو نجاح** : حكموا تهامة وكانوا يوالون الخلافة العباسية[٤].

وهنا نرى أن بلاد اليمن اتسمت في تلك الفترة بالاضطراب والتفكك والانحدار بخطى واسعة نحو التدهور والانحلال[٥]، فكانت مجزئة إلى دويلات ومشيخات متنافرة لا يرتبط بعضها بالآخر بأي رابط تسكن معه الأمور، وتستقربه الأحوال غير شن الحروب فيما بينها، وزعزعة الأمن والطمأنينة في منطقتها.

وفي أثناء هذا التفكك السياسي والتعدد المذهبي لليمن ظهرت شخصية تعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي، تتمثل في علي بن محمد الصليحي، وذلك في الربع الثاني من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، ليعلن قيام دولة جديدة في اليمن تسمى الدولة الصليحية[٦]، ويعلن الولاء الإسمي للخلافة الفاطمية في مصر.

---

(١) صعدة : مدينة مشهورة شمالي صنعاء، وهي أم قرى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.
الحجري: بلدان اليمن، م٢، ص٤٦٥.
يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٤٤.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٨.

(٤) ابن الديبع : نفس المصدر، ص٣٣٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن، ص١٠.

(٥) محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج٢، ص٢٢٩؛ أحمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ص١٩٣.

(٦) تنسب الدولة الصليحية إلى قبيلة الأصلوح التي تُعد حيًا من الأحجور الحاشدية الهمدانية، من بني عبيد ابن أوام بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم الأوسط بن حاشد بن جشم الأكبر بن حيران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.
الهمداني : الإكليل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، تحقيق : محب الدين الخطيب، ج١٠، ص٩٩؛ حسين بن فيض الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار، دمشق، ١٩٥٥م، ص٦٤؛ العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٢٤؛ الواسعي : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة، مطبعة حجازي، ١٩٤٧م، ص١٧٢؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢١٣.

شهدت اليمن تحولات مذهبية وسياسية كبيرة[1] في تلك الحقبة فظهرت الدولة الصليحية بزعامة علي الصليحي بعد أن تحولت الدعوة الإسماعيلية في اليمن من دور الاستتار إلى دور الظهور وذلك في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م على يد علي بن محمد الصليحي[2]، وأخذت الدعوة تنتشر سريعًا في أنحاء اليمن لدى أنصارهما الإسماعيلية فأسهم بذلك في الانتقال بالدعوة إلى الدور السياسي.

وفي سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٨م بدأ علي الصليحي يبذل ما بوسعه لتكوين دولة في اليمن فقاد أتباعه الإسماعيلية وصارع القوى المذهبية والسياسية المتعددة في اليمن مثل المذهب الزيدي في شمال صنعاء والتي تمركز في صعدة وما حولها، وقوى النجاحيين ممثلي الخلافة العباسية، والتي جعلت تهامة مركزًا رئيسيًا لها، والقوى القبلية في كل من صنعاء وما حولها واليمن الأسفل في كل من مخلاف جعفر ومخلاف الجند وعدن، ولم يأت عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م إلا وقد كوَّن علي الصليحي دولة إسماعيلية شملت اليمن كله[3]، وذلك حدث لم يعهده اليمن في العصرين الجاهلي والإسلامي، لأن اليمن كان مقسمًا إلى عدة دويلات مذهبية وسياسية وقبلية.

وعلى الرغم من ميل علي الصليحي إلى مذهب الإسماعيلية وحكم اليمن كلها بهذا

---

(١) محمد عبده السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٤٨.

(٢) اتصف علي بن محمد الصليحي بالذكاء من صغره وتضلع بمذهب الإسماعيلية على يد آخر دعاتها سليمان بن عبدالله الزواحي، الذي استماله إليه وتنبأ فيه الاستعداد لحمل أعباء الدعوة الفاطمية بعد موته، وعندما قرب أجل الزواحي أوصى بجميع كتبه وأمواله التي جمعها من أهل مذهبه، لعلي الصليحي، فعكف علي الصليحي على هذه الكتب لدراستها حتى صار فقيهًا في مذهب الإسماعيلية ومستبصرًا بعلم التأويل، وكتب علي بن الصليحي إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يستأذنه في إظهار الدعوة، فأذن له بنشر الدعوة في اليمن وذلك سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م. ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٤٢، ٢٤٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٤؛ عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص٥٩؛ محمد بن عبدالملك المروني: الثناء الحسن على أهل اليمن، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٢٥٩.

(٣) عمارة اليمني : المصدر السابق، ص٦٣، ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٧٦؛ عبدالرحمن الرافعي، سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٠، ص٢٢٣.

المذهب، إلا أنه ترك لأهل اليمن جميعهم الحرية الدينية والمذهبية فيما يعتقدون من مذاهب، ولم يحاول إجبارهم على اعتناق مذهب الإسماعيلية.

ولي المكرم أحمد بعد مقتل أبيه علي بن محمد الصليحي[1] عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، على أن الدولة الصليحية في اليمن كانت قد اضطربت كل الاضطراب بعد مقتل علي الصليحي، ذلك أن بلاد اليمن لم تألف من قبل الخضوع لسلطة مركزية واحدة، بل جنح زعماء اليمن وشيوخ قبائلها إلى الاستقلال، يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من اليمنيين قبلوا الحكم الصليحي كرهًا، لأنهم سُنِّيون يبغضون المذهب الإسماعيلي، بل ويحرمونه، أو زيديون يعارضون الإسماعيلية، وخضعت هذه العناصر بقوة السيف للملك الصليحي، وترقبوا الفرصة المواتية للثورة على حكومتهم الإسماعيلية، واستعادتهم استقلالهم، وتعددت الثورات.

غير أن المكرم استخدم أسلوبًا مغايرًا لأبيه في التعامل مع قبائل اليمن[2]، محاولاً كسب رضاء القبائل اليمنية، وإعطائهم فرصة التخلي عن عداوتها للدولة الصليحية، فأدت هذه السياسة إلى عودة القبائل بنفسها إلى طاعة الدولة الصليحية، دون أن يبذل المكرم أي مجهود حربي معهم، فكان يميل إلى المسالمة فترك محاربة قبائل اليمن الأعلى في هجومهم على صنعاء من غربها وشمالها حتى كادت تسقط في أيديهم، فلم يتشدد في قتالهم على الرغم من وصول قوات الصليحي من بلاد الحجاز إلى صنعاء، إلا أنه بذل مجهودًا في محاربة النجاحيين[3] وبعض القبائل حتى ألزمهم لطاعته واستخدام الشدة والقسوة في قتالهم.

لم يلبث أن مرض المكرم، وعجز عن مباشرة شئون الحكم، وأمور الدولة ففوض زوجته أروى بحكم اليمن[4] والتي وُهِبَت عقلية ذكية مكنتها من حكم اليمن لفترة طويلة،

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن، ص٦٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٤٣؛ عبدالله الثور: هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، ط٣، ص٢٨٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٩، عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٥٦.

(٣) عمارة اليمني : المصدر السابق، ص٧٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٩٢.

(٤) عمارة اليمني : نفس المصدر، ص٧٥؛ الخزرجي : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات، القاهرة، ١/٧٣٦ تاريخ، ورقة ٦١؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٧٩؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٦٤.

تذكر معظم المصادر اليمنية أنها كانت تسمى " سيدة بنت أحمد الصليحية " ما عدا الوصابي صاحب تاريخ وصاب ويذكر أن اسمها " أروى بنت أحمد الصليحية ". عماد الدين إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، تحقيق : أيمن فؤاد سيد، ص١٥٠، ١٥١.

وتولت السيدة أروى حكم اليمن إلى جانب ابنها علي بن المكرم ووقفت الخلافة الفاطمية وجمع كبير من اليمنيين إلى جانبها في ذلك، ولُقِبَ ابنها بعبد المستنصر[1]، إلاّ أنّ عبدالمستنصر توفى على الأرجح سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، فأصبحت بذلك السيدة الحرة هي الحاكم الفعلي لليمن وقبضت على الأمور في البلاد بيد من حديد سنة ٤٨٤-٥٣٢هـ.

وتزوج أبو حمير سبأ الملكة أروى بأمر من الخليفة المستنصر الفاطمي، وبذل كل جهد في تقوية أمر الدعوة الإسماعيلية، والقضاء على الحركات المناهضة للدولة الصليحية حتى وفاته سنة ٤٩٢هـ[2]. ضعفت الدولة الصليحية بعد وفاة أبي حمير سبأ، وانفصلت الولايات عن الدولة؛ واستولى السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني على صنعاء وأعمالها، فضبط أمورها وأطاعته قبائل همدان[3]، كما استقل بنو زريع بعدن.

استعانت الملكة الحرة[4] سيدة اليمن ببعض القادة لمساندتها في الأمور العسكرية ومنهم المفضل[5] بن أبي البركات لقمع حركات التمرد والعصيان ومنها التي تمثلت في محاولة علي بن سبأ الصليحي للاستيلاء على الحصون التي كانت تابعة لأبيه بالقوة فوقفت السيدة الحرة ضده ووجهت المفضل لمحاربته وانتزاع الحصون منه وانتهت محاولات علي بن سبأ بقتله بالسم سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م[6]. كما عهدت إليه بولاية حصن التعكر، ولهذا الحصن أهمية كبيرة، ففيه خزائن الصليحيين وذخائرهم[7] ـــ التي صارت إليهم من ملوك اليمن ـــ وجعلت الحرة إقامتها في الصيف بحصن التعكر المطل على جبلة، وفي الشتاء في ذي جبلة[8]، وكانت الملكة لا تبحث أمرًا إلا بعد مشورة المفضل بن أبي بركات، فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته، وغزا تهامة مرارًا فتارة له وتارة عليه.

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، تحقيق : فؤاد سيد، دار القلم، بيروت، د.ت، ص١٢٢.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص٨٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٥٠.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٧.

(٤) كان أهل اليمن يخاطبون الملكة أروى بسيدتنا الحرة حبًا وإجلالاً. محمد الحداد : المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص٨٦.

(٦) عمارة : نفس المصدر، ص٨٥، ٨٦.

(٧) ابن الديبع : المصدر السابق، ٢٦٩؛ عمارة : نفس المصدر، ص٨٧.

(٨) عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٨٥.

وفي هذه الأثناء أعلن الفقهاء السُنّيون(1) ثورتهم على الملكة أروى واستولوا على حصن التعكر، وعولوا على تحقيق أملهم الذي راودهم منذ زمن طويل، وهو التخلص من هذه الدولة المخالفة لمذهبهم، فبايعوا رجلاً منهم يُعْرَف بإبراهيم بن زيدان، وانحازت إليهم قبيلة خَولان، فحاصر المفضل بن أبي بركات حصن التعكر، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليه، ولم يلبث أن توفى سنة ٥٠٤هـ، فطلبت الملكة من الفقهاء مغادرة الحصن، على أن تحقق لهم رغباتهم، فأجابوا بشروط وافقت عليها الملكة، وعهدت إلى مولاها فتح بن مفتاح بولاية التعكر.

ازدادت الدولة الصليحية ضعفًا وتدهورًا بعد وفاة القادة والدعاة الأقوياء وانكمشت رقعة الدولة باستقلال البلدان عنها، فأرسل الخليفة الفاطمي(2) الآمر بأحكام الله ووزيره الفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م إلى اليمن الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة، ليعيد الأمور إلى نصابها في الدولة الصليحية، ويقضي على الحركات المناهضة لها، والبطش بالذين أثاروا الشغب في البلاد فأمَّن منطقة ذي جبلة، وتوقف الخولانيون عن شن الغارات والحملات المناهضة لبلاد الملكة، وساد الأمن وتوقف زعماء اليمن عن انتزاع أراضي الدولة الصليحية.

وبعد أن عززت الخلافة الفاطمية ابن نجيب الدولة بالجند والتفويض على اليمن ازدادت قوته وساءت علاقته مع الملكة الحرة سنة ٥١٩هـ، فاستعانت الملكة بجماعة من سلاطين اليمن مثل المفضل بن زريع وابن أبي الغارات والمنصور بن المفضل ضد ابن نجيب الدولة، فذهب ابن نجيب الدولة ضحية مؤامرة(3) سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م دبرها له أعداؤه اليمنيون بعد أن بذل جهودًا مضنية في تقوية الدعوة الفاطمية.

وعملت السيدة الحرة على الحد من سيطرة القبائل على مناطقها بالاستعانة بالقبائل الأخرى، مثل استعانتها بقبيلة جَنْب بقيادة عمرو بن عرفطة الجنبي ضد قبيلة الزر الخولاني التي بدأت تسيطر على ذي جبلة وتظلم الرعايا بها.

---

(1) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٦٠.

(2) عمارة : تاريخ اليمن، ص٩٢، ٩٣؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٥؛ الخزرجي : العسجد، ق٦٨، ٦٩؛ الهمداني : الصليحيون، ص١٦٨؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٦١.

(3) أيمن فؤاد : المرجع السابق، ص١٧٤. وهناك رأي ثالث أن مصيره غير معروف والأرجح أنه سُجن وقُتل. الهمداني : المرجع السابق،ص١٧٣.

وظلت السيدة الحرة وفيةً للخلافة الفاطمية بمصر وخاصة تجاه الخليفة الآمر بأحكام الله[1](٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م)، فلما تولى الحافظ الخلافة الفاطمية دون إتباع نظام الفكر الإسماعيلي بتوريث الأبناء السلطة، وأزاح الطيب[2] بن الآمر عن الخلافة، انفصلت السيدة الحرة عن مصر وعملت على نشر الدعوة الطيبية في اليمن والهند، يساندها في إدارة القضاء والدعوة الإسماعيلية جماعة من القضاة مثل القاضي لمك بن مالك الحمادي وابنه يحيى بن لمك، يسانده السلطان الخطاب بن الحسن بن الحفاظ ثم الذؤيب بن موسى الوداعي.

وبوفاة الملكة أروى في غرة شعبان من سنة ٥٣٢هـ أبريل ١١٣٨م[3]، انتهت الدولة الصليحية في اليمن.

تعقيب على الدولة الصليحية في اليمن :

الدولة الصليحية من أجل الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم اليمن، وعلى الرغم من أن مذهب ملوكها هو الإسماعيلية، الذي يعارضه الكثير من اليمانية، إلا أن ملوكها عُرف عنهم التسامح المذهبي فلم يتعرضوا بسوء للمخالفين لهم في المذهب[4].

امتد نفوذ هذه الدولة السياسي على معظم بلاد اليمن[5]، بل امتد إلى بلاد الحجاز في بعض فترات تاريخها، وكان الملوك الصليحيون من أكبر دعاة الإسماعيلية، فكانوا يرسلون الدعاة من قبلهم إلى سائر الجزيرة العربية وبلاد الهند وبعض البلاد الإسلامية الأخرى.

وتأتي أهمية هذه الدولة إلى أن أصحابها يمنيون، حرصوا على إصلاح أحوال بلادهم السياسية وإنعاشها اقتصاديًا. كما حرصوا على أن يهيئوا للمواطن اليمني الأمن والاستقرار والرخاء، وهذا ما جعل هذه الدولة تستمر في حكم اليمن لما يقرب من قرن كامل مع

---

(١) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٢٢.

(٢) هو ابن الخليفة الآمر وسماه الطيب لطيب عنصره وكناه أبا القاسم. إدريس : عيون الأخبار، ١٩٢/٧؛ الهمداني : الصليحيون، ملحق رقم ٩، ص٣٢١، ٣٢٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٧؛ الهمداني : المرجع السابق، ص٢٠٧؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٨٦.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢١؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٧.

(٥) عمارة : المرجع السابق، ص١٩٢؛ الجندي : السلوك في طبقة العلماء والملوك، تحقيق : محمد الأكوع، ١٩٨٣م، نشر ج ـ ع ـ ي، وزارة الإعلام، ج٢، ص٤٨٦، ٤٨٧.

الاستمرار في موالاتها للفاطميين بمصر[1].

وبسقوط الدولة الصليحية انقسم اليمن إلى دويلات على النحو الآتي :

آل زريع : الهمدانيون في عدن وأعمالها.

آل حاتم : الهمدانيون في صنعاء وأعمالها، وقد اقتطعوا إمارتهم من جسم الدولة الصليحية واستقلوا عنها، بعد موت الملك سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي وكانوا نوابه عليها في حياته.

آل نجاح : في تهامة، وقد استعادوا إمارتهم فيها منذ الأمير جياش بن نجاح في عهد المكرم أحمد علي الصليحي، واحتفظوا بها إلى ما بعد سقوط الدولة الصليحية.

أشراف المخلاف السليماني : شمال تهامة من بلاد عسير.

وأيضًا **الأئمة الزيدية** في القسم الأعلى من اليمن في بلاد صعده وما جاورها.

آل زريع في عدن :

كان بنو معن[2] يحكمون عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت[3]. فلما استولى عليها علي الصليحي، أبقاهم حكامًا عليها، نظرًا لمعرفتهم إدارة ميناء عدن التجاري، مقابل إعطائه مائة ألف دينار سنويًا.

واستمر ابن معن على ذلك ثم من بعده ولده معن بن علي إلى بعد وفاة الصليحي بتسع سنوات، أي إلى عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، عندما خرج معن عن طاعة المكرم وأعلن نفسه سلطانًا على عدن[4].

وفي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م غزا المكرم بن معن وطردهم من عدن وولي عليها العباس والمسعود بن المُكرّم اليامي الهمداني المعروفين ببني زريع[5]، وجعل للعباس حصن التعكر

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٥.

(٢) كان بنو معن يحكمون عدن منذ أوائل القرن العباسي الأول، وينسبون إلى معن بن زائدة الشيباني (والي اليمن في عهد الخليفة المنصور) وحكم بنو معن عدن منذ أيام الخليفة المأمون. العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٤.

(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٨٣؛ محمد السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٧٩.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٢١؛ ابن عبدالمجيد : المرجع السابق، ص٨٢؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص٩٩.

(٥) بنو زريع من همدان من جشم بن يام بن أصغى، كان لهم بلاء حسن في قيام الدعوة المستنصرية مع =

مقرًا له وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البر. والآخر المسعود الذي جعل إليه المكرم حصن الخضراء مقرًا له وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البحر، كما جعله متوليًا على أمر المدينة[1]، وألزم المكرم كل من العباس والمسعود على التعهد بدفع مالية عدن إلى السيدة الحرة وقدرها مائة ألف دينار سنويًا، فيدفع المسعود خمسين ألف دينار والعباس يدفع خمسين ألف دينار[2].

فلم يزالا على ذلك حتى سارا مع المفضل بن أبي البركات إلى زبيد لقتال الحبشة (بنو نجاح) فقتلا جميعًا على باب زبيد، فانتقل الأمر بعدن إلى ابن أبي السُّعود بن زريع وأبي الغارات بن مسعود حتى ماتا فولّي الأمر الداعي سبأ بن أبي السعود ومحمد بن أبي الغارات، وخلال حكم هذين السلطانين توسعا في الاستيلاء على مناطق جديدة، فمن جهة سبأ بن أبي السعود فتوسع في السيطرة على المناطق التي كانت تحت حكم بني الكرندي في اليمن الأسفل، فاستولى على مناطق كثيرة من أعمال الجند والمعافر مثل الرَّمَا[3] وسامع[4] ومَطَران[5] ويُمَيْن[6] وذُبْحَان[7] بالإضافة إلى الدملوة[8].

- الداعي علي بن محمد الصليحي، ثم مع ولده الداعي المكرم بن علي عند نزوله إلى زبيد وأخذ أمه الحرة بنت شهاب من أسر الأحول سعيد بن نجاح. عمارة : تاريخ اليمن، ص٩٩؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢١٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٢.

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٢١-١٢٤؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص١١٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص٦٤؛ الحمزي : كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ١١٨٤ خ، ق٨٤؛ عمارة : المصدر السابق، ص٩٩.

(٢) عمارة : نفس المصدر، ص١٠٠؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٨٨؛ محمد السروري : تاريخ اليمن، ص١٣٧؛ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص١٨١؛ أحمد حسين : اليمن عبر التاريخ، ص٢٠٥.

(٣) الرَّمَا : من جبال المعافر في ناحية القَبَيْطة جنوب الدَمْلُوَّة. المقحفي : معجم البلدان، ص٢٧٣.

(٤) سامع : مخلاف من بلاد المعافر. الحجري : بلدان اليمن، م٢، ص٤١٣.

(٥) مطران : من حصون قَدَس بالمعافر. المقحفي : معجم البلدان، ص٦٠٤.

(٦) يُمَيْن : حصن في جبل صَبِر من تعز استحدثه علي بن زريع. ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص٥١١.

(٧) ذُبْحَان : عزلة من ناحية وقضاء المعافر. المقحفي : معجم البلدان، ص٢٤٩.

(٨) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٢ ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٠٦؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١١٩.

أما محمد بن المسعود فقد توسع نحو السيطرة على المناطق التي كان يحكمها بنو معن في أبين وأحور[1]، وبالنسبة لمنطقة لحج فقد تقاسم مناطقها كل من سبأ بن أبي السعود الذي أخذ منطقة بني أبة بلحج، وعلي بن أبي الغارات الذي أخذ منها منطقة الرعارع[2].

حاول بنو المُكرّم في عدن عدة مرات عدم دفع المخصصات المالية المحـددة للـسيدة الحرة، بهدف الاستقلال عن الصليحيين، ولكنهم لم يتمكنوا في بادئ الأمر، وعندما اسـتولى بنو الزر الخولاني على حصن التعكر في ذي جبلة في شهر ربيع الأول من سنة ٥٠٩هـ يوليو ١١١٥م استغل بنو زريع في عدن هذه الفرصة، فعمل سبأ بي أبي السعود ومحمد بـن أبي الغارات على الاستقلال عن الحكم الصليحي، وامتنعا عن دفع الخراج بعد تخفيضه إلـى خمسة وعشرين ألف إلى الملكة الحرة، ولم تتمكن السيدة الحرة من إرسال جيش إليهما بسبب ضعف قواتها واستيلاء بني الزر على حصن التعكر بذي جبلة وبذلك اسـتقل بنـو الكـرم (زريع) عن الصليحيين وأعلن حكام عدن بموالاتهم للفاطميين بمصر بعـد أن قـدم إلـيهم (الرشيد أبو الحسن أحمد بن على الغساني) الأسواني موفدًا من الإمام الحافظ لدعوتهم إلـى مبايعته والانتماء إليه[3].

وبالفعل عمل سبأ على القيام بالدعوة الحافظية في عدن، ولذلك أطلق على سبأ الزريعي اسم الداعي ولقب من الخلافة الفاطمية بعدة ألقاب، هي : " الداعي الأوحـد، المظفـر مجـد الملك، وشرف الخلافة، عضد الدولة، سيف الإمام، تاج العرب ومقدمها، داعي أمير المؤمنين سبأ بن أبي السعود بن زريع "[4].

ثم جاءت المرحلة الثانية لدولة بني زريع وهي المرحلة التي تظهر آل زريع كأسـرة واحدة تحكم عدن وأُطلق عليهم حكام عدن؛ وتواكبت هذه المرحلة مع بداية حكم دولـة بنـي مهدي ٥٣٣-٥٦٩هـ/١١٣٨-١١٧٤م.

---

(١) أحور : وادٍ فيه قرى شرق أبين (الحجري : بلدان اليمن، م١، ص٦١).

(٢) الرعارع : من بلدان لحج المشهورة وكانت العاصمة لمخلاف لحج حتى أواخر ق٨هـ. المقحفي: معجم البلدان، ص٢٧٠؛ عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص١٠٣؛ ابن الديبع : قـرة العيـون، ص٣٠٧؛ ابـن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٣.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٨٤.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص١٠٧.

آل حاتم الهمدانيون في صنعاء (٤٩٢-٥٦٩هـ/١٠٩٩-١١٧٤م) :

حكمت صنعاء وأعمالها مستقلة عن الصليحيين ــ بعد وفاة الملك سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي ٤٩١هـ/١٠٩٨م وموت السلطان سليمان بن عامر الزواحي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م الذي كان يحكم مغارب صنعاء ــ ثلاث أسر همدانية[١] فيما بين ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حتى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، أولهم آل الغشيم، والثانية آل القبيب، والثالثة آل حاتم اليامي، وكان أسلاف هذه الأسر من الهمدانيين هم نواب الصليحيين في المنطقة وأعمالها.

آل الغشيم المغلسي الهمداني (٤٩٢-٥١٠هـ/١٠٩٩-١١١٦م) :

هي الأسرة الأولى من الأسر الهمدانية الثلاث التي حكمت صنعاء وأعمالها مستقلة عن الصليحيين، بل وانفصلت عن الفاطميين، وامتنعت عن الولاء لهم والانتماء إليهم، مخالفة في ذلك الصليحيين أسلافهم في حكم المنطقة، وأول من حكم هذه الأسرة هو السلطان حاتم بن الغشيم المغلسي الهمداني[٢] سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، الذي وُصِفَ بأنه من أهل الكفاءة وكان مقصودًا ممدوحًا وممن قصده إلى صنعاء من مصر القاضي الرشيد الغساني وأنشده قصيدة من نظمه[٣].

وكان حاتم بن الغشيم يعمل نائبًا لعلي الصليحي بعدن بجانب بني معن، وكان استقلاله بحكم صنعاء سببًا في الخلاف الذي حدث بين الصليحيين والزواحيين بداية عهد السيدة الحرة وتوقف همدان عن مناصرتهم، فسعت كل زعامة من همدان تبحث عن إيجاد سلطة مستقلة بها في مناطق نفوذها.

---

(١) هذه الأسر الهمدانية ينتمون جميعًا إلى قبيلة يام الهمدانية التي كانت تسكن نجران واعتنقت المذهب الإسماعيلي وناصرت الصليحيين. عمارة : المفيد، ص١٧٣.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٧؛ الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٧١؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٨٤؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن العام، ص٣١٨؛ تاريخ اليمن السياسي، ص٧١؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص٢٣٤؛ محمد السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص١٦٩.

(٣)
إذا أجدبت أرض الصعيد وأمحلت ... فلست أخاف القحط في أرض قحطان
وقد كفلت لي مأرب بمآربي ... فلست على أسوان منها بأسوان

وكان لحاتم بن الغشيم ثلاثة أبناء[١] هم محمد وعبدالله ومعن، فأما محمد بن حاتم بن الغشيم فكان سيفًا مصلتًا في حامية أبيه حيث عمل على جمع همدان وغزا بهم نجران عن طريق مأرب فاستباحها ثم عاد إلى صنعاء[٢].

استمر حاتم بن الغشيم يحكم صنعاء وكان على علاقة طيبة بهمدان دون أن تخالفه في حكمه حتى وفاته سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وبعد وفاته تولى ابنه عبدالله بن حاتم، وكان يعرف بالشاب العادل كأبيه فاستطاع أن يوحد كلمة همدان ويحول دون تفرقهم أو اختلافهم، ولكنه مات مسمومًا بعد ولايته بعامين[٣]، وخلفه أخوه معن بن حاتم، فلم تستقر الأحوال في عهده، فأثناء حكمه لصنعاء تجبر على همدان وقسا عليهم[٤]، وحدث منه ما أنكرته رجال همدان، فاجتمعت بقيادة القاضي أحمد بن عمران بن الفضل اليامي وذلك في عام ٥١٠هـ/١١١٦م وقررت عزله عن حكم صنعاء بعد أن حاصروه في مقره فسلم نفسه للقاضي أحمد بن عمران وتنازل عن السلطة مقابل منحه الأمان، وأسكنوه في حصن بِرّاشُ[٥]، وبذلك انتهت أسرة آل الغشيم عن حكم صنعاء.

آل القبيب الهمداني (٥١٠-٥٢٧هـ/١١١٦-١١٣٣م) :

تولى هشام[٦] بن القبيب اليامي الهمداني ـ بعد عزل معن بن الغشيم ـ يساعده أخوه الحماس بن القبيب، وتم اختيار هشام من قِبل همدان مجتمعة، والتي دخلت به صنعاء في موكب فخم، وأحسن السلطان هشام بن القبيب الاضطلاع بالمسئولية، واستمرت همدان تطيعة، إلى أن توفى عام ٥١٨هـ/١١٢٤م.

تولى السلطة بعده أخوه حماس، وكان أعظمهم رئاسة وأقواهم شوكة، فغزا[٧] قبيلة

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٧١؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٣١٨.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٧، ٨٨؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق٧٢، يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٢٨٠؛ محمد الحداد : المرجع السابق، ص٣١٨، ٣١٩.

(٣) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة.

(٤) يبدو سبب تجبر معن على همدان اتهامهم بقتل أخيه بالسم. محمد السروري : الحياة السياسية، ص١٧٠.

(٥) براش : حصن مطل على مدينة صنعاء على جبل نُقُم. ياقوت : معجم البلدان، م١، ص٢٨٩.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق٧٣.

(٧) الخزرجي : المصدر السابق، ق٧٣.

جنب الكبرى في بلاد ذمار وعنس وخاض معهم معركة كبيرة وقتل منهم عددًا كبيرًا عند هران، ثم عاد إلى صنعاء.

ولما حضرته الوفاة في رمضان عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م، جمع إخوته وهم أبو الغارات وعامر ومحمد وأبو الفتوح وحضهم على الألفة وعدم الفرقة وأن يُوَلّوا بعد موته أكبرهم أبوالغارات، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم، فاعتزلت همدان عن مناصرتهم وعزلتهم عن تولية صنعاء سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨[١]. وبذلك انتهت الأسرة الثانية عن حكم صنعاء.

آل عمران بن المفضل اليامي الهمداني(٢) (٥٣٣-٥٦٩هـ/١١٣٨-١١٧٤م) :

بعد انتهاء أسرة آل القبيب في صنعاء، أجمعت همدان على اختيار السلطان حاتم ابن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني وذلك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م[٣]، نظرًا لما كان يتصف به من الحكمة والصلاح لتولي أمرهم، واضطلع بمسئولياته على أكمل وجه، فاجتمع معه سبعمائة فارس من همدان وساروا معه إلى صنعاء فسيطروا عليها، وبدأ حكم حاتم اليامي على صنعاء.

وتعد أسرة حاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني من أهم الأسر التي حكمت صنعاء، كما أنها من أهم الأسر التي ساندت الصليحيين في إقامة دولتهم، فكان عمران اليامي أحد أنصارهم وخاصةً في عهد المكرم والسيدة الحرة، حيث تركه المكرم واليًا على صنعاء حينما ذهب إلى ذي جبلة، وظل واليًا عليها فترة طويلة، وخلال ولايته لصنعاء استعان به سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي لقتال آل نجاح في زبيد، فنزل إليها لمناصرة

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٧٣؛ يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص٣٩٤؛ محمد الحداد: التاريخ العام لليمن، ص٣٢٠؛ تاريخ اليمن السياسي، ص٧٢؛ محمد السروري: الحياة السياسية في اليمن، ص١٧٠.

(٢) عمران بن المفضل اليامي، يلتقي نسبه مع الصليحيين عن جشم الأوسط فهو عمران بن المفضل بن علي ابن أبي زيد بن العمر بن صعب بن الفضل بن عبدالله بن سعيد بن الغوث بن ألغز بن منكر بن يام بن أبي دافع بن مالك بن جشم الأوسط بن جشم الأكبر بن حبران بن نوف بن همدان. حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي، ص٢٣٢.

(٣) الخزرجي : نفس المصدر، ق٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٨٨؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٨٨؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٢٩٧؛ محمد الحداد : نفس المرجع، ص٧٢؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٩٢؛ محمد السروري : المرجع السابق، ص١٧١؛ أحمد حسين : اليمن عبر التاريخ، ص٢١٠.

سبأ وخاض معه معركة الكظائم[1] سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م حيث قتل في هذه المعركة.

صادف تولي حاتم اليامي حكم صنعاء ظهور الإمام أحمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بإمامة الزيدية في سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م، وأجابه في دعوته كل من الجوف[2] وصَعْدة ونَجْران[3] وبلاد الظاهر[4] وعيّان[5] ووَادِعَة[6] وغيرها من المناطق المجاورة لصعدة. وظل مستمرًا في هذه المناطق ينشر الفكر الزيدي ويقضي على المخالفين له، لذلك اصطدمت قوات حاتم بقوات الإمام حول توسيع نفوذ كل منهما في السيطرة على اليمن الأعلى. وكانت حدود حاتم اليامي تمتد من نقيل الغابرة في الحَدَا[7] إلى بركة الجوب في البَوْن[8] من عَمرْان[9]، وكان يريد توسيع سلطته نحو مناطق أخرى، بينما كان الإمام أحمد بن سليمان يسعى نحو صنعاء، لذلك نشأ صراع كبير بينهما وزاد من تعميق الصراع اختلافهما المذهبي حيث كان الإمام زيديًا وحاتم اليامي إسماعيليًا.

ومن هنا بدأ الصراع العسكري بين حاتم اليامي والإمام أحمد بن سليمان ... وهذا الصراع السياسي والمذهبي والعسكري يواكب ظهور دولة بني مهدي واشتراكهم في هذا الصراع على السلطة والنفوذ في اليمن.

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص٨٢؛ إدريس : عيون الأخبار، ١٩٤/٧.

(٢) الجوف : ناحية معروفة في الشرق الشمالي من صنعاء. الحجري : بلدان اليمن، م١، ص١٩٥.

(٣) نجران : موضع في مخاليف اليمن من ناحية مكة. ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص٣٧٣.

(٤) بلاد الظاهر : قرية في عزلة بني سعد وأعمال خولان بن عامر في صعدة. المقحفي : معجم البلدان، ص٤٠٩.

(٥) عيان : بلدة أسفل مدينة حجة من جهة الغرب. الحجري : بلدان اليمن، م٢، ص٦١٨.

(٦) وادعة : من قبائل حاشد الهمدانية، وهي وادعة الشام شرقي صعدة من ناحية الصفراء. المقحفي: معجم البلدان، ص٦٨٧؛ ابن وهاس : الكفاية والأعلام، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ١١٨٢، ق٥٠.

(٧) الحَدَا : ناحية وقبيلة في الجنوب الشرقي في ذمار. المقحفي : معجم البلدان، ص١٥٨.

(٨) البَوْنْ : حقل واسع في بلاد همدان شمالي صنعاء. ياقوت : معجم البلدان، م١، ص٤٠٢.

(٩) عَمْران : مدينة مشهورة من بلاد همدان شمال صنعاء. الحجري : بلدان اليمن، م٢، ص٦١١؛ الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٧٤؛ الحمزي : كنز الأخبار، ق٨٦، ٨٧؛ سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط١، ٢٠٠٢م، تحقيق : عبدالغني محمود، ص١٤٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٢٨.

إمارة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤هـ/١١٢١-١١٥٩م) :

قامت إمارة آل نجاح[١] على انقاض إمارة آل زياد في تهامة بمؤسسها نجاح مولى مولى[٢] (أبى الجيش اسحق بن إبراهيم بن زياد) آخر أمرائهم.

فعندما توفي وزير آل زياد الحسين بن سلامة في صفر سنة ٤٢٦هـ/ ديسمبر ١٠٣٤م، وكان المتولي لأمر الدولة الزيادية الأمير علي بن المظفر بن علي بن إبراهيم بن زياد، فقام هذا الأمير بإسناد أعمال الوزارة إلى القائد نفيس[٣]، إلا أن هذا القائد لم يطعه بعض القادة فحدث صراع بينه وبين أحد القادة المسمى ابن قاسم أسفر عن قيام نفيس بقتل القائد ابن قاسم، فاضطربت الأمور في تهامة واستولى نفيس على زبيد واستقل بالسلطة فيها، وقام بمصادرة الأموال والخزانة التابعة لبني زياد، وأطلق كل من كان مسجونًا في زبيد من سلاطين الجبال وعددهم أربعة وتسعين سلطانًا، وطالب من سلاطين الجبال طاعته فأطاعوه، ثم اتجه بعد ذلك إلى استعادة سلطان مواليه أمراء لحج وعدن وأبين وهو بنو معن، وبعدها عاد إلى زبيد مع السلطان أحمد بن عبدالله الكرندي فاستولى عليها وظل حاكمًا بها.

غضب الأمير الزيادي على بن المظفر من تصرف القائد نفيس بعد قتله لابن قاسم، واستعان بالقائد نجاح الذي كان متوليًا لأعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين[٤] والتي كانت

---

(١) كان نجاح عبدًا حبشيًا ينتمي إلى قوم من الحبشة يقال لهم الجزل، وهو مؤسس الدولة النجاحية وأطلق على دولته ودولة أبنائه اسم ملوك الحبشة باليمن، وقال عمارة عنهم : " وهم وإن كانوا عبيدًا حبشة فلم تكن العرب تفوقهم في الحسب، إلا بالنسب وإلا فلهم الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع المأثورة ". عمارة : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، مطبعة السعادة، ١٩٧٦م، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ص٢٠٩؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥٠٦؛ الخزرجي: العسجد المسبوك، ق١١٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٦.

(٢) بعد موت الحسين بن سلامة سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م انتقلت إمارة بني زياد إلى طفل زيادي اسمه إبراهيم أو عبدالله، فتولت الوصاية عمته، أما الوزارة فانتقلت إلى أحد عبيد الحسين بن سلامة واسمه مرجان وكان لمرجان عبدان أحدهما يسمى نفيسًا والآخر يسمى نجاح وكان نفيس يتولى الوزارة، ونجاح يتولى أعمال الكدرا والمهجم والمور والواديين. الوصابي : الاعتبار، ص٣٠؛ عمارة : المصدر السابق، ص٨٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٤، ٥٥؛ قرة العيون، ص٢٣٢.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٤.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص١٢٣، ٣٣٧، ٤٣٤، ٣٤٤؛ عمارة : نفس المصدر، ص٨٣؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٤٨٢؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٥٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٣٠.

جُلّ الأعمال الشمالية لزبيد، وتوجه نجاح لمحاربة نفيس بعد الاستعانة بأهل تهامة وأهل الجبال المناصرين للأمير الزيادي، فدارت المعارك بين نجاح ونفيس ما بين ثلاث سنين وخمس سنين، مرةً ينتصر فيها نجاح ومرةً أخرى ينتصر فيها نفيس، وفي آخر هذه المعارك تمكن القائد نجاح من قتل نفيس والسيطرة على زبيد(١) وذلك سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، وبعد هذا الانتصار أطلق على نجاح لقب المؤيد، نصير الدين(٢) وبذلك أصبح نجاح وزيرًا لآل زياد.

وبعد وفاة الأمير الزيادي علي بن المظفر في المهجم أواخر سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م دون أن يكون له وريث يتولى السلطة، استقل الأمير نجاح بالسلطة في تهامة، وجعل المهجم عاصمة له وضرب السكة باسمه(٣)، وكاتب الخلافة العباسية بالعراق معلنًا لها ولاءه بالطاعة، طالبًا منها منحة تقليد السلطة في اليمن، وبالفعل قبلت الخلافة العباسية ذلك، وأصدرت له تقليدًا على اليمن، وفوضت إليه أمر تقليد القضاء لمن يراه أهلاً لذلك(٤)، كذلك النظر العام في جميع اليمن فخوطِبَ في هذه الفترة بالملك وبمولانا(٥).

إلا أن نجاح لم يستمر طويلاً، فقد تمكن علي بن الصليحي من قتله بالسم سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م في مدينة الكدرا عن طريق إحدى الجواري التي أهداها له(٦).

وخلف نجاحًا أولادًا صغارًا لم يبلغوا سن تولي السلطة(٧)، وهم سعيد، جياش، ومعارك،

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٥؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٦١؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٢.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٠٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٣، محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢١٢؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٨٧.

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة؛ حسن سليمان محمود : المرجع السابق، ص١٥٢؛ عبدالله الثور: هذه هي اليمن، ص٢٧٠.

(٤) الخزرجي : نفس المرجع، ق١٠٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢١٢؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٨٧؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٥٦.

(٥) ابن الديبع : نفس المصدر، ص٥٥؛ قرة العيون، ص٢٣٤؛ عمارة : المفيد، ص٨٦؛ محمد عيسى الحريري : معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالفاطميين، دار القلم، الكويت ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٤؛ عصام عبدالرؤوف : المرجع السابق، ص١٨٧.

(٦) عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٣؛ ابن خلدون : العبر، ص٢١٨

(٧) ابن الديبع : المصدر السابق، ص٥٦.

والذخيرة، ومنصور، فتولى الوصاية لهم أحد مواليه المسمى كهلان وحكم تهامة نيابة عنهم لمدة سنتين، بعدها تمكن علي الصليحي من دخول تهامة والسيطرة عليها، وذلك في حوالي سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، فقتل معارك نفسه وهرب سائر أخوته إلى جزيرة دَهْلك[1]، ودخلت زبيد في حوزة الدولة الصليحية.

على أن أولاد نجاح وأنصارهم من الحبش لم يتغاضوا عن سقوط دولتهم وبدءوا يفكرون باستعادة ملك أبيهم على تهامة، فأما سعيد الأحوال فإنه عاد إلى زبيد على إثر خلاف مع أخيه جياش، فاستتر عند أحد أنصار آل نجاح المسمى ملاعب الخولاني[2]، وراسل سعيد الأحول أنصاره في الحبشة سرًا ودعاهم للتجهز معه لمحاربة الصليحيين، وعمل على تتبع أخبار علي الصليحي[3].

أما جياش فأقام في جزيرة دهلك، واستعان على إقامته بها باستخراج وديعة كانت له عند عبدالرحمن بن طاهر العيني، وظل مكبًا على طلب العلم حتى برع فيه[4]. كما ظل مستعدًا لتجهيز جيشه للقدوم إلى تهامة حين يحين ذلك.

وكانت المراسلات مستمرة بينه وبين أخيه سعيد الأحول، ولما تجهز علي الصليحي للذهاب للحج، كتب سعيد الأحول إلى أخيه جياش في دهلك في شهر شوال سنة ٤٥٩هـ/ أغسطس ١٠٨٦م يطلب منه القدوم إلى تهامة بجيشه للقضاء على علي الصليحي واستعادة ملكهم[5].

فخرج جياش من دهلك بخمسة آلاف حربة وسار بهم في البحر حتى وصل بهم ساحل

---

(١) دَهْلك : هي جزيرة في بحر اليمن ومُرْسى بين بلاد اليمن والحبشة. ياقوت : معجم البلدان، م٢، ص٣٢٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٦.

(٢) عمارة : نفس المصدر، ص١١٤.

(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٠٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٢، ٢٥٣؛ الفضل المزيد، ص٥٧.

(٤) الخزرجي : المصدرالسابق، ق١٠٦؛ ابن خلدون: اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص٥٨٦؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٢.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر، ق١٠٦؛ عمارة : المصدر السابق، ص١١٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٧؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٣؛ الحريري : معالم التطور السياسي، ص٤٩؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٥٧.

المهجم في تهامة[1]، فكاتب سعيد الأحول إلى زبيد بوصوله.

ولما علم والي زبيد أحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي بقدوم جياش وعدد جيشه أرسل إليهم خمسة آلاف حربة من العبيد في زبيد، ولكنهم لم يتمكنوا من الالتقاء بـه، لأن جياش خالفهم في الطريق[2].

واستغل سعيد تلك الفرصة فدعا أنصاره للتسلح في زبيد وأمرهم بالقتال معه والثورة على والي زبيد الصليحي وذلك يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ/ سبتمبر ١٠٦٧م، فهجموا على دار الإمارة وكان بها أبو السعود وأحمد بن سعد بن أسعد بن شهاب الصليحي، وألقوا القبض عليهما وأخذوا ما في الدار من الأموال والسلاح، واستولوا على زبيد.

ثم سار سعيد الأحول إلى ساحل المهجم وهناك التقى بأخيه جياش وجيشه، فساروا جميعًا نحو المهجم[3]، فلما وصلوا هجموا على مخيم علي الصليحي على حين غفلة منه، في منتصف النهار، فقُتِل الصليحي مع أخيه ومن كان معهما من الصليحيين في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ/ سبتمبر ١٠٦٧م، واستولى سعيد الأحول على أموال علي الصليحي وخزائنه التي اصطحبها معه لتقديمها هدية لحاكم مصر الخليفة المستنصر، وهي أموال طائلة، كما أسر أسماء بنت شهاب زوجة علي الصليحي وجمعًا من نساء بني الصليحي[4].

ودخل سعيد الأحول زبيد في اليوم الرابع بعد معركة المهجم ومعه ما غنم من أموال والأسرَاء من نساء بني الصليحي وعلى رأسهن أسماء بنت شهاب أم المكرم، وكان ذلك في ١٦ ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ/ سبتمبر ١٠٦٧م[5].

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٧.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٠٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٤؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٣.

(٣) خيمت عساكر على الصليحي بضيعة تعرف بأم الدُهَيْم وبير أم مَعْبَد بظاهر المهجم. ابن الديبع : نفس المصدر، ص٥٧؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٥.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٠٦، ١٠٧؛ عمارة : المصدر السابق، ص١١٧، ١١٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٩؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ المروني : الثناء الحسن على أهل اليمن، ٢٥١.

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٧؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٥؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٥٩.

وبذلك تمكن أولاد نجاح من الثأر لأبيهم واستعادة سلطانهم، وأصبح لسعيد الأحول مكانة عظيمة تهابها كثير من سلاطين اليمن[١].

ولكن ظل الصراع مستمرًا بين النجاحيين والصليحيين لعدة أسباب منها :

أولاً : الخلاف المذهبي المتمثل في أن النجاحيين كانوا من أهل السنة ومناصرين للخلافة العباسية والصليحيين كانوا إسماعيلية مناصرين للخلافة الفاطمية.

ثانيًا : محاولة كل طرف الاحتفاظ بسلطانه على اليمن أو بعض المناطق فيها.

ثالثًا : محاولة كل منهما الثأر لقتلاه، وهو ما أخذ شكل العداء العنصري بين العرب اليمانية والأحباش السود.

رابعًا : إصرار المكرم على تخليص أمه أسماء من الأسر من دار شخار في زبيد[٢].

خرج المكرم من صنعاء إلى زبيد بجيش كبير في ٩ صفر سنة ٤٦٠هـ/ ديسمبر ١٠٦٧م، للثأر لأبيه وبني الصليحي وتخليص أمه من الأسر، فوصل إلى زبيد ودارت معركة كبيرة بين الطرفين على باب زبيد الشرقي، قاتل خلالها سعيد الأحول قتالاً شديدًا حتى انهزم جيشه وهرب هُوَّ نحو المهجم بعد أن قُتِل من جيشه ثمانية آلاف رجل[٣]، ودخل المكرم وجيشه زبيد وسيطر عليها وخلص أمه من الأسر.

وبالرغم من ذلك عمل سعيد الأحول بعد هروبه من المهجم إلى جزيرة دهلك[٤] على تجمع جيشه وشن الغارات على جيش المكرم، وحاول سعيد الاستعانةَ بسلاطين اليمن أهل السنة مثل يعفر بن الكرندي ووائل بن عيسى والسخطي والتبعي والكلاعي وخاض المكرم معهم عدة معارك انتهت بانتصاره واستسلام تلك القبائل وسلاطينها له، وملاحقة سعيد الأحول وقتله في قرية (مابه) في الشّعِر سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م[٥].

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٨.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٨.

(٣) ابن الديبع : المرجع السابق، ص٥٨؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٢٥٦؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٧؛ والشّعِر: مخلاف مشهور من ناحية النادرة. الحجري : مجموع بلدان اليمن، م٢، ج٣، ص٤٥٤.

(٤) حسن سليمان محمود : المرجع السابق والصفحة.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص١١٨؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٦٠.

وبذلك استعاد الصليحيون سلطانهم على تهامة وزبيد واستمرت تحت سلطانهم حتى قدم جياش وأخرجهم منها.

جياش بن نجاح :

تميزت حياة جياش السياسية بأربع فترات، فالفترة الأولى امتدت من سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م حتى سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م وفيها لم يقم جياش بأي دور عسكري لاستعادة سلطانه على تهامة لصغر سنه واختفائه في الهند[1] لمدة ستة أشهر، باستثناء محاولته مساندة الزيدية، فكان جياش يدفع للشريف الفاضل ألف دينار شهريًا لتقويته على محاربة المكرم ولشغله عن محاربة النجاحيين.

والفترة الثانية استمرت من سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م، وفيها حاول جياش وأنصاره العبيد استعادة سيطرتهم على تهامة، فظل الصراع مستمرًا بينهم وبين الصليحيين لمدة خمس سنوات، فتارة كانت تهامة تحت حكم النجاحيين وتارة أخرى تحت حكم الصليحيين[2].

والفترة الثالثة تستمر من سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م حتى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وتعتبر أهم فترة جياش بن نجاح سياسيًا لأنه استعاد فيها سلطانه على زبيد وتهامة وكان ذلك سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م. ويقول عمارة في ذلك : " وعاد بنو نجاح فأخرجوا أسعد بن شهاب من زبيد وملكوها سنة سبع وسبعين وأربعمائة "[3].

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية، ص٣٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٩؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٠.

(٢) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٥٤؛ ابن الأنف : نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر ما قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة والأخيار، دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٢٢٥٣ في ميكروفيلم، ١/٣١ و-٣١ظ؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٢٧٥.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٠٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٣؛ ابن خلدون : العبر، ص٢١٧؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٣؛ محمد عيسى الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص١٦٧؛ محمد السروري: تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٦٧؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦١.

وتنتهي الفترة الثالثة بحدوث معركة حاسمة بين النجاحيين والصليحيين وهي معركة الكَظَائِم[1] التي حدثت أواخر سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وفيها حقق النجاحيون انتصارًا حاسمًا على الصليحيين مما ثَبَّتَ بقاء سلطانهم على تهامة.

أما الفترة الرابعة وتمتد من سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م إلى وفاة جياش سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م[2] فتوضح مدى حرص النجاحيين على الاحتفاظ بسلطانهم وتثبيت حكمهم واستقراره على تهامة.

وبعد وفاة جياش ظهرت الفرقة بين أولاده[3]، الفاتك ومنصور وإبراهيم وعبدالواحد والذخيرة ومعاركًا، فحدث صراع بينهم حول تولي إمرة الدولة النجاحية، وذلك يعود إلى انتمائهم إلى أمهات مختلفات، وانتماء الجند إلى عناصر مختلفة مثل الغز (الأتراك) والحبشة (السودان) واليمنيين.

فتولى الابن الأكبر فاتك بن جياش السلطة بعد أبيه وهو ابن الهندية، حسب النظام الوراثي في أسبقية الابن الأكبر في تولي السلطة، إلا أن أخويه عبدالواحد وإبراهيم خالفاه، وجرت بينهما وقائع وحروب وانقسمت عليهم عبيدهم، إلى أن ظهر فاتك بن جياش، وعفا عن أخيه عبدالواحد بعد أسره، ثم أكرمه وأرضاه[4]. أما أخوه الآخر إبراهيم فقد هرب إلى المناطق الجبلية ولجأ إلى السلطان أسعد بن وائل بن عيسى الوائلي الكلاعي الوُحاظي فأكرم نُزله[5]. ولم تمض مدة طويلة على حكم فاتك للدولة النجاحية حتى مات في سنة

---

(١) إدريس : عيون الأخبار، ١٦٤/٧، ١٦٥.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٣؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، دار القلم، بيروت، د.ت، تحقيق : فؤاد سيد، ص١٠٤؛ ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص٥٩٠؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٧١.

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص٦٣، ٦٤.

(٤) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٩٤؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص٦٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨١؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٩٢.

(٥) عمارة : المفيد، ص٢٠٧، ٢٠٨؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص٦٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٤؛ الحرير : معالم تاريخ اليمن، ص٦٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٧٢؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٤.

٥٠٣هـ/١١٠٩م فخلفه في تولي السلطة ابنه الطفل منصور بن فاتك، فعاد الصراع من جديد بين أولاد جياش وابن أخيهم منصور، فمن ناحية أخيه إبراهيم الذي لجأ إلى أسعد بن وائل الوحاظي، فإنه حشد جمعًا كبيرًا من قبائل الجبال ونزل بهم لمحاربة ابن أخيه، فلما وصلوا إلى وادي زبيد خرج إليهم جند منصور فالتقوا عند قرية الهويب، وأثناء التقاء الجيشين في تلك المنطقة استغل عبدالواحد فرصة خلو زبيد من جند ابن أخيه منصور، فثار بها واستولى على دار الإمارة ثم استولى على زبيد[1].

أما عبيد فاتك بن جياش ومولاهم منصور بن فاتك[2]، فإنهم لجأوا إل الملك المفضل بن أبي بركات ــ صاحب التعكر ــ والملكة أروى الصليحية فأكرما وفادتهم، وطلب عبيد فاتك من المفضل مساعدتهم في استرداد زبيد مقابل أداء ربع متحصل البلاد لهم، فاستجاب لهم، وأعاد زبيد إلى منصور بن فاتك، وطرد منها عبدالواحد في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م.

وبعد ذلك حاول المفضل البقاء في زبيد للغدر بمنصور وجيشه وإعادتها تحت نفوذ الدولة الصليحية، إلا أن فقهاء الشافعية في ذي جبلة استولوا على حصن التعكر، وهو الحصن الذي كان مقرًا للمفضل وبه أمواله وحواشيه وجواريه، فعاد مسرعًا نحو ذي جبلة فظل سلطان منصور بن فاتك باقيًا على زبيد وتهامة[3].

بعد أن استعاد منصور بن فاتك وجنده السلطة على زبيد بمساعدة الصليحيين، دخلت الدولة النجاحية مرحلة جديدة في نظام الحكم السياسي، وهي أن تكون الإمارة في أولاد فاتك ابن جياش وأن تكون الوزارة في أولاد عبيدهم[4].

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٣، ١٢٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٥؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٩٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٤؛ ابن خلدون : العبر، ص٢١٨؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٤.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق١١٢، ١١٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٤٢؛ عمارة : المفيد، ص٢٠٨، ٢٠٩، تاريخ اليمن، ١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٥٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨٣؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص١٩٢؛ حسن سليمان : المرجع السابق، ص١٦٥.

(٤) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٩٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٥.

وهذا يعني تحول الوزارة من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض، والذي يصبح فيه الوزراء أكثر نفوذًا من الأمراء وقد فرض هذا الوضع تولي أمراء الدولة النجاحية السلطة وهم أطفال فلم يعد لأولاد فاتك بن جياش من الأمر سوى مظاهر السيادة وهي الخطبة لهم بعد بني العباس، والسكة والركوب بالمظلة في المواسم والأعياد، وعقد الآراء في مجالسهم، وأما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة الوفود فلعبيدهم الوزراء[1].

وفي هذه المرحلة من تاريخ الدولة النجاحية تولى الحكم فيها ثلاث شخصيات هم : منصور بن فاتك وابنه فاتك بن منصور، ثم ابن عمه فاتك بن محمد، وانتهت حياتهم كلهم بالقتل.

أما الوزارة فقد تولاها ستة وزراء، وهم : أنيس الفاتكي (٥٠٤-٥١٧هـ/١١١٠-١١٢٣م) وانتهت حياة هذا الوزير بالقتل بسبب صراعه مع الأمير النجاحي منصور بن فاتك حول السلطة[2].

وزارة مَنّ الله الفاتكي (٥١٧-٥٢٤هـ/١١٢٣-١١٣٠م) : كان هذا الوزير من أكابر الوزراء وأعيانهم[3]، ومن أهم أعماله الدفاع عن الدولة النجاحية وعاصمتها زبيد من هجمات قائد الجيش الصليحي ابن نجيب الدولة، حيث تمكن الوزير من هزيمة القائد الصليحي وجيشه على باب زبيد أواخر سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، وكذلك إزاحة بعض القادة المنافسين له عن السلطة في زبيد ومنهم أحمد بن مسعود الجزلي ومفلح الفاتكي صاحبي الحل والعقد في زبيد[4].

ولعل السبب الحقيقي لقتل الوزير منّ الله الفاتكي هو إقدامه على قتل مولاه الأمير

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٥؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٦؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٥؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٧٣؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص٦٥.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١١٥؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥٠٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٩٧؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨٤.

(٣) هذا الوزير سوّد مدينة زبيد بعد الحسين بن سلامة القائم على إمارة آل زياد في نهاية عهدها. الخزرجي: العسجد المسبوك، ق١١٦؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٨.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٥٢.

منصور[1].

وزارة رزيق الفاتكي (٥٢٤هـ/١١٣٠م) : لم يلبث رزيق مدة في الحكم حتى استقال من الوزارة، فلم يتمكن من تدبير الملك وعدم خبرته بإقامة نواميس السلطنة، وكذلك عدم طاعة العسكر له[2].

وزارة مفلح الفاتكي (٥٢٤-٥٢٧هـ/١١٣٠-١١٣م) : كان قائدًا ذو شأن في زبيد[3]، وعندما تولى الوزارة حدث تطورًا في نظام البيت النجاحي وهو التقليل من نفوذ الوزراء، عن طريق إسناد أهم الأعمال لرجال القصور[4]. كانت الحرة عَلَمْ وزوجها منصور بن فاتك قد عملا على شراء العبيد وتربيتهم للخدمة في قصورهما فقسما هؤلاء العبيد إلى فرقتين هم الوصفان والأستاذون مثل صواب الذي كان متوليًا إمرة الزمام، ويمن وريحان وعز، ومن الأستاذين الفحول إقبال وبرهان وسرور فكانوا أكثر طاعة لهما[5].

وعندما قتل الأمير منصور أوكلت الحرة علم الوصاية على ولدها الطفل فاتك بن منصور إلى أولئك الوصفان والأستاذين، فأصبح هؤلاء العبيد هم أصحاب الأمر والنهي وهم المسيطرون على أمور الدولة[6].

فحدث صراع بين الوزير وهؤلاء العبيد، حيث دبروا له عدة حيل للقضاء عليه، ومنها قيام القائد سرور بمكاتبة قبائل المَهْجَم[7] وعلي الزعلي والعمراني وبنو مشعل، وطلب منهم الهجوم على أعمال المهجم ففعلوا ذلك، مما أدى إلى خروج الوزير مفلح بجيشه لمحاربتهم وعندما ساروا على بعد يوم من زبيد أشار سرور على الجند الرجوع، ولم يبق مع مفلح إلا

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص٥٥؛ ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٢) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٧٧؛ الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص٦٨، ٦٩.

(٣) ينتمي مفلح الفاتكي إلى قبيلة سحرت الحبشية واتصفت بالشجاعة والكرم والحزم والتفقه في الأدب. ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٠٣؛ الوصابي : المصدر السابق، ص٥٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٩؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٨.

(٤) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٧٨.

(٥) محمد السروري : المرجع السابق، ص١٧٨.

(٦) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١١٨.

(٧) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٠٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٣٩؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨٧؛ محمد السروري : المرجع السابق، ص١٧٩.

قلة من خواصه، فأسرعوا إلى زبيد واستولوا عليها بقيادة سرور الفاتكي، وتوجه مفلح نحو جبال بُرَعْ[١] وذلك سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م واتخذ من حصن الكرش[٢] بها مقرًا له، وبدأ يشن الغارات على تهامة، فقاومه أهلها مقاومة شديدة ثم انتقل إلى حصن دَيْسان[٣].

وكاتب مفلح الشريف غانم بن يحيى السليماني صاحب مخلاف بني طرف أو المخلاف السليماني وبني عم الشريف يطلب منهم إعانته على المحاربة معه للسيطرة على زبيد، ووعدهم بإسقاط ما عليهم من الأموال لصاحب زبيد وهي ستون ألف دينار كل سنة وأنه يضيف إلى ذلك أعمال الواديين وهي واسعة[٤].

كذلك انضمت إلى مفلح والشريف غانم قبائل العرب من بني مشعل وبني عمران وبني حرام والحكميون في جموع كثيرة تقدر بألف فارس وعشرة آلاف راجل[٥].

وساروا نحو القائد سرور الفاتكي الذي كان متوليًا المهجم، وعندما علم بتجمعهم كاتب أهل زبيد يستنفرهم، فحضر إليه جمع كبير منهم، والتقى الطرفان في المهجم فدارت معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بقتل كثير من الناس وانتصار القائد سرور وهزيمة مفلح الفاتكي وهروبه إلى بُرَعْ للتحصن بها وظل بها يشن الغارات على المهجم إلى أن مات في حصن الكرش سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م[٦].

وزارة إقبال الفاتكي (٥٢٧-٥٣١هـ/١١٣٣-١١٣٧م) : بعد هروب الوزير مفلح الفاتكي إلى جبال برع، تولى الوزارة الأمير النجاحي فاتك بن منصور قائد إقبال الفاتكي سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م، وكان إقبال من فرقة الأستاذين الفحول الذين تربوا في قصر الحرة علم، وبالرغم من ذلك لم يسلك طريق الصواب في سياسه حيث أنه قتل المنصور وأيضًا قتل مولاه

---

(١) بُرَعْ : جبل بناحية زبيد. ياقوت : معجم البلدان، م١، ص٣٠٥.

(٢) الكرش : قلعة بالمهجم من نواحي مدينة زبيد باليمن. ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص١٣٠.

(٣) دَيْسان : حصن في الشرق الشمالي من المهجم. المقحفي : معجم البلدان، ص٢٤٥.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق١٢٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٠؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٣٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص٥٩.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص١٤٠.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٢٣؛ عمارة : المصدر السابق، ص١٤٠؛ الجندي : السلوك ج٢، ص٥١٠، ٥١١؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٠؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٠؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص١٦٩.

الأمير، فلم يستقم له الأمر فعُزِل ثم قتل في نفس السنة التي قتل فيها مولاه[١].

وزارة سرور الفاتكي (**٥٣١-٥٥١هـ/١١٣٦-١١٥٦م**) : يعد سرور الفاتكي أهم وزراء الأمراء النجاحيين وآخرهم، وينتسب إلى القبيلة الحبشية أَمْحَرَة[٢]. اشترته الحرة علم وربته تربية خاصة، وضُمَّ إلى فرقة الأستاذين الفحول[٣]، ثم ترقى به الحال فتولى الخطابة وهي الترسل بين الوزراء والسلطان، وعندما تولى مفلح الفاتكي الوزارة تولى سرور الفاتكي المهجم، فدخل في صراع معه، كما دخل في صراع مع الوزير إقبال الفاتكي، تمكن خلاله من إخراج إقبال من الوزارة وتولى سرور مكانه[٤].

ومن أهم أعماله قبل توليه الوزارة أنه استعاد ملك مولاه فاتك بن منصور ومربيته الحرة علم.

عندما تولى سرور الفاتكي الوزارة، كان يقيم سنويًا في زبيد عشرة أشهر من ذي القعدة حتى شعبان، ثم يتوجه إلى المهجم ويقيم بها شهرين هما شهر رمضان وشوال وذلك بهدف القيام بإصلاح أعمال تلك المنطقة، وطيلة شهر رمضان كان يقيم مطبخًا يدعو جميع الناس لحضوره، ويصرف على ذلك مبالغ تقدر بألف دينار يوميًا[٥].

كما اتسعت صرفيات الوزير سرور، فشملت جميع الطبقات وكانت لهم أعطيات أو صدقات أو هدايا أو صلات، فمن الصدقات كان يصرف للفقهاء والقضاء والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثنى عشر ألف دينار سنويًا. كما يمنح العساكر أموالاً كثيرة خارجة عن أعطياتهم، وكان يحمل الأموال المنقولة من المهجم والواديين إلى بيت مولاه السلطان في كل سنة ستون ألف دينار وإلى بيت مولاته الحرة علم وحواشيها

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٢٣، ١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٥٩؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٠؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨٧.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٠.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٢، ١٤٣؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٧١؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١١؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٦٠؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٣.

(٤) الخزرجي : المصدر السباق، ق١٢٤؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٢؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧١.

(٥) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١١٥.

خمسة عشر ألف دينار سنويًا[1].

كما تغيرت علاقة الوزير سرور الفاتكي مع الحكميين وأميرهم الشريف غانم بن يحيى الحسني وكذلك عرب المهجم من المشاعلة وبني عمران وبني زعل، فبعد أن كان معهم في صراع دائم وكان الانتصار في معظمه لصالح سرور، تمت هدنة فيما بينهم بعد أن أرسل الشريف غانم بن يحيى السليماني رسولاً إلى سرور يطلب منه عقد هدنة وبالفعل انتهت علاقة الحرب بين الوزير سرور وبين قبائل تلك المنطقة وذلك سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م[2].

تعامل الوزير سرور الفاتكي مع الرعايا معاملة حسنة، لما كان يتصف به من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والورع والتقوى. فكان عندما يعود من المهجم إلى زبيد كان الناس بجميع طبقاتها يخرجون لاستقباله، فيصتفون على تل عال مرتبين على حسب طبقاتهم، فأول ما يصافح طائفة الفقهاء المالكية والحنفية والشافعية، وكان يسلم عليهم وهو مترجل ولا يترجل لغيرهم إكرامًا وتبجيلاً لهم ثم يصافح التجار، ثم العساكر ثم من حضر من الأفراد، أما بقية الناس الذين لا يستطيعون الخروج لاستقباله فكانوا ينتظرونه أمام مسجده ليستقبلوه ويصافحوه، وكل ذلك لما كسبه الوزير سرور من عطف واحترام من الناس[3].

وبعد أن يؤدي صلاته يتوجه للسلام على مولاه السلطان فاتك بن محمد ثم يتجه إلى مولاته الحرة علم وكان سرور يخبرها بخطته السياسية لسنته من ولاية وعزل وقتل وغير ذلك.

وفي عهد هذا الوزير، بدأ ظهور دولة بني مهدي سياسيًا، حيث تمت البيعة الأولى لعلي بن مهدي من أهل الجبال المطلة عل تهامة، والتحالف لنصرته على آل نجاح وذلك سنة ٥٣٨هـ وهذا ما يواكب الأحداث السياسية لدولة بني مهدي وعلاقتها بدولة بني نجاح التي انتهت بمقتل الوزير سرور الفاتكي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م[4].

---

(١) الوصابي : الاعتبار، ص٦١، ٦٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١١٥؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٣.

(٤) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق١٥٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص٦٢؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٢؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧١، ٧٢؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص١٧٠؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٨٥؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢٨٩.

الفصل الأول

الأحوال السياسية
عهد دولة بني مهدي في اليمن

قيام دولة بني مهدي :

تنسب دولة بني مهدي لعلي[١] بن مهدي بن محمد بن علي الذي ينتهي نسبه إلى ميمون الحميري الرعيني، وكان علي بن مهدي فصيح اللسان واتصف بالفضل ومكارم الأخلاق[٢]، وكان أبوه وهو من أعيان العَنْبَرة[٣] رجلاً صالحًا، متدينًا بعيدًا عن مخالطة الحكام، ونشأ ولده عليٌّ هذا على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالعبادة، والصلاح[٤].

صفاته العلمية ومذهبه الديني :

تلقى علي بن مهدي علومه بمدينة زبيد، فضلاً عن تعلمه على يد والده وأهل بلدته[٥]، علوم الدين واللغة، وأجاد الأدب والخطابة والمناظرة، حتى صار فصيحًا حسن الصوت، غزير المحفوظات.

أخذ علي بن مهدي بالفقه الحنفي، إلا أنه كان متحررًا ينزع إلى المعتزلة ونظرياتهم التي توجب الخروج على الظلم[٦]، والثورة على الظالمين، وكان كما وصفه الخزرجي[٧]، حنفي الفروع، خارجي الأصول، يكفر بالمعاصي، ويوجب القتل بها، وكذا قتل كل من يخالف اعتقاده من المسلمين واستباحة الوطء لسباياهم واسترقاق ذراريهم، وجعلهم دار حرب يحكم فيهم حكمه في أهل دار الحرب.

وكان يؤمن بأن الإمامة غير محصورة في قريش ولذا نسبه المؤرخ ابن الدّيبع إلى الأخذ

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٥ تاريخ، ق٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص١١٨.

(٢) عبدالله الشماحي : اليمن، الإنسان والحضارة، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٥م، ط٣، ص١٣٧.

(٣) العَنْبَرة : قرية بسواحل زبيد (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٦، ص٣٧٥)؛ الحمزي : كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، ق٨٩؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص١٠٥.

(٤) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص١٤٨.

(٥) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١١٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٨٩.

(٦) المعتزلة : ظهروا في البصرة حوالي عام ١٠٠هـ، كفرقة كلامية على يد واصل بن عطاء. محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص٧٨.

(٧) الخزرجي : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ق١٥٦.

في الأصول بنظريات الخوارج، وصعب عليه تسلط النظرية الزيدية والشافعية في الإمامة[١].

وكما أجاد علوم اللغة والأدب، أجاد العمل بالوعظ والتفسير وشرح طريقته الصوفية[٢]، ليس ذلك من أجل التصوف، إذ قال الذهبي : " كان خارجيًا ... "[٣]، ويتضح لنا ذلك إذا تمعَّنا في ذكر معنى كلمة الصوفية أو التصوف مقارنة بما عَمِلَ به علي بن مهدي.

ذلك أن التصوف[٤] " كتعريف اصطلاحي " هو طريق إسلامي اتبعه كثير من علماء الإسلام، يقوم على الاجتهاد في التعبد والتقشف في الحياة والبعد عن الشهوات والتعمق في فهم الأصول الدينية والتفاني في محبة الذات الإلهية وطاعتها[٥].

على أن التعريف اللغوي للتصوف انحصر فيما يقرب من أربعة اشتقاقات منها ما يرد اللفظ إلى الصفاء[٦] من صفاء النفس وطهارة القلب[٧] والمراد صفو قلوب أهل التصوف وانشراح صدروهم ورضاهم بما يجريه الله عليهم[٨]، على أن هناك من يستبعد هذا الاشتقاق ولا يُجيزه ومنهم المقريزي والقشيري.

وضع أقطاب المتصوفين شروطًا وسمات عامةً يجب أن تتحقق في كل من يسلك طريق التصوف فليس كل من سار في الطريق أصبح متصوفًا، ولكن يجب أن تتوافر فيه أركان وشروط التصوف.

ولابد أن تتحقق في الصوفي حقائق الإخلاص والصدق والتوكل والزهد وأن يتجرد من كل ما يشغل عن التفرغ لهذا الشأن عن أي شيء[٩].

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص٣٦٠.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٩؛ الجندي : السلوك في طبقات العلماء والملوك، ص٥١٦.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٦٤، ص٤٩.

(٤) التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة للسلوك يتخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية. أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣.

(٥) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، القاهرة، ١٩٣٣م، ص٩.

(٦) القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢١٦؛ الكلاباذي : المرجع السابق، ص٥.

(٧) فرج محمد غنيم : غذاء الباحث في التصوف، طنطا، ١٩٥٣م، ص٣.

(٨) لويس ماسينيون : الإسلام والتصوف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٢.

(٩) ابن علوي الحداد : الدعوة التامة والتذكرة العامة، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٠.

وجدير بالذكر أن التصوف عل نوعيه : أحدهما ديني والآخر فلسفي، كما لكل نوع فرقه وأصحابه وما ينطبق عليهم من تعاليم، ومن هذه الفرق الدينية ــ وهي ما نحن بصددها الآن ــ الإباحية[1]، وهي فرقة من المتصوفة المبطلة، قالوا : لا قدرة لنا على اجتناب المعاصي وإتيان المأمورات، وليس لأحد في هذا العالم ملك رقبة ولا ملك يد، والجميع مشتركون في الأموال والأزواج، وقالوا : لا نبالي ما يصدر منها، سواء كان مع الشرع أو ضده، وأن الشريعة مقصودها ضبط العوام، والإباحية قيل إنهم من المندسين في الصوفية أو المتشبهين بهم، دخلوا التوصف ظاهرًا وهم في الباطن غير ذلك.

كان علي بن مهدي على نمط أهل التصوف في المُكَاشَفَاتِ[2] والإخبارِ بالمُغَيبات ولبث على ذلك مدة من الزمن، ثم تغير هذا كله فيما بعد، ولاشك أنه عن طريق هذه النزعة الدينية الصوفية، ومقدرته على الإقناع، تمكن من يجذب إليه الكثير من الناس من أهل تهامة أو المناطق المجاورة لها من أهل الجبال مثل وُصَاب ورَيْمَة وغيرهما[3]، فزودهم بالكثير من المعارف الدينية، ونظرًا لغزارة علمه، وقلة المعرفة الدينية والعلمية للناس في تلك المناطق آنذاك[4]، صَدّقَ أقواله الكثير من الأفراد، فازداد عدد من استمال قلوبهم إليه[5]، وكان هذا الأسلوب من أقوى عدده في التأثير في الرجال، لتحقيق أطماعه السياسية الكبيرة فيما بعد.

---

(١) عبدالمنعم الحنفي : موسوعة الصوفية، ٢٠٠٢م، ص٦٢٤.

(٢) المكاشفة : قيل هي كلمة التوحيد، وقيل هي العدالة، وقيل هي حروف التهجي، وقيل هي العقل الذي به يتم معرفة التوحيد، وتَحرِّي العدالة، وتعلم حروف الهجاء والتعليم، وفعل الجميل، وبه يُضّل الإنسان على كثير من خلقه. محيي الدين بن عربي : شرح معجم اصطلاحات الصوفية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ط١، ص٤٢؛ الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص٨٧.

(٣) الكبسي : المصدر السابق والصفحة.

وُصَاب : جبل متسع بالغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ١٨٢كم ويشمل ناحيتين : وصاب العالي (مركزها دَنّ وصاب) ووصاب السافل (مركزها المصباح). المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٦٩٩.

رَيْمَة : من أشهر بلاد اليمن خصبًا وغزارة، يقال له ريمة الأشابط وأيضًا ريمة جُبْلان وموقعة بالجنوب الشرقي من الحديدة بمسافة ٧٠ كم وفي الجانب الغربي من صنعاء. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٢٨٢.

(٤) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٨٩.

(٥) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص١٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٩.

بداية النشاط الديني لعلي بن مهدي :

المرحلة الأولى :

مرحلة السلم وفيها بدأ نشاط علي بن مهدي الديني (بساحل زبيد بقرى العنبرة وواسط، والقضيب، والأهواب، والمقتفى وساحل القارة) منذ سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م[١]، وكان يتنقل في البوادي بين هذه الأماكن يدعو الناس ويعظهم، وخلال وعظه للناس كان يقول : " أيها الناس دنا الوقت وأزف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً "[٢].

أضاف علي بن مهدي إلى التمسك بالعبادة والتصوف، المداومة المستمرة على الحج وزيارة قبر الرسول (ﷺ) وذلك منذ سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م حتى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، وأثناء ذهابه إلى الحج كان يلتقي بحجاج العراق ووعاظها فيباحثهم في علومهم حتى أتقنها[٣]، لذلك ساهم حجاج العراق في تحويل علي بن مهدي من رجل متمسك بالدين والصلاح إلى داعية ديني، كما تعرف إلى رجالات اليمن الذين التقى بهم، فهو بذلك ترسم خطا أبى الحسن علي بن محمد الصليحي في التمهيد لحركته، ومع ذلك فقد كانت نزعتهما واحدة وهي نزعة الزعيم اليمني الخارج على الإسماعيلية عليّ بن الفضل نفسه في إقامة حكم يمني موحد يضم جميع أجزاء اليمن، ولكن العناصر الحاكمة في عهودهم وما ساندها من قوى خارجية تضافرت ضدهم، وقضت على صروح دولهم وهي في مهدها وعلى فترات مختلفة[٤].

وانتهى به تجواله وتفكيره إلى الاقتناع بتطهير اليمن من حكم الدخلاء الأحباش[٥] المتمثلين في الدولة النجاحية ومقرها " زبيد " وغيرهم.

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ص٤٩.

واسط : بسواحل زبيد قرب العنبرة، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٨، ص٣٤٩.

القضيبُ : بلفظ القضيب من الشجر، واد في أرض تهامة، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٧، ص٦٦.

الأهواب : ميناء قديم صغير لمدينة زبيد، وهو بالقرب منها وكان يسمى " البقعة " وقرية من قرى وادي زبيد باليمن. الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص٩٩.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٦٠.

(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٨؛ عمارة : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، ص٢٢٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٠.

(٤) الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٧٨.

(٥) الشماحي : اليمن، الإنسان والحضارة، ص١٣٧.

وعندما عاد علي بن مهدي إلى اليمن من الحج متأثرًا بحجاج العراق عمل على بدء نشاطه السياسي الديني بطريقة سليمة فاعتزل الحكام، " وأظهر الوعظ والتحذير من صحبة الملوك وحواشيهم وأتباعهم وصحبة العسكر "[1].

وبدأ دعوته بتهيئة الرأي على استنكار ما بلغت الحالة في عهده من ـ الاضطراب والفساد ـ وما يجب من إنكار المنكر وبيث روح الاعتزال بما فيها من شدة وتطرف، ومكث وقتًا ليس بالقصير حتى استطاع أن يُثَبِّتَ جذورها ويُمكِّن أصولها في محيط ذلك العصر الذي تتقاذفه المذاهب والنزعات وتعصف به الأهواء والمطامع شتى[2].

وسرت دعوته في سريَّة وانتشرت في تؤدة وثبات في الجبال والسهول وكان له من الطاعة والنفوذ في أتباعه ما يفوق الوصف.

ترامى إلى مسامع حكام زبيد أخبار ابن مهدي كرجل صوفي تقي صالح ورعاية منهم وعناية كعادتهم في إكرام رجال الدين صدر أمر بإعفائه[3] من خراج أملاكه هو وأخوته وأصهاره وكل من يلوذ به في طريقته الصوفية، وصدر هذا الإعفاء عام ٥٣٦هـ/١١٤١-١١٤٢م على عهد القائد سرور الفاتكي الحاكم في دولة بني نجاح بتوجيه من " علم " والدة الأمير فاتك بن منصور، والتي عرفت بالحرة، الحجاجة، الصالحة لا تصافها بالأعمال الخيرية[4].

وربما كان علي بن مهدي قد وعد مريديه بهذا الخبر مسبقًا عندما عزم وكتب إلى حكام زبيد راجيًا الإحسان إلى جماعته الصوفية أو طالبًا لهم أسوة بفقهاء وعلماء زبيد[5]، فأجابه حكام زبيد بالإعفاء من الضرائب بدلاً من العطاء أو الصدقات، فصدق وعده وقوله، وأظهر ذلك ابن

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٨؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠.

(٢) محمد بن أحمد العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ، ط٢، ج١ ص١٣٩.

(٣) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق٤٩؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٠؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٧٨م، العدد ٢٥، ص١٢٨.

(٤) هي جارية حبشية يقال لها علم، وكانت مغنية واستولدها المنصور ولذا يدعى فاتكًا وسميت بالحرة الصالحة الحجاجة لأنها كانت تحج بأهل اليمن برًا وبحرًا في خفارتها من الأخطار والمكوس. ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص٩٧؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٧٩.

(٥) محمد أمين صالح : المرجع السابق، ص١٢٨.

مهدي لأتباعه أنه من كراماته[1].

جذب هذا الإعفاء الكثير من الناس للإنضمام إلى علي بن مهدي للاستفادة من إعفاء أراضيهم من الخراج، كما استفاد علي بن مهدي بزيادة عدد أتباعه، هذا بجانب أنهم أثروا واتسعت بهم الحال، وركبوا الخيل[2] وقوى جمعهم أو كما قال المتنبي :

فكانما نتجت قياماً تحتهم وكأنما ولدوا على صهواتها

البيعة الأولى لعلي بن مهدي ٥٣٨هـ/١١٤٣م :

اتسعت دعوة علي بن مهدي حتى وصلت إلى الجبال المجاورة لتهامة، وبدأت دعوته تأخذ الطابع العدائي للدولة النجاحية، فلم يكد يمض عامان حتى عقد ابن مهدي حلفًا على النصرة مع قوم أتوه من أهل الجبال، وبايعوه البيعة الأولى في منطقة " القضيب " في وادي زبيد سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م[3].

أعطت تلك البيعة علي بن مهدي دافعًا لأن يبدأ نشاطه الحربي، فخرج من تهامة نحو الجبال فجمع جمعًا كبيرًا من مؤيديه بلغ عددهم أربعين ألف رجل، سار بهم نحو مدينة "الكدراء"[4] بوادي سردد في شمال تهامة، فالتقى بها بالقائد النجاحي إسحاق بن مرزوق السحرتي، فنشبت بها معركة كبيرة بين الطرفين في سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، وانتهت بهزيمة علي بن مهدي وقتل الكثير من أنصاره والعفو عن أكثرهم[5].

ويبدو أن السبب في هزيمة علي بن مهدي، أن جيشه كان أغلبه من القبائل وهم غير

---

(١) محمد عيسى الحريري : دراسات وبحوث في تاريخ اليمن الإسلامي، عالم الكتب والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٢٢٥.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٩؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٢٩٩.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ق٤٩؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٩؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٧٩؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٢٨؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩١؛ محمد الحريري : المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة نفس المصدر والصفحة؛ محمد أمين صالح : نفس المرجع والصفحة.

(٥) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر، ص١٢٠.

مدربين التدريب العسكري الكافي للقتال، بينما كان جيش النجاحيين جيشًا نظاميًا مدربًا على القتال، فضلاً عن عدم معرفة علي بن مهدي للخطط العسكرية[١]. وبعد أن حلت الهزيمة بعلي بن مهدي اتجه نحو الجبال ومكث بها إلى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٢].

وهنا نتساءل عن الدوافع التي جعلت علي بن مهدي يتخذ هذا المنحى السياسي فيقوم بالتحالف مع أهل الجبال لشن الحرب على مدن تهامة، هل دفعه العنصرية القحطانية ضد حكام زبيد الأحباش ؟ أم هي حركة إصلاحية تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحظورات بما ذاع من مفاسد المجتمع في إمارة بني نجاح على عهد الوزراء العظام[٣] ؟

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يرى أن الأمر الثاني هو الأقرب إلى الاحتمال، فإن هذا الاحتمال لا يقوى على مواجهة المصادر اليمنية، لأن أيًا من المؤرخين اليمنيين أو غيرهم لم يُشِر إلى أية انحرافات، أو مفاسد اجتماعية، انتشرت في مجتمع الدولة النجاحية، في هذه الفترة بصفة خاصة، حيث أشار المؤرخون بحالة الانضباط الكامل في مجتمع الدولة النجاحية الذي كان تحت إدارة الوزير سرور الفاتكي، الذي اجتهد في تحقيق الأمن والعدل والرعاية لجميع المواطنين في الدولة[٤].

ولدينا نص طويل ورد عن معظم المؤرخين يتحدث عن حالة الاستقرار في الدولة النجاحية، وجهود الوزير سرور في هذا السبيل. يقول ابن الديبع : " كان سرور يخرج من بيته بعد نصف الليل أو ثلثه، وكان من أعلم الناس بالمنازل، وإذا قيل له كيف تخرج في هذا الوقت ؟ فيقول : إنما أخرج في هذا الوقت لأجل من لا يقدر على الوصول إليَّ من النهار من أهل البيوت، وأرباب الستر، إما لفرط الحياء أو لكثرة الناس، ثم إذا صلى الصبح ركب إما إلى صالح يزوره، أو مريض يعوده، أو ميت يحضره، أو عقد نكاح يشهده، وما يخص بذلك أكابر الجند والعلماء[٥]

---

(١) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩١.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤، ص٢٢٠؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٠؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٦.

(٣) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٢٨.

(٤) الحريري : دراسات في تاريخ اليمن، ص٢٢٦.

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧١؛ عمارة : المصدر السابق، ص١٤٧؛ الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٥١٤؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١١٧؛ الوصابي : الاعتبار، ص٦١، ٦٢.

والتجار، بل من دعاه أجاب، ويجنو على المتظلم من الرعية، ويفحش له في القول، وهو آمن حميته وعزته وغضبه، ومن استُدعي إلى مجلس الحكم حضر تواضعًا، ويقوم بين يدي الحاكم امتثالاً لأوامر الشرع، ليقتدي به سواه، وكان يحب العلماء والفضلاء "، وكان ذلك يعني أنه كان ينصف الرعايا من الحكام.

وإنما ظهرت هذه الانحرافات والمفاسد في فترة متأخرة، بعد وفاة القائد سرور الفاتكي، وتحديدًا بعد سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، وهي السنة التي قُتِل فيها هذا الوزير[١].

ومن هنا نرجح حركة ابن مهدي إلى الانحياز للعنصر اليمني ضد دولة بني نجاح وتابعيها من الجند والقادة والأحباش، بالإضافة إلى نوعية المبادئ والأفكار التي اعتنقها علي بن مهدي في بادئ أمره، واهتم بنشرها بين أتباعه سواء من أهل تهامة أو من أهل الجبال وألزمهم بها.

ومهما يكن من أمر فإن علي بن مهدي بعد هزيمة الكدراء، اتجه نحو الجبال ومكث بها نحو ثلاث سنوات من (٥٣٨هـ/١١٤٣-١١٤٤م) وحتى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م)[٢]، وآنذاك أدرك أنه غير قادر على مقاومة الدولة النجاحية، بسبب عدم توافر المال اللازم والمؤن له ولأنصاره، ففضل المهادنة والاتجاه إلى العمل بالزراعة لجمع الأموال[٣]. فطلب من الحرة " علم " أم الأمير فاتك النجاحي العفو عنه وعن أصحابه ومنحهم الأمان كما طلب منها السماح له بالعودة إلى بلده لزراعتها وإعفاءه من الخراج فوافقت الحرة علم على منح علي بن مهدي الأمان وإعفاء أرضه وأرض أنصاره من الخراج، رغم معارضة الكثير من رجال دولتها وفقهاء عصرها لذلك الأمر[٤].

وعندما منحت الحرة علم ذلك الأمان والإعفاء لعلي بن مهدي وأنصاره، كان شرطه عدم الخروج على دولتها.

لنا أن نقف هنا ... عند مبررات الحرة علم[٥] في استمرار مساعدتها لعلي بن مهدي

---

(١) عمارة : المفيد، ص٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٥٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص١٧٠.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٤٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٩، ١٥٠؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٠.

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٦٠؛ الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص٧٦، ٧٧.

(٥) محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٧٩.

ويظهر ذلك جليًا من تسامح الحرة علم مع علي بن مهدي بالرغم من معارضة آل نجاح لها، وذلك لأنها ترى أحقيته بالملك دون موالي آل نجاح الذين كانوا قد سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة، لاسيما وأن ولدها منصور بن فاتك توفي مسمومًا من قبل وزيره مولاه إقبال الفاتكي، وكذلك لأن الحرة علم هي حرة وليست من الأسرة النجاحية الحبشية، من الدوافع التي أدت لتعاطفها مع الزعيم اليمني الحر علي بن مهدي الرعيني ضد آل نجاح الأحباش.

وهكذا عاد علي بن مهدي إلى بلاده عام ٥٤١هـ/١١٤٦-١١٤٧م، واهتم بأملاكه وهي معفية الخراج عدة سنوات فاجتمع له من ذلك مال[1]، مع التزامه بطاعة الحرة علم وعدم الخروج عليها، واستمر على صلة بأتباعه يعلمهم الدين ويتنقل من قرية إلى أخرى يدعو الناس إلى إتباع مذهبه، حتى توفيت الحرة علم سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م[2].

بعد وفاة الحرة علم أم الأمير النجاحي فاتك سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م أصبح علي بن مهدي في حلٍ مما قطعه على نفسه من عهود معها، فاتجه إلى محاربة الدولة النجاحية وترك دور الوعظ والتعبد والمسالمة.

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية، وهي : مرحلة الحرب :

وهذه المرحلة استمرت لما يقرب من عشر سنين بدأت من سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م أخذت في السنوات الست الأولى منها شكل غارات تخريبية على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال[3]، وانتهت بالقضاء على الدولة النجاحية وقيام دولة بني مهدي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م.

وتبدأ هذه المرحلة عند ما تمت لعلي بن مهدي البيعة الثانية[4] من أنصاره والتي كانت في منطقة " القضيب " في وادي زبيد، وتنص هذه البيعة على الجهاد معه ضد أهل المنكر وهم الحبشة ومن عاضدهم من العرب وهم الأشاعر وأكثرهم " عك "[5]، وأمرهم بقتل من خالفه وإن

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٠؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٢٥.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٥؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٤٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٠؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٣٩.

(٣) أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣٠.

(٤) ابن أسير: المصدر السابق والصفحة؛ الجندي: المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٥٦.

(٥) عك : قبيلة ابن عدنان من أقوى قبائل تهامة وأكثرهم، واستدعاهم علي بن مهدي ووعدهم رفع أيدي النجاحيين عنهم وملك زبيد، وأطلق أيديهم من كبير أو صغير ولا رجل ولا امرأة ولا قوي ولا ضعيف، وقال لهم أن القوم الذين يلقونهم كفار وأن أولادهم كفار مثلهم يجب قتلهم. سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٣.

كان من قومه أو قومهم، ولما كملت مبايعته لهم قام فيهم خطيبًا، فقال من جملة خطبته[١] : " والله ما جعل فناء الحبشة إلا بي وبكم وعما قليل إن شاء الله تعالى تعلمون والله العظيم رب موسى وهارون إني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود وإني أحدثكم فلا أكذبكم وأعدكم فلا أخلفكم ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرن أو وضعاء لتشرفن أو أذلاء لتعزن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٢]، فالأناة الأناة فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمنكم بنات الحبشة وأخواتهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم ثم قرأ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [٣].

أما عن أسباب ثورة علي بن مهدي على الدولة النجاحية ومحاربتهم فترجع إلى ثلاثة عوامل، وهي كالآتي[٤] :

الأول : العامل الديني :

وهو من أهم العوامل التي حركت علي بن مهدي وأنصاره ضد الدولة النجاحية، فمن خلال مبايعة القضيب الثانية تجد أنها أوضحت هدفها المرتكز على جهاد أهل المنكر من رجال الدولة النجاحية ومن ناصرهم من الأشاعر وعك[٥].

وهذا يعني أن ثورة علي بن مهدي وأنصاره كانت هدفها بالدرجة الأولى دينيًا وهو إزالة المنكر والفساد الديني للدولة الحبشية أو النجاحية[٦]، وهذا ما دفع الكثير من الناس إلى مناصرة علي بن مهدي ومحاربة الدولة النجاحية في تهامة حربًا شديدًا من أجل إقامة الدين حسب مفهومهم وإقامة العدل.

الثاني : التأثر بحجاج العراق :

ظل علي بن مهدي مداومًا على الحج سنويًا منذ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م وأثناء الحج كان

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٥٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧.

(٢) سورة النجم، آية ٣١.

(٣) سورة النور، آية ٥٥.

(٤) السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص٢٤١.

(٥) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٣.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

يلتقي بحجاج العراق[1]، فيباحثهم في علومهم، فأدى ذلك إلى تمكنه من معرفة علومهم والتشيع بها، وكانت العراق من أهم البلدان التي نشأت بها الفرق الإسلامية السياسية الدينية، كما أن شأن حجاج العراق في معظمهم يحملون أفكارًا سياسية مخالفة للعباسيين، فتأثر بهم علي بن مهدي، وتحول إلى داعية ديني ثم إلى داعية سياسي، فحذر أصحابه من عدم مصاحبة رجال الدولة النجاحية في تهامة وحواشيهم وأتباعهم كما حرض أنصاره على قتالهم.

فمن الطبيعي أن يعتنق علي بن مهدي أفكارًا دينية سياسية مخالفة للدولة النجاحية من أجل القضاء عليهم.

الثالث : الوضع الاجتماعي :

وهو من أهم العوامل التي دفعت علي بن مهدي وأنصاره على مقاومة الدولة النجاحية، فالتمايز الطبقي المفروض من قِبل الهيئة الحاكمة على المجتمع آنذاك، والوضع الاجتماعي لأهل علي بن مهدي، من حيث وضعهم أسفل السلم الطبقي للمجتمع واستحواذ رجال الدولة النجاحية على الكثير من المناصب والمميزات وتملك الأراضي وظلم الآخرين، حتى صار أهل علي بن مهدي طبقة متدنيّة مضطهدة تتولى المهن الصغيرة في المجتمع، وأوضح ذلك عمارة بقوله : "وكان الرجل من أصحاب ابن مهدي يلقى أخاه وقريبه وهو مع الحبشة إما مزارعًا أوحمّالاً أو راعي ماشية أو حارس ضيعة "[2].

بعد ذلك اتخذ علي بن مهدي من المناطق الجبلية مركزًا لمقاومة الدولة النجاحية فاتجه أولاً إلى حصن " الداشر "[3]، من بلاد خولان ثم ارتفع إلى حصن " الشرف "[4]، وهو لبعض من خولان وجعله مقرًا له، أي كان الحصنان تابعين لقبائل خولان، ومن حصن الشرف بدأ علي بن مهدي يشن غاراته المتعددة على النجاحيين.

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٦.

(٢) عمارة اليمني : المفيد، ص٢٣٢؛ السروري : الحياة السياسية في اليمن، ص١٤١، ١٤٢؛ تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٣.

(٣) الداشر : حصن في وصاب السافل، يطل على مدينة زبيد من شرقها. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٢٣٠.

(٤) الشرف : قلعة حصينة قرب زبيد بين جبال لا يوصل إليها إلا في مضيق لا يسع إلا رجلاً واحدًا مسيرة يوم وبعض يوم، وهذا الحصن لبني حَيْوان من خولان ويقال له قِلحاح. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٣، ص١٣٥؛ الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٨؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠.

وتأكيدًا لاستقرار علي بن مهدي في حصن " الشرف " قسم أصحابه إلى فرقتين[1] : إحداهما فرقة " الأنصار " وهم أهل الجبال وولي عليهم واليًا اسمه سبأ بن يوسف[2]، وأطلق عليه لقب " نقيب " لطائفة الأنصار وكنّاه بشيخ الإسلام.

والفرقة الأخرى فرقة " المهاجرين " وهم الذين قدموا معه من تهامة وولي عليهم واليًا من العمرانيين اسمه التويني[3]، وأطلق عليه لقب نقيب لطائفة المهاجرين، ولقبّه أيضًا بشيخ الإسلام.

كما جعل علي بن مهدي النقيبين هما الواسطة بينه وبين أتباعه، أي أنه لا يصل إليه أحد من الأتباع سواهما[4]، فاحتجب عن الكثير من أتباعه لكثرتهم والذين كانوا يدعون " بالمهللة " لكثرة التهليل فيهم[5].

ويعلل عمارة أن السبب في ذلك هو سوء ظن علي بن مهدي وعدم ثقته بالكثير من أصحابه، وخوفًا على نفسه منهم[6]، وكذلك خوفه من المتآمرين عليه من قِبل النجاحيين، لذلك شدّد الحراسة على نفسه ولم يترك أحدًا يدخل عليه إلا من يثق به.

لم يكد علي بن مهدي يستقر في الجبال بعد طلوعه إليها حتى عمل على شن الغارات تلو الغارات على المنخفضات أو السهول القريبة من الجبال المتحصن بها، فتمكن من تخريبها على الرغم من محاولة الدولة النجاحية في إقامة المراكز والحاميات المتعددة، لمنع علي بن مهدي من التقدم، ومواظبة النجاحيين في عمل تبديل تلك الحاميات في المراكز بحاميات أخرى، إلا أن ذلك لم يحقق للنجاحيين النصر أو منع أنصار علي بن مهدي من التقدم نحو تهامة، فتمكنوا من تخريب الكثير من المناطق السهلية المجاورة للبلاد[7].

اتسمت غارات علي بن مهدي بالسرعة والمباغتة حيث تبدأ الغارة في الصباح على القرى

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٠؛
Stanleylane – Poole : Mohammadan Dynasties, Paris, 1925, p. 96.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٠؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٣) عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) الحمزي : كنز الأخبار، ق٨٩؛ الخزرجي : العسجد، ق١٥٨؛ الجندي : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٣٠٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة.

(٥) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص١٧٣.

(٦) عمارة : المفيد، ص٢٣١؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٤؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٢٦.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص١٩٥.

وتعمل على حرق ونهب كل ما تجده، وتعود بالأنعام والأسرى، مما أشاع الرعب في أهل البوادي وخرب قراهم[1].

في ذلك الوقت لم يكن بمقدور الدولة النجاحية مطاردة المغيرين حتى مواقعهم بالجبال، أو إرسال جيش كبير للقضاء على ابن مهدي في موقعه بحصن الشرف، وذلك لعدة عوامل أهمها :

أولاً : طبيعة المنطقة التي تحصن بها، فهي منيعة، ومن الصعوبة السيطرة عليها فالوصول إلى حصن الشرف ـ مركز انطلاق علي ابن مهدي ـ صعب للغاية فهو واد ضيق بين جبلين مسافة يوم وبعض يوم، وإذا تم الوصول إلى أسفل الجبل، ثم الصعود إلى أعلاه لا يتحقق إلا في مسافة نصف يوم[2].

ثانيًا : أن الوادي يتصل مسيله بتهامة وهو واد متعرض به " أحراج "[3] عظيمة مليئة بالأشجار، إذا كمنت فيه الجيوش العظيمة الجرارة شهرًا لم يعلم بهم أحد[4]. وهذه المنطقة جعلت الجيش النجاحي غير قادر على المجازفة بدخولها فشكل صعوبة على تمكنهم من القضاء على ثورات ابن مهدي.

استغل علي بن مهدي وأنصاره تلك الأحراج، فكانت غزواته تُغير على بعض أعمال تهامة ليلاً وتحرق ما تجده أمامها، فإذا أدركها الفجر عادت وكمنت في تلك الأحراج فلا يستطيع أحد الوصول إليهم.

ثالثًا : كثرة أنصار علي بن مهدي لاسيما من قبائل خولان. وهذا ما ساعده على استمراره في بعث غاراته على سهول تهامة ليلاً ونهارًا، وامتدادها على معظم تهامة حتى " أجلا جميع البوادي وقطع الحرث والقوافل التجارية "[5]، وكان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والرقيق وما عجز عن السير عقروه[6]، فأرهب ذلك أهل تهامة ونشر فهيم الرعب ومضى بخراب معظم

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥١؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

(٢) عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٣) أحراج : جمع حرجة، وهي الأرض الملتفة الأشجار. ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق١٥٨؛ عمارة : نفس المصدر، ص١٥٠، ١٥١؛ المفيد، ص٢٣١، ٢٣٢؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٥.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص٢٣٢؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ الوصابي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٥٦.

(٦) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

عمال تهامة، وبطلت السفار وعمارة المدن في تهامة، فأثر ذلك اقتصاديًا على الدولة النجاحية تجار زبيد وتهامة، ومن يتاجر إليها، وأوضح ذلك عمارة بقوله : " فانقطع الناس عن السفر من زبيد إلى عدن ومن عدن إلى زبيد مدة ثلاثة سنين فقضى ذلك برخص بضائع كل بلد منهما وغلائها في البلد الآخر حتى صار ما يساوي دينارًا وما يساوي دينارًا في البلد الآخر بأربعة دنانير "[1].

سلك علي بن مهدي في عدائه للدولة النجاحية ناحيةً أخرى، فعندما رأى علي بن مهدي طول فترة حربه مع الأحباش حاول الاستعانة لقتالهم بحاكم عدن الداعي محمد بن سبأ بن أبي السعود الزريعي، فذهب علي بن مهدي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م إلى ذي جبلة للقائد أثناء إقامته بها، وطلب منه أن يساعده في محاربة أهل زبيد والدولة النجاحية، إلا أن الداعي محمد بن سبأ رفض مساعدته، ونفسر هذا الرفض إلى سببين :

أولهما : أن العداء المذهبي بين الصليحيين وبني نجاح لم يعد من القوة التي كانت عليه من قبل، بعد انتقال الحكم من الصليحيين إلى آل زريع الذين حكموا عدن وأقاموا علاقات حسن جوار مع الدولة النجاحية في زبيد[2].

ثانيًا : تعارض مذهب علي بن مهدي مع بني زريع دعاة الإسماعيلية والذين يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية[3].

بعد فشل علي بن مهدي في الحصول على مساعدة من الزريعيين ضد حكام زبيد، فتآمر على قتل وزيرها وقائدها سرور الفاتكي، مُقَدِّرًا حدوث الاضطراب الداخلي للتنافس المتوقع بين الرؤساء على منصبه.

وبالفعل أرسل علي بن مهدي أحد رجاله والذي ظل يترصد الوزير ويكمن له حتى تمكن من قتل القائد سرور الفاتكي في مسجده في زبيد[4] عندما كان يؤدي صلاة العصر وذلك يوم

---

(١) عمارة : النكت العصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٩١م، ص٢٦، ٢٧.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٩.

(٣) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣١؛ الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص٨٣.

(٤) قاتل سرور الفاتكي من أصحاب علي بن مهدي ويدعى محرم، قتله وهو في الركعة الأخيرة من صلاة العصر فطارده الناس وقتلوه في عشية ذلك اليوم بعد أن قتل جماعة منهم. يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢.

الجمعة في صفر سنة ٥٥١هـ/ مارس ١١٥٦م[1].

وكما توقع علي بن مهدي من أن عملية قتل القائد الوزير سرور الفاتكي ستشغل رؤساء أهل زبيد بالتنافس والتحاسد على تولي الوزارة وقيادة الجيش بدلاً من سرور " فانفتح على الدولة بعده أبواب الشر المسدود، وانحل العقد المشدود "[2]. فأدى ذلك إلى محاربة بعضهم لبعض وعدم تمكنهم من صد هجمات علي بن مهدي، فساعد ذلك ابن مهدي على التقدم لحرب النجاحيين.

عندئذ غيَّر ابن مهدي من أسلوبه في المعركة، فنزل من حصن " الشرف " إلى حصن " الداشر " الذي كان يبعد أقل من نصف يوم مشيًا على الأقدام من زبيد وانضم إلى جيش ابن مهدي عرب ورعايا تهامة[3]، الذين كانوا رعايا الدولة النجاحية تأثرًا به وخوفًا من بطشه، ولنفورهم من الدولة النجاحية وما يحدث فيها من تنافس على السلطة. فتجمع لدى عليٍّ بن مهدي أثناء زحفه على مدينة زبيد أناس لا تحصى[4].

حصار زبيد :

زحف علي بن مهدي ومن معه من فلول جيشه حتى وصل إلى باب مدينة زبيد وظل يشن على زبيد غارات متعددة ويفرض عليها الحصار، حتى بلغت غاراته على أهل زبيد فيما يذكر اثنين وسبعين زحفًا[5]، قتل فيها العديد من الأفراد من الطرفين، وأصابت هذه الغارات أهل زبيد

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢١؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢١٨

ويذكر عمارة أن سرور قُتل في رجب من نفس السنة ويؤيده في ذلك يحيى بن الحسين : أخبار القطر اليماني، ص٣١١؛ وأيضًا ابن الديبع في الفضل المزيد، ص٧١.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٢؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٢.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق١٦٢؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٢؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣٢.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٦؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٥٢؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر والصفحة؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦٣؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٢؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٧؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٨؛ يحيى بن الحسين : أخبار القطر اليماني، ص٣١١، ٣١٢.

ويذكر ابن الحسين أنه لم تصبر أمة على الحصار ومعاودة القتال كصبر أهل زبيد على قتال ابن مهدي؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٤٠.

بالفزع والضر والجوع واشتد عليهم البلاء.

ونتيجة لهذا الحصار حاول أهل زبيد الاستنجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، والذي تصادف وجوده آنذاك في حصن " أشيح " وشرطوا أن يُملكوه عليهم[١].

عندما وصل الإمام أحمد بن سليمان إلى " أشيح " أقام بها شهرًا، ووصله ابن أحمد بن محمد بن الخضر الخولاني، صاحب حصن قوارير (حصن كبير في وصاب السافل) بوصاب شاكيًا ما لحقهم من ابن مهدي حيث تمكن ابن مهدي وجيشه من الحصن فذبحوا من فيه صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، ولم يبقوا إلا على أربع عشرة امرأة منهم صهرته وبناتها فسباهن، وأخذ جميع ما في الحصن من الأموال[٢]، وكان مع علي ابن مهدي قوم من رازح (أحد أقضية لواء صعدة ويضم عدة قرى) يقال لهم بنو منبّه زادوه جرأة، فغضب الإمام لذلك، وعزم على الانتقام من ابن مهدي فحشد قبائل " جنب " وتألف رئيسهم زيد بن عمرو وغيره من المشايخ بالمال، وقصدوا زبيد، وتقدموا إلى الجليب تحت حصن قوارير، وأمسوا هناك ولما أصبحوا، أرسل الإمام جماعة للكشف عن ابن مهدي، فتقدمت طليعة إلى محله فوجوده في نفر قليل، ولم يكن قد علم بوصولهم، وعادوا إلى معسكرهم يحثون أصحابهم على مباغتة الرجال وانتهاز فرصة غفلته، فقال لهم شيخهم جابر بن عبدالله الجنبي : إن كنتم تريدون أموال أهل زبيد، فدعوا ابن مهدي إلى أن تفرغوا من زبيد وهو لكم من بعد، وإن لم تكونوا تطمعون في زبيد، فخذوا ابن مهدي "[٣].

ولكن ابن مهدي انتبه لهم سريعًا، فما استيقظوا إلا مع وقع السيوف، ولكن الإمام ومعه جماعة من أصحابه تصدوا لابن مهدي فانهزم، وقتل جماعة ممن معه، وعندما أراد الإمام أن يقدم إلى موضع ابن مهدي، امتنع عليه أصحابه وأبوا إلا قصد زبيد فساعدهم وسار إلى زبيد، وضرب باب الشبارق، وقد ظفر جنده في طريقهم بقافلة لابن مهدي تحمل حَبًّا وسمنًا، فنهبوها وأدخلوها زبيد، وخرج أهل زبيد من العلماء والقواد لاستقبال الإمام وأصحابه.

وفي مقابل مساعدة الإمام لأهل زبيد طلب منهم قتل مولاهم فاتك بن محمد بن فاتك ابن جياش، الذي تولى الحكم بعد أخيه فاتك بن منصور، لاتهامه بالخروج عن الدين، فقُتل على أيد عبيده سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م[٤]، ولكن الإمام الزيدي عجز عن نصرتهم ضد علي بن مهدي،

---

(١) سليمان بن يحيى الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٤-٢٣٦.

(٢) سليمان بن يحيى الثقفي : المصدر السابق، ص٢٣٤.

(٣) سليمان بن يحيى الثقفي : نفس المصدر، ص٢٣٥.

(٤) رأى الإمام قتل فاتك بن محمد لأنه يرمي بالأبنة (عيب خلقي أو شذوذ جنسي) والتمكين من نفسه حتى حكى-

فتركهم وعاد إلى ذمار[1].

والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن ... لماذا أحجم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان عن مناصرة النجاحيين ؟

فبعد قتل فاتك بن محمد وصل الإمام وجيوشه إلى زبيد وأقام فيها ثمانية أيام[2]، وجعل زبيد المنتصرة بغير قتال، وجعل على زبيد رجلاً من بني جياش يقال له محمد بن نجاح، وكانت قوّاد النجاحيين تنفق على عسكر الإمام مدة إقامتهم في زبيد، وأمّا الإمام وخاصته فإنه كان ينفق عليهم من ماله.

وكان بعض قُوّاد الأمير فاتك قد اغتصب كمية كبيرة من مال فاتك فاستجار بالإمام، فاجتمع قواد النجاحيين، وقالوا إن مع هذا مال ملك زبيد، فقال لهم : " يكون معه مال من كان، فقد أجرته وما معه ". وهذا بالطبع لم يعجب القواد النجاحيين. وكذلك تقاعس قوم من الجنبيين والخولانيين أصحاب الإمام من الاتجاه لمحاربة ابن مهدي بسبب حدوث خلاف بينهم وبين أهل زبيد.

حدث ذلك عندما حاول الإمام الخروج إلى رمع للاتجاه لمحاربة ابن مهدي حيث تأخر بعض أصحابه في زبيد وتقاعدوا عن الخروج للحرب، فأغلق عليهم أهل مدينة زبيد الباب ولم يفتحوه إلا بعد مخاطبة الإمام لهم، وقد أخذوا خيلهم وسلاحهم فهمّ الإمام لمحاربتهم ولكنه تركهم وعاد إلى ذمار.

ونتيجة لذلك تراجع الإمام الزيدي أحمد بن سليمان عن مناصرة النجاحيين[3].

= أنه كان يعقد بريماً (حبل فيه لونان مزين بجوهر، تشده النساء على الوسط والعضد) على بطنه تشبهًا بالنساء، فقتله الإمام حدًا، بعد أن بُذل له في تركه مال فأبى، وقال : " لو أعطيتموني في تركه ملك زبيد لم أقبله "، وذلك عندما شعر الأمير الحبشي بالخطر أرسل بعض جواريه بفديه إلى الإمام على أن يعزله ويولي سواه، فلم يقبل من الفدية فكسرت رقبته، ورمى قومًا كانوا معه يفعلون المنكر بالحراب.

سليمان بن يحيى الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٢؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٢.

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ص٢٧٦؛ الخزرجي : العسجد، ق١٦٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢، ١٢٣؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٢، ١٥٣؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٠، ٥١.

(٢) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ غاية الأماني : نفس المصدر، ص٣١٢؛ سليمان الثقفي : المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٣) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص١٧٤؛ سليمان الثقفي : نفس المصدر، ص٢٣٨؛ السروري: تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٨؛ المجلة التاريخية المصرية : دولة حبشية في اليمن، ١٩٥٩م، م٨، ص١١٦.

استيلاء علي بن مهدي على مدينة زبيد وتوطيد سلطانه عليها :

ازدادت أمور مدينة زبيد تعقيدًا بعد قتل أهلها لمولاهم فاتك بن محمد، حيث أدى ذلك إلى عدم الاتفاق فيما بين رجال الدولة النجاحية حول تولي الإمارة، فضلاً عن عدم اتفاقهم حول من يتولى قيادة الجيش والوزارة. فسبب ذلك عدم مقدرتهم مقاومة زحف علي بن مهدي وجيشه على زبيد فأتاح بذلك فرصة لعلي بن مهدي أن يجهز جيشًا جرارًا ويتجه به إلى زبيد، حيث تمكن من دخولها في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤هـ/ يوليو ١١٥٩م(١)، استولى عليها قهرًا بالسيف.

وباستيلائه على مدينة زبيد زال ملك آل نجاح وأتباعهم، وانقرضت دولتهم، وبدأ قيام دولة بني مهدي(٢).

وفي ذلك يقول ابن مهدي(٣) :

عناق العتاق الصافنات السوابق ... ألذ وأشهى من عناق العواتق

وسهرتنا بالليل فوق ظهورها ... ألذ إلينا من رقاد النمارق

وما العز إلا في صها كل صاهل ... من الخيل لا في صهوتي كل ناهق

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٦؛ الحمزي : كنز الأخبار، ق٩٠؛ الخزرجي : العسجد، ق١٦٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٠؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢٠، ص٣٢٢؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٣، ص٣٥.

(٢) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٣؛ الجندي : السلوك : ج٢، ص٥١٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٣؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٢؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢١٩؛ ابن الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٨١؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٤٠؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٣؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٢٠٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٨٩.

R. Smith : Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p. 134; The New Encyclopaedia Britannica : Yemen, Volume 13, p. 819.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٨، ٢٥٩.

هذه أجزاء من قصيدة طويلة قالها علي بن مهدي عندما دخل زبيد.

صَها : جمع صهوة وهو من ظهر الفرس مقر سرجة ومقعد الفارس. ابن منظور لسان العرب، م٧، ص٢٩٩.

الطُلا : بالضم هو العنق. ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٥٨.

ومـا طلعـت أسـيافنا مـن غمودهـا	فتغـرب في الطـلا والمفـارق
أدرنـا علـى درب الحـصيب صـواعقا	يحـاكي صـداها موبقـات الـصواعق
بجـيش كجيـاش العـبير عرمـرم	يعـم إكـام الأرض مثـل الـسمالق
صـدمنا بجـيش الخيـل بـاب سـهامها	ودارت علـى درب الحـصيب الغلافـق
وسـالت نواصـيها علـى بـاب قرتـب	ولم تـسأل أن حالـت ببـاب الـشبارق
علـى بابهـا الغربـي كـان حـصادهم	وأسـيافنا فيهـا حـصاد المنـافق
تركنـا علـيهم في زبيـد بوائقـا	بهـا نـسبوا مـا استنـسبوا مـن بوائـق
أنـا الـسيد المهـدي والفيلـق الـذي	يمـزق يـوم الـروع شمـل الفيـالق
لـه حكـم داود وسـورة يوسـف	وحكمـة لقمـان وملـك العمـالق

وجدير بالذكر أن نوضح العوامل الهامة التي ساعدت علي بن مهدي في الاستيلاء علـى مدينة زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م.

أولاً : علاقته بأصحابه أي أتباعه، فقد أطاعوه طاعة عمياء وجعلوه في مصاف الأنبياء(١)، فكان علي بن مهدي (إذا غضب على رجل من أكابرهم وأعيانهم حبس نفسه في الشمس ولم يطعم ولم يشرب ولم يصل إليه ولد ولا زوجة، ولا يقدر أحد أن يشفع فيه حتى يرضى عنه ابتداءً من نفسه)(٢).

ثانيًا : استغلال علي بن مهدي حب الناس للدين في صورته والتضحية في سبيله فـألزمهم طاعته لتحقيق مطامعه السياسية عن طريق الدين، في حين أن الناس كانوا يعتقدون امتثالاً وطاعة للدين نفسه، فصدقوه بكل ما يقول وأطاعوه طاعة عمياء، فكان يلهب حماستهم بحـسن منطقـه وبلاغته وسحر بيانه، بأن الحق معهم(٣).

وبهذا التأثير حقق علي بن مهدي الوصول إلى هدفه السياسي والديني معًا في إسقاط الدولة النجاحية واستيلائه على مدينة زبيد وإقامة دولته منها.

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ص٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج٢، ٥١٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٦؛ عمـارة : تاريخ اليمن، ص١٥٦؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج٢، ص٦٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ الجندي : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣)

فما لهم غيـر الدمـاء مشـارب	وما لهم غير النفـوس مطاعم
كأن الوغي قد صار في أنفس الورى	هيامًا فمن يقتل يمت وهو هائم

أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٣٩، ٣٤٠.

كذلك استخدم علي بن مهدي أسلوب الشدة في معاقبة من ينضم إليه لمعرفة من يستطيع أن يتحمل الصعاب معه ويصبر على المتاعب ابتداءً من تدريبه على الوقوف بالشمس لفترات طويلة ولم يطعمه ولم يشربه ولم يصل إليه ولده ولا زوجته(1)، وانتهاءً بالصمود في المقاتلة المستميتة ضد الدولة النجاحية، إذ أنه من يستطيع أن يتحمل حرارة الشمس وعدم وصول ولده وزوجته إليه، يستطيع أن يصمد في المعركة القتالية(2).

وكان يفرض على أتباعه من المهاجرين شروطًا عسيرة لإثبات ولائهم له، بأن يأمر الواحد منهم فيطيع، بقتل أبيه أو أمه أو أخيه أو ابنه، تأويلاً منه لقوله تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾(3).

كذلك سيطر على أمور معاشهم بأن ألزمهم تسليم ما تغزل نساؤهم وبناتهم إلى بيت المال والتزم هو بكسائهم جميعًا(4)،

فأوجد بذلك نظامًا تعاونيًا يدفع كل فرد من أصحابه ما لديه من الأموال النقدية والعينية يشرف هوَّ عليه ويتصرف به ويوزعه كيفما شاء(5).

ومن الواضح أن هذا النظام الذي كان يطبقه علي بن مهدي أثناء بقائه في الجبال وهو يحارب النجاحيين، وعندما سيطر على مدينة زبيد ووطّد سلطته عليها، ترك العمل بهذا النظام، إذ أصبح لدولته موارد مالية ثابتة يدفعها الناس إليه سنويًا وأصبح للجند مرتبات وليست له حاجة إلى التبرعات التي كان يدفعها أصحابه إليه، وإنفاقها لمن يحتاجها من أصحابه.

وبعد أن أسس علي بن مهدي دولته في زبيد لم تطل مدة حكمه حيث أنه توفى في ٦ شوال في نفس السنة ٥٥٤هـ/ أكتوبر ١١٥٩م(6)، أي بعد أن حكم فيها شهرين وواحد وعشرين يومًا.

---

(1) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٦.

(2) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٩؛ الحياة السياسية في اليمن، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(3) سورة المجادلة، آية ٢٢.

ويذكر عمارة : " أنه كان يعرف صبيًا من المهاجرين كان جارًا له، وكان يتفقه معه، راحت والدته إليه تزوره فذبحها ". المصدر السابق والصفحة.

(4) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٦؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة.

(5) السروري : المرجع السابق، ص٢٠٠.

(6) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ عمارة : نفس المصدر، ص١٥٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٣.

دُفِنَ علي بن مهدي في موضع كان أوصى به لولده مهدي أن يدفن فيه، وأن يُجْعَل مسجدًا جامعًا يُصَلّى فيه الجمعة نظيرًا لما فعلته الحرة الملكة بذي جبلة وسُمِيَ ذلك الموضع بالمشهد[1]، وبنو على قبره قبة صفحت جدرانها بالذهب والجواهر الثمينة وستائر الحرير[2].

تولى مهدي[3] بن علي بن مهدي الحكم وقبض على زمام السلطة مع أخيه عبدالنبي، بعد وفاة والده، فتولى مهدي قيادة الجيش والسرايا، وتولى عبدالنبي أمور الدولة[4].

طبق مهدي وعبدالنبي أول قوانين عسكرية أنشأها والدهما في اليمن، استطاعا أن يسيطروا على الفوضى العارمة، والقضاء على السلطنات والمشيخات والدويلات التي كانت تعيش نهبًا وغصبًا واستهتارًا؛ وإن كانت بلغت من العنف والقسوة مبالغً لم يعرف له نظير في تاريخ الشعوب من قبل.

وأخذ مهدي عن والده العناد والتجبر والمذهب أيضًا، فقابل المنكر بالمنكر ونهى عنه بما هو أنكر[5].

المرحلة الثالثة :

ولي مهدي بن علي بن مهدي[6]، بعد وفاة أبيه وقام بتوسيع نطاق دولته في الاستيلاء على

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٣؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٥٨٣؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٣.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٩؛ جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص٨٩؛ أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، هامش ١٤٥.

خرب بنو مهدي جامع الأهواب ــ فرضة المراكب الواصلة من عدن ــ ونقلوا أخشاب الساج التي جلبت من الهند إلى المشهد الذي بنوه لأبيهم في زبيد، وقد خرب المشهد بعد ذلك وجُعِل اسطبلاً لبعض السلاطين الأيوبيين، ثم سمى معقاب عاتكة جعلت فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم، ثم خرب ولم يبق منه إلا المنارة التي سقطت على عهد بني رسول سنة ٨٣١هـ " الملك الظاهر الغساني ".

(٣) كان مهدي بن علي يلقب بالملك الغشوم، الأجبُّة بن الأجبة والقطب بن القطب وتعني هذه الألقاب أنه ذو سلطان على قومه بنسبه وسطوته وتوارثه للحكم. ابن منظور : لسان العرب، ج٣، ص٦٣، ج١١، ص٥٣.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق١٦٤؛ Lane, Poole : Mohammadan Dynasties, p. 96.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٥١٩؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠؛ أحمد بن محمد الشامي : تاريخ الفكر اليمني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، السفر الأول، ص٤٤٦.

(٦) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢؛ الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٣.

المناطق التابعة لدولة بني زريع، فجهز جيشًا كبيرًا وخاض به حربًا كبيرًا في العديد من المناطق، من ضمن ذلك اغار على لحج مرتين أحدهما في شهر شعبان من سنة ٥٥٦هـ/ يوليو ١١٦١م، والثانية في شهر رمضان سنة ٥٥٨هـ/ أغسطس ١١٦٣م، فقتل في هاتين المعركتين أعداد كبيرة من أهل لحج وسبى الحريم، كما نهب الأموال الكثيرة[١].

وقال في ذلك الشاعر الهبيني " شاعر بني مهدي " :

أتشرب الخمر في ربا عدن	والبيض والسمر في الحصيب ظمأ
كلا ومهدي فارس بطل	وصدر حيزوم يملأ الحزما[٢]

في ذلك الوقت خافه الداعي عمران بن سبأ الزريعي حاكم عدن فعقد مهادنة مع مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملوة بمال محدد يؤديه إليها سنويًا على ألا يتعرض له ولا لبلاده[٣]، فكانت الدولة الزريعية في ذلك الوقت تعاني ضعفًا في صفوف الجيش الذي كان يعيبه عدم التنظيم والتجهز لمواجهة جيش مهدي بن علي، لما كان يضمه لكثير من القبائل الغير مدربة عسكريًا، فمن هنا تظهر عدم مقدرة الدولة الزريعية على مواجهة مهدي بن علي وقواته[٤].

استمر مهدي بن علي في التوسع والسيطرة على المناطق المتعددة، فاتجه بالهجوم على اليمن الأسفل من الجنوب، وكذلك نحو مدينة الجند فحاصرها ١٤ يومًا ثم دخلها بالقوة في ذي القعدة من سنة ٥٥٨هـ/ أكتوبر ١١٦٣م، بعد أن رفض أهل مدينة الجند التسليم له وطاعة أوامره، فقتل كل من وجد بها من صغير أو كبير ورماهم في بئر المسجد الموجود بها، كما أحرق أغلب دورها، وأحرق المسجد على من فيه من الضعفاء والعجائز والعواكف العزل من السلاح، بعد أن هرب رجالها، وأحرق الكتب والمصاحف والأموال التي كانت في المسجد وتركها خاوية على عروشها[٥].

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٦٤؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٥؛ اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ط٢، ج٣، ص٣٢٢؛ العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص٦٣.

(٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام وقيل ما استدار بالصدر والبطن. ابن منظور : لسان العرب، ج٤، ص١٠٨؛ الحزما : الفرس. ابن منظور : لسان العرب، ج٤، ص١٠٨.

(٣) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

(٤) عمارة : المفيد، ص٢٣٣؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠١.

(٥) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٦٣.

لم يقدر أحد من الناس على ردع مهدي لحرق المسجد بمن فيه قائلاً لهم : " قد استوجب النار لأنه قد خطب على منبره الإسماعيلية فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم، وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار "(١).

اتجه مهدي بعد ذلك إلى المغربة أو العَرِبَة(٢) والذنبتين(٣) القريبتين من الجند، وقتل أغلب أهل العربة، أما أهل الذنبتين، فحاولوا الهرب والتخفي وراء أحد الإكام ذي عراكض(٤)، إلا أن مهدي وجيشه تبعهم فقتل الكثير منهم. كما استولى بسهولة على بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحُرَيم وحَلَمه وريشان من السلطان علي بن أبي الفتوح الوليدي(٥)، وتعز وصبر شراءً من أحمد بن منصور بن المفضل بن أبي البركات(٦).

وبعد أن نشر مهدي الخوف بين الكثير من الناس في العديد من المناطق، كان يسعى لتوسيع نفوذه، لولا أن داهمه المرض، فعاد إلى زبيد وقد أصابته طائرة(٧) تقطر منه جسمه بعد أن ظهرت فيه شبه إحراق النار بحيث أنه لم ينزل تعز إلا بمحفة قد فرشت بالقطن المندوف، وعند وصوله زبيد أقام بها أيامًا، ثم توفى في ويوم الأحد الثامن عشر من شهر المحرم سنة ٥٥٩هـ/ نوفمبر ١١٦٣م، وقُبِرَ مع أبيه في مشهده(٨).

بعد وفاة مهدي بن علي بن مهدي تولى أخوه عبدالنبي الأمر(٩)، ولكن أخاه عبدالله انتقض

---

(١) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣٦.

(٢) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٨.

العَرِبَة : قرية عامرة جنوب مدينة الجند بمسافة قرابة ميلين. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٤٣٧.

(٣) الذنبتين : قرية من بادية الجند. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٢٥٢.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق٦٤؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٢.

ذي عراكض : قرية كبيرة قبلي الذنبتين. الجندي : المصدر السابق والجزء، هامش ٥١٩.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٢.

(٦) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٨.

(٧) طائرة: هو ما يسمى بداء الطير وفي الطب الحديث الزهري. الجندي: نفس المصدر والجزء، هامش ص٥١٩.

(٨) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ الخزرجي : العسجد، ق١٦٥؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٣ ؛

Derenbourg : Oumara du yémen, vol 2, p. 566.

(٩) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ص٥٨٢، ٥٨٣.

عليه، وغلبه على زبيد، وخُطِب له بالإمامة[1]، ولكن عبدالنبي استطاع إخراجه من زبيد، واستقر بالحكم على زبيد من سنة ٥٥٩هـ-٥٦٩/١١٦٣-١١٧٤م.

كان عبدالنبي يُلَقب بالفارس الشجاع، الشاعر، الأديب[2]، كما اتُصِفَ بأنه من أنجد الأبطال[3]، ويعد من أهم رجالات دولة بني مهدي، حيث أنه ظل عشر سنوات مستقلاً بالسلطة يلتهم المشيخات والسلطنات اليمنية وذاع صيته فيها من الجزيرة العربية إلى بغداد والشام ومصر والمغرب العربي.

فما إن تسلم عبدالنبي السلطة بعد أخيه، اتجه إلى التوسع في الاستيلاء على المناطق المتعددة، فسار إلى منطقة " أبْيَن " التابعة لبني زريع، فأحرق أحد قراها المعروفة " بالضربة " في شهر صفر سنة ٥٥٩هـ/ ديسمبر ١١٦٣م[4]، وقتل الكثير من أهلها ثم عاد إلى زبيد[5].

وفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م أعد عبدالنبي جيشًا كبيرًا واتجه به نحو المخلاف السليماني شمال تهامة، فقاتل أهلها قتالاً شديدًا حتى قتل الكثير منهم، ومن ضمن من قتلهم الأمير الشريف وهّاس بن غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس السليماني[6]. فضلاً عن ذلك أنه أخذ الكثير من أموالهم وسبى العديد من نسائهم[7].

---

(١) ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٦١.

(٢) اليماني : تاريخ اليمن، ص١٧٤؛ الشامي : تاريخ اليمن الفكري، ج١، ص٤٥١.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١٥٩.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ الخزرجي : العسجد، ق١٦٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٩.

(٥) بامخرمة : المصدر السابق، ص١٥٩.

(٦) الشريف وهاس تم تهديده بالقتل من قِبل المهدي بن علي ولكنه لم يُقْتل إلا على يد عبدالنبي.

ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٧٧؛ بامخرمة : نفس المصدر والصفحة؛ اليماني : المصدر السابق والصفحة؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٨١.

R. Smith : Studies in the Medieval history of The yemen, p. 133.

(٧) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٦؛ الجندي : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ اليماني : نفس المصدر والصفحة.

وفي مقتل الشريف وهاس قال عبدالنبي في قصيدته[1] :

لِمَـــنْ طلـــولُ بـــالحمى	كـــانْ كُـــسْتَيْنْ مُعْلَمـــا
يلقـــى بهـــا المـــصلَّما[2]	والأحقـــب المكـــدّما[3]

ثم بعد أبيات قال :

لـــوتْ بوهـــاسٍ ضُـــحى	فابتدرتـــه مرحـــا
يظـــلُ مـــن تحـــت الرَّحَـــى	مـــضرَّجًا مرغمـــا

أورد المؤرخون أخبار هذه الغزوة على المخلاف السليماني وأحداث القتال وأقوال الشعراء وما كان من نتائجها دون أن يذكروا لها سببًا. حيث كان بين عبدالنبي والشريف وهاس بن يحيى ابن غانم مهادنة[4]، على أن يعطيه ابن وهاس مالاً ليأمنه، ولكنه باغت الشريف على غره، وليس معه غير عبيده وأهل المدينة وليس له حصن يلجأ إليه، فانقض ابن مهدي وأصحابه علـى أهـل الساعد[5] مدينة الشريف ابن وهاس وكان في مقدمة عسكر ابن مهدي أحمد بن علـي الحرامـي ورؤساء من الحكميين[6] الذين انضموا لابن مهدي.

عندما بلغ الإمام أحمد بن سليمان مقتل الأمير وسبي الحريم ساءه ذلك واغتم غمًا شـديدًا، وقال : " لا رحم الله وهاسًا لقد كان لنا غمًا وعارًا في حياته ومماته "، ثم كتب إلى أخيه الأميـر قاسم بن غانم يُعَزِّيه ويؤنبه وبني هاشم كافة بقصيدة أولها[7] :

---

(١) ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص٦٠٣؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠.
هذه القصيدة بلغت ست وأربعين بيتًا في تاريخ الخزرجي، واحتوت هذه القصيدة على معاني كثيرة رثي فيها عبدالنبي والده وأشهده بفضله في تمام قيامه بهذا العمل.

(٢) المصلم : بتشديد اللام مقطوع الأذن أو الأذنين. مادة صلم، ابن منظور : لسان العرب، ج٨.

(٣) الأحقب : حمار الوحشي. مادة حقب، ابن منظور : لسان العرب، ج٤، ص١٧٣.
المكدم : المعضض لأنه مشتق من الكدم الذي هو العض بأدنى الفم. مادة كَدَم. ابن منظور : لسان العـرب، ج١٣، ص٣٤.

(٤) المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٩.

(٥) الساعد : هي قرية أرض حكم بن سعد العشيرة بتهامة وبنو الحكم من بطون مذحج، لهم مواطن بـالمخلاف السليماني. ياقوت : معجم اللدان، م٣، ص٩.

(٦) ذهب مشايخ الحكميين مثل أبي بكر وعلي بن عمرو إلى ابن مهدي ووعدوه بأنهم منه وإليه. سليمان بن يحيى الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٥١.

(٧) سليمان الثقفي : المصدر السابق والصفحة.

هو الدهر يرضي أهله ثم يغضب ويبني لهم حيناً وحيناً يخرّب

ومنها :

كفعل ابن مهدي اللّعين وحزبه وهم ثلة ترعى المواشي وتحلب

وما أظهروا من منكر في تهامة وخطب جسيم صدعه ليس يشعب

ومنها :

وصالوا على الوهاس غدراً وبينه وبينهم عقد ولم يتطيّبوا

والفوه في قوم قليل وقومه كثير وهم في أرضهم عنه غيب

والجدير بالذكر أن الأشراف السليمانيين تصدوا بشجاعة لعبد النبي وجيشه بينما هاجمهم عبدالنبي وجيشه بعنف شديد وهزمهم شر هزيمة وانتهت هذه الغزوة بقتل الكثير من الأشراف ومنهم الأمير وهاس بن غانم وولده، ومطاردة كثير من الأشراف، وكان لوقع هذه الغزوة صدى كبير في تغيير مجرى تاريخ دولة بني مهدي فيما بعد، حيث أن هذه الواقعة من الأسباب التي أودت بكيان دولة بني مهدي في زبيد.

في غرة شهر ربيع الأول من سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م أرسل عبدالنبي أخاه أحمد بن علي ومعه الجيش الكبير إلى الجند لعمارة المدينة ومسجدها، فابتدأ أحمد في عمارتها يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول، فأقام يُعمرها إلى آخر الشهر(١)، وخرج أحمد بن علي بعد إكمال عمارة الجند لمقاتلة بني زريع، حيث اتجه نحو منطقة " الجوّة " قرب الدملوة وكان بها جيش الداعي عمران فحاربهم أحمد حتى هزمهم ثم دخل " الجوّة " وأحرَقها(٢).

وسبق لأحمد أن أغار على الجوّة في بعض الأعياد، وظفر بأهلها، يؤمئذ قال الشاعر الهبيني في ذلك(٣) :

بكرت نقل الكماة راغماً من آل مهدي هما لحازما

وكذلك ليس تروق ابنية العلا إلاّ إذا كنتم لَهُنّ دعائما

صبحت أكناف الجواة بغارة شعواء طبقت الحماة جماجما

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٧.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٧؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١٦٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٧؛ السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص٢٥٢؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٥١.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ المطاع : المرجع السابق، ص١٥٢.

اتجه عبدالنبي بعد ذلك نحو عدة مناطق في اليمن الأسفل وذلك في جمادي سنة ٥٦١هـ/ مارس ١١٦٦م، فاستولى على " تعز " وجبل صبر المطل عليها، و" شريياف وتالبة "[١]، ثم عـاد إلى مدينة زبيد وفيها استكمل استعداده العسكري، واتجه لغزو مخلاف جعفر[٢]، متقدمًا جيشه على رأس جموعه إليه في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، واستولى فيه على حصن المجمعـة فـي مخـلاف الشوافي، كما استولى على مدينة " إب " ثم حصن الشماحي، المطل على مدينـة إب مـن جهـة الشرق وغيرهما من الحصون والبلدان الأخرى[٣].

ساعد هذا التوسع عبدالنبي بن علي بن مهدي في ازدياد نفوذه وسلطته ليس على زبيد فقط بل على اليمن بأسره، ما عدا عدن فإن أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة.

ونتج عن هذا التوسع في دولة بني مهدي في عهد عبدالنبي أن غنم الكثير مـن الأمـوال فانتقل إليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها، وبلغ الاتساع أقصاه، حيث أنه حَصّل في خزائنه[٤] ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن[٥]، ومنها أموال زبيد، وما من عبيد فاتك وجهاتـه وأعيان دولته، إلا من مات عن أموال جليلة من العين جليلة (صار جميع ذلك إليه).

لأنه ملك الذراري والنساء، فأظهروا له كنوز مواليهم، وكذلك المصوغ، واللؤلؤ والجوهر، واليواقيت الفاخرة،والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها وكانوا كما قال الله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (*) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (*) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (*) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًـا آخَرِينَ ﴾[٦]، صدق الله العظيم.

وانتقل إليهم ملك بني وائل سلاطين وحاظة، وكذلك معاقل من بقي من بني الصليحي، وكل معقل منها له أعمال واسعة، فاستولى على ذخائر الداعي علي بن محمد الصليحي وذخائر المكرّم

---

(١) شِرْيَاف : حصن في عزلة بني عيسى من جبل ذُخَر في غرب تعز. المقحفـي : معجـم البلـدان اليمنيـة، ص٣٥٤.

تالبة : جبل وحصن في غرب تعز. ابن الديبع : قرة العيون، هامش ص٢٦٧.

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٣؛ الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٦.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمان، ص١٢٣.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة.

(٦) سورة الدخان، من الآية ٢٥-٢٨.

ن علي زوج الملكة السيدة، وذخائر الحرة الملكة زوجته، التي أودعت ذخائر وكنوز الصليحيين
، حصن التعكر[1].

كذلك انتقل إلى ابن مهدي حصن المَجْعَة وأمواله، وحصن التعكر وأمواله، ومدينة ذي جبلة
في مقر الدَّعوة الفاطمية، وكرسي الملك لبني الصليحي، وأيضًا مدينة الجند وأعمالها، ومدينة
بية وشرياف وذِخَرْ وأعمالها، كذلك مُلْك بني الزر[2]، ومدينة ذي أشرق ومدينة إبْ وحصون
خولان، وبلادها وحصون ربيعة وهي عَزّان وحب والشماحي، وأخذ حصن السّوا لابن السَّبائي
الخولاني، واستولى على معاقل الداعي عمران بن محمد، وهي حصن سَامِع ومطران وحصن
مين، وهذه الحصون بإقليم المعافر، وانتقل إليه معقل اليمن، الذي ليس بعد حصن التعكر وحَبّ
سواه، وهو حصن السمَّدان، وهو حصن منيع لم يقدر عليه أحد من قبل[3].

كذلك استولى عبدالنبي بن مهدي على بلاد بني المظفر سبأ بن أحمد الصليحي، وإقليم
حراز، وبرع، وبلاد بكيل وحاشد، وحصونهما وأعمالهما، وحلية وادي عَنَّة في العُدَين، وأيضًا
وادي زبيد وجبال وادي رَمَعْ وريمة الأشاعر وحصونها ومعاقلها وقراها والمذيخرة وأعمالها،
ودَمْت ووادي نخلة[4].

وهكذا بلغت دولة بني مهدي أقصى اتساع لها في عهد عبدالنبي بن علي بـ مهدي وأوضح
ذلك عمارة بقوله : " واجتمع لعبد النبي هذا ملك الجبال والتهائم وانتقل ملك أغلب ملوك اليمن
وذخائرها إليه "[5].

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٤.

(٢) يذكر عمارة أنه بعد كل الذي ذكره : " وهذا الذي سميته نقطة من بحر ما ملك ابن مهدي ". المصدر السابق، ص١٥٥.

(٣) الخزرجي : العسجد، ص١٧٣؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٣-٢٣٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٨؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة، ١٢٥؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩١.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٧٤؛ عمارة : نفس المصدر، ص١٥٤، ١٥٥؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧٣؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٤؛ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص٢٥٢.

(٥) عمارة : نفس المصدر، ص١٥٣.

العلاقات السياسية لدولة بني مهدي مع حكام اليمن :

أولاً : مع دولة بني زريع (٥٣٣-٥٦٩هـ / ١١٣٧-١١٧٤م) :

بدأت علاقة دولة بني مهدي بالدولة الزريعية بزيارة علي بن مهدي للداعي[١] محمد بن سبأ بمدينة ذي جبلة سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٢] في وقت كان فيه الداعي عظيم القسوة والبأس بعد استيلائه بالقوة والمال على كثير من أنحاء اليمن.

فقد استنجد ابن مهدي بالداعي على أهل زبيد، لكن الداعي رفض التعاون معه في احتلال مدينة زبيد[٣]، فرجع ابن مهدي خائبًا، ولعله رفض مساعدته لإدراكه مدى مطامع ابن مهدي التي كانت أوسع من ذلك، وهذا يعني أنه سيسبب للداعي مشاكل كثيرة في حين أن الداعي كان على علاقة طيبة مع جيرانه من الإمارات اليمينية، وأيضًا كانت علاقته التجارية جيدة مع زبيد.

وبعد كثير من الأحداث تمكن علي بن مهدي من دخول مدينة زبيد وقضى على الدولة الحبشية (النجاحية) في يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٥٤هـ/١١٥٩م[٤]، وبذلك أسس دولة بني مهدي في زبيد، ولكنه سرعان ما مات في ٦ شوال من سنة ٥٥٤هـ. وذُكِرَ في بعض الروايات أنه كان من المسرفين ومن سعوا في الأرض فسادًا[٥].

كانت وفاة علي بن مهدي سنة ٥٥٤هـ م١١٥٩م بدايةً لمرحلة من المشكلات والمتاعب التي أحاطت بالداعي عمران بن محمد بن سبأ، فكان لظهور مذهب ابن مهدي أثره في قيام تلك المشكلات.

كان علي بن مهدي على مذهب أبي حنيفة في الفروع،ثم أضاف لعقيدته التكفير في

---

(١) هذا اللقب يدل على أنه كان يدعو باسم الفاطميين في عدن وتوابعها من الأجزاء الخاضعة لسيرته وكان هذا اللقب وراثيًا عن بني زريع منذ عهد الداعي سبأ بن أبي السعود الذي كان أول داع من بني زريع. ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢١؛ محمد كريم : عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣-١٢٢٨م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٥م، ص١٧٥.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٥؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) إدريس : نزهة الأفكار، ق٧؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص١٠٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٥؛ الفضل المزيد، ص٧٥؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر، ص١٢٣؛
Lane Poole : Mohammedan dynasties, p. 92.

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥.

المعاصي وكان على مذهب الخوارج[1]، ونحن هنا لا نناقش في صحة هذه العقيدة ومدى التزامها بالمبادئ التي جاءت من أجلها، إذ إن المطامع السياسية كانت دائمًا تطغى على المبادئ والمثل التي تنادى بها كثير من الجماعات التي اتخذت شكل مذاهب وعقائد دينية، لكننا نود الإشارة إلى خطر هذا المذهب في منافسة بني زريع الذين كانوا يدينون المذهب الإسماعيلي ويدعون لنشرها، وهذا يوضح مدى التأثير في العلاقات السياسية بين دولتين تدين كل منهما بمبادئ تخالف الأخرى.

فكانت علاقة مهدي بن علي مع بني زريع في عدن وتوابعها عدائية، لإغارته على لحج مرتين في شعبان سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، وفي رمضان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فقتل في هاتين المعركتين أعدادًا كبيرة من أهل لحج وسبي الحريم و نهب أموالاً جمة[2]، وترك خلفه أثرًا عميقًا من الدم، دلالةً على عنفه وسفكه للدماء[3].

لم يكتف مهدي بن علي بالإغارة على لحج فبعد خروجه من لحج اتجه إلى مدينة الجَنَد التي كانت أيضًا ضمن مملكة بني زريع في عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ فحاصرها أربعة عشر يومًا ثم دخلها[4]، فقتل كثيرًا ممن وجدهم فيها من صغير وكبير، ورماهم في بئر مسجدها، وأكثر من حريق دورها، كما أحرق مسجدها على من فيه من الضعفاء وخربه[5]، فهرب عنها سكانها بعد أن تعرضت لمقتلة عظيمة وذلك سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م.

كانت قوة مهدي بن علي كاسحةً ويبدو أن موقف بني زريع في عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ لم يكن حازمًا، ولعل ذلك يرجع إلى عدم توازن القوتين المتنافستين، وأن مهدي بن علي قد أغرى القبائل بالأموال والغنائم من المناطق المفتوحة لذلك استمر في مواجهة أملاك الزريعيين[6]، وإشاعة الخراب والدمار والقتل فيها، وامتدت غزواته إلى تعز وإب والجَنَد

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٤؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٣١٥؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص٣٤٨، ٣٤٩؛ محمد كريم : عدن، ص١٧٨؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣٦.

(٣) Bikhazi, Ramzi. J. : Coins of Al-yemen, 132–569, A. H., Al-Abhath, vol. xxiii. Nis. 1–4 (Beirut – December, 1970), p. 111.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٥٢.

(٥) ابن أسير: الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ الكبسي: اللطائف السنية، ص٢٨؛ ابن الديبع: المصدر السابق والصفحة.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦٣، ١٦٤؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨، ٥١٩؛ يحيى بن الحسين : =

والمعافر، مما سبب إرباكًا وقلقًا شديدًا لأمراء عدن من بني زريع، وخاصةً أن جيش الدولة الزريعية كان يعاني من عدم التنظيم والضعف الذي جعله غير قادرًا على مقاومة مهدي بن علي وقواته[1].

لذلك عمل الداعي عمران الزريعي على مهادنة مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملوة بمال محدد يؤديه إليه سنويًا، وذلك سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢[2]. ولكن مهدي بن علي لم يلتزم بهذه الهدنة وأصبح تهديده متواصلاً لغز وعدن ولكنه لم يستطع ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن مهدي بن علي اشترى حصني صبر وتعز من أحمد بن المنصور بن المفضل بعد توليه عليهما إثر وفاة أبيه منصور بن المفضل، وهذا يعني أن بني مهدي سيطروا على معظم أملاك بني زريع التي استولى عليها الداعي محمد بن سبأ بعد انتصاره على منصور بن المفضل وإرغامه على بيع معظم حصونه ومدنه سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وبذلك حل بنو مهدي محل بني زريع في السيطرة على حصون ومدن الصليحيين.

بعد وفاة مهدي بن علي تولى أخوه عبدالنبي بن علي الحكم واقتضى سيرة أخيه مهدي، لذلك حاول بعد توليه الحكم، غزو عدن ولكنه لم ينجح في محاولته، فأمر أصحابه بالإغارة على أبْيَن وأحرقها سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م[3]، كما أحرقوا قرية الضربية في شهر صفر سنة ٥٥٩هـ/ ديسمبر ١١٦٣م[4]، ولاشك أن تلك الغزوة تؤكد عدم التزام عبدالنبي بالصلح الذي عقد بين الداعي عمران وأخيه مهدي، كما يتضح أيضًا النيات العدائية التي يضمرها بنو مهدي حكام زبيد لبني زريع حكام عدن[5].

ولم توضح لنا المصادر موقف الداعي عمران من تلك الغزوة وكيفية مواجهتها. كانت خطط عبدالنبي تستهدف تنظيم الغارات على مدن الزريعيين بغية إضعافهم فأغار على الجوة في

= غاية الأماني، ص٣١٥؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص٢٩٦؛ شرف الدين : اليمن، ص٢١٤؛ محمد كريم : عدن، ص١٧٨؛ Bikhaz : Coins of yemen, p. 111

(١) محمد كريم : المرجع السابق، ص١٧٩.

(٢) الخزرجي : العسجد، ص١٦٣؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٣؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٣٦٥؛ محمد كريم : نفس المرجع والصفحة؛ السروري : تاريخ اليمن، ص٢٠١.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ص٥٢، ٥٣.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص١٥٩.

(٥) محمد كريم : نفس المرجع، ص١٨١.

ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، فقتل من المدينة الكثير وترك وراءه أشلاء قتلاهم متناثرة في كل مكان[1].

ويتضح لنا من هذه الغارات التي شنها عبدالنبي على مدن الزريعيين، أنه كان يتمتع بقوة ضاربة لا تقدر الدولة الزريعية على ردعها. ومن هنا بدأت تتقلص أملاك الدولة الزريعية ورقعة نفوذ دولة بني مهدي في ازدياد مستمر متوجةً بقوة غاشمة لا يقدر على مواجهتها أحد.

وبعد وفاة الداعي عمران بن محمد وتركه أولادًا صغارًا، بدأ بنو مهدي في سلسلة من الهجمات على عدن أثناء إمارة ياسر بن بلال عليها[2].

ففي سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م أغار أحمد بن علي على الجوة، وهي كما نعلم من ممتلكات آل زريع وكان بها جيش الداعي عمران بن محمد بن سبأ، فوقع بينهما قتال شديد، انهزم على إثره جيش الداعي عمران، فدخلها أحمد بن علي وأحرقها[3].

استمر عبدالنبي في التوسع والغزو، فغزا مدينة ذي أشْرَق[4] التي كانت خاضعة لبني زريع فاستولى عليها وعلى البلاد التابعة لها، واشترى حصن التعكر من ولاة بني زريع سنة ٥٦١هـ-م١١٦٦م[5].

وفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م استولى عبدالنبي على حصن المجمعة ثم مدينة إب بعد حصار مخلاف جعفر والمجمعة في شهر ربيع الأول من سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م فسيطر عليهما، وبذلك

---

(١) ياسر بن بلال كان القائم بعدن، أي أميرها والمدبر لأمور البلاد، لذلك وصفه المؤرخون بأنه وزير عمران ومدير دولته، وتركزت سلطته بعد وفاة الداعي عمران فأصبح الحاكم الفعلي للبلاد بسبب صغر أولاد عمران (محمد وأبو السعود ومنصور) وعدم مقدرتهم على إدارة البلاد، واستطاع ياسر أن يُكَوِّن له مكانة وشهرة وَوُصِفَ بأنه رجل عظيم القدر مشهود الذكر وحازمًا حسن السياسية. ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٧.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧١؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢١٨؛ العرشي : بلوغ المرام، ص٢٨؛ عمارة : النكت العصرية، ص٩٢؛ بامخرمة : ثغر عدن، ج٢، ص١٨٧؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص٧١؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص٢٢٩؛ العبدلي : هدية الزمن، ص٦٣.

(٣) ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٦٧؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٧.

(٤) ذي أشْرَق : بلدة في سفح جبل التعكر بالجنوب الغربي من إب؛ المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٣٢.

(٥) إدريس : نزهة الأفكار، ق٣٢؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٣؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن، ص٢٣٠.

تكون الدولة الزريعية قد فقدت الكثير من مواقعها المهمة، فتقلصت رقعتها وضعفت كثيرًا[١].

أطمع هذا التوسع عبدالنبي لأن يستولى على عدن، وبالفعل حاصر أهلها مرات عديدة في محاولة للسيطرة والاستيلاء عليها[٢]، ولكنه لم يوفق، فاتجه إلى بعض الحصون والمدن الزريعية الأخرى وتمكن من الاستيلاء على معاقل الداعي عمران بن محمد، وهي : سامع ومطران ويُمَيّن وهي حصون إقليم المعافر، وحصن اليمن (السمدان) هو من الحصون المنيعة[٣].

إذن استولى عبدالنبي على كل أملاك الدولة الزريعية لاسيما عدن التي تمنعت عليه، والتي كانت تحت حكم ياسر بن بلال في ذلك الوقت، ولم يتضح لنا موقف ياسر بن بلال، حيث كان سلبيًا في موقفه من عبدالنبي وهجماته على عدن ونعلل ذلك، بأن ياسر كان لا طائل له بقوة عبدالنبي ونفوذه، فوقف متفرجًا أو مستسلمًا للأقدار.

إذ كانت العلاقة بين دولة بني مهدي وبني زريع تتسم بالعداء الصريح وعدم التساوي في القوة، فدولة بني مهدي الأقوى عسكريًا، ودولة بني زريع الأقوى في النفوذ، مع بداية علاقتهما، وسرعان ما انتهت العلاقة بينهما بانتقال نفوذ الدولة الزريعية بكل أملاكها ومعاقلها وحصونها إلى دولة بني مهدي، بعد معارك كثيرة غير متكافئة بينهما عسكريًا.

وتباينت العلاقة بينهما ما بين الحرب والمهادنة المشروطة بمال سنوي والتي لم يلتزم بها حكام بني مهدي، وتهاوى النفوذ الزريعي تدريجيًا مع كل حاكم زريعي إلى أن تقلص في عدن المدينة الوحيدة التي لم يستولى عليها بنو مهدي والتي أصبحت تحت حكم ياسر بن بلال بن جرير المحمدي.

وفي ذي القعدة ٥٦٨هـ/ يونيو ١١٧٣م، اتجه السلطان حاتم بن علي بن سبأ الزريعي مستنجدًا بالسلطان علي بن حاتم اليامي حاكم صنعاء لمناصرته على عبدالنبي بن علي بن مهدي الذي عاود الحصار على عدن وذلك سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م.

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٨؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٧؛ ابن سمرة، طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٣.

(٢) ابن الديبع : المصدر السابق الصفحة؛ الفضل المزيد، ص٧٧.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٣٥، ٢٣٦؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص١٠٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص٢٢؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص٣٤٩، ٣٥٠.

ثانياً : دولة بني حاتم (٤٩٣-٥٩٠هـ/١٠٩٩-١١٩٤م) :

تمتعت إمارة آل حاتم بقوتها خلال حكم أسرها الثلاث " آل الغشيم "، " آل القبيب " و" آل عمران " لصنعاء مدعومةً جميعها بقبيلة همدان التي ينتمي آل حاتم إليها نسبًا وعرقًا.

اهتمت إمارة آل حاتم بالسياسة الداخلية لصنعاء والأحداث التي واجهتها في صراعها مع الإمام أحمد بن سليمان " إمام المذهب الزيدي آنذاك "، وصراعها كذلك مع الدعاة الإسماعيلية، وحرص كل من الجانبين على توسيع مناطق نفوذه[١].

بعد وفاة حاتم اليامي وَرِثَه في تولي السلطة في صنعاء ابنه علي بن حاتم وهو من أشهر من حكموا صنعاء من أسرة اليامِيين، إذ إن نفوذه امتد إلى الكثير من مناطق اليمن الأعلى مثل شِبام كَوكَبان، وذِيبين، وحَرّاز والطويلة، والمحويت، وحصن أشْيَح.

لم يبدأ الاحتكاك الفعلي بدولة بني حاتم ودولة بني مهدي إلا بعد أن استنجد السلطان حاتم ابن علي بن سبأ الزريعي بالسلطان علي بن حاتم لنصرته على عبدالنبي بن مهدي وذلك في ذي القعدة سنة ٥٦٨هـ/ يونيو ١١٧٣م[٢].

وعندما وصل الزريعي إلى صنعاء استقبله السلطان علي بن حاتم اليامي وأكرمه وأبدى استعداده لمناصرته، حمايةً لدولته من التهديد المباشر له وللدولة الزريعية كدولتين شيعيتين من قبل عبدالنبي، ولكنه اشترط عليه اشتراك قبائل جنب ومذحج[٣]، فإذا وافقت هاتان القبيلتان مع حاتم الزريعي على مناصرته، فسوف يأتي السلطان علي بن حاتم اليامي للمحاربة معهم.

ولعله اشترط ذلك الأمر لتوسيع التحالف القبلي وزيادة عدد قواته من أجل ضمان النصر على دولة بني مهدي، كذلك لأنه خشي على صنعاء من قبيلة جنب إذا هو خرج منها، فلم يتحرك من صنعاء إلا وقد ضمن ذلك.

ذهب حاتم الزريعي إلى ذمار وعنس حيث السلطان عبدالله بن يحيى والشيخ زيد بن عمرو وطلب منهما نصرته فأسرعا إلى إجابة طلبه، ذلك لأن هاتين القبيلتين من القبائل التي انزعجت من زيادة نفوذ عبدالنبي في اليمن والتوسع الكبير الذي وصل إليه. فكتب الزريعي إلى السلطان

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٠١-٣٠٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٧٦-٧٨؛ نصاري فهمي : العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولة الفاطمية والأيوبية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٤٦.

(٢) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ص٣١٩ ؛

Robert W. Stookey : South yemen, Croomhelm, London, 1982, p. 27.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٨؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٢٨.

ابن حاتم في صنعاء يخبره بموافقة قبيلتي مذحج وجنب على نصرة الزريعيين(١).

قرر السلطان علي بن حاتم السير بمن معه من الجيش إلى همدان وسنحان وبني شهاب ونهد وغيرهم، ونهض بهم لحرب عبدالنبي، فخرج من صنعاء بجموعه في شهر صفر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، حتى وصل ذمار ثم سار منها قبائل جنب ومذحج إلى التباشع من السحول فعسكر به في انتظار قبائل ذمار وعنس(٢).

وعندما وصلت القبائل إلى السحول اتجه الجميع نحو جيش عبدالنبي في إب(٣)، وكان عبدالنبي قد قسم جيشه في مخلاف جعفر إلى ثلاث فرق : إحداهما وضعها في قرية ذي جِبْلَة، والثانية في أَكْمَة الخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة وضعها في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة(٤). أما هو فأقام بحصن تعز.

اتجه جيش التحالف القبلي جميعه نحو أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، فقاتل الفرقة الثانية من جيش ابن مهدي، وكان به أفضل عسكر عبدالنبي، وأسفرت المعركة عن هزيمة فرقة ابن مهدي بعد قتل الكثير منها وأسر نحو مائة رجل وغنيمة ما معهم من السلاح وستين فرساً(٥).

وبات السلطان علي بن حاتم في " الخيالي " تلك الليلة، وفي اليوم التالي، اتجهوا جميعاً إلى مدينة ذي جبلة لمقاتلة الفرقة الأولى من جيش ابن مهدي، فلن تجد أحداً، ويبدو أن الهزيمة الأولى أحدثت أثرها في بقية قوات ابن مهدي هناك فتركت ذي جبلة ليلاً وتراجعت جيوش ابن مهدي لتلحق بعبدالنبي عند حصن تعز في المعركة الأخيرة.

استجارت جماعة منهم بدار الحرة أروى بنت علي بن عبدالله بن محمد الصليحي فأجارتهم(٦). ولكن السلطان علي بن حاتم استولى على دار الحرة فأجارها، وأجار من لجأ إلى

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٧؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩١.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٩؛ محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٦٥؛ السروري : الحياة السياسية في اليمن، ص٢٥٣.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٨-٢٧٠؛ يحيى بن الحسن : المصدر السابق والصفحة؛ الجرافي : المقتطف، ص٥٣؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٧٠؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٣١٩، ٣٢٠؛ السروري : المرجع السابق والصفحة؛ تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٥.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٣٢٠.

(٦) يحي بن الحسين : نفس المصدر، ص٣٢٠؛ المطاع : المرجع السابق، ص٣٥٣.

الدار.

وبذلك استولى التحالف القبلي بقيادة علي بن حاتم والزريعي على ذي جبلة دون قتال. وبعد إقامة قصيرة لجيش التحالف القبلي في ذي جبلة، اتجه نحو " الجَنَد "[1]، فوصلها يوم الاثنين السابع من شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٩هـ/ أكتوبر ١١٧٣م، ووجدها هي الأخرى خالية من جيش عبدالنبي ومن الرعايا أيضًا، فدخلها بعض العسكر وأقاموا بها لعدة أيام، وأقام السلطان علي ابن حاتم خارج المدينة إلى يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، وبلغه وجود عبدالنبي في حصن تعز متحصنًا به، بعد أن سحب جيشه المُحاصِر لعدن إلى تعز[2].

سار ابن حاتم والتحالف القبلي نحو تعز، ولما وصلوا إليها وجدوا جمعًا من جيش عبدالنبي معسكرًا في " ذي عدينة "[3] بالقرب من تعز، فدار بها قتال شديد بين الطرفين في ربيع الأول ٥٦٩هـ/ أكتوبر ١١٧٣م، انتهى إلى هزيمة عبدالنبي بن مهدي بعد قتل الكثير من جيشه وعقر من خيلهم شيء كثير وأُخِذَ منها نحو مائة فرس وغنيمة ما معهم من الأموال والسلاح، ونُهِبَتْ ذي عدنية يومئذ نهبًا عظيمًا[4]. وكان عبدالنبي في أعلى حصن تعز على سطح من سطوحه وراء كتيبة تبرق فقال : إن صدقني ظني فهذا علي بن حاتم فقيل له : نعم تلك كتيبة همدان، فأنشد قائلاً[5] :

واعلم بني بأن كل قبيلة ستذلّ إن نهضت لها قحطان

وفي إثر ذلك رجع السلطان علي بن حاتم إلى الجند في جيشه، وأمر بتخريب دار المملكة فيها، وهي الدار التي بناها الداعي محمد بن سبأ الزريعي، وطلب السلطان علي بن حاتم إشاعة الدمار فيها[6]. ونتيجة لذلك انتقلت الحرة أروى بنت علي بن عبدالله بن الصليحي إلى حصن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٢٠؛ الحداد : تاريخ اليمن، ج٢، ص٦٧.

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١٦٠؛ الحداد : المرجع السابق والجزء والصفحة؛ السروري : الحياة السياسية في اليمن، ص٢٥٤.

(٣) ذي عُدَيْنَة : قريبة من تعز، وهي سوق ومحل التجار والجم الغفير. محمد كريم : عدن، ص١٩١.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٦٣؛ يحيى بن الحسين : المرجع السابق والصفحة؛ بامخرمة : المصدر السابق والصفحة؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٨٧؛ محمد كريم : عدن، ص١٩١؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٥.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر والصفحة؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٥٣.

(٦) أمر السلطان علي بن حاتم بخراب دار المملكة يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ. ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٦٨.

قيصان. ووصلت الأخبار بهرب جند عبدالنبي الذين كانوا " بالرعارع "[1] محاصرين لعدن، وانسحابهم إلى زبيد[2]، وزوال نفوذ عبدالنبي عن جميع اليمن الأسفل.

في ذلك الوقت عاد جيش التحالف القبلي إلى الجَنَد وعسكر فيه، وآنذاك حاول السلطان علي ابن حاتم الاتجاه إلى زبيد لمقاتلة ابن مهدي ولكن قبائل جنب ومذحج برئاسة السلطان عبدالله بن يحيى الجنبي، والشيخ زيد بن عمر اليعبري رفضوا ذلك واكتفت بهزيمة ابن مهدي، وعادت إلى ديارها في اليمن.

وبذلك حقق هذا التحالف القبلي هدفه وهو الانتصار على عبدالنبي وجيشه وتقليص نفوذه، كذلك أنهى خطورته وتهديده لدولة بني زريع في عدن. رجع السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء، رغم رغبته في متابعة فلول عبدالنبي وجيشه المنهزم[3].

وفي رواية[4] أن عبدالنبي جمع الجيوش حين علم بانسحاب القبائل وسلطان صنعاء، وكل من كان معهم من الرجال، وأراد محاربة السلطان علي بن حاتم، لكن السلطان علي جمع رجالاً محاربين من قبيلة همدان وكان معه أخوه " بشر بن حاتم " وقد تحملا في ذلك عناءً وشدة، لكنهما تميزا بشجاعة ونجدة فائقة، وطلعا إلى نقيل صيد، وأمرا بضرب الحصار والإنفاق على الجيش، وجمعا الجموع للحرب، وهَمَّ السلطان علي بن حاتم بالعودة إلى ميدان الحرب، فلما أدرك عبدالنبي استعداده للقتال راسله طالبًا منه المصالحة، فوافق السلطان علي بن حاتم على ذلك بشرط أن لا يعترض عبدالنبي بني زريع في عدن وأعمالها والدملوة وحصن حَبّ، ثم عاد السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[5].

ولنا أن نستعرض الأسباب التي أدت لهزيمة جيش عبدالنبي بن مهدي والنتائج المترتبة على موقعة ذي عُدَيْنَة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

أولاً : الأسباب التي أدت للهزيمة :

١- التحالف القبلي بين همدان وبني زريع في عدن وبني حاتم في صنعاء ومن معهم من قبائل، سنحان وبني شهاب ونهد، وانضمام جنب ومذحج بقيادة السلطان عبدالله بن

---

(١) الرعارع : مدينة كانت عاصمة مخلاف لحج أيام الزريعيين. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٢٦٩.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٩؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٢٠.

(٣) الخزرجي: المصدر السابق والصفحة؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص٢٤٣؛ محمد كريم: عدن، ص١٩٢.

(٤) إدريس : نزهة الأفكار، ق٣٤.

(٥) Paul, Auchterloine: Yemen, Revised Edition, Cliopress, Oxford, 1998, volume 50, p. xvii

يحيى الجنبي والشيخ زيد عمر اليعبري، متسلحين بأعدادهم الكثيرة وقوتهم من سلاح وعتاد. فكان له كبير الأثر في هزيمة جيش عبدالنبي، وتتابع الهزائم الواحدة تلو الأخرى، حتى انسحابه إلى زبيد.

٢- سياسة عبد النبي بن مهدي الحربية في هذه الحرب حيث إنه قسم جيشه إلى ثلاث وحدات أو فرق : إحداها في قرية ذي جبلة، والثانية في أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة. وهكذا واجهت قوات ابن مهدي قوات التحالف، وهي متفرقة مما ساعد على هزيمتها الواحدة تلو الأخرى.

٣- الرغبة الملحة لتقليص نفوذ دولة عبدالنبي بن مهدي من قِبل التحالف القبلي ودولة بني زريع ودولة بني حاتم، لتجنب خطورة تهديدها لهم خاصةً دولة بني زريع في عدن.

ثانيًا : النتائج المترتبة على موقعة ذي عُدَيْنَة ٥٦٩هـ/١١٧٣م :

١- عودة رئيسي قبيلتي مذحج وجنب وامتناعهما عن متابعة عبدالنبي إلى زبيد، ومتابعة شئون إمارتيهما والعمل على توطيد الأمن والاستقرار في الأجزاء الخاضعة لهما بعد غيابهما.

٢- على الرغم من انتصار حاتم بن علي الزريعي وعلي بن حاتم ومساعديهما من قبيلتي جنب ومذحج وكذلك همدان وبني شهاب ونهد وغيرهم، إلا أن تلك الحروب قضت على كثير من الأبطال المحاربين من كل جانب، وكما عمقت الخلافات فيما بينهم بعد ذلك.

٣- تخلص عدن من خطر عبدالنبي، وعودة الاستقرار إليها بعد فترات طويلة من الحصار والبلبلة وعدم الاستقرار على صعيد كل المجالات سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا.

٤- تقلص نفوذ وسلطان عبدالنبي بن علي بن مهدي، وزواله عن جميع اليمن الأسفل، بعد تراجعه إلى مدينة زبيد، وتكبده خسائر كثيرة من الرجال والأموال والخيول والسلاح.

٥- الصلح المطلوب من قِبل عبدالنبي مع علي بن حاتم على ألا يتعرض لدولة بني زريع بعد ذلك.

ثالثاً : المخلاف السليماني :

يقع المخلاف السليماني " منطقة جازان " في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، وتمتد حدودها شمالاً إلى إمارة بِـرك الغِمَاد التابعة لإمارة مكة المكرمة، وجنوبًا إلى حدود اليمن، ويحدها من الشرق إمارة عسير، ومن الغرب البحر الأحمر حيث تقع على ساحله الشرقي مدينة جازان[1].

وامتدت حدود منطقة جازان بعد أن اتخذت وضعها السياسي، إلى أبعد من حدودها بكثير، حيث وصلت من الشمال إلى إمارة حَلِيْ بن يعقوب، ومن الجنوب إلى ما وراء ناحية حَـرَض اليمنية.

وكانت تتكون من مخلافين أو " إقليمين " اثنين هما[2] : مخلاف عثّر أو عَثَر، الواقع إلى الشمال من جازان حتى حدود إمارة حلي بن يعقوب شمالاً، ومخلاف حَكَم ويلي مخلاف عثّر من الجنوب ويمتد إلى ما وراء منطقة حَرَض جنوبًا، وعاصمة مدينة حرض أو مدينة السَّاعِد بناحية حرض، فيقال مخلاف السَّاعِد أو مخلاف حَكَم.

وتم توحيد هذين المخلافين معًا في مخلاف واحد سُميّ المخلاف السليماني نسبة إلى سليمان ابن طرف الحكمي في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري / أواخر القرن العاشر الميلادي[3].

وتقع معظم أراضي المخلاف في تهامة الساحلية المطلة على البحر الأحمر، وتتصل من الشرق بمنطقة الحزون، ثم بجبال السَّرَاة، ويطلق على هذا الجزء من تهامة " تهامة الشام " وتمتد إلى ما وراء حرض والساعد جنوبًا، على حين يطلق على الجزء الواقع في اليمن : تهامة اليمن " وتمتد من هذين الموقعين شمالاً إلى عدن جنوبًا[4].

وبعد انطلاق الدعوة الإسلامية إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية، قدمت إليها الوفود من

---

(١) العاصمة الإدارية الحالية للمنطقة، ومقر الإمارة، والإدارات الحكومية، وهي غير جازان الداخلية التي كانت، قبل اندثارها، عاصمة للمنطقة في عهد الأشراف الغوانم. انظر الخريطة الخاصة بهذا الموضوع؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج١، ص٣.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٧٥، ٧٦، ٢٥٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٣٩؛ العقيلي : المرجع السابق، ص٨٠، ٨١.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) ابن الحسين : غاية الأماني، ص٢٢٠، ٢٨٨؛ ٣١٦؛ العرشي : بلوغ المرام، ص١٢٠؛ الواسعي : فرجة الهموم والحزن، ص١١٣؛ الزيلعي : جازان المخلاف السليماني، ص١٣.

قبائل شتى معلنةً إسلامها، ومن بين هذه الوفود، وفود تهامة، شَاميِّها ويَمانيِّها، على رأسهم وفد عبدالجّدَ بن ربيعة الحكمي، زعيم مخلاف حكَم بتهامة الشام[1].

وكان آل عبدالجد الحكميين ملوك الجزء الجنوبي وهو مخلاف حكم، وبنو مخزوم من قريش ملوك الجزء الشمالي وهو مخلاف عثّر[2].

ظلت منطقة المخلاف السليماني متمسكةً بالولاء الإسمي لخلفاء بني العباس، وحققت منذ عهد ميكر، استقلالاً داخليًا على أيدي حكام محليين من أبنائها كانوا يتوارثون حكمها كابرًا عن كابر.

وبعد أن دخلت سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م، برز من هؤلاء الحكام سليمان بن طرف الحكمي الذي تمكن من توحيد مخلاف عثر وحكم في مخلاف واحد سمي بالمخلاف السليماني، نسبةً إليه واستقل بشئونه الداخلية تحت النفوذ الإسمي للخلافة العباسية التي كان اتصاله بها مباشرًا[3].

وتمتد الأسرة السليمانية الحاكمة في المخلاف السليماني، من فروع، وفخوذ كثيرة استوطنت بمرور الزمن، مناطق متفرقة في العراق، والشام، والحجاز، وأطراف اليمن، وإيران، وأحد هذه الفروع فرع الطيب داوود بن عبدالرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داوود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون وهذا هو الفرع الأدنى الذي يصعد إليه معظم أشراف المخلاف السليماني بمن في ذلك أفراد الأسرة الحاكمة، ومنهم : وَهّاس، وبنو علي، وبنو شمّاخ، وبنو مُكثِر، وبنو حَسَّان، وبنو هِضَام، وبنو قاسم، وبنو يحيى. وأعقب وهاس بن أبي الطيب من ستة رجال : محمد وحازم ومختار ومكثر وصالح وحمزة. وحمزة بن وهاس هو الجد الأقرب للأسرة السليمانية التي حكمت المخلاف السليماني في القرن السادس الهجري[4] (فترة الدراسة).

آل حُكم المخلاف بعد وفاة حمزة بن وهاس إلى ولديه عيسى ويحيى، حيث وُلِي الأول عثر وأعمالها، ولي والثاني أمور حَرَض وبلاد حكَم[5]. ثم آلت زعامة بني سليمان بعد وفاة يحيى بن

---

(١) ذكر الهمداني شعرًا يعدد فيه من أفرشهم رسول الله (ﷺ) رداءة فذكر " عبدالجدّ " في بيت منه :

(وعبد الجد نال مناله أكرم بعبد الجد من متعجند)

الأكيل، ج٢، ص٢٤٢؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨/١٩٨٧م، ط١، ص١٨٠، ١٨١.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٢٥٩.

(٣) الزيلعي : جازان " المحلاف السليماني "، ص٢١.

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٤٧.

(٥) عمارة : المفيد، ص٢١٧؛ الزيلعي : المرجع السابق، ص٤٩.

حمزة إلى ابنه غانم بن يحيى المُلّقب بأبي الغارات[1]، ثم آلت إلى ابنه وَهّاس.

علاقة دولة بني مهدي بالمخلاف السليماني :

لم يكن تغيير النظام في زبيد يعني شيئًا بالنسبة لبني سليمان، فلن تكن تلك هي المرة الأولى التي تسقط فيها زبيد في حوزة نظام مُعادٍ لبني نجاح، الحلفاء التقليديين لبني سليمان، ولم يغير ذلك من وضعهم، ربما لأنهم فرسان يعتمدون على الغارات والانتقال، ويساعدهم في ذلك عمق جغرافي يمتد إلى الشمال حتى أطراف الحجاز الذي تسيطر عليه فئات من بني عمومتهم، فهم بالنسبة لبني سليمان ربما ينحازون إليها كلما آنسوا ضغطًا عليهم من الجنوب[2].

وقد ساعدهم هذا الوضع، بالإضافة إلى سيطرتهم على طريق الحج اليمني[3]، على احتفاظهم بزعامة المخلاف على الرغم من سقوط كثير من جيرانهم، من الأسر الحاكمة في الحجاز واليمن، ثم سقوط مدينة زبيد نفسها أكثر من مرة في أيدي الصليحيين[4]، ثم بني مهدي.

إذن كان وضع بني سليمان في المخلاف السليماني حتى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، قائمًا على ما كان من قبل دون منازع. لم يتجاوز نفوذ بني مهدي حدّ حَرَض من الجنوب، أما في الشمال من ذلك حتى نهاية حدود المخلاف، فكان خاضعًا لنفوذ بني سليمان بزعامة الأمير وهّاس بن غانم السليماني[5].

وتجدر الإشارة إلى أن مناطق بني سليمان بزعامة وهاس بن غانم، بقيت بمنأى عن غارات ابن مهدي حوالي خمس أو ست سنوات، ولم تطلها أيدي بني مهدي إلا في عهد عبدالنبي بن مهدي الذي جاء إلى السلطة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م وحتى بعد مجيء عبدالنبي إليها، فإنه

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٥.

(٢) الزيلعي : جازان " المخلاف السليماني "، ص٦٤.

(٣) يقطع البلاد الخاضعة لسيطرة بني سليمان، طريقان من طرق الحج اليمنية إلى مكة المكرمة، أحدهما : الطريق الأوسط ويعرف باسم الجادة السلطانية، وهو الذي يجتاز المخلاف السليماني من المهجم. والثاني: الطريق الساحلي، وهو الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر مرورًا بأهم مدن المخلاف الساحلية مثل : الشرجة، وعثر، وبرك الغماد. العمري : مسالك الأبصار، قسم اليمن، ص٤٤.

(٤) سقطت زبيد أكثر من مرة في يد الصليحيين وذلك سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧-١٠٦٨م، على يد المكرم الصليحي، وأيضًا سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨-١٠٨٩م بعد مقتل سعيد الأحول بن نجاح، ولم يغير ذلك من وضع السليمانيين في المخلاف. ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٦٠.

(٥) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٢؛ ابن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٦؛ الزيلعي : المرجع السابق، ص٦٥.

لم يتجه في سني حكمه الأولى إلى تهامة الشام، وإنما بدأ يتهيأ لذلك في أواخر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م[١]. ولم يقم بالغزوة إلا سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والتي وُصِفَت بالغزوة الخاطفة.

لعلنا نقف هنا عن الدوافع أو الأسباب التي هيأت عبدالنبي لهذا الغزو :

أولاً : علاقة الشريف غانم بالدولة النجاحية، والتي كانت جيدة، وهذا ما حمل عبدالنبي للاستيلاء على المخلاف السليماني وسحق أسرة الغوانم بعد أن استأصل أبوه علي بن مهدي جذور النجاحيين من زبيد[٢].

ثانيًا : الإتاوة التي كان يدفعها السليمانيون لحكام زبيد، وقدرها ستون ألف دينار سنويًا، والتي سقطت بموجب هدنة بين النجاحيين والسليمانيين في عهد فاتك بن نجاح والشريف غانم السليماني[٣].

ثالثًا : لم يحاول الأشراف السليمانيون التقرب إلى دولة بني مهدي وخاصةً في عهد عبدالنبي لما تقرر لديها من عداوته وقصده السيئ للبلدان اليمنية[٤].

قام عبدالنبي بالغزوة، فتصدى له الأشراف السليمانيون بشجاعة فائقة، وجرت بين الجانبين عدة وقائع، ولكن بني مهدي هاجموا الأشراف بعنف، فهزموهم، ثم طاردوهم إلى الشمال، فقتلوا الشريف وهّاس بن غانم وسبى عبدالنبي حريم وهّاس، واصطفى أمواله، وعاد إلى اليمن، ربما دون أن يضم منطقة المخلاف السليماني " جازان " إلى ملكه، وإنما اكتفى بتأديب أهلها، والتنكيل بحكامها[٥].

كان لهذه الغزوة صدى كبير، وأهمية قصوى في تاريخ المنطقة، لما ترتب عليها من نتائج ذات مغزى بعيد في تحديد مصير دولة بني مهدي.

أولاً : عمل الأشراف على لم شتاتهم وتوحيد صفوفهم، بعد الهزيمة، واختاروا الشريف

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٦٥؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٢؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٦؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص١٥٩؛ الزيلعي : المخلاف السليماني، ص٦٤؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٨١.

(٢) الزيلعي : المرجع السابق، ص٥٨.

(٣) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣٧.

(٤) العقيلي : المخلاف السليماني، ج١، ص٢٠٥.

(٥) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٦؛ بامخرمة : المصدر السابق، ص١٢٧؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٣؛ Smith : Studies in the Medieval History of the Yemen, p. 134.

قاسم بن غانم، أخا الأمير السابق وهّاس، ليكون أميرًا عليهم بعد أخيه الأمير(١).

ثانيًا : كان على الأمير قاسم أن يعمل على استتباب الأمن والنظام في بلاده، وأن يثأر لمقتل أخيه من عبدالنبي بن مهدي. فقام الأشراف ببعض المحاولات للثأر من بني مهدي، ولكنهم أخفقوا ولم يقدروا على هزيمة خصومهم، أو على الأقل منازلتهم(٢).

ثالثًا : استعانة الأمير قاسم السليماني بجهة أخرى يستمد منها العون ضد قاتل أخيه، ومنتهك حرمات أرضه وعرضه(٣).

اتفق الأمير قاسم مع من نجا من الغوانم على إرسال الأمير منصور بن أحمد ليُعلم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ت(سنة ٥٧٧هـ/١١٨٠م)(٤) بما وقع لهم ويستنجدوه.

ولكن لماذا الخليفة العباسي تحديدًا ؟ الإجابة هي أن أمراء المخلاف السليماني كانت لهم صلات سياسية بالخلافة العباسية من خلال تبعيتهم للدولتين الزيادية ثم النجاحية السنيتين المذهب، أي أن المخلاف السليماني لم يخرج عن محور فلك إمارة زبيد التابعة للخلافة العباسية(٥).

ومع أن الخلافة العباسية لدى وصول هذا الأمير إلى بغداد كانت خلافة ضعيفة، إلا أنها جرت لها انتعاشة مؤقتة بعدما قام صلاح الدين الأيوبي بالدعوة لها في مصر، ورغبة في أن يُري الخليفة صلاح الدين أن مركز الخلافة لا يزال الموئل الأول لكل مظلوم، وأيضًا لِمَا بَلَغَ الخلافة العباسية أن عبدالنبي بن مهدي قطع الخطبة العباسية(٦)، لأنه كان باطنيًا اسماعيليًا من دعاة الفاطميين ومعتنقي مذهبهم(٧)، وكان يُلَقّب بالمهدي

---

(١) الزيلعي : المخلاف السليماني، ص٦٦.

(٢) ويستدل على تلك المحاولات من إشارة عابرة يوردها الخزرجي بقوله : " إنما دخل الملك المعظم نجدة للشريف بن غانم السليماني، وذلك لأنه لما قتل أخوه وهّاس بن غانم وكان الذي قتله بنو مهدي، فقام أخوه القاسم بن غانم بحربهم، فألحُّوا عليه بالغارات حتى عجز عن مقاومتهم، فخرج إلى الديار المصرية مستنجدًا بالملك الناصر صلاح الدين على ابن مهدي ". العسجد المسبوك، ق١٧٦، ١٧٧.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦٥؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣١٦.

(٤) B. Ahmed : Imams, Notables et Bé douins du Yemen, Siécle, 1992, xviii, p. 8.

(٥) العقيلي : المخلاف السليماني، ص٢٠١.

(٦) محمد بهجت مختار : الصلات السياسية والحضارية بين مصر وبلاد الحجاز، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٧٨.

(٧) ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر أباد الدكن، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، ج٨، ص٢٩٩؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م، ص٥١، ٥٢.

ويسمى الإمام[١].

فكتب الخليفة إلى صلاح الدين ليبعث جيشاً إلى اليمن للاستيلاء عليه باسم الخلافة العباسية والأخذ بنصرتهم والقضاء على بني مهدي[٢].

هكذا سلم الأمير منصور إلى صلاح الدين كتاب الخليفة المستضيء بأمر الله، يأمره فيه بأن يجرد جيشاً لقتال ابن مهدي، والحد من أفعاله المشينة تجاه أهل البلدان اليمنية[٣].

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠هـ، ج٤، ص٢٣٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ج١٢، ص٢٧٣.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٧٥، ١٧٦؛ ابن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٣٢٢؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧٦؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ص٢٠٦.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج١، ص١٢٧، ١٢٨؛

Michael Jenner : Yemen, London, 1983, p. 50.

الفصل الثاني

الفتح الأيوبي
وسقوط دولة بني مهدي في اليمن
(٥٦٩هـ / ١١٧٤م)

الفصل الثاني

الفتح الأيوبي وسقوط دولة بني مهدي في اليمن (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)

كانت بلاد اليمن قبيل الفتح الأيوبي مجزأة ومفككة سياسيًا، فظهرت بها وحدات سياسية متعددة فيما بينها مذهبيًا ومتعادية سياسيًا ومتحاربة عسكريًا، فكان بنو زريع وهم إسماعيلية "فاطميون" يحكمون عدن ولحج وأبين وبعض مناطق من تعز، مثل حصون منيف والسوا والسمدان والدملوة، وامتد سلطانهم إلى حصن " حب " في بعدان وقيظان ونقيل سمارة في مخلاف جعفر، وحكم سلاطين جنب مدينة ذمار ومخاليفها، بينما حكم بنو حاتم وهم إسماعيلية كذلك حصن أشيح في آنس وصنعاء وما حولها، ووصل سلطانهم إلى بلاد الظاهر في البون من حاشد شمال صنعاء، أما بنو مهدي مختلفو المذهب فحكموا تهامة من حرض حتى تعز وذي جبلة في مخلاف جعفر، وبعض مناطق من تعز مثل الجند ومدينة تعز نفسها وجبل صبر وجبل حبشي. كذلك حكم الشريف قاسم بن غانم بن وهّاس، المخلاف السليماني، وحكم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان، صعدة والجوف وما حولها[١].

وكانت العلاقة بين بني مهدي وهذه الدويلات عدائية، فقد حاولوا التوسع على حساب دولة بني زريع في الجنوب ودولة الشريف قاسم في الشمال، وحاول كل من بني زريع وبني جنب وبني حاتم تكوين تحالف قبلي ضد بني مهدي، فنجحوا في هزيمتهم وصدّهم عن التوسع في مناطقهم الأخرى.

بينما تأرجحت علاقة الإمام أحمد بن سليمان بسلاطين بني حاتم، فتارة سادها العداء والحرب وتارة أخرى سادتها المصالحات[٢].

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٣؛ محمد زبارة : أئمة اليمن، تعز، ١٩٥٢م، ج١، ص١٠٨.
B. Ahmad : Imams, p. 8.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٢؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٩١-٢٩٤، ٣٠١؛ سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص١٥٨-١٦٠؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٨؛ محمد كريم : عدن، ص٢١٦.

الفتح الأيوبي لليمن :

تعددت آراء المؤرخين في أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن؛ ومنها الآتي :

أولاً : خوف صلاح الدين من مولاه نور الدين محمود زنكي أن يعزله عن ولاية مصر[1]، باعتباره تابعًا له، بسبب ظهور خلاف بينهما حول تباطؤ صلاح الدين لتنفيذ أوامر نور الدين بالذهاب إلى " الكرك " لمحاربة الصليبيين[2].

وحاول نور الدين مرارًا الاتجاه إلى مصر، ولكن الصليبيين شغلوه عن ذلك، ولما كان صلاح الدين متوقعًا وصول نور الدين إليه، وأنه لا طاقة له به، فقد سارع إلى عقد اجتماع ضم كبار رجال أسرته وقادته، وشاورهم في أمر نور الدين فأشاروا عليه بمقاومته والتصدي له إذا حضر مصر[3].

واستقر رأي صلاح الدين على امتلاك بلاد النوبة أو اليمن لتكون ملجأ له ولأسرته إذا ما حاربهم نور الدين وفكر في عزله[4].

ثانيًا : من المعروف أنه كان للفاطميين نفوذ في اليمن وكان صلاح الدين الأيوبي يرى أنه الوارث لأملاك الفاطميين، ليس في مصر فحسب، بل في كل البلاد التي امتد نفوذهم إليها، ولذلك رأى أن الاستيلاء على اليمن ضرورةً ملحةً لاستكمال نفوذه، وتثبيت أركان دولته في مصر[5].

اقتنع صلاح الدين بضرورة إخضاع مصر لنفوذه وخاصة بعد أن قامت مؤامرات عسكرية

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م، ط٢، ج٦، ص٢١، ٢٢؛ رزق الله منقريوس : تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ج٢، ص٢٢٤؛ سامي الصقار : مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٩م، م٦، ص٣٩٨.

(٢) محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٠.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٢٣٧؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص٢٨٦؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٨٢؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م، تحقيق: مصطفى زيادة، ج١، ص٥٢؛ ابن العديم : زبدة الحلب، نشر سامي الدهان، ١٩٥٤م، ص٣٤٠.

(٤) الحمزي : كنز الأخبار، ق٩١؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١١، ص٤٥؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥٢٦؛ عبدالعال : دراسة عن أسباب الفتح الأيوبي لليمن، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، م١٣، ج٢، ص٣١٩.

(٥) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ١٩٧٧م، ط١، ج٧، ص٤٥٨؛ Malcolm, Cameron Lyons : Saladin, Cambridge, 1982, p. 66.

ترمي إلى مناهضة حكمه وإعادة الحكم الفاطمي في مصر.

ولا يُستبْعَد أن تشارك اليمن الخاضعة للنفوذ الإسماعيلي إلى إعادة سلطانهم إلى مصر وخاصة أن الرأس المدبرة كانت شخصية يمنية لها شأن عظيم هو الشاعر الفقيه عمارة اليمني، الذي قدم إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م سفيرًا من أمير مكة إلى القاهرة[١]، وكان الخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر[٢]، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك[٣]. فلما ذهب للسلام عليهما أنشدهما قصيدة عصماء في مدح البيت الفاطمي، فخلعت عليه الخلع الفاخرة، ودفع له الصالح خمسمائة دينار، والسيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى. وأطلقت له من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبله، وخصه الصالح بمجالسته، وكان عمارة من جانبه يوالي نظم الشعر في مدح الخليفة ووزيره حتى اشتهر بين رجال الدولة[٤].

استمر عمارة اليمني ينعم بالعيش الرخي وهدوء البال في ظل الخلافة الفاطمية من ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م إلى شوال من نفس السنة، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى اليمن، وقبل أن يبرح عمارة القاهرة حمله الصالح بن رزيك كتاب إلى صاحب عدن الداعي عمران بن محمد الزريعي.

وفي أوائل سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قدم عمارة مصر مرة ثانية سفيرًا[٥] من أمير مكة، وصادفت هذه السفارة هوى في نفس عمارة، حيث طاب له المقام بمصر، فاستوطن الديار المصرية، وفيها قربه الوزراء والخلفاء والعظماء لأدبه وسمو مواهبه. فصار جليسًا لهم وموضعًا لأسرارهم، ولهذا اندفع مع تيارهم، وحذا حذوهم وتأثر في حياته بما كان يصيبهم من حلو الحياة ومرها[٦].

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٠.

(٢) هو أبو القاسم عيسى تولى الخلافة في مستهل صفر سنة ٥٤٩هـ، وتوفى في ١٧ رجب سنة ٥٥٥هـ. ابن خلكان : وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق: إحسان عباس، ج١، ص٣٩٥.

(٣) هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، ولد سنة ٤٩٠هـ وتوفى في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ وتولى الوزارة من ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ إلى رجب سنة ٥٥٥هـ. الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٠؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : نفس المصدر، ص١٢.

(٥) Paul E. Walker : Exploring an Islamic Empire, (Fatimid history and Its Sources), London, 2002, p. 150.

(٦) كان عمارة شافعي المذهب، شديد التعصب للسنة، واحتفظ بمذهب أهل السنة إلى آخر لحظة في حياته، ولكن كان بالوفاء سجيًا للفاطميين، وظل على ولائه لهم حتى بعد زوال دولتهم، وكان دائمًا يردد : " ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوي بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم ". عمارة : نفس المصدر، ص٤١؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ص٢٢٢، ٢٢٣.

وكان للأحداث المصرية الداخلية والخارجية صدى عظيم في نفس عمارة وفي طرائق تفكيره وأسلوب حياته، ومما حز في نفسه الأحداث التي شهدتها الدولة الفاطمية، التي بدأت بقتل شاور في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[١]، وتولى أسد الدين شيركوه قائد الجيوش النورية الوزارة بأمر العاضد، وكان أسد الدين سني المذهب يتبع نور الدين زنكي السني صاحب دمشق ولم يطل به الأجل فمات، وتولى الوزارة بعده ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بأمر من العاضد أيضًا، فقامت المكائد في وجهه ومن أخطرها مكيدة نجاح كبير الخصيان وما تبعها من ثورة الجند السودانيين، ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء عليهم، وما لبث أن قطع الخطبة الشيعية وأحل محلها الخطبة السنية، وتبع ذلك موت العاضد في محرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م فصار صلاح الدين سلطان مصر[٢].

رأى عمارة اليمني أن هذه الحوادث المتلاحقة قد هزت دعائم الخلافة الشيعية[٣] التي كثيرًا ما تغنى بها تنهار أمام عينيه، ووجد في صلاح الدين قوة كبيرة لا يقاومها إلا مثلها، فلجأ إلى " التقية " التي أقرها الشيعة وعملوا بها في مختلف العصور. فلم يكن بد من استعمال اللين ومسايرة تيار الحوادث في الظاهر، وفي الوقت نفسه يتآمر سرًا للقضاء على الدولة السنية، ويعمل جاهدًا لإرجاع الدولة الفاطمية من جديد، فدبر مؤامرة سرية واسعة النطاق، امتدت إلى داخل البلاد وخارجها، وضمت رجالاً من أتباع الفاطميين[٤]، برئاسة هبة الله بن كامل قاضي القضاة، وداعي الدعاة وكان ينادي بإعادة ملك الفاطميين بمصر، وكان يلقب بفخر الأمناء، كذلك الداعي عبدالجبار بن إسماعيل بن عبدالقوي[٥].

وضمت المؤامرة بعض الناقمين من أتباع صلاح الدين، ومنهم العويرسي ناظر الديوان، وشبريا كاتب السر، وعبدالصمد الكاتب وهو أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجلاً

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص٢١.

(٢) عمارة : المصدر السابق، ص٢٢.

(٣) لم يكن عمارة شيعيًا في يوم من الأيام، بل لقد عرض عليه الفاطميون أكثر من مرة أن يعتنق مذهبهم فكان جوابه الرفض البات، فلماذا حزنه الشديد على الخلافة الفاطمية ؟ لقد ضاقت في وجهه سُبل العيش وكان يأمل أن يحصل على عطف صلاح الدين كما كان مع الفاطميين، ولكن ذلك لم يكن له صدى عند صلاح الدين، فأصبح ناقمًا على الدولة الجديدة " الأيوبية ".

(٤) عمارة : نفس المصدر، ص١٢؛ محمد كامل حسين : مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مايو ١٩٥٣م، م١٥، ج١، ص٦٤.

(٥) علي أحمد البيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر، القاهرة، ١٩٤٦م، ص١٢١.

مُنجِّمًا نصرانيًا كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم[1]، كما انضم إليهم جماعة من بني رزيك وآخرون من أسرة شاور. وكل يجمع هؤلاء الحقد على الدولة الجديدة ــ دولة صلاح الدين ــ وقطعها لأرزاقهم ومناصبهم.

اتفق رأي المتآمرين على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر، ومنهم وليم الثاني ملك صقلية، وسنان رئيس الحشيشية[2] وهو زعيم الإسماعيلية النزارية في الشام، وأموري ملك بيت المقدس[3].

احتاط عمارة اليمني ــ رئيس الجماعة ــ للأمر فشجع توران شاه أخا صلاح الدين على فتح اليمن، حتى يأخذ جانبًا كبيرًا من الجنود معه، فيضعف جانب صلاح الدين[4].

أخذ عمارة يُحَسِّن للملك المعظم تورانشاه قصد اليمن، ووصف بلادها، وعَظَّمها في عينيه، واصفًا له أموالها مع ضعف حكامها مما يسهل عليه الفتح[5]، ولما كان تورانشاه كثير النفقات ولم يكن إقطاعه بمصر كافيًا للوفاء بمتطلباته، فلقي إغراء عمارة استجابة منه.

استأذن تورانشاه أخاه صلاح الدين بالخروج بالحملة التي جهزها للاستيلاء على اليمن فأذن له[6]، فشرع تورانشاه يتجهز ويعد العدة، ويجمع الأجناد ويحشد الحشود.

وكان لعمارة مدائح في تورانشاه، امتدحه بها، وحرضه فيها على ملك اليمن منها قصيدة طويلة جاء فيها[7].

وكان هدف عمارة من ذلك إخراج عدد كبير من الجيش الأيوبي عن مصر، ليسهل له بعد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٦٦١.

(٢) الحشيشية : هي فرقة باطنية منسوبة إلى الحسن بن الصباح الإسماعيلي الملقب بالعباد. الشهرستاني : الملل والنحل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ط١، ص١٥٣-١٥٩.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٤.

(٤) أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٢١٦.

(٥) Lane, Poole : Saladin, Cooper Square, Press, 2002, p. 125.

(٦) أبو شامة : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٢٣٨؛ عبدالعال : المرجع السابق، ص٧١؛ أحمد بيومي : الدولة الأيوبية في مصر، ص١١٧.

(٧) أمامك الفتح من شام ومن يمن ... فلا ترد رؤس الخيل باللجم

فاخلق لنفسك ملكًا لا تضاف به ... إلى سواك وأور النار في القلم

نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص٦٢.

ذلك لأتباعه[١] التآمر على صلاح الدين، والقضاء عليه، وإعادة الدولة الفاطمية إلى مصر. وفي ذلك يقول : " وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن، خوفًا أن يسد مسده، وتجتمع الكلمة عليه بعده "[٢].

وهكذا يخرج تورانشاه إلى اليمن، وصلاح الدين بعيد عن مصر (في الشام)، ومن ثم يتولى المتآمرون في الداخل القيام بثورة في القاهرة وقت الغزو الخارجي، ولا تستطيع القوات الأيوبية التصدي ــ في وقت واحد ــ للعدوان الخارجي والثورة في الداخل[٣]، وبذلك يمكن إعادة الدولة الفاطمية من جديد.

وبذلك حبكت المؤامرة، ولم يبق إلا تنفيذها، ولكن السرّ انكشف وظهرت الخبايا سافرة أمام صلاح الدين، عندما أخبره بها الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ[٤]، فأمر بإعدامهم جميعًا وعلى رأسهم عمارة اليمني الذي صُلب في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٦٩هـ/ ١٦ أبريل ١١٧٤م[٥]، قبل وفاة نور الدين بشهر واحد[٦].

ثالثًا : خاف صلاح الدين من إخوته لكثرتهم، وخاصة من أخيه الأكبر تورانشاه[٧] الذي كان يحترمه ويرجحه على نفسه[٨]، وكان في نفس تورانشاه الملك، ويرى أنه أحق من أخيه، وتصدر منه كلمات في سُكْرِه ضد أخيه صلاح الدين، وبلغ ذلك صلاح الدين فأغزاه بلاد النوبة

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٣، ٥٤؛

Lane, Poole : A history of Egypt in the Middle Ages, pp. 197–188.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء، ص٥٤.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٦٥.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٦٦٠.

(٥) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٤؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٨٨م، ص٢٤١؛ المقريزي : السلوك، ج١، ص٥٧؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١، ق١، ص٢٤٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩٦.

(٦) Lane, Poole : Saladin, p. 128.

(٧) الحمزي : كنز الأخبار، ق١٨٦؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٠؛ ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٤. الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين، كان ملكًا ضخمًا شجاعًا شهمًا فارسًا مقدامًا غشمشمًا صمصامًا. ابن خلكان : وفيات الأعيان، م١، ص٢٧١؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ط٢، ج١٠، ص٤٤١؛ الحنبلي : شذرات الذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ج٤، ص٢٢٥.

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢١، ط٢، ص٥٣.

في جمادي الأولى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ليفتحها، فوجدها لا تساوي التعب، وعاد منها بغنائم كثيرة[١]. ومن ثمّ بعثه صلاح الدين إلى اليمن، عندما علم بسوء سيرته وإيقاعه في كلامه عند سكره، ليكون له مملكة في منطقة أخرى بعيدة عنه[٢].

وبالفعل عندما تم استيلاء تورانشاه على اليمن، خطب لنفسه بعد الخليفة العباسي وتلقب بالملك المعظم، ولم يغضب صلح الدين لذلك، بل تركه يُشْبِع أطماعه[٣].

رابعًا : غضب صلاح الدين من أمر عبدالنبي بن مهدي، ومدى سيطرته على اليمن وسفكه لدماء أهلها ونهب أموالهم، وتغلبه على مناطقهم وخروجه عن طاعة الخلافة العباسية وزعمه انتشار ملكه بأن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس[٤].

وخاف صلاح الدين من أن يستولى ابن مهدي على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لِما أُشيع عنه من قوة ونفوذ، فضلاً عن أن ابن مهدي منع الناس من الحج إلى الكعبة وإجبارهم على الحج إلى قبر أبيه[٥].

خامسًا : أراد صلاح الدين بإرسال حملة إلى اليمن للقضاء على ما بها من مذاهب مخالفة لمذهب الخلافة العباسية، كمذهب الإسماعيلية الفاطمية، ومذهب الخوارج والزيدية، ونشر مذهب أهل الا سنة بها[٦]، بعدما قضى على الخلافة الفاطمية الإسماعيلية وعلى مراكز الدعوة بمصر، وفتح المدارس لتعليم الفقه السني ومبادئ السُنَّة المختلفة[٧].

---

(١) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٣؛ أبو مخرمة : ثغر عدن، ج٢، ص٨٩؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص٢٢٠؛ العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص٥٥؛ محمد كريم : عدن : ص٢١٧.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٥٥١؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧٠؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين، ص٤٦؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩٧؛ السروري : تاريخ اليمن، ص٢٠٩؛ محمد كريم : المرجع السابق والصفحة.

(٣) المقريزي : السلوك، ج١، ق١، ص٥٣؛ جميل حرب : المرجع السابق والصفحة.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٩؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٢٩٢؛ أبو شامة : المصدر السابق والجزء، ص٢١٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٧٣، ٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٧؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص٤٦.

Malcolm, Cameronlyons : Saladin, p. 65.

(٥) الخزرجي : العسجد، ق١٦٣؛ جميل حرب : نفس المرجع، ص٩٧.

(٦) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢١٠؛ مجلة الخليج العربي، لسنة ١٩٨٨م، المجلد ٢٠، العدد ٢، ص٢٧.

(٧) جميل حرب : نفس المرجع، ص٩٨.

سادسًا : ما أورده الجندي من أن رسالة ابن النساخ[1]، إلى الخليفة العباسي للشكوى من ابن مهدي، كانت سببًا في إرسال حملة تورانشاه إلى اليمن، فهذا القول بعيد عن الصواب، إذ إنه من الثابت تاريخيًا أن رسالة ابن النساخ التي أشار إليها كانت سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، أي بعد أكثر من أربعين عامًا من الفتح الأيوبي لليمن، وفي وقت لم يكن فيه صلاح الدين ولا تورانشاه على قيد الحياة، وكانت الشكوى من الإمام الزيدي عبدالله بن حمزة لاضطهاده المُطَرِّفيه، وهي فرقة خارجة على الزيدية ينتمي إليها ابن النساخ، وكانت من أسباب إرسال حملة المسعود ابن الكامل سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، ولم تكن للشكوى من ابن مهدي كما ذكر الجندي[2].

سابعًا : ما أوردته بعض المصادر[3] من أن الحملة كانت نجدةً للشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني ضد ابن مهدي، الذي هاجم المخلاف السليماني وقتل الشريف وهاس ابن غانم وعددًا من أهل حَرّض سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م، فكان على أشراف المخلاف باعتبارهم علويين، أن يلجأوا للخليفة الفاطمي بمصر وليس إلى الخليفة العباسي في بغداد.

نرى[4] أنه لا يوجد ما يمنع من أن يستنجد هؤلاء بالخليفة العباسي المستضيء بالله، بعد علمهم بأن الدولة الفاطمية كانت في أيامها الأخيرة وتعاني من الضعف، وفي ذلك الوقت كان أشراف الحجاز ومكة والمدينة وهم علويون يخطبون للخليفة العباسي ولصلاح الدين السُنِّيين، إذن لا مانع من أن يستنجدوا به ضد عدوهم المشترك ابن مهدي الذي كان بآرائه ومعتقداته يعمل على هدم الدين الإسلامي، خصوصًا وأن عبدالنبي كان يقتل سُنة وشيعة دون تفرقة.

ثامنًا : وهو سبب أمني، خوف صلاح الدين أن يستغل الصليبيونَ وجود مملكة الحبشة المسيحية في الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر[5]، فيتحالفوا معها، ويدفعوها للسيطرة على الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر. وبذلك تسيطر على مفتاح البحر الأحمر، وتسيطر على

---

(١) ابن النساخ : هو الحسن بن محمد النساخ، رجلاً من أهل اليمن، كان نابغة دهره ونادرة عصره متفوقًا في النظم والنثر وفنون الأدب، كما كان فقيهًا فاضلاً. الخزرجي : العسجد، ق١٧٥؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٦.

(٢) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٦.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٤؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٢٧؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٢١٧.

(٤) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩٨.

(٥) سامي الصقار : مجلة كلية الآداب، م٦، ص٣٩٨.

لاشك أن الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر كبيرة، فهو قناة الوصل بين البحار المفتوحة في المحيطين الهندي والأطلنطي عبر البحر الأبيض المتوسط، وباب المندب وهو أحد الممرات الرئيسية للملاحة والتجارة. نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص٥٧.

تجارة البحر الأحمر وتجارة الشرق وبذلك تغلق البحر في وجه التجارة الإسلامية، بعد إنشائهم ميناء " أيلة " على البحر الأحمر وأصبحوا ينازعون مصر السيطرة على الطرق التجارية، كما كان يخشى إن سيطر الصليبيون على تلك المنطقة أن يهاجموا الحجاز ويستولوا على الأماكن المقدسة[1]، بعد أن شددوا الحصار البحري على مصر وتهديد السواحل المصرية.

وبذلك أصبح البحر الأحمر مجالاً للصراع بين صلاح الدين والصليبيين الذين اتخذوا من الدين ستارًا لإخفاء ما تنطوي عليه مطامعهم الاقتصادية والسياسية.

رأى صلاح الدين أن ميناء أيلة سيكون قاعدة انطلاق للصليبيين لتنفيذ أغراضهم التوسعية، فهب ليدفع عن البحر الأحمر الخطر، فاستولى على أيلة في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ثم حَصَّنَها[2].

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه للسيطرة على مفتاح البحر الأحمر الجنوبي وتأمين القوافل التجارية القادمة من الهند والصين إلى مصر عبر اليمن. وكذلك أن يضمن لمصر استمرار ورود تجارة الكارم من عدن إلى عيذاب، فيحصل على الذهب من حصيلة الرسوم التي تجبى من الثغور المصرية واليمنية (المخا ــ زبيد) على السواء[3].

إذن كان الفتح الأيوبي لبلاد اليمن ضرورة اقتصادية لمصر، وأيضًا إستراتيجية في مواجهة القوى الصليبية والحد من أطماعهم التوسعية في البحر الأحمر[4].

يتضح لنا من كل ما سبق أن الأسباب الحقيقية في اتجاه صلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن، حتمية فكرة وحدة الجبهة العربية الإسلامية، من أجل التصدي للخطر الصليبي، الذي شكل جبهة ضد المسلمين جمعت كل أوروبا واتجه لغزو العالم الإسلامي، فشكّل ذلك خطرًا على المسلمين،

---

(١) كان الصليبيون يفكرون في حشد أساطيل عظيمة من البحر الأحمر ــ عن طريق أيلة ــ بقصد الإغارة على الحجاز وقبر الرسول (ﷺ). عبدالعال : دراسة حول أسباب الفتح الأيوبي، ص٣٣٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩٦.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص٣٥-٣٧.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٠؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٤٢؛ عبدالله سعيد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥٧، ٥٨؛ محمد كريم : عدن، ص٢١٨.

(٤) نشطت التجارة البحرية عبر اليمن منذ العهد الفاطمي بمصر، وبدأ يقل نشاطها في العهد الأيوبي فأثر ذلك على دخل مصر المالي. السروري : تاريخ اليمن، ص٢٠٩.

الذين افترقوا وانقسموا إلى عدة دويلات مختلفة سياسيًا ومذهبيًا[1]، فكان لابد من توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة هذا الخطر.

على أن هذا التوحيد لم يكن هدفه الاقتصار على القضاء على الدويلات السياسية ذات المذهب الواحد، بل القضاء على جميع المذاهب الإسلامية التي ظهرت آنذاك في العالم الإسلامي من شيعة وخوارج، وتوحيدهم في دولة واحدة ذات مذهب ديني واحد هو مذهب أهل السنة أو مذهب الخلافة العباسية[2].

حملة تورانشاه إلى اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م :

استأذن صلاح الدين مولاه نور الدين لفتح اليمن، بجيش يقوده أخوه الأكبر شمس الدولة تورانشاه الذي تحمس لهذه المهمة[3]، وجهزه بحملة عسكرية كبيرة فيها العديد من الأمراء والقادة وجمع كبير من العساكر بلغ عددهم ثلاثة آلاف فارس وراجل، وجهزه بالكثير من الأموال التي يحتاجها لهذه الحملة، فأطلق له صلاح الدين خراج " قوص " لمدة سنة[4]، وهو ما يقدر بمائتين وست وستين ألف دينار، وهي مالية قوص للسنة التي خرج فيها تورانشاه إلى اليمن[5]. كما أعد له الأزواد والسلاح وغير ذلك من آلات الحرب[6]، وزوده بأكثر مما كان يريد.

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٦، ص٦٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م٥، ص٥١٠؛ Malcolm : Saladin, p. 66.

بدأ صلاح الدين فكرة توحيد المذهب السني ابتداءً بمصر حين قطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي وإقامة الخطبة والدعاء للخليفة العباسي المستضيء بالله وذلك سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بأمر من الملك العادل نور الدين محمود.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٤؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، وفيات ٥٦١-٥٧٠هـ، ص٥١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢١٧؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢٨، ص٣٧٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩؛ بيوتروفسكي : اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م، ص٥٨؛ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٦.

Michael, Jenner : Yemen, p. 50.

(٤) أبو شامة : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨١، ٨٢؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢١٢.

(٥) المقريزي : الخطط، ج٣، ص٥٩.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٢.

غادرت الحملة الديار المصرية في مستهل رجب سنة ٥٦٩هـ/ فبراير سنة ١١٧٤م(١)، وكان سيرها من القاهرة عبر طريق النيل إلى قوص ومنها بطريق البر إلى ميناء عيذاب(٢)، ثم عبرت البحر الأحمر إلى جدة، ومنها سارت إلى مكة لأداء مناسك العمرة(٣)، ولم يبق بها تورانشاه طويلاً إذ تركها إلى اليمن عن طريق البحر.

وبعد أن اعتمر شمس الدولة تورانشاه وجيشه في مكة، خرج منها في مستهل رمضان من نفس السنة متجهًا إلى اليمن عبر طريق الحجيج.

وما إن وصلت حملته إلى حَرَض من أرض اليمن حتى أسرع إليها الأشراف السليمانيون على رأسهم الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليماني مرحبًا بها ومعلنًا الطاعة والولاء لقائدها(٤)، ومبديًا استعداده لمناصرته ضد ابن مهدي، الذي قتل أخاه وهاس ونهب حرض وقراها وأراق الدماء، وطلب منه أن يكون أول دخوله اليمن نجدة لبني سليمان ضد ابن مهدي، فاستجاب له تورانشاه(٥).

رأى تورانشاه في اصطحاب الأمير قاسم كحاكم لإحدى دويلات اليمن، سيسهل عليه معرفة مسالك الطريق، وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الداخلية، ويُيسر عليه فتح اليمن.

فتح زبيد :

خرجت حملة شمس الدولة تورانشاه والشريف قاسم من حرض في أواخر شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ/ مارس سنة ١١٧٤م، متجهة إلى زبيد، فوصلت إليها في السابع من شهر شوال

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٧٥؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٢؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، مجلة المشرق، ١٢٨٦هـ/١٩٨٦م، ص١٨٩؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص٦٩؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٢؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢١٢.

(٢) السبب في سير الحملة عبر عيذاب وليس عبر السويس أو العقبة هو تأمين الحملة من التعرض للصليبيين، فذلك الطريق كان أكثر أمنًا من الطريق البري الذي يبدأ من أيلة والذي لم يكن في الإمكان استعماله طوال الحروب الصليبية. عبدالعال : المرجع السابق، هامش ص٨٢؛ السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٥٩؛ Lane, Poole : Saladin, p. 126.

(٤) يذكر الخزرجي أن الشريف قاسم استقبل القائد الأيوبي في أبي تراب بوادي بيش. الزيلعي : المخلاف السليماني، هامش ٥ ص٧٤.

(٥) ابن حاتم : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، لندن، ١٩٧٤م، ص١٦؛ الزيلعي : المرجع السابق، ص٧٣.

سنة ٥٦٩هـ/ مايو سنة ١١٧٤م[1].

وما إن علم عبدالنبي بن مهدي بوصول الجيش الأيوبي، وتعاون الشريف قاسم بن غانم معه انتقامًا لمقتل أخيه، حتى سارع في الخروج لقتالهم خارج أسوار زبيد، لمباغتة الحملة مستغلاً تعب الحملة من جراء سيرها في الطرق، بالإضافة إلى المدافعة عن أسوار زبيد من خارجها خوفًا من نصب السلالم عليها.

وحاول عبدالنبي بث الحماس في جيشه بقوله لهم " كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا، وما هم إلا أكلة رأس "[2].

ودارت رحى الحرب بين الطرفين ولم تتمكن قوات ابن مهدي من الصمود أمام القوات الأيوبية، فانهزمت واتجهت نحو زبيد للتحصن وراء أسوارها، وتفرقت القوات في كل اتجاه أما الجيش الأيوبي فقد ظل يتابع مطاردة جيش ابن مهدي نحو زبيد فحاصرهم بها، ونصب السلالم على أسوارها، وتسلقت بعض قواته وتمكنت من فتح الأبواب، لعدم وجود حراسة عليها، وظلت الحرب قائمة بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام، انتهت بتمكين الأيوبيين من دخول زبيد عنوة غروب شمس يوم الاثنين التاسع من شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م[3].

وما إن دخلت قوات الأيوبيين زبيد حتى أسرعوا لأسر حكامها من بني مهدي ونهبوا ما بها من الأموال والخيول وسبوا الكثير من نسائها[4].

بعد ذلك غادر الشريف قاسم السليماني زبيد عائدًا إلى حرض[5]، بعد أن كافأه توران شاه على تعاونه معه، بأن أقرّه على حكم المخلاف السليماني، وأشرف معه في الحكم ابن أخيه ويدعى منصورًا، وقسم المخلاف بينهما، بحيث أصبح ما بيد منصور يمتد من وادي عَيْن جنوبًا وإلى

---

(١) الحمزي : كنز الأخبار، ق٩١؛ الخزرجي : العسجد، ق١٧٧؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٤؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ ابن حاتم : السمط الغالي الثمن، ص١٦؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٤؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢١٣؛ الحياة السياسية في اليمن، ص٢٦٤؛ محمود ياسين التكريتي : الأيوبيون في اليمن، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م، العدد ١٢، ص١١٥؛ سقاف علي الكاف : حضرموت، مكتبة أسامة، بيروت، د.ت، ص٥٠.

(٢) أي أنهم قليلي العدد ولا يستطيعون تحمل الحرب في حر تهامة. ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٩؛ ابن الأثير : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٢١.

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) الزيلعي : المخلاف السليماني، ص٧٥.

الساعد شمالاً، وما يلي ذلك إلى الشمال حتى نهاية المخلاف بيد عمه الشريف قاسم[١].

عاد الأشراف إلى بلادهم في الثالث عشر من شوال من السنة نفسها[٢]، أما تورانشاه فقد أقام في زبيد لضبط أمورها وإراحة جنده حتى شهر ذي القعدة[٣].

بذلك تمكن الجيش الأيوبي من السيطرة على زبيد والقضاء على حكامها، فانتهت بذلك دولة بني مهدي في اليمن.

بعد استيلاء تورانشاه على زبيد خرج منها للسيطرة على بقية مناطق اليمن، وولى عليها أحد الأمراء الأيوبيين وهو المبارك بن منقذ[٤]، وأوكل إليه أمر تعذيب بني مهدي واستخلاص الأموال منهم[٥]، وخاصة عبدالنبي وزوجته الحرة، فأمره أن يستخرج منه الأموال، فأعطاه عبدالنبي منها شيئًا كثيرًا ودلهم على قبر أبيه وله هناك دفائن كثيرة، فاستخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار، أما الحرة فإنها أيضًا دلتهم على ودائع لها فأخذ منها مالاً كثيرًا[٦].

اتجه تورانشاه في مطلع ذي القعدة نحو تعز، وكانت تابعة لابن مهدي، فسيطر عليها دون مقاومة من أحد، وذلك بسبب اتجاه حامياتها للتحصن بالجبال المجاورة لها لخوفهم من الجيش الأيوبي.

---

(١) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٦؛ الزيلعي : المخلاف السليماني، ص٧٥.

(٢) تشير المصادر أن الشريف قاسم لم يطل به العهد بعد عودته من زبيد، حيث أنه توفي بعد شهر واحد من عودته، ومما تذكره هذه المصادر عنه أنه قال : " من عاش بعد عدوِّه يومًا فقد نال المنى ". فعاش بعد ذلك شهرًا ومات، أي حوالي الثالث عشر من شهر ذي القعدة ٥٦٩هـ/١١٧٤م. وجدير بالذكر أن الشريف قاسم ثأر من القبائل التي ساعدت عبدالنبي في مهاجمة بني سليمان ونهب أموالهم وسبى نسائهم، وذراريهم، فقد جمع رجاله وهاجم وادي العين والمهجم قبل وفاته.

الخزرجي: العسجد، ق١٦٩؛ الزيلعي: المرجع السابق والصفحة؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج١، ص٢١١.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق، ص١٧٧؛ ابن حاتم : السمط الغالي، ص١٦؛ ١٧؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص٦٩.

(٤) هو الأمير سيف الدولة أبو ميمون مبارك بن منقذ الكناني، يروي ابن واصل وأبو مخرمة، أن إقامته لم تطل كثيرًا باليمن، إذ كان يهوى الشام لأنها وطنه، كما أصابه المرض، فلما عزم تورانشاه على العودة إلى مصر، استأذنه أبو ميمون في صحبته، وأن يستنيب على عمله في زبيد أخاه خطاب فأذن له بذلك، فكانت مغادرته لها سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١٠٢؛ بامخرمة: المرجع السابق، ص٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٥٢.

(٥) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء، ص٥٣.

بعد ذلك حاول تورانشاه السيطرة على جبل صبر وجبل تعز، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها لمناعة حصونها وظهور المقاومة بهما من حاميات ابن مهدي[1]، وعدم توافر الوقت الكافي لتورانشاه والجيش الأيوبي لاستمرار فرض الحصار على تلك الحصون، ففضلوا تركها واتجهوا نحو الجند، فسيطروا عليها هي الأخرى دون حرب أو مقاومة[2].

ثم توجه تورانشاه نحو عدة مدن في اليمن للسيطرة عليها مثل مدينة عدن وذي جبلة، فضلاً عن السيطرة على ذمار، ومرورًا على صنعاء، ثم عاد إلى زبيد[3].

القضاء على نفوذ بني مهدي في اليمن :

أقام شمس الدين تورانشاه في زبيد إلى شهر جمادي الأولى سنة ٥٧٠هـ/ ديسمبر ١١٧٤م، ثم عزم على الاتجاه نحو " الجند " فلما وصلها أسرع إليه متولي حصن " صبّر " من قبل ابن مهدي، معلنًا ولاءه وطاعته لتورانشاه وتسليمه الحصن، فكان ذلك فرصة لشمس الدين أن يتسلم الحصن دون قتال[4].

توجه تورانشاه بعد ذلك إلى الحصون الواقعة غرب مدينة تعز، وكانت تابعة لبني مهدي أيضًا، فيسطر الأيوبيون على حصن " بادية وشرِيّاق "، أما حصن عزان ذخر الذي كان متوليًا عليه علي بن الحجاج صهر عبدالنبي بن مهدي، طلب مصالحة الأيوبيين حينما حاصروه، على أن يسلم لهم الحصن وما بحوزته من أموال لابن مهدي والتي كانت تقدر بعشرة آلاف دينار ذهبًا، وأن يخلوا سبيله ومن معه، فقبل بذلك تورانشاه، وتسلم الحصن منه[5].

بعد ذلك سيطر تورانشاه على عدة حصون هامة تابعة لبني زريع في عدن، مما أدى إلى سقوط حصون الزريعيين وتقلص نفوذهم وانقضاء دولتهم، ثم توجه إلى ذي جبلة[6].

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٧٧؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٧.

(٢) ابن حاتم : السمط الغالي، ص١٧.

(٣) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٩؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٩؛ ابن حاتم : المصدر السابق، ص١٧؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٢٧؛ أبو شامة : الروضتين، ص٢١٧.

(٤) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ص٥٤؛ الكبسي : المصدر السابق والصفحة.

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر، ص١٩؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٩؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٩٤؛ السروري : تاريخ اليمن، ص٢٢٠.

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر، ص٢٠؛ محمد بن علي مسفر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ) دار المدينة، جدة، ١٤٠٥/١٩٨٥م، ص٨١.

أقام تورانشاه في ذي جبلة مدة، ثم غادرها إلى مدينة زبيد لما بلغه وقوع خلاف في تهامة، من قبل أهلها المناصرين لبني مهدي، فأمر بقتل عبدالنبي وأخويه أحمد ويحيى، فقتلوا في رجب سنة ٥٧٠هـ/ فبراير ١١٧٥م[1]. واستقر في زبيد حتى قضى على هذه الثورة وبذلك يكون تورانشاه قد تمكن من السيطرة على اليمن الأسفل وتهامة، والقضاء على دولة بني مهدي وبني زريع ثم لقب بالملك المعظم وخطب له في هذه المناطق كما خطب للخليفة المستضيء بالله العباسي[2]. كما أنه أمن مفتاح البحر الأحمر الجنوبي من محاولات سيطرة القوة المسيحية والصليبية عليه.

وعندما اطمأن تورانشاه على دولته في تهامة، أرسل أطباءه والخبراء، يرتادون له مكانا مناسبًا يختط فيه مدينة تكون مقرًا رئيسيًا له وعاصمة للملوك الأيوبيين، فوقع اختيارهم على ذي عُدَيْنَة، فاختط بها مدينة تعز[3].

استقر تورانشاه في اليمن سنة كاملة[4]، من شعبان ٥٧٠هـ/ مارس ١١٧٥م وحتى شهر رجب ٥٧١هـ/١١٧٦م، دون أن يتجه لمحاربة أي قوى بها، وذلك بسبب تركه للكثير من جنده حاميات في كل من زبيد وتعز وعدن وذي جبلة.

فعهد إلى أبي ميمون مبارك بن منقذ الكناني حكم زبيد[5]، وولي ياقوت التعزي على تعز ونواحيها، ومظفر الدين قايماز على ذي جبلة[6]، وعثمان الزنجبيلي على عدن ونواحيها[7].

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧١.

(٢) المقريزي : السلوك، ج١، ق١، ص٥٣؛ مسفر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص٨٢؛ دائرة المعارف الإسلامية، م١٤، عدد ١، ص٢٦٨.

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦٤٧؛ نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص٧٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٢١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٣؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٥٠.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٦) الكبسي : اللطائف السنية، ص٢٧، ٢٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٣١.

(٧) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

هو عثمان بن عمر بن علي الزنجبيلي الذي اهتم كثيرًا بعمران عدن وما حولها حتى " لَخْبَة " التي تبعد عن عدن مسافة فرسخين إلا ربع وذلك ما بين ٥٦٩-٥٧٦هـ/١١٧٤-١١٨٠م.

حمزة بن لقمان : تاريخ القبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٦م، ج١، ص٥١؛ مجلة الخليج العربي : م٢٠، ع٢، ص٢٨؛ Malcolm : Saladin, p. 159.

أحسن تورانشاه إلى أهل اليمن، واستصغى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بعد خرابها[1]. إلا أن تورانشاه فكر في العودة إلى الشام لأنه كره اليمن ولم يستهوه الإقامة بها، وجرت مراسلات بينه وبين أخيه صلاح الدين انتهت بأن سمح له صلاح الدين بالعودة.

قرر تورانشاه السير نحو الشام محملاً بالغنائم، فسار إليها من الجَنَد في رجب ٥٧١هـ/ يناير ١١٧٦م، وأثناء سيره أمر بشنق ياسر بن بلال وزير بني زريع، والسدوسي، فشنقا على باب الخان في زبيد في نفس رجب ٥٧١هـ/١١٧٦م[2].

إذن استغرقت فترة إقامة تورانشاه في اليمن منذ قدومه، سنتين من رجب ٥٦٩هـ/ أبريل ١١٧٤م حتى رجب سنة ٥٧١هـ/ يناير ١١٧٦م.

أسباب انتصار الجيش الأيوبي علي بني مهدي :

أولاً : الظرف السياسي والاجتماعي الذي كانت تعيشه اليمن، وتمزقها إلى طوائف ودويلات تتطاحن وتتصارع فيما بينها، فأدى ذلك إلى ضعفها جميعًا، حيث قامت حروب كثيرة بين عبدالنبي بن مهدي ودولة بني زريع ودولة بني حاتم، وكان الصراع بينهما متواصلاً، مما أدى إلى انتشار الفوضى، والاضطراب، كما أدى الصراع بين هذه الإمارات إلى زوال بعضها، وقيام البعض الآخر على أنقاضها.

ثانيًا : الفزع والقلق الذي أثاره عبدالنبي بن مهدي بالإغارة على المدن اليمنية بغية الاستحواذ عليها وإخضاعها لنفوذه.

ثالثًا : كره أهل اليمن لعبدالنبي بن مهدي، وتخوفهم منه، بسبب شدة تطرفه وفتكه بكثير من الأهلين في مواضع كثيرة لمدن كثيرة في اليمن.

رابعًا : مهما كانت أسباب الانتصار الأيوبي فلابد أن يكون هناك تعاون وتخطيط مسبق مع عناصر وطنية من اليمن نفسها لتسهل هذا الانتصار، وتجلى هذا العنصر في الشريف قاسم بن غانم السليماني حاكم المخلاف السليماني، وتعاونه مع تورانشاه، كونه من القوى اليمنية التي ستسهل له مسالك الطريق وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الأخرى وأيضًا للثأر من ابن مهدي الذي قتل أخاه الشريف وهاس بن غانم.

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٣.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص٣١٨.

خامسًا : ظهور الضعف والانهزام على قوات ابن مهدي منذ بداية ٥٦٩هـ/١١٧٤م حيث وقفت ضده قوات اليمن القبلية من بني زريع وبني جنب وبني حاتم، حيث أسفر هذا التجمع القبلي عن هزيمة ابن مهدي في ذي جبلة وتعز.

سادسًا : عدم سحب ابن مهدي لقواته في المناطق التي سيطر عليها في اليمن للدفاع عن زبيد أو الهروب إلى الجبال والتحصن بها، وذلك لعدم معرفته لقدرة الجيش الأيوبي القتالية.

سابعًا : قوة كثرة الجيش الأيوبي فكان الجيش الأيوبي كله معدًا للقتال ومدربًا تدريبًا عسكريًا عاليًا، جعل مقدرته القتالية أكثر فعالية، مع كثرة عدده واستخدامه لأسلحة لم يقدر عليها جيش ابن مهدي، أما جيش ابن مهدي كان عكس ذلك، فكان أغلب الجيش قبليًا لم يكن على مستوى عالٍ من التدريب العسكري والمقدرة القتالية.

ثامنًا : استخدم الجيش الأيوبي لطرق حربية لم يعرفها جيش ابن مهدي من قبل ولم يستخدمها، منها فكرة استخدام السلالم، فلم يكن جيش ابن مهدي في حاجة إليها وذلك لطبيعة اليمن الجبالية، وتحصن جيشه بهذه الجبال، ولكن فكرة السلالم سهلت على الجيش الأيوبي الوقت الكثير في مهاجمة المدن من أسوارها بدلاً من حصارها الذي سيكلفهم الكثير من الوقت والمال، وهو ما لا يرغب فيه الأيوبيون.

إضافةً إلى ذلك خبرة الجيش الأيوبي في القتال في المناطق المفتوحة مثل مدينة زبيد، وليس في المناطق الجبلية، فكان من السهل فتح البلاد اليمنية عن طريق الهجوم المباغت من أسوارها، وذلك ما حقق النصر للأيوبيين على عبدالنبي بن مهدي.

تاسعًا : عدم تمكن حاميات الحصون اليمنية من مقاومة الجيش الأيوبي أو تحمل الحصار لفترة طويلة، لتفوق القوى الأيوبية عليهم، والتي تمكنت من تحقيق الانتصار عليهم والسيطرة على المدن اليمنية الأخرى، والتي سرعان ما أعلن أصحابها استسلامهم.

عاشرًا : وأخيرًا التصارع المذهبي الذي كان قائمًا في اليمن بين البلدان والإمارات فكان هناك اختلاف وانشقاق مذهبي، فكان بنو مهدي خوارج، وأصحاب المخلاف السليماني سُنّة، وحكام عدن وصنعاء إسماعيلية، وحكام صعدة زيدية، فأدى ذلك إلى تطاحن وتصارع مذهبي وسياسي أودى بأمن وأمان الحالة السياسية، والاجتماعية باليمن في تلك الفترة.

أما عن نتائج الفتح الأيوبي لليمن فهي كالآتي :

أولاً : نهاية دولة بني مهدي بالقضاء على نفوذها في اليمن، وتتبع أفراد أسرة بني مهدي

وقتل معظمهم.

ثانيًا : أسر زوجة عبدالنبي بن مهدي وتسمى " الحرة " والتي كانت ذات ثراء هائل، وكانت مرأة صالحة، كثيرة الصدقات، وكان لها دور كبير في إرشاد تورانشاه إلى ممتلكات دولة بني مهدي وكنوزها في الأنحاء المتفرقة من الحصون اليمنية.

ثالثًا : إجبار عبدالنبي وهو في الأسر من قِبل الأمير سيف الدولة مبارك بن منقذ أن يستخرج الأموال التي لديه، وكانت أموالاً جليلة المقدار، وإرشاده عن الأموال والكنوز التي كانت مدفونة في قبر أبيه علي بن مهدي، والذي يسمى " بالمشهد "، فتم هدم قبة المشهد وأُخرِجَت الأموال منه والتي كانت بمقدار ستمائة حمل.

رابعًا : فتح تورانشاه بلدان اليمن وحصونها، والتي قُدِرَت بثمانين حصنًا ومدينة، واستيلاءه على أموالها وذخائرها.

خامسًا : السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وتأمين حدود الدولة الأيوبية في الجنوب ضد حملات الصليبيين.

سادسًا : إعادة الخطبة في اليمن للخليفة العباسي المستضيء بالله، والعمل على إصلاح أحوال اليمن ليعود لها الأمن والرخاء

سابعًا : القضاء على مظاهر الانقسام الداخلي، والعمل على أن تكون بلاد اليمن جزءًا من الدولة العربية الموحدة التي يهدف إليها صلاح الدين الأيوبي.

كان لتكوين الجيش والإستراتيجية العسكرية لدولة بني مهدي أثر كبير في سقوط هذه الدولة وانتهائها، ونحاول في عجالة التركيز على أهم العناصر الخاصة بالجيش وسياستهم العسكرية لتوضيح أثرها في سقوط الدولة.

عناصر الجيش :

اعتمد الجيش في دولة بني مهدي على العنصر القبلي، باعتبار أن هذا العنصر من سمات أي جيش في دويلات اليمن الإسلامية، مع الاختلاف، فكانت بعض القبائل اليمنية تعتبر الدخول في رسوم الجندية، واستخدام غاراتها، فيه إهانة لها وترفض قبول الأعطيات من خلالها، وكانت بعض القبائل تحب أو ترحب بالدخول في رسوم الجندية، وتفضل العمل بها على غيرها من الأعمال، وتطلب المزيد من أُعطياتها، وتعتبر قبيلة همدان وملوكها من أهم القبائل اليمنية التي كانت تفضل الدخول في رسوم الجندية، ولا تعتبره سُبَّه، مما جعلها تلقى شهرة لدى بعض

الدويلات اليمنية، حتى أصبحت تلك الدول تهابها وتقبل المسالمة معها وتعطيها الغنائم والأموال. كما كانت تأخذها للحرب معها، من ذلك حكام مدينة زبيد الذين كانوا يهادنوهـا ويبعثـون إليهـا بالأموال، ويرسلون إليهم بدعوتهم للعطاء والخروج معهم لحرب بعض أعدائهم، ذلك كان يحدث منذ نشأة مدينة زبيد في عهد بني زياد إلى عهد الدولة النجاحية، ولكن قبائل همدان وغيرها انقلبت على حكام زبيد في عهد بني مهدي، وأخذت الجانب الآخر لمحاربتهم، فخسرت دولتهم عنـصرًا هامًا في الجيش، إلا أن انضمام أهل الجبال مثل وصاب وريمة[1]، وأيضًا أهـل القـرى مثـل العنبرة، وواسط والقضيب، والأهواب، والمقتفي، وساحل القارة[2]، كان لها كبير الأثر على جيش دولة بني مهدي من حيث القوة والعدد.

الوحدات العسكرية :

كانت الوحدات العسكرية القتالية في جيش بني مهدي تشابه الوحدات التقليدية والتي كانـت تتكون عادة من الفرسان، والرجالة أو المشاة، والرماة بأنواعهم، أي رماة الرماح، ورماة السهام، ورماة الأقواس، بالإضافة إلى رماة النار وغيرهم.

الفرسان أو الخيالة :

كانت الفرسان أو الخيالة من أهم الوحدات القتالية آنذاك في جيش بني مهدي بحيث لا تخلو معركة منهم، وخاصة في الأماكن السهلية المفتوحة كزبيد، وتعد الخيول من أهم عناصر الهجوم والانسحاب السريعين، فكانت تستخدم للمطاردة، والاستطلاع والتطويق، والالتفاف لسرعتها فـي الحركة، ويظهر لنا جليًا دور الفرسان في زحف علي بن مهدي على زبِيد، وعدم مقدرة الجـيش النجاحي للمقاومة، مما نتج عنه استيلاء علي بن مهدي علي زبيد قهرًا بالسيف، والسيطرة عليها وتوطيد سلطانه عليها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[3].

وكذلك كان اعتماد مهدي بن علي بن مهدي في كل غاراته الاستكشافية على الفرسان والتي دائمًا ما كانت تنتهي بالتخريب ومنها غارته على الجَنَد سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م.

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية، ص٨٧.

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٤٩.

(٣) قال علي بن مهدي واصفًا مفتخرًا بخيله وفرسانه الذي تقدمهم في الاستيلاء على زبيد :

عناق العتاق الصافنات السوابـق ... ألـذ وأشهى مـن عناق العواتق

وسهرتنا بالليل فـوق ظهـورها ... ألـذ إلينـا مـن رقـاد النمارق

وما العز إلا في صها كل صاهل ... من الخيل لا في صهوتي كل ناهق

ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٨، ٢٥٩.

وكذلك اعتماد عبدالنبي بن علي بن مهدي على الخيالة أو الفرسان في كل حروبه ولاسيما في مقدمة جيشه لاستطلاع مدى قوة الجيش المعادي له، ويتجلى ذلك في خروجه بجيش جرار إلى جهة أَبْيَن سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م.

وهذا كله بجانب اهتمامهم بالخيل والإبل التي كانت من أهم الوسائل لدى الفارس في المعركة، وخاصة في مناطق السهول التهامية.

الرجالة أو المشاة :

كان الرجالة أو المشاة أداة فعالة في المعارك التي خاضها جيش دولة بني مهدي في مراحلها المختلفة بدءًا من علي بن مهدي وانتهاء بعبدالنبي بن مهدي، وكان الرجالة أو المشاة يشكلون الغالبية العظمى للجيش، ومن ذلك أنه عندما هاجم علي بن مهدي مدينة الكدراء سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م[١] كان جيشه يضم ٤٠ ألف راجل، مما ألقى الرعب والفزع في قلوب منافسيه، بغض النظر عن نتيجة هذه الهجمة والتي مُنِيَ على أثرها ابن مهدي بالهزيمة.

الرماة :

الرماة بأنواعهم، كرماة الرماح والحراب والسهام والمنجنيقات، وكانت فرقتهم تتكون من المشاة والفرسان، وكان لهم دور بارز في المعارك، فقد تدار المعركة بكاملها بالرماة، فمثلاً كانت أغلب غارات وغزوات حكام دولة بني مهدي تهدف إلى حرق الأماكن والبلدان اليمنية وتخريبها فتُرمى بالمنجنيق والنفط حتى تُخَرَّبَ تمامًا.

أنواع الأسلحة :

استخدم جيش دولة بني مهدي أنواع الأسلحة المعروفة آنذاك في العالم الإسلامي، مثل السيف[٢]، والرمح، والسهم، والحربة[٣]، والخنجر[٤] وهم من أهم ما يميز الجيش اليمني عمومًا.

---

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٩.

(٢) ابن هذيل الأندلسي : حيلة الفرسان وشعار الشجعان، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ط١، ص٢٦٥.

(٣) الحراب : اسم من أسماء الرمح ولكن تختلف تسميتها باختلاف طوله فالقصير وهو ما دون الأربعة أذرع يسمى الحربة، ويتكون من عود من شجر صلب مثل النبع أو القصب الهندي المجفف، ويركب في رأسه نصل من حديد فيسمى رمحًا.
عبدالرحمن عميرة : الإستراتيجية الحربية في إدارة المعارك في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٩٨، ٩٩.

(٤) الخنجر: يسمى الجنبية في التاريخ اليمني، وسُمي بالجنبية لأنه يوضع على جنب الفارس حتى أصبح جزءًا =

ومن الأسلحة أيضًا المنجنيق والعرادة :

والمنجنيق آلة تُرمَى بها الحجارة، ويعد من الأسلحة الهامة في كسب الحرب وتحقيق الانتصار، والعرادة أصغر من المنجنيق تَرمي بالحجارة المرمى البعيد أو منجنيق صغير كان يستعمل في السهام الكبار دفعة واحدة، إلى مسافات وأهداف بعيدة لا تصل إليها القسي العادية. واستخدم مع المنجنيق والعرادة النفط لإحراق الأماكن ونحوه(١).

وممن استخدم المنجنيق مع العرادات والنفط، مهدي بن علي بن مهدي، عندما شن سلسلة من الحروب على اليمن الأسفل في الجنوب، وإحراقه سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م لمدينة الجند ومسجدها بمن فيه من أهلها وودائعها وكتبها ومصاحفها، وتركها خاوية على عروشها(٢).

وكذلك إحراق عبدالنبي القرية تسمى " الضربة " سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، وهي تابعة إلى منطقة " أبين " وقتل الكثير من أهلها(٣).

وأيضًا استخدمها أحمد بن علي بن مهدي، عندما ذهب للجوة سنة ٥٦١هـ/١١٦٤م وأحرقها(٤).

كما اصطحب بنو مهدي عند خروجهم للمعارك ما يلزمهم من المؤن والمعدات، مثل الزاد والمياه والخيام، خاصة إذا ما كان بنو مهدي في سبيلهم لحصار بعض المناطق والمدن لمدة طويلة تصل أحيانًا إلى أسابيع وشهور.

أيضًا استعانوا برواحل لحمل الجنود والمؤن مثل الحمير والبغال والجمال التي استخدمت في المناطق السهلية التهامية.

= منه لا يفارقه طوال حياته، حتى أن الفارس عندما يُقتل في المعركة يرثه ابنه في الجنبية ولا يفرط فيها، وهو إرث يفخر به الأبناء، كجزء من الشجاعة والفروسية، ومن أشهر أسمائها هي الزبيدية نسبة إلى مدينة زبيد.

زيد يحيى المحبشي : الجنبية اليمنية في العصر الإسلامي، تراث مجمع الفنون اليدوية والانتماء الاجتماعي، ٢٠٠٩م، ص٣.

(١) Oman : C. W. C. : " Ahistory of The art of war in the middle ages ", London, 1982, p. 219.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٤؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨، ٥١٩.

(٣) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق١٦٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩.

(٤) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٧؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص١٦٠.

ضرب الطبول والأبواق :

كان الجيش في اليمن يستخدم ضرب الطبول والأبواق، وقد استخدمت لعدة أغراض منها، إشعار الجند بالاستعداد للتجمع، والاستعداد لبدء الحرب والاستعداد للرحيل، وإعلانًا بالفرحة والنصر واستقبالاً للجيش العائد من المعركة أو المنتصر، ومن أمثلة ضرب الطبول والأبواق، عندما تمكن علي بن مهدي من الانتصار على دولة بني نجاح في زبيد والسيطرة عليها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، فكانت فرحة أتباعه وأصحابه كبيرة، حتى أن علي بن مهدي أنشد الشعر في ذلك اليوم[1] فرحًا باستيلائه على زبيد وتوطيد حكمه عليها، وإيذانًا ببداية دولة بني مهدي كدولة مستقلة رسميًا وشرعيًا.

الإستراتيجية العسكرية لحكام بني مهدي :

أولاً : علي بن مهدي :

تمتع علي بن مهدي بأهم الشروط التي لابد وأن يتسم بها مؤسس الدولة، وهو القيادة، حيث إن القائد لابد أن يكون قوة دافعة، متحمسًا للغرض الذي يحارب من أجله، كما يجب أن يكون ذا عقل متحمس[2]، كثير المعرفة، مرنًا، سياسيًا، ذا صبر لا ينفذ، وقادرًا على الإقناع وقوة البيان وبُعد النظر، وأن يُحسن اختيار معاونيه، ويجيد توجيهم، وهذا ما فعله علي بن مهدي عندما اختار شيخي الإسلام، أحدهما سبأ بن يوسف لطائفة الأنصار، والآخر التويني لطائفة المهاجرين كمساعدين له وهمزة الوصل بينه وبين جنوده وشعبه عمومًا[3].

وكان من طبع علي بن مهدي كقيادي صفة الحذر والقوة والاحتراس، فلا يحتك بأتباعه أو أصحابه مباشرة، مما كان يطبق عليه قول : " اجعل الحذر رأس مكيدتك، لكن في الحيلة والحذر وسوء الظن مُعْظِمًا لأمر عدوك فوق قدره، من غير أن يظهر منك، أو يصدك عن أحكام شيء من أمرك "[4].

جاء مذهب علي بن مهدي في إخضاع كل أتباعه عن طريق العقيدة الدينية ـ متمثلة في الزهد والورع والتصوف عن أطماع الدنيا والتي أتت ثمارها معه، وكان لها كبير الأثر في التفاف

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) شوقي محمد بدران : العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج٢، ص٩.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٠.

(٤) الهرثمي : مختصر سياسة الحروب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤م، تحقيق عبدالرؤوف عون، مراجعة محمد مصطفى زيادة، ص١٩.

عشرات الآلاف حوله من المؤمنين به إيمانًا راسخًا بمبادئه، وبشخصه أيضًا[1]، وكان من أهم نتائج اقتناع أتباع علي بن مهدي، أنه أوجب عليهم الطاعة المطلقة له ولكل أوامره.

ومن هنا وضع علي بن مهدي نظامًا عسكريًا لجنوده، وهو نظام جديد يتمثل في ملكية الدولة لكل ما يحتاجه الجندي من سلاح وعدة وغيره، والدولة هي التي تقوم بكفاية الجندي بكل ما يحتاجه من غذاء وملابس له، ولأسرته وأهله. وما على الجندي إلا الطاعة الجبرية لكل التعاليم التي يصدرها علي بن مهدي ومن هذه التعاليم العسكرية[2] :

- يحمل الجندي كل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال.
- يقوم ابن مهدي بكسوة الجندي وأهله ومن عنده.
- ليس لأحد من عسكره فرس يربطه في داره، ولا عدة ولا سلاح وغيره، تظل مع الجندي في وقت غير الحرب، بل الخيل تظل في اصطبل ابن مهدي، والسلاح في خزائنه أوزردخاناته[3]، وعندما تحدث الحرب يُخرِج لهم الخيل والسلاح.

كذلك من التعاليم العسكرية الصارمة لعلي بن مهدي[4] :

- قتل المنهزم من عسكره، فيضرب عنقه ولا سبيل لحياته.
- قتل من شرب الخمر.
- قتل من سمع الغناء.
- قتل من يزني.
- قتل من يتأخر عن صلاة الجمعة.
- قتل من يتأخر عن مجلس الوعظ يومي الاثنين والخميس.
- قتل من يتأخر عن زيارة قبر أبيه.

وهذه التعاليم العسكرية الصارمة لابن مهدي كانت سارية على عسكره فقط دون الرعايا من

---

(١) نتساءل هنا هل من علاقة للدين بالقيادة ؟ نعم .. فالقائد الذي لا يتحلى بالفضائل الدينية لا يكون موضع إعجاب كثير من الناس. ابن عميرة : الإستراتيجية الحربية، ص٥٩.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٧٠؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٧.

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩٠.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٦، ١٢٧.

الأمة[1]، فالأمر فيهم ألطف من أمر العسكرية[2].

على أية حال فإن هذه التعاليم المشددة التي اتبعها علي بن مهدي في بداية اقامة دولته، لم يُستَمرَ في تطبيقها طويلاً، فأُلغِيَ العمل بها بعد ذلك، وأوضح ذلك عمارة بقوله : " وقد بلغني في هذا الوقت وهو سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م أن الأمر قد هان مما كان عليه من هذه الشدة "[3].

البداية الحربية لعلي بن مهدي :

بدأت سياسة علي بن مهدي العسكرية منذ سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، بغارات تخريبية لمدة ١٠ سنوات على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال، والتي تميزت بداية بعدم التنظيم نظرًا لأنه كان يسكن الجبال، ثم بعد ذلك، بدأ الجيش في التنظيم والتكتيك الحربي بعد انضمام قبائل كثيرة له ورعايا دولة بني نجاح، الذين ضموا الكثير من الجنود، مما ساعدهم على التنظيم العسكري.

كان علي بن مهدي يُغيِّر أسلوبه في المعركة حسب الظروف التي تُفْرَض عليه، فيتبع أحيانًا السير مشيًا على الأقدام، وكانَ ذلك عندما نزل من حصن " الشرف " إلى حصن " الداشر " والذي يبعد أقل من نصف يوم عن زبيد، والهدف من ذلك بعد الاستيلاء على مدينة زبيد، أولاً : بث الرعب والفزع في قلوب عرب ورعايا تهامة التي انضمت إلى جيشه خوفًا من بطشه، فبذلك تجمع لديه عدد لا يحصى من الجنود. ثانيًا : الطريق الذي كان يسلكه طريق جبلي، أنسب طريقة للنزول والسير فيه هي المشي على الأقدام، فيوفر ذلك من طاقة خيول جنده.

اتسمت هجمات علي بن مهدي العسكرية ببدايتها ليلاً مستخدمًا الأحراج للاختباء فكان يهجم بجيشه من حصن الشرف الذي يعد مركز انطلاقه إلى وادي مسيلة تهامة، وهو وادي متعرج ملئ بالأشجار الكثيفة، فكان يخرج ليلاً مغيرًا على الدولة النجاحية في زبيد آنذاك مُحرقًا ما يجده أمامه، وإذا ماأدركه الفجر، يعود مع جيشه إلى تلك الأحراج متأكدًا من عدم قدرة الجيش النجاحي ملاحقته في هذه المنطقة.

سياسة المصالحة التي اتبعها علي بن مهدي في بداية تكوين دولته مع الدولة النجاحية على

---

(١) الخزرجي : العسجد، ق١٧٠؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٧.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٧؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٧؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن، ص٢٤١.

(٣) عمارة : نفس المصدر والصفحة. بل أصبح بعد ذلك لكل جندي راتبه وأعطياته المستقلة، وأيضًا مكافأته بعد كل انتصار.

عهد القائد سرور الفاتكي بتوجيه من الحرة " علم " والدة الأمير فاتك بن منصور، وذلك سنة ٥٣٦هـ/١١٤١-١١٤٢م، فكان لتلك المصالحة كبير الأثر على عليٍّ بن مهدي ورعاياه في ذلك الوقت مما أفاده بإعفاء أراضيهم من الخراج وزيادة عدد أتباعه، كما أنهم أثروا واتسعت بهم الحال، مما ساعدهم فيما بعد بالاستيلاء على زبيد والقضاء على الدولة النجاحية.

سياسة المباغتة، حيث اتسمت غارات وحروب علي بن مهدي بالسرعة والمباغتة حيث تبدأ الغارة أو الحرب في الصباح الباكر على القرى، وتعمل على حرق ونهب كل ما تجده، وتعود بالأنعام والأسرى مما أشاع الرعب في أهل البوادي وأخرب قراهم(١).

ولعلنا نذكر أن المباغتة مبدأ هام من مبادئ الحرب، بل أقوى أسلحة الحرب، فعنصر المباغتة من أقوى العناصر وأبعده أثرًا في إدارة المعارك والحروب وتأثيره المعنوي في إنهاء المعركة، وهذا ما كان يحرص عليه علي بن مهدي ويكاد يكون النصر مؤكدًا وحاسمًا(٢)، ويتجلى ذلك عندما استمر علي بن مهدي يبعث غاراته إلى سهل تهامة ليلاً ونهارًا وامتدت غاراته حتى شملت معظم تهامة المقابلة للجبال التي تحصن بها، حتى " أجلا جميع أهل البوادي وقطع الحرث والقوافل التجارية "(٣)، وبطلت الأسفار وعمارة المدن في تهامة، أي انقطع الناس عن السفر من زبيد إلى عدن ومن عدن إلى زبيد مدة ثلاث سنين(٤).

إذن كان علي بن مهدي رجلاً زعيمًا، قياديًا، ذا عزم عظيم، وإن كان يتسم بالعنف والقسوة لتحقيق مبادئ سعى إليها في توطيد سلطانه على زبيد، وتأسيس دولته وإخضاع كثير من القرى وأهلها له، واتباعهم له عن طاعة مطلقة.

ثانياً : مهدي بن علي بن مهدي :

كانت سياسة مهدي بن علي العسكرية(٥)، تعتمد على تطبيق أول قوانين عسكرية أنشأها والده للسيطرة على الفوضى والقضاء على السلطنات والمشيخات والدويلات التي تعيث نهبًا

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٢١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥١؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

(٢) عبدالرحمن عميرة : الإستراتيجية الحربية، ص٢٥٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢١، ١٢٢؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦.

(٤) عمارة : النكت العصرية، ص٢٦، ٢٧.

(٥) قيل في مهدي بن علي كفارسًا شعرًا منه :

كلا ومهدي فارس بطل ... وصدر حيزوم يملأ الحزما

الخزرجي : العسجد، ق١٦٤؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٩.

غصبًا واستهتارًا، وكان مهدي عسكريًا متجبرًا عنيدًا بلغ من العنف والقسوة مبلغًا عظيمًا والتي ظهرت كالآتي :

- القيام بغارات استكشافية تخريبية للمدن والقـرى اليمنية، فكانت من الأسس العسكرية لمهدي ابن علي، بل ومن الضرورات الحيوية، مثل إشعال الحروب، وعند قيام المعارك ليعرف منها مدى قدرات عدوه، وحتى يدخل رجاله المعركة بخطى ثابتة واثقة من النصر.
- فمبدأ مهدي ألا يلتقي بجيش خصمه ويحاربه في موقف يلفه الغموض والجهل، لكي لا تهتز كفاءته القتالية، فضلاً عن تعرضه للخسائر الكثيرة أو الهزيمة في النهاية.
- فقد كانت غارات مهدي الاستكشافية من عوامل القوة، التي توضح لجيشه نقاط ضعف الجيش الآخر، وكيفية التعامل معها، وتدارك كل عناصر المفاجأة والمباغتة.
- اعتاد مهدي بن علي في سياسته العسكرية أن يغزو ويغير على البلاد، والقرى أكثر من مرة، وحدث ذلك عندما أغار على " لَحْج " مرتين أولهما سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، والثانية سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وكلاهما بهدف واحد هو حماية للظهر وتهديد عدن تكتيكيًا.
- عنفه في إدارة المعارك، حيث أنه كان دائمًا يستخدم المنجنيق والنفط في كل غاراته، فكان لا يترك قرية أو مدينة أو أي مكان أغار عليه دون أن يحرقه، ولعل أظهر مثال لنا، ما فعله في مدينة الجند حينما دخلها بالقوة في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م وقتل كل كبير وصغير فيها وأحرق مسجدها على من فيه من ضعفاء وعجائز وعواكف وعزل من السلاح، بجانب المصاحف والكتب وتركها خاوية على عروشها.
- حرصه الشديد بعد كل معركة أو إغارة على جمع ما يقدر عليه من الغنائم والأموال الجزيلة، وسبي الحريم.
- إتباعه نهج أبيه في سياسة المصالحة، حيث إنه عقد مهادنة بينه وبين الداعي عمران بن سبأ الزريعي حاكم عدن على مدينة " عدن " و" الدملوة " بمال محدد يؤديه إليه سنويًا على ألا يتعرض له ولبلاده(١)، ولكنه كان ينقض العهود.
- استيلاؤه على بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحُرَيْم وحَلْمة وريشان من السلطان

(١) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

علي بن أبي الفتوح الوليدي[1]، واشترى حصن تعز وصبر من أحمد بن المنصور بن المفضل بن أبي بركات[2]، وذلك تعزيزًا لقوته.

إذن كانت شخصية مهدي بن علي العسكرية تسعى لتأكيد انتصاراته لأكثر من مرة واستمتاعه بتطبيق مذهبه الذي يوجب تطهير كل ما هو نجس بالنار، وبالتالي وسيلته هنا هي النار، لتطهير المدن والقرى وأهلها، ومن ثمَّ يستولى هو عليها فيهدأ بالاً، وتتسع رقعة نفوذه جغرافيًا.

ثالثًا : عبدالنبي بن علي بن مهدي :

كانت الصفات الشخصية لعبدالنبي سببًا رئيسيًا في سلوكه الحربي، حيث إنه كان فارسًا شجاعًا، سفاكًا للدماء، متعطشًا للقتل، وولِع بجو المعارك وأحداث القتال، ولا ييأس من الهزيمة أبدًا بل يتابع الإغارة على البلدان اليمنية إذا ما استعصت عليه أكثر من مرة ليستولى عليها.

اكتسب عبدالنبي خبرةً وثقةً عسكرية، مع مشاركته لأخيه مهدي في غزواته، حيث كان عبدالنبي يقوم بمهمة إعداد السرايا للغزو، فتعلم خبرة عسكرية قبل توليه الحكم، وبعد توليه الحكم اهتم كثيرًا بالغزو وما يتبعه من قتل ودمار.

ومن العوامل التي ساعدت عبدالنبي بانتشار واتساع نفوذه في اليمن، طول فترة حكمه " عشر سنوات " وهي أطول فترة لحاكم من دولة بني مهدي.

سياسة عبدالنبي العسكرية :

استهدفت سياسة عبالنبي منذ توليه الحكم سنة ٥٥٩هـ-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م إلى التوسع في نفوذ دولة بني مهدي من حيث :

١- امتلاك الأراضي اليمنية والاستيلاء على البلاد شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا، وبالفعل بلغ الاتساع أقصاه في عهده، وملكت زبيد أموالاً طائلة في خزائنها. ولا نبالغ إذ نقول أنَّ مُلْك دولة بني مهدي في عهد عبدالنبي بلغ اليمن بأسره ما عدا عدن.

٢- امتلاك الكثير من الحصون وشراؤها، فكانت الحصون من أهم المواقع العسكرية التي تكسب أصحابها النصر أو المقاومة لمناعة مواقعها الطبيعية، حيث لا يستطيع الجيش المهاجم اجتيازها بسهولة، لذلك كان من الضروري على عبدالنبي الاستيلاء على

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٢.

(٢) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٨.

الحصون أو شراؤها لأن ذلك أحسن وأسهل وسيلة للمقاومة في الحرب. ومن هذه الحصون على سبيل المثال، حصن المَجْمَعة، وحصن التعكر، وحصون خَوْلان، وحسن السّوا، وحصني سامع ومطران، وحصن يمين، وهي من معاقل الداعي عمران بن محمد، وحصن سمدان وهو معقل اليمن، وكذلك حصون بلاد بكيل وحاشد، وحصون جبال وادي رَمَعْ وريمة الأشاعر.

ومما يؤكد وجهة نظر عبدالنبي في قوة الحصون وأهميتها، حصاره لعدن على فترات طويلة ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها لقوة حصونها ومناعتها.

٣- تمتع عبدالنبي بن مهدي بقوة ضاربة واتسمت غاراته بالقسوة والعنف والنهب، فكان يشن الغارات المتعددة المنتظمة على المدن والقرى اليمنية بغية إضعافها، وإضعاف حكامها عسكريًا وماديًا.

٤- كان يبث السرايا والجنود في كل جهة من الحرب، أي عملية إطباق على الجيش الآخر، فكان يوزع جيشه جغرافيًا، وهو ما يسمى بالتوزيع الإستراتيجي، وهو أمر حيوي، لكي تستطيع قواته مواجهة الضربات المفاجئة للعدو، وعدم إعطاء الفرصة للجيش الآخر في الفرار من المعركة حتى يُمَنّيه بالهزيمة الساحقة، وظهر ذلك جليًا عندما تحالف السلطان علي بن حاتم وبني زريع مع بعض القبائل ضد عبدالنبي وخرجوا بجموعهم في صفر سنة ٥٦٩هـ/ سبتمبر ١١٧٣م فقسم عبدالنبي جيشه لمواجهة هذا التحالف إلى ثلاث فرق إحداها : وضعها في قَرية ذي جبلة، والثانية : وضعها في أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة : وضعها في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة، وهذا التنظيم يتناسب مع مناطق اليمن وطبيعة وعورة مسالكها.

٥- كان يتبع أسلوب المباغتة في أوقات الحرب، وغير أوقات الحرب، ذلك عندما انقضّ على أهل الجوة في صبيحة أحد الأعياد، تحديدًا في ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، فأتاهم على حين غرة وهم يحتفلون بالعيد ولم يستعدوا لهذه الغارة، فأحال فرحهم إلى حزن وتركهم أشلاء متناثرة معبرًا عن ولعه بالقتل وسفك الدماء، فكان لا يراعي الشعائر الدينية أو المناسبات الدينية وحرمة الحرب فيها، ولا يكتفي بالغارة الواحدة، بل يكررها.

٦- اتبع عبدالنبي بن مهدي أسلوب المصالحة مع عدن، فهادن أهلها عليها بمال في كل سنة، وكان في ذلك مُجبرًا، حيث لم يقدر على غزو عدن والاستيلاء عليها.

٧- غير أن عبدالنبي بن مهدي كان يجنح دائمًا إلى الحرب النفسية في كل حروبه وغزواته لإيمانه بمبدأ أن الحياة بكل أبعادها ليست سوى صراع وحرب، ومحاولة لنفض الصراع، والصراع الذي يليه، وهذا ما يعبر عنه مفهوم دينامية الصراعات النفسية[1]، فالحرب ليست حرب سلاح وقتال فقط، ولكن هناك أساليب أخرى لهزيمة العدو، قد تكون أخطر من حرب السلاح، وهذا ما يطلق عليه الحرب النفسية والتي غالبًا ما كان يَتَّبِعها عبدالنبي، وذلك بالتمثيل بأشلاء قتلاه مما يبث الرعب في قلوب أهل البلاد، وعدم إقدامهم على حربه مرة أخرى، وكذلك كل مدينة يترامى إلى مسامعها سياسته في الحرب .. تأبى مواجهته وبالتالي تُقْدِم على التسليم أو المصالحة .. أيضًا ما كان يُمْتِع عبدالنبي ما يشاع عنه بأنه لا يقدر على مواجهته أحد.

إذن كان عبدالنبي يهدف من الحرب النفسية، بث اليأس في نفوس القوات المعادية، عن طريق المبالغة بالتمثيل بأشلاء قتلاه، والمبالغة في وصف قوته، ووصف انتصاراته وأنه قوة لا تقهر، مما يجعل القوات المعادية تشعر باستحالة مواجهته وتطلب مصالحته.

ومما سبق يتضح أن أهم معالم الإستراتيجية العسكرية لحكام دولة بني مهدي تركزت في **أهداف دينية** لتثبيت قوة نفوذهم في اليمن، واعتراف الدول اليمنية بدولة بني مهدي، كدولة مستقلة، مركز حكمها زبيد، واحترام حكامها ومبادئهم، بداية من مؤسسها علي بن مهدي وانتهاءً بعبدالنبي بن مهدي. **وأهداف هجومية** في التوسع والاستيلاء على البلدان اليمنية والأراضي والحصون والمعاقل، وما بها من كنوز ومال وجوهر، وكذلك السبايا من جوار، والغنائم من متاع وخيول.

وأيضًا **أهداف دفاعية** في توطيد سلطانهم لمدينة زبيد، وحمايتها من الإغارة عليها وإشاعة الخوف والرعب في نفوس رعايا البلدان اليمنية وحكامها، من قوة بني مهدي العسكرية التي لا يُستهان بها والتي لا تُقهر.

---

(١) جوردن البورت وليو بوستمان : سيكلوجية الإشاعة، ترجمة مخيمر وعبده ميخائيل، دارالمعارف، مصر، ١٩٦٤م، ص٨.

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية
عهد دولة بني مهدي في اليمن

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية دولة بني مهدي في اليمن

الزراعة :

عرف اليمني حياة الاستقرار منذ القدم في المدن والقرى، وتميز باشتغاله بالزراعة أو الصناعة.

فللمزارع اليمني خبرة تامة بأساليب الزراعة ومواسم البذر وغرس الأشجار ويحسب بدقة لفصول السنة وأوقات بذر الحبوب وزراعة الخضروات، والبقول، وغرس الأشجار المثمرة، والغير مثمرة مثل أشجار الظل، ومتى تقطع، كما كان لهم إلمام بالأمراض التي تصاب بها الثمار، من الحشرات والهوام، فضلاً عن تسميد الأرض وإدمالها بالدمال " الزبل " وكيف تُثَّرى وتقلب، ولهم أيضًا معرفة بمطالع النجوم، ومهاب الريح، وما تحمل من ضرر ونفع، ودوران الشمس ومنازلها التي يقال لها " المعلامة " وكذلك منازل القمر.

العوامل المؤثرة في الزراعة :

تضافرت عدة عوامل مع المزارع في مدينة زبيد لتساعده على الزراعة، ومنها :

أولاً : العوامل الطبيعية :

١ – التضاريس :

لما كان التكوين الجغرافي لليمن يتكون من سهول وهضاب وجبال، لذلك أثرت على حياة اليمنيين عامة والفلاحين خاصة، لكنه حاول أو يُسَخِر العوامل الطبيعية و ويُطوِعها لصالحه، فعمل على الاستفادة من التكوينات الجبلية وجريان السيول بينها، فأقام بين هذه الجبال سدودًا لحجز المياه لاستخدامها وفقًا لاحتياجاته.

كان موقع زبيد في منطقة السهل الساحلي الغربي لليمن، وهو عبارة عن شريط يمتد على طول المنطقة المطلة على البحر الأحمر، والواقعة فيما بين الساحل ومناطق الهضاب والجبال التي تحده شمالاً، وتتراوح عرضها ما بين ٣٠ إلى ٧٠ كيلو مترًا ويطلق على هذا السهل اسم تهامة اليمن[١].

---

(١) محمد متولي : جغرافية شبه الجزيرة العربية (اليمن الشمالي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ط٢، ج٣، ص١٥٢.

يقطع هذا السهل من الشرق إلى الغرب عدة مجاري سيول تصب من المناطق الجبلية إلى السهل وتُكون أودية متعددة في تهامة اليمن، أشهرها على الترتيب من الجنوب إلى الشمال : مُوْزَع، رَسْيان، نَخْلة، زَبِيد، دِمَاع، سِهَام، سُرْدُد، مَوْر، حَرَض، خُلَب، جَازَان، ضَمَد، بَيْش، وغيرها من الأودية الصغيرة[1].

كما يمر على زبيد طريقان تجاريان إلى خارج اليمن على امتداد السهل مما أدى إلى وجود العديد من المحطات التجارية المتعددة.

٢ - المناخ :

يسود زبيد مناخ موسمي حار، وتتعرض إلى سقوط الأمطار الموسمية عليها، إلا أنها تعتبر من أخصب مناطق اليمن، تربة ونماء، وأكثرها صلاحية لإنتاج الغلات المدارية الحارة مثل الذرة والدخن[2] والقطن والموز وغيرها.

وتسقط الأمطار على زبيد صيفاً، وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك وقال : " إن المطر ببلاد الهند واليمن (ومنها زبيد) والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ "[3]، أي شهر يونيه (حزيران) ويوليه (تموز) وأغسطس (آب) وجزء من سبتمبر (أيلول) "[4]. في حين يذكر ابن رسته أنهم : " يمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً وفي الخريف تمام أربعة أشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم "[5].

أما ابن المجاور فيذكر أن نزول المطر في اليمن عموماً أكثر من تلك المدة بقوله : " وينزل الغيث في جبال اليمن ستة شهور "[6]. وهو الأقرب إلى الصواب[7]، حيث يوجد موسمان للأمطار أحدهما : رئيسي ويمتد من شهر يوليو حتى شهر سبتمبر، والآخر ثانوي يتركز خلال شهري أبريل ومايو.

---

(١) حسين بن علي الويسي : اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٨-٢٢؛ السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن، ص١٣٥.

(٢) الدخن : نوع من الحبوب صغير الحجم.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج١، ص٢٢٨.

(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن، ١٨٨٩م، ص١٥٢.

(٥) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، لندن، ١٨٩١م، ص١٠٩.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٦٠.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص١٣٨.

ثانيًا : أساليب الزراعة :

١ – التسميد :

استخدم الفلاح اليمني عمومًا والزبيدي خاصة السماد الطبيعي في تسميد أرضـــه، وأجــود أنواع السماد هو زبل الحمام وسرقين الطير ــ ما عدا طير الماء مثل البط ــ ثم أفــضل أنــواع السماد مرتبة هو سرقين[1] الخيل والبغال والحمير ثم الضأن والماعز ثم البقر[2].

وإذا خلط السرقين أو ما يسمى بالدمان بعضه ببعض كان سمادًا جيدًا، وإذا خلط الـسرقين بثلاثة أمثاله من التراب صار صالحًا للزراعة، وكانت الأراضي الزراعية الخاصة بزراعة القمح تسمد بالسماد الجيد قبل الحرث ثم يحرث عليه، وذلك بأن ينثر (الدمان) السماد على طول الجربة ثم تحرث[3].

٢ – الحرث :

تحرث الأرض المسمدة عادة في غير وقت الندى، وذلك عندما تضربها الشمس وتجف منها المياه، وتحرث بحسب نوعية التربة من جودة وضعف، وعلى قدر صلابتها ولينها، وعلى حسب نوعية المحاصيل الزراعية، فمثلاً في زراعة البر تحرث أرضه جيدًا، ما بين ثــلاث مــرات أو أربع أو أكثر وذلك حسب نوعية التربة، وفي الدخن تحرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات، وفي السمسم[4] تحرث أربع أو خمس مرات، وفي زراعة الفوة[5] تحرث الأرض مرات كثيرة قد تصل إلى عشرين مرة، وأحيانًا مرة واحدة في المناطق الجيدة التربة ثم تبدأ عملية الزراعة بها[6].

ويستمر الحرث في أثناء الزراعة لبعض المزروعات مثل الذرة الرفيعة والــدخن، فبعــد أربعين يومًا من البذر تحرث الأرض المزروعة، بأن يمر المحراث وسط الزرع في المكان الذي جعله فارغًا من الزرع، بحيث يشكل كل خط للحرث شقًا أو انخفاضًا، ثم يوضح خــط الحــرث

---

(١) السرقين : هو ما يسمى بالدّمان وهو روث الحيوانات وتدمل به الأرض. ابن منظور : لسان العــرب، ج٧، ص١٧٥.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : كتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبدالرحيم حازم، نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، السنة الثالثة، صنعاء، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص١٧٨–١٨٤.

(٣) السروري : المرجع السبق، ص١٤٩.

(٤) يعرف السمسم في زبيد بالجُلْجُلانُ أو الجلجل. ابن منظور : لسان العرب، ج٧، ص٢٦٣.

(٥) الفوة / نبات عشبي له عروق حمر دقاق طوال يصبغ به. حسن شهاب صالح : عدن فرضة اليمن، ص١٢٢.

(٦) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص١٨٧، ١٨٨.

الثاني بجانب الزرع من الجهة الثانية، حتى يصبح الزرع على ارتفاع يسمى (كفل) وشق الحرث يسمى (التلم) ويكون فارع من الزرع، ويسمى هذا الحرث في الجبال (بالكحيف) وفي تهامة يسمى (الشتاه)، وبعد شهرين من الحرث المسمى (الكحيف) تحرث الأرض المزروعة مرة ثانية في المناطق الجبلية، أما تهامة فتكتفي بحرثة واحدة، فيوضع شق الحرث (التلم) مكان شق الحرث السابق، لأن التراب قد ردمها (غطاها) بحيث يرفع الذرة مرة ثانية كما عمل في المرة الأولى، وتسمى هذه الحرثة الثانية في الجبال (بالخلفة أو الجّلاب) والحرث أثناء الزراعة يساعد على عملية ري الزراعة والاحتفاظ بالماء من خلال الشق (التلم) كما يساعد على تنقية الأرض من أنواع الحشائش والأشجار فتجود الزراعة في الأرض وتنتج أكثر(١).

وتستخدم الثيران أو غيرها للحرث بأن تركب آلة الحرث يجرها ثوران أو جمل، وعند الحرث يوضع خط الحرث بجوار الخط الآخر بحيث تكون مقاربة بعضها إلى بعض أي أن تراب الحرث الثاني ينقلب على شرق الخط الأول، فإذا حرث الحرثة الأولى بالطول يحرث الحرثة الثانية بالحرث مقاطعة للحرثة الأولى، وذلك كي يسمح بتقليب التربة وتصفية الحسائش منها وتوزيع السماد عليها(٢).

٣ – البذر :

تتم عملية البذر بحسب نوعية المحاصيل المزروعة، وحسب نوعية الأرض فالبر أو القمح يبذر (يسفح) والأرض ندية من المطر، ليست ملطة من شدة المطر، ويكون البذر متوسطاً بحيث يقع في موضع وطأة القدم بقدر سبع حبات أو ما يقاربها، ويحرث على البذر حتى يغطى بالتراب، وإذا كانت الأرض جيدة يكتف بذرها ولا يخفف.

أما الأرض المتوسطة الخصوبة، فيوسط بذرها ولا يرق (يخفف)، وفي الذرة يبذر والأرض متوسطة بين الرطوبة والجفاف(٣). وفي الطهف يبذر قبل أن يجف الماء من على وجه الأرض(٤).

وطريقة البذر من الذرة بأن يوضع خط الحرث (التلم) مستقيمًا مستويًا، كل خط مستقيم بجانب الخط السابق له غير منطرح بحيث يشكل ما بين الخطين ارتفاع (كفل) ثم يبذر الحب

---

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٨٢، ١٨٣.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق والصفحات.

(٣) الأشرف عمر بن رسول : نفس المصدر، ص١٨٧-١٩٢.

(٤) الطهف : حب أصغر من الدخن. الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣١٧.

داخل الشق أو خط الحرث، بأن ترمى ثلاث أو أربع أو خمس حبات من بين الأنامل، في كل خطوة، في أثر آلة الحرث (المحراث) حتى يغطى الحب بالتراب، وإذا لم يغطه التراب يطأ الباذر بقدمه حتى يغطى الحب، وتعتمد وطأة الباذر على الحب بقدمه أو عدم وطأته لها على خفة التراب وثقله من حيث تغطية الحب أو عدمه[1].

٤ – الري :

استفاد الفلاح في زبيد من مياه الينابيع والعيون وحفر الآبار المتعددة لري أرضه، بجانب مياه السدود والأمطار، وعلى ذلك يوجد في زبيد أربعة طرق للري، هي :

أ- الري بمياه الأمطار.

ب- الري بمياه السدود.

ج- الري بمياه الينابيع والعيون.

د- الري بمياه الآبار.

وأوضح ابن رسته طرق الري بقوله : " وضياعهم أجل ضياع وأكثرها فاكهة وأحسنها عمارة، وهي على ثلاثة أصناف، صنف منها اعزاء، وصنف منها العيون، وصنف على الآبار يسقى منها بالإبل والبقر وصنف هي أسراها وأكثرها قيمة على ماء السد "[2].

أ – الري بمياه الأمطار :

يؤدي سقوط الأمطار على الجبال والمرتفعات إلى إنشاء مجار لمياه السيول، وتعتبر هذه المجاري ملكًا عامًا لجميع من يملكون الأراضي على مجاري هذه السيول في أودية زبيد، ولا يجوز لأحد أن يملك مجرى هذه المياه أو المياه نفسها منفردًا دون الآخرين[3]، كما لا يجوز للحكام إقطاعها لأحد من الناس أو امتلاكها دون الآخرين.

والقاعدة العامة في ري أراضي المزارعين من مياه السيول، أن يتم ذلك حسب الدور بحيث يروي المزارع أرضه الأول ثم الذي يليه حسب دوره، حتى يروي جميع المزارعين أراضيهم،

---

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٨٢.

(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص١١٢. المقصود بأسراها هو أثراها.

(٣) حسين الأهدل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراع، مجلة الإكليل، العدد الأول، ١٩٨٠م، تحقيق عبدالله الحبشي، ص١١٦.

وليس لأحد حق أن يحجزها أو يحل في الدور قبل غيره[1].

وفي حالة قلة مياه السيول وعدم غزارتها أو كفايتها، تروى الأراضي الزراعية الأولى، فالتالية لها بحسب دور كل واحد إلى حيث تنتهي مياه السيول، فتوضع علامة عند انتهاء ري الأراضي الزراعية، وعندما تأتي سقطة المطرة التالية، يبدأ الري من حيث انتهى ري مياه المطر الأولى، وهكذا حتى ينتهي سقي الوادي كله، وهكذا يجرى في كل مرة تقديم الأعلى فالذي يليه، بحسب دور كل واحد منهم[2].

تلك الطريقة في حالة تتابع سقوط المطر قبل أن يبدأ ضمور زرع المطرة الأولى، أما إذا تأخر جريان مياه المطر على المجاري وبدأ يضمر زرع المطرة الأولى، يبدأ سقي أعلى أراضي الوادي ثم الذي يليها بحسب دورها إلى حيث ينتهي جريان مياه الأمطار أو السيول، بدلاً من التتابع من حيث انتهت المطرة الأولى وذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الزرع.

ب – الري عن طريق السدود :

تقام السدود على فتحات جبال تتجمع إليها المياه من منحدرات متعددة، وتكون هذه السدود قريبة من الضيعات، وفي موضع مرتفع عنها، حتى يسمح بانحدار المياه إليها بسهولة، وبوضع أسفل هذه السدود فتحة لكل سد تغلق حتى يمتلئ السد بالمياه ثم يفتح ليخرج منها الماء وتسير إلى الأرضي الزراعية عبر المجاري المعدة لها، وعادة ما يتعاون في بناء السد أصحاب الأراضي التي أسفله ذلك فالسد ملكهم جميعًا.

ويوضح ابن رسته أن الري عن طريق السدود هو أكثر أنواع الرّي المستخدمة في زبيد واليمن عمومًا[3].

ج – الري عن طريق الغيول والينابيع :

يوجد في زبيد الكثير من الغيول[4]، وهي عبارة عن عيون تخرج منها المياه في موسم المطر وتنضب في انعدامها، والنظام المتبع في ري الأراضي الزراعية أسفل هذه الغيول والينابيع، هو أن يبني المزارعون بالتعاون فيما بينهم على كل قدر حصته سدًا أو خزانًا أوبركة

---

(١) الأهدل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراع، ص١١٦.

(٢) الأهدل : المصدر السابق والصفحة.

(٣) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص١١٢.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨. وذكر ابن المجاور أن أمام الباب الغربي لمدينة زبيد وُجِدَ طاحونين وكانت تستخدم كرافعات للماء.

بالحجر قريبة من مياه العين، ويكون مستواها أسفل من مستوى مخرج مياه العين لكي يتجمع إليها المياه الخارجة من العين، ويصنعون لهذه البركة فتحة أسفلها تسمح بخروج المياه منها، وتوضع لهذه الفتحة صمام تحكم يفتح ويغلق عند الحاجة، ويوجد أسفل البركة قناة رئيسية لتوصيل المياه تمتد عبر الأراضي الزراعية المراد سقيها(١).

ومن أهم العيون الجارية في زبيد، تلك العيون الغزيرة الماء التي تأتي من شرقيها(٢)، في سرب تحت الأرض حتى تقرب من المدينة، ثم تظهر فتسقي جميع البساتين التي من خارج المدينة والتي داخلها.

ويعد المجرى الرئيسي ملكًا عامًا للمزارعين، أما المجاري الفرعية فهي عادة ما تكون ملكًا خاصًا لأصحاب الأراضي، وإذا كانت هناك أراضي داخلية تسقى عن طريق أراض أخرى فإن المجاري الفرعية عبرها قد تشتري أو تستأجر أو يسمح لهم بها وذلك حسب العادة أو الإتفاق(٣).

كان نظام توزيع المياه للغيل على المزارعين هو نظام الحصص أو الأسراب، وهو النظام الذي يتحصل بموجبه كل مزارع على نصيبه من المياه على قدر حيازته للأراضي الزراعية(٤)، وعادة ما تملأ البركة(٥) أو الخزان على قدر غزارة مياه الغيل، فتارة يمتلئ بنصف نهار، وتارة بيوم كامل، وتارة أخرى بأقل أو أكثر، وقد تُحسب حصص أو أسراب المزارعين بالأيام أو بعدد مرات امتلاء البركة(٦).

ويتولى الإشراف على توزيع المياه رجل له خبرة في حصص كل أراضي وأوقات امتلاء البركة بالمياه، ويختاره المزارعون، ويقوم بمراقبة حصص كل فرد، وترتيبهم في أخذ المياه وفض النزاع الذي ينسأ بين المزارعين بشأن أحقيتهم في المياه وترتيبهم(٧).

---

(١) الأهدل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراع، ص١٢٧-١٣١.

(٢) أول من جرى العين المذكورة وعمل المجرى لها وأدخلها هو القاضي الرشيد أبو الحسن بن القاضي ابن الزبير الغساني، الشاعر والكاتب الأسواني، وكان أوحد عصره في علوم الهندسة، فأتقن هذا المجرى وأحكمه وجره إلى المدينة، وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ. ابن الديبع : الفضل المزيج، ص٤٨.

(٣) الأهدل : المصدر السابق، ص١٢٧-١٣١.

(٤) الأهدل : نفس المصدر، ص١١٦.

(٥) البركة : جمع برك، وهي شبه حوض يحفر في الأرض ويتجمع الماء فيها. ابن منظور : لسان العرب، ج٢، ص٧٢.

(٦) محمد متولي : جغرافية اليمن الشمالي، ص٢٤٨-٢٥١.

(٧) محمد متولي : المرجع السابق، ص٢٤٦، ٢٤٧.

وفي حالة ري الأرض سواء من الغيول أو السدود، فإن الأرض تسوى تسوية جيدة بحيث تعمل الأرض أحواضًا، وطريقة وضع الأحواض أن تقسم الأرض أقسامًا تشبه الأحواض، وذلك بأن يضع خطًا بالمحراث (التلام) خطً أو تلمًا مستويًا، ويزيد بجانبه خطًا أو تلمًا آخـر، بحيـث يكون ما بين الخطين مرتفعًا، وهو ما يسمى عريمًا أو كفلاً أو زبيرًا، ثم يترك بعده مسافة حسب رغبته في تقسيم الأرض من حيث قوة المياه التي يروى بها وضعفها.

وبعد ترك المسافة تضع تلمًا أو خطًا بالمحراث وبجانبه خطًا آخر حتى يكون له ارتفـاع بالطريقة نفسها يعمل في الطرف الثالث والرابع حتى تتكون له أحواض إما مربعة أو مـستطيلة وذلك بحسب المسافة التي تركها[١].

ويختلف ري الأرض من محصول إلى آخر، ففي بعض أنواع الزرع قد تفرغ الأحـواض مجرد امتلائها بالماء في نفس اليوم مثل زراعة الذرة، وبعض أنواع الزراعات تسد الأحـواض ليستقر الماء فترة طويلة وتظل بها حتى تجف، مثل زراعة الأرز[٢].

د – الري من الآبار :

وصف المقدسي مدينة زبيد بأنها مليئة بمياه الآبار وتستخدم طـواحين الهـواء كرافعـات لمائها[٣]. لذلك اعتمد الفلاح في مدينة زبيد على الآبار في ري كثير من أراضيه، وترفـع ميـاه الآبار عن طريق الحيوانات المختلفة مثل الإبل والبقر والحمير[٤]، وذلك بواسـطة ربـط الـدلو المصنوع من الجلد بطرف حبل طويل، والطرف الآخر يربط في الحيوان فينزل الدلو في البئر ثم يجره الحيوان ويفرغه في أحواض أو صهاريج بجانب الآبار ويستمر الإنزال حتى يتجمع فيهـا المياه، ثم ترسل إلى الضيعات عن طريق سواق معدة لري الأرض. وأوضح ذلك ابـن بطوطـة بقوله : "إنهم يعتمدون في ري أراضيهم على آبار شديدة العمق، ولكي يقوموا بهذا العمل فـإنهم يربطون دلوًا كبيرًا بعدة حبال ويشدون أطرافها الأخرى إلى حزامات عبيد أو خُدام فيجر هؤلاء الدلو متسلقين عمودًا من خشب أقيم حول البئر ثم يصبون الماء في صهريج ينطلق منه الماء لري الأرض "[٥].

---

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٧٨-١٩٢.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص١٧٨-١٨٤.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م، ص٨٤، ٨٥.

(٤) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص١١٢.

(٥) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٢٣٦.

ووصف ابن بطوطة زبيد بكثرة مياه آبارها[١]، كما يذكر ابن الديبع أن أهل زبيد، يفضلون مياه الآبار عن مياه العيون، واصفًا أن كل بيت في مدينة زبيد به بئر، أي وقت أحبوا نزعوا منه الماء[٢].

إذن تميزت مدينة زبيد بل أراضي تهامة بأن أكثر أرضها يروى عن طريق الآبار[٣].

ثالثًا : الزرع والحصاد :

اختلفت مدة نمو الحاصلات الزراعية، فالذرة البيضاء، والصفراء تستغرق مدتها في النمو ثلاثة أشهر، وبعضها يستغرق أربعة أشهر وسبعة أشهر، وهكذا تختلف مدة بقاء المحاصيل في الأرض بحسب التربة والهواء ونوع الزرع، وقد يزرع المحصول الواحد في بعض المناطق مرتين أو أكثر في أوقات مختلفة، في حين يزرع في بعض المناطق مرة واحدة، فمثلاً البر المسمى الوسني يزرع في المناطق المعتدلة مع اعتدال درجة الحرارة وتكون زراعته في أول تموز، وأيضًا في نصف تشرين أول إلى نصف تشرين الثاني وأيضًا يزرع في كانون أول إلى كانون الثاني[٤].

وكذلك الذرة في زبيد تزرع لعدة مرات في أوقات مختلفة، فتزرع في آب وأيلول، وفي ٢٩ آذار، وتزرع في تشرين أول، و١٦ تشرين الثاني، والعشرين من كانون أول، وهكذا تتعدد زراعة المحصول الواحد في المنطقة الواحدة[٥].

كذلك تتعدد المزروعات في الحقل الواحد، فتزرع عدة أنواع دفعة واحدة مختلطة مع بعضها البعض، مثل السمسم " الجلجلان " والقثاء والبطيخ، فينبت كل محصول ويحصد حسب زمان استغراقه في الأرض، الأول فالأول[٦]، ومن أمثلة المزروعات التي تزرع عدة مرات في زبيد، العَنْب[٧]، ويحصد في السنة مرتين، وكذلك الموز، فهو يحصد كل أربعين يومًا.

---

(١) ابن بطوطة : مهذب ابن بطوطة، ج١، ص٢٢٤.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٥٩.

(٤) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٨٠.

(٥) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص١٨١.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣١٧، ٣١٨.

(٧) العَنْب (بفتح العين وسكون الباء) هو نوع من الفواكة يعرف بعَنْب الفلفل تفريقًا له عن عنب العظام المعروف بالمانجو، لأنهن العَنْب يشبه المانجو في لونه وطعمه، ما عدا بذوره وحجمه الذي يكون أكبر من المانجو. عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨.

من هنا نستطيع القول بأن أراضي زبيد كانت تتميز بتنوع محاصيلها بتنوع خصوبة تربتها وتنوع مواعيد حصادها سواء كانت بالأيام و بالأشهر كما يلي[1] :

اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله	اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله
كانون الثاني	٣٢	يناير	تموز	٣١	يوليو
شباط	٢٨	فبراير	آب	٣١	أغسطس
آذار	٣١	مارس	أيلول	٣٠	سبتمبر
نيسان	٣٠	أبريل	تشرين أول	٣١	أكتوبر
آيار	٣١	مايو	تشرين الثاني	٣٠	نوفمبر
حزيران	٣٠	يونيه	كانون أول	٣١	ديسمبر

رابعًا : المحاصيل الزراعية :

تتعدد أنواع المحاصيل الزراعية في زبيد، فبعض محصولاتها أساسية لا يُستغنى عنها وبعضا محصولات ثانوية، ففي وصف المقدسي[2]لمدينة زبيد وقراها قال إنها كثيرة المزارع والبساتين ويخبرنا بأن طعام الناس يعتمد على الدُّخْن والذرة، بينما كان الثمار لديهم قليلة، والذرة منها الصفراء والبيضاء والحمراء والغبراء[3].

وكان محصول السمسم من المحاصيل الأساسية لزبيد، بل وأجودها، وكان يعرف باسم الجلجلان أو الجلجل، فكان يعصر ويستخدم زيته لأغراض عدة[4].

كما كان القطن[5] والعدس من المحاصيل التي لا تقل أهمية عن استخدامها في زبيد، ومن النباتات الهامة التي كانت تزرع هي شجرة (النَّبْقَ) حيث أن الشجرة الواحدة تغل وقر خمسة أباعير (جمال) وتستخدم لدبغ الجلود[6].

---

(١) اعتمد الفلاح في مدينة زبيد في زراعته على الأشهر الشمسية وأسمائها ع مع يقابلها بالرومانية كالموضح أعلاه. الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٧٧.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٨٤، ٨٥.

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣١٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٦.

(٤) الهمداني : المصدر السابق، ص٣١٧، ٣١٨.

(٥) يوحنا أبكاريوس : قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٩٨، ط٤، ص٦.

(٦) يذكر ابن المجاور أن هذه الشجرة من نَبْق العراق لأنه بلا أشواك. عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٦٧.

درس الحبوب وخزنها :

كان أهل زبيد يستخدمون أسلوب درس الحبوب وخزنها[١]، فبعد الحصاد للبر يجفف بالشمس ثم يكون بحيث يكون ثماره من أعلى متجمعة، وجذوعه من أسفل مفتوحة على شكل هرم، ولا يكوم إلا وهو مجفف ليس به شيء من رطوبة المطر أو الندى، حتى لا يغض أو يتلف، وبعد ثمانية أيام من تكويمه يفك ويداس بالمدواس بواسطة الثيران، يربط حجر من المدواس وذلك بأن يكون بالحجر ثقب أو به خط دائري محفور يربط بهما الحجر، ويستمر الدرس حتى يخلص الحب من التبن، ثم تذرى الحبوب على الرياح حتى يطير منها ما بقى من التبن، وعندما تذرى يمسح بين الفترة والأخرى وجه البر المذري بشجرة تشبه المكنسة، حتى يزول ما بقى من ركب التبن ومن السنابل التي لم تدرس ثم يكون كومه واحدة، ثم يكال، ثم يرفع ليخزن، وذلك بعد أن يبرد من حر الشمس حتى لا يصيبه السوس، ثم يخزن بمخازن كوتها (فتحاتها) مقابلة للشمال، بحيث لا تكون المخازن بجانب المسكن، أو المطبخ أو نار أو ضوء، أو دمان (سماد) أو قرب دواب، أو تبن، ولا تكون فتحاته إلى المشرق أو الجنوب حتى يسلم من السوس[٢].

أما الذرة، فيقطع سنابله من عيدانه، ثم يداس وإذا كان قليلاً يخبط بالمخابط وعادة ما تكون مخازنه محفورة في الصفاء الأملس[٣].

ويذكر ابن المجاور[٤] أن بعض أرباب البيوت كانوا يخزنون الحبوب لديهم، أي أن تقريبًا كل بيت لديه ما يعرف في زبيد بمدافن الطعام، وتشبه صوامع الغلال، ولكنها تخالفها بكونها تحفر في الأرض وليست على شكل بنايات على ظهر الأرض[٥].

وكان المزارع إذا أراد إعداد البذر للسنة القادمة، يختار من السنابل أحسنها، وأكثرها حبًا وأجودها، أي أنقى حبًا فيضعها منفردة إلى أن تنشف رطوبتها ثم يخبطها بالمخابط وينظفها من القش أو السنابل بعد تخليص الحب منه، ثم يحفظها في مكان جيد الخواء لا يناله حر الشمس ولا الرطوبة حتى لا تسوس، إلا أن يحول عليها الحول، ويأتي موسم الزرع فيخرجها ويبذرها في

---

(١) السروري : مظاهر حضارة اليمن، ص١٥٨.

(٢) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٧٩-١٨٣.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٨.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٨؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٦٨.

ـرض[1].

إذن توفرت العوامل التي ساعدت الزراعة على الازدهار والتنوع، ومنها كثرة ـياه في زبيد والتربة الخصبة والمناخ ... إلا أن بعض الأراضي تعرضت في فترات ـ حكم بني مهدي لضرر شديد وقحط بسبب ظروف طبيعيه كالحطمة العظيمة في تهامة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م[2]، وأيضًا كثرة الحروب المتتابعة بين آل مهدي وبعض حكام البلدان اليمنية الأخرى.

الخضروات والفواكه :

ويوجد في زبيد كثير من الخضروات والفواكه، مثل الرمان، والتين، والبَلَس وهو يشبه التين ويوجد بكثرة، والعَنْب، وشجر النارجيل وهو جوز الهند، وهذا الشجر يشبه النخل، والعنباء، ـالباذان، والعِنَب بأنواعه الكثيرة[3] مثل العنب الملاحي، والدوالي، والأشهب، والدرانج، ـالتواسي، والزبادي، والأطراف، والعيون، والقوارير، والحرشي، والتشاني، والنابكي، والرازقي، ـالضرورع، والرومي، والوادي. ويوجد أيضًا البطيخ ويسمونه البرطيخ أو الحب حب، والموز الذي يوجد بكثرة، والليمون والنارنج الحلو والحامض[4]، والنخيل المبسوطة على كل لون، أصفر وأحمر وأخضر وتوتي ومقصاب[5]، وتبلغ أنواعه في زبيد خمسين نوعًا، ومن فصيلته شجرة المقل، ويقال لها الدوم، وهي تشبه النخل إلا أنها دونه وثمرها يقال له البَهْش[6]، وتعتبر مدينة زبيد أهم وأشهر مناطق زراعته وما حولها، وذلك لتوفر مياه الآبار فيها[7].

النباتات العطرية والطبية :

ومن النباتات العطرية في زبيد[8]، الفل الأبيض، والياسمين، وزهر النانج، وزهر الكاذي

---

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص١٨٣.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٥. ويذكر الخزرجي : لم يتحرك عبدالنبي بن مهدي إلى جهة من الجهات أثناء هذه الحطمة، ولما وقع المطر وأخصب البلاد أغار على المخلاف السليماني.

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣١٤.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨.

(٥) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص٦١؛ ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٦) محمد بن علي الأكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٧١م، ج١، ص٦٩.

(٧) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٨٨؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٧، ص٥٢٤٦.

(٨) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة.

وهو أحمر اللون، وزهرة اللينوفر، والغافية (الحنون) والأترج الأصفر، والريحان، والوزاب، والسنبر، وكان يستخرج من سائر هذه الأزهار العطور والأدهان[1]، والتي كان من أشهرها زيت جوز الهند والذي يصنع من ثمرة النارجيل، فكان يؤخذ بعد نضجه وسقوطه عن شجره، وتزال القشرة ويقطع قطعًا، ويترك في الشمس حتى يذبل، ثم يطبخ في القدور ويستخرج زيته، الذي يستخدم للشعر[2].

ومن النباتات الطبية، نبات الصبر[3]، كما وجد العسل الدُباسي[4] المشهور في مدينة زبيد كغذاء وعلاج في نفس الوقت بجانب عسل النارجيل.

الحرف وأهم الصناعات :

كان الحرفيون يتعلمون الحرفة عن طريق الوراثة، فظهرت أسر متخصصة بالحرف المتنوعة، وكان الفرد يتعلم الحرفة عن طريق التدريب عليها، وذلك بالمشاهدة والملاحظة والممارسة للعمل بجانب السابقين له في الحرفة، وغالبًا ما كانت الحرفة تتعرض للهزات التي تهددها بالإنقراض، في فترات الحروب لآل مهدي، ففي بعض الأحيان لا يستطيع الأبناء مواصلة حرفة آبائهم نفسها، فقد يموت صاحب الحرفة قبل أن يُعَلِم ابنه أو التابع له حرفته وتجربته، ومن جهة ثانية تأثرت الصناعة بالصراعات القبلية المتكررة أو نتيجة اشتراك الحرفيين في الحروب التي يجبرهم حكام بني مهدي على الاشتراك فيها.

ومارس أهل زبيد أنواعًا مختلفة من الحِرف والصناعات مثل صناعة المنسوجات، وما يقوم عليها من صباغة وزخرفة، وصناعة الجلود، والعطور، والصناعات الغذائية المعتمدة على الإنتاج الزراعي، وأيضًا الصناعات المعدنية مثل الحدادة والصياغة، وصناعة أدوات القتال وما يقوم عليها من النجارة وغيرها من الصناعات.

والجدير بالذكر أن أهل زبيد استعانوا بالمواد الخام المختلفة للمعادن من البلدان اليمنية الأخرى لتصنيعها وفقًا لاحتياجاتهم، ومن هذه البلدان، المذيخرة، صعدة، جزيرة دَهْلَك، عدن، بلاد خَوْلان، رُغَافَة، جبل نقم قرب صنعاء.

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨.

(٢) ابن بطوطة : المهذب : ج١، ص٢٤١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج١٧، ص٥٢٤٦.

(٤) العسل الدُباسي نسبة لجبل دُباس التابع لزبيد. الحجري : بلدان اليمن، م١، ج٢، ص٣٨٧.

صناعة المنسوجات :

اشتهرت مدينة زبيد بصناعة الملابس الحريرية والقطنية وأشهرها الملابس القطنية التي كانت تصدر لجميع أنحاء اليمن، فضلاً عن أن هذه المدينة تعد مركزًا هامًا لحياكة الملابس[1]، والصناعات القائمة عليها كالصباغة.

انتشرت صناعة المنسوجات في مناطق كثيرة من اليمن، واشتهرت مسميات هذه المنسوجات باسم مكانها التي صنعت فيه ومن ضمن هذه المنسوجات التي صنعت في زبيد،

البرود :

من أهم صناعة المنسوجات في زبيد[2] البرود الزبيدية، وكانت غالية الثمن، حتى بلغ الثوب من البرد حوالي خمسمائة دينار[3]، وهذا المبلغ المرتفع يدل على أن البرود الزبيدية كان لا يستطيع شراؤها سوى الطبقة الحاكمة أو أهل الثراء، وكان يبلغ طول الواحد منها ثمانية أذرع، ويصدر منها على الجمل الواحد ١٢٢ بردًا وغالبًا ما تصنع من الكتان، وكان يستعمله الناس لإكساء أجسامهم به خلال النهار وغطاءًا أثناء الليل[4].

وفي ذلك يذكر ابن المجاور بعض المنسوجات اليمنية في زبيد فيقول : " وتخرج من زبيد البردة ثمانية أذرع باليد ويشد حملها مائة واثنين وعشرين بردة ... وشقق الحرير والبيض طول الشقة عشرين ذراعًا بالحديد، ... وهي صنفان أحدهما حرير صرف والثاني خلط حرير وكتان في عرض أربعة أذرع والملايات والجراب وفوط سوسي "[5].

الثياب :

صنعت أنواع كثيرة من الثياب، ومنها الثياب السعيدية، نسبة إلى سعيد بن الأحول النجاحي حاكم زبيد[6]، والملاية[7] وهي الملحفة وتصنع من القطن والكتان ويلبس هذه الملاية بعض

---

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص١٤٩؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٤، ص٣٤٥.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩ ؛

R. B. Serjeant : Islamic Textiles in the Yemen, Lebanon, 1972, p. 31.

(٣) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص١١٢.

(٤) كانت اليمن ــ بصورة خاصة ــ مشهورة بحياكة الأقمشة التي كانت تصنع منها البرود.

رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الافاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٥٤.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٦) ينسب هذا الثوب للنجاحيين الذين أزالهم علي بن مهدي من زبيد، ولكن ظل استخدام هذا الثوب في زبيد بعد ذلك ويُنسبُ لسعيد بن الأحول النجاحي. السروري : مظاهر الحضارة في اليمن، ص١٧٥.

(٧) رجب عبدالجواد : المرجع السابق، ص٤٧٦، ٤٧٧.

الرجال وأغلب النساء، فيتشح بها الرّجال فوق الكتفين أو حول البدن، وهم يغطون الذراع اليسرى بإحدى الزوايا، ويطرحون الثوب إلى الوراء، ويجعلونه يمر تحت الذراع اليمنى ثم فوق الصدر وعلى الجسم ويرمي سائره على الذراع اليسرى، بحيث يجعلونه يتدلى على الظهر والذراع اليمنى تبقى مكشوفة بغية استعمالها بحرية، أما ملاية المرأة فهي من المعاطف يشبه من ناحية الشكل الحبرة، ويتألف من شقتى قطن منسوجتين تربيعات زرقاء وبيضاء، أو على هيئة خطوط مائلة منحرفة، مشوبة باللون الأحمر، تستر بها النساء الجسم كله.

كما وجدت " الجرابُ " و" الفوط " التي كانت تصنع من المنسوجات القطنية[1]، فبالنسبة للجراب فهي قفطان ذو كمين قصيرين، أما الفوط[2] فتكون أحيانًا مخلوطة من الحرير مع القطن أو الكتان ويتضح ذلك من خلال قول ابن بطوطة : " وأخرج من البقشة ثلاث فوط؛ إحداها من خالص الحرير، والأخرى من حرير وقطن، وأخرى من حرير وكتان "[3].

والفوطة هي شقة والتي تكون من البزأ والقطن توضع على الظهر للتوقي من حرارة الشمس عند أهل اليمن، ويتضح ذلك من قول ابن بطوطة : " وأكثرهم يشد فوطة في وسطه، وتجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر "[4].

كما كانت زبيد تنتج المنسوجات الحريرية والتي صُنِعَ منها " شقق الحرير "[5] والذي منه الحرير الأبيض، وطول الشقة عشرون ذراعًا، وأيضًا وُجِدَ " البَيْرَم "[6] وهي ثياب من الحرير والقطن، لا نظير لها في الحسن، وطول الواحد ستة أذرع، وكذلك " السباعيات " وهي أردية طول الواحد سبعة أذرع في عرض أربعة أذرع وكانت على صنفين من نوعَ الحرير الخالص ونوع

---

(١) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١، ص١٧٢.

(٢) رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٣٦٤.

والفوطة : بضم الفاء وفتح الطاء كلمة هندية الأصل، دخلت الفارسية، وعرفتها العربية عن طريق الفارسية، ومعناها الإزار.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٣٧.

(٤) ابن بطوطة : المصدر السابق، والصفحة.

(٥) شقق الحرير : وهي جمع شُقّة تكون نوع من الثياب قد يتعمم بها. رجب عبدالجواد : المعجم السابق، ص٢٧٠.

(٦) البَيْرَم : بفتح الباء وسكون الياء وفتح الراء، منسوبة إلى جزيرة بَيْرَم التابعة لبلاد الهند. رجب عبدالجواد : المعجم السابق، ص٨٥.

آخر ممزوج بالكتان[1].

كما وُجِدَ " النقب "[2] وهي التي تستر بها المرأة وجهها، أو الخمار ويكون من القماش الأسود الخفيف، وكذلك " الشروب " وهي منسوجات رقيقة من الكتان ويدخل في نسيجها خيوط من الذهب[3].

ومن الآلات التي ارتبطت بصناعة النسيج في زبيد وساعدت على تطورها، أداة الغزل وهي المنوال أو المنسج، والوشيعة وهي قصبة في طرفها قرن يدخل الغزل في جوفها وتسم السم، ومنها أيضًا الثناية وهي التي يثنى عليها الثوب كلما ازداد طولاً أثناء عملية الغزل والنسيج، أما الصيصة وتدبر بها فهي شوكة النساج التي يسوى بها السدادة واللحمة، وأيضًا النير وهو الخشبة المعترضة التي فيها الغزل والمداد وهي عصا في طرفيها صنارتان يمدد بها الثوب المنسوج بينما كانت الصنار هي رأي المغزل، والكفة هي الخشبة المعترضة في أسفل السدى، والحماران وموضعهما أسفل السدى لرفعها عن الأرض والشفشقة وهي قصب يشق ويوضع في السدى عرضاء، والدعائم خشبات تنصب ويمد عليها السدى[4].

وجدير بالذكر أن مدينة زبيد كانت تزخر بالمصانع اليدوية في عهد بني مهدي، استمرارًا من العهد النجاحي وذلك منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، حيث بلغت مصانعها مائة وخمسين مصنعًا، ومن إنتاجها القماش والمحشا بالحرير، والقطن والفوط وتصدير ذلك إلى جميع أنحاء اليمن وغيرها من البلدان الغير يمنية كالهند والصين[5].

الصباغات والزخرفة :

اشتهرت زبيد بصناعة الأصباغ المستعملة في صبغ الملابس المتنوعة وكان صبغ زبيد لا يساويه غيره في الحسن والجودة[6].

اعتمد النساجون في زبيد على الأصباغ النباتية سواء كانت المحلية أو المستوردة

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

(٢) النقب : جمع نُقاب ومنه يسمى بنقاب المرأة لأنه يستر نقابها أي لونها، بلون النقاب. رجب عبدالجواد : معجم الملابس، ص٥٠٠.

(٣) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٧٢.

(٤) الألوسي : بلوغ الأرب، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨.

(٥) حامد خليفة : المرجع السابق، ص١٧٣.

(٦) الحجري : مجموع بلدان اليمن، م١، ج١، ص٣٨٧.

فاستخرجت مادة الصباغة من بعض الأشجار لاستخدامها في صباغة المنسوجات وتلوينها وأيضًا في تلوين الأواني الفخارية، وتزيين المرأة، وكانوا عادة ما يخلطون الأصباغ بالعطور لتفوح الملابس بالرائحة العطرية الجميلة، ومن أشهر النباتات التي استخدمت في الأصباغ والتلوين :

أ – " **النيل** "[١] : أو النيلة، وكان يصبغ بها البز الأبيض في المصانع المسماه " بالمصابيغ " ثم يرسل إلى المناطق الجبلية، حيث أصبحت صنعاء وذمار وحجة وصعدة مراكز تجارية لزبيد[٢].

وكانت الأقمشة البيضاء تغمس عدة مرات في قدور ضخمة مصنوعة من الطين وتترك لتجف في الشمس وتتكرر هذه العملية أربع مرات ينتج عنها لون قاتم وبعد الصباغة تُطرق الأقمشة بواسطة مطارق خشبية ثقيلة لإعطاء المنسوجات لمعة زرقاء داكنة، وأخيرًا تُختَم الأقمشة بختم الصانع الذهبي، ويباع الإنتاج الجاهز إلى سماسرة يقومون ببيعه[٣].

ب – **الزعفران**[٤] : هو نبات يشبه السمسم، يعطي اللون الأصفر، وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية. ويقال عن المنسوجات في زبيد واليمن " زعفرت " أي صبغت بالزعفران، وأصفر لونها[٥].

ج – **الوَرْسُ** : وهو أنواع، منه الأسود، ويخرج صبغتين أصفر خالص الصفرة، ومنه الأحمر وهو الأجود.

ويصف ابن حوقل الوَرْسُ في اليمن بقوله : " وفيها ينبت الورس وهو نبات أحمر في معنى الزعفران يباع منوان بدينار فيصبغ به "[٦].

أما الإدريسي فيقول عنه : " والورس نبات أصفر يشبه الزعفران تصبغ به الثياب "[٧].

---

(١) النيل هو مادة زرقاء تستخدم للصباغة وكان يؤخذ على القطعة منه أربعة دنانير وربع دينار عند خروجه من ميناء عدن. ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٠؛ المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٨.

(٢) حامد خليفة : الفنون الزخرفية، ص١٧٣.

(٣) حامد خليفة : المرجع السابق، ص١٧٣.

(٤) الزعفران : نبات بصلي معمر من الطيب من الفصيلة السوسنية، من أنواع برية ونوع صيفي طبي مشهور. ابن منظور : لسان العرب، ج٧، ص٣٢.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص١٧٧.

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص٣٧.

(٧) الإدريسي : نزهة المشتاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج١، ص٥٣.

ويلون به المنسوجات مثل الحرير والقطن والكتان، وكان النساجون في زبيد يجلبونه من منطقة " المذيخرة " والتي تعد من أهم مناطق وجود الوَرْسُ في اليمن[1].

د – **العصفر**[2] : استخدم النساجون في زبيد العصفر لصباغة الملابس، وهو نبات يستخرج منه اللون الأحمر، لصباغة الحرير والقطن ونحوه ... ويقال عن المنسوجات التي تصبغ به " عصفرت " أي صبغت بالعصفر.

هـ– **الفَوّةُ**[3] : كان من أهم السلع اليمنية التي تأتي من عدن إلى زبيد ثم تصدر إلى الهند أو يتم استعمالها محليًا في صبغ المنسوجات، فهو نبات له عروق حمر دقاق طوال في رأسه حب أحمر شديد الحمرة كثير الماء، يصبغ به الثياب فتعطي لون شديد الحمرة، ويكتب بمائه وينقش أيضًا[4].

وكان هذا النبات زراعته مربحة بسبب ما تلقاه من رواج كبير في الهند، وكانت مواعيد زراعته وموسم حصاده يوافق موسم سفر المراكب إلى الهند سواء في عدن أو زبيد[5].

احتوت المنسوجات في زبيد على زخارف مطبوعة باليد بماء الذهب، حيث كانت تزين بالزخارف المنقوشة فوقها والمطبوعة بالأحمر والبني وغيرها من الألوان، وكانت بعض مصانع النسيج تنقش شعاراتها على المنسوجات باللون الذهبي، وذلك تفاديًا لعدم التزييف[6].

كما كانت بعض المنسوجات تزين بالزخارف عن طريق الطبع بواسطة القالب، وعادة ما تحفر الزخارف على هذه القوالب حفرًا بارزًا وغائرًا ثم تغمس هذه الزخارف في الأصباغ أو ماء الذهب ويختم بها على المنسوجات، فضلاً عن تنفيذ الزخارف أحيانًا بالرسم والطبع باليد بواسطة الفرشاه[7].

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٨٣؛ الإصطخري : المسالك والممالك، القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٤.

(٢) العصفر : نبات صيفي من الفصيلة المركبة، منه ريفي ومنه بري، يستخرج منه صبغ أحمر. ابن منظور : لسان العرب، ج١٠، ص١٧٤.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٧٥؛ ابن منظور : لسان العرب، ج١١، ص٢٤٦.

(٤) حسن شهاب : عدن فرضة اليمن، ص١٢٢؛ ابن منظور : لسان العرب، ج١١، ص٢٤٦.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٧٤، ١٧٥

(٦) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٦٣.

(٧) حامد خليفة : المرجع السابق، ص١٦٧.

الصناعات الجلدية :

من الصناعات التي اشتهرت بها زبيد دباغة الجلود، فوجد بها مدابغ الجلود لتوفر شجرة " النَّبَق "[1] التي تستخدم في دبغ الجلود، وكذلك وجود شجر القرظ الذي تأتي به زبيد من صعدة، وأيضًا وجود جلود النمور بكثرة والتي تستوردها زبيد من جزيرة دَهْلَك[2]، والتي يُصنَّع منها المعاطف والدروع والملبوسات الجلدية، ويؤكد على ذلك المقدسي فيجعل من زبيد مدينة مشورة بصناعة الأديم (الجلد) فيقول : " اشتهرت زبيد بالأديم ونيله الذي لانظير له كأنه لا زورد "[3].

أما ابن المجاور فيؤكد على أن الأديم يُصنَّع في زبيد والذي ذاع صيته في مختلف الأنحاء[4].

ومن العوامل المساعدة أيضًا لقيام صناعة الجلود، توافر الحيوانات التي تؤخذ منها الجلود للدباغة ومنها البقر والإبل والأغنام، وكان أجودها وأكثرها تصنيعًا جلود الماعز.

ولعل اشتهار زبيد بإنتاج الجلود ارتبط باستخداماتها اليومية في حياة الناس مثل استخدام السروج الخاصة بالخيل والبغال والإبل وتسمى القربوس، وحقيبة حمل السهام وتسمى الكنانة، والوعاء الذي يحفظ فيه السيف ويعلق في الرحل ويسمى القراب، وكذلك وعاء أدواة الرعاة ويسمى الكِنْفُ، وأيضًا المسك وهي حقيبة حمل الدنانير والدراهم، والصفف وهي كالوسائد توضع على ظهر الدواب تحت الراكب، هذا فضلاً عن بعض أنواع النعال وما ارتبط بصناعتها[5].

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٩٧.

(٢) هي جزيرة في بحر اليمن ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة، خضعت لأمراء زبيد في اليمن بداية من بني زياد في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحتى إمارة بني نجاح في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، الذين لجأوا إليها هربًا من الصراع بينهم وبين الصليحيين على السلطة في زبيد، وفي عهد بني مهدي كانت العلاقات التجارية بين جزيرة دهلك وزبيد طيبة، وكان مالك ابن شداد حاكمًا عليها وقتئذ.
ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٩؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٦١؛ عمارة : المفيد، ص١٩٢؛ محمد كريم إبراهيم : جزر دهلك في البحر الأحمر، أهميتها وعلاقتها باليمن خلال العصور الإسلامية، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، السنة السابعة عشرة، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، سنة ١٩٨٩م، ص١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٣٣-١٣٦، ١٤٠.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٨.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٩.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة؛ ابن منظور : لسان العرب، ج١٢، ص٥٦؛ ج١٣، ص١٢١؛ محمد عبدالله زغلول : المصنوعات الجلدية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م، ص٤، ١٢-١٤.

وكذلك المصنوعات الجلدية التي اشتهرت بها زبيد " الأنطاع الصُتّ " التي لا ينفذ منها الماء لمتانة صنعها[1].

وقد زخرت الجلود بزخارف ورسوم ملونة وجميلة، كما أنها ذُهِّبت بعض صناعة الجلود[2]. ويحدثنا ابن المجاور عن الوسائل المستعملة في صناعة الجلود فيقول : " أن طواحين القرض وهو (نوع من الشجر يستعمل لدبغ الجلود، وُجِدَ في زبيد لكثرة هذه الصناعة، فالطواحين تطحنها وتعدها للعمل "[3].

ويتضح لنا ضخامة ما تنتجه زبيد من جلود من خلال ما يدفع عنها لخزينة الدولة، حيث يدفع الضامن للمدبغة ثلاثة عشر ألف دينار سنويًا[4].

صناعة العطور :

اشتهرت زبيد بصناعة الطيب والعطور ومنها ما يرش على الثياب أو يدهن به الجسم والوجه أو ما يتبخر به لرائحته الطيبة، وهناك إشارة في حديث ابن المجاور تقول : " هناك أنواع من العطور لا تستخدم إلا للرجال، وأنواع لا تستخدمها إلا النساء "[5]. وهذا يوضح مدى المستوى الرفيع لزبيد في صناعة العطور.

صناعة النبيذ :

صنع النبيذ بكثرة من التمر والبر والرطب ويسمى " الفضيح " ويستغرق عمله يومًا وليلة، ويشرب منه الناس في زبيد جميعًا من النساء والرجال[6].

وكان من الآبار الهامة التي يستخرج منها الماء لتصنيع النبيذ هو بئر زعفران في عدن، فمنها يستخرج الماء ويوضع عليه ثمرة الكاذي ذو الرائحة العطرية النفاذة ويترك في الشمس لمدة عشرة أيام، يتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى عسل وتأتي زبيد منه بالماء شأنها شأن كل البلدان اليمنية[7].

---

(١) عبداللطيف سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م١٢، عدد ٢، ١٩٨٥م، ص٣٣٧، والأنطاع الصُتّ هي قرب الماء.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص١٧٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٩٧.

(٤) عبدالرحمن شجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٦٩.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٧.

(٦) السروري : المرجع السابق، ص١٧٣.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص١٣١.

ومن النبيذ التي اشتهرت به زبيد ما يعتمد على الكروم لكثرة أنواعه بها.

الصناعات الغذائية :

وجدت في زبيد أنواع من الصناعات الغذائية الهامة لديهم ومنها " المربى "، حيث كانوا يصنعون مربى الزنجبيل في نوعين مميزين : نوع يعرف بالمقصوص، وهو قليل العسل، ونوع يعرف بالمطحون، وهو أكثر جودة من الأول[١].

كما وجدت في زبيد صناعة عسل النارجيل أو جوز الهند، وعن كيفية تصنيعه، كان خدام النخل ويسمون " الفازانية " يصعدون إلى النخلة صباحًا ومساءًا، إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل، وهم يسمونه " الأطواق " فيقطعون العزق[٢] الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار إصبعين ويربطون عليه قدرًا صغيرًا فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العزق، فإذا ربطها صباحًا، صعد إليها مساءً ومعه قدحان من قشر جوز الهند، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العزق في أحد القدحين، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر من العزق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية، ثم يفعل ذلك مساءً، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك طبخه كما يطبخ ماء العنب فيصير عسلاً طيبًا، تصنع منه الحلوى[٣].

وترتب على وجود العسل بكثرة في زبيد، صناعة الشهد الحضوري الجامد، الذي يقطع بالسكاكين، وكانت تصدره إلى الحجاز والعراق وسائر البلدان[٤]، كما يصنع من السكر أحجام كبيرة على شكل قوالب.

وعلى ذلك تفنن أهل زبيد في صناعة الحلويات واكتسبوا في ذلك شهرة وخاصة فيما أطلق عليه معقدات الفاكهة، والذي يصنع من فواكه الخوخ والأترج مع الجزر والقرع وغيرها، فلهم طريقة خاصة في عمله، حيث يتم تسخين معقدات الفاكهة في الشمس حتى يصير في عقود قصب اليرع، ثم يوضع في مظروف وفي مكان بارد ويترك حتى يجمد مع ختم أفواه المظروف بالقصة، وطريقة إفراغه بأن يكسر المظروف ثم يقدم للموائد فيقطع بالسكين على طيفورية أو رغيف[٥].

---

(١) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٧٠.

(٢) العزق : مكان قطع الغصن الذي يلتصق بالثمر. ابن منظور : لسان العرب، ج١٠، ص١٣٧.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٤٠، ٢٤١.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣٥٨.

(٥) الهمداني : المصدر السابق، ص٢٥٥.

صناعات أخرى :

كما اشتهرت زبيد ببعض الصناعات الأخرى التي تعتمد على الإنتاج الزراعي، مثل صناعة الأقفاص من جريد النخل وكذلك القفاف، والمكاتل والأطباق من الخوص[1]، وكذلك الليف والحبال من شجر النارجيل وهو الأكثر احتمالاً لماء البحر، فيضعون منه حبال المراكب[2].

كما تصنع أسقف المساجد والمنازل والأبواب والنوافذ وسفرات الطعام، من جريد النخل وأخشاب الأشجار، كذلك بعض الأثاث المنزلي، والأقداح وبعض الرماح كالسهام والنبال والأقواس[3].

كما وجدت صناعة الأواني المتنوعة، سواء المستخدمة للمكاييل، وهي غالبًا من المعدن أو الخشب، أو المستعملة في المنازل ومعظمها من الفخار مثل " الجرة " وهي الزير الصغير و" الجمنة " وهو إناء كبير من الفخار يستخدم لحفظ السمن والعسل وغيرها من السوائل[4].

الصناعات المعدنية :

اشتهرت زبيد ببعض المعادن الثمينة، منها معدن البردخر أو اللازورد والزمرد العالي الجودة[5] اللذان تقوم عليهما الصياغة، فتصنع منهما الخرز والفصوص مع الاستعانة بمعدن الذهب من منطقة خَوْلان، والذي يعد من أجود أنواع الذهب.

وكذلك من أهم المعادن الموجودة معدن العقيق والجزع، الذي تعددت أنواعه وأجودها البقراتي المثلث الألوان الذي يكون وجهه أحمر، فوق عرق أبيض، فوق عرق أسود، ويعمل من هذا المعدن الفصوص الثمينة[6]، ومن أنواع الجزع " المعرق " الذي كانت تتخذ منه الأواني لكِبَروعِظَم حجمه[7]، وكانت زبيد تأتي به من أهم مناطق استخراجه جبل نقم قرب صنعاء.

وكان يصنع من الجزع ألواح صفائح وقوائم سيوف ومقابض سكاكين ومداهن وقحفة[8]. كما كانت زبيد تستعين بمعدن اللؤلؤ من مدينة عدن لتزيين الحلي[9].

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٦٣.

(٢) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٤١؛ ابن منظور : لسان العرب، ج١٣، ص٢٦٧.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٨.

(٤) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٧٠.

(٥) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص١١١.

(٦) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص١١٢.

(٧) ابن الفقيه : البلدان، ص٣٦؛ عبدالله سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، ص٣٢٩.

(٨) قحفة : القدح. ابن منظور : لسان العرب، ج١١، ص٣٠.

(٩) الاصطخري : المسالك والممالك، ص٢٦.

وكان الصياغ في زبيد يستخدمون رمل السُمينة الأحمر أثناء عملهم[1] وتميـزوا بـصناعة الحلي من الذهب والفضة وغيرها من المعادن، كالأساور والخلاخيل والخواتم.

كما كان للحكاكين[2] دور بارز في صناعة الحلي، فهم مـن ينحـت الأحجـار الكريمـة، ويحسنون قطعها وصقلها قبل تزيين الذهب بها.

ولا شك أن صناعة الأسلحة تعتبر من أهم الصناعات الحديدية، فكانت السيوف والخنـاجر أجودها وأشهرها على الإطلاق، فكان الحديد يأتي إلى زبيد مواد خام يقوم بتصنيعه الحرفيـون، وأحيانًا كان يأتي نقيًا مسبوكًا من " رُغَافة "[3] في اليمن حيث كان بها خمسة عشر كيـرًا لـسبك الحديد[4].

ومن أهم ما تميز به الحدادون في زبيد صناعة الأدوات التي تعتمد عليها الفلاحـة مثـل المساحي والفؤوس والمحاريث والمناجل.

التجارة في زبيد لدولة بني مهدي :

نشطت التجارة في زبيد نشاطًا كبيرًا لاسيما في بعض الأوقات التي اضطربت فيها الأحوال السياسية وكثرت الحروب، ولكن زبيد كانت ذاتية النشاط، حيث كان تجار زبيد يذهبون إلى عدن والبلدان اليمنية الأخرى، بمنتجاتهم ويجلبون منها أنواعًا من البضائع من القطن والعطر والفولاذ " الهندوان "[5].

كذلك كانت الحركة التجارية بين القرى والمدن اليمنية نشيطة، فكانت القرى القريبة مـن ساحل زبيد تصدر للمدن الأصناف العديدة من منتجاتها سواء الزراعية أو الصناعية أو المـواد الخام.

وكانت زبيد تبيع الأخشاب التي تستخدم في العمارة إلى جميع أنحاء اليمن[6]، ويُبـاع فـي

---

(١) عبدالله سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، ص٣٣٠.

(٢) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص١١١.

(٣) رُغَافة : قرية على مرحلة من صعدة باليمن. الحجري : بلدان اليمن، م١، ج٢، ص٣٦٩؛ عبـدالله سـيف : المرجع السابق، ص٣٢٨.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ج٤، ص٤٠٩.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٩٢.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٦٣، ٩٢.

زبيد أيضًا الخضر والبقول مع الغلال[1]، منها ما تنتجه نفسها ومنها ما يُجلب إليها من القرى المجاورة.

الأسواق :

هي مركز الحركة التجارية وهي يومية أو أسبوعية أو موسمية لحصاد بعض المنتجات الزراعية، وتقسم الأسواق عادة إلى صغيرة متخصصة[2]، في بعض المحاصيل الزراعية لأهميتها، فانفردت أسواق خاصة في زبيد لبيعها مثل سوق البر (القمح) التي كانت تقام بعد صلاة ظهر كل يوم[3]، وفيه يقدم إلى السوق أهل القرى والمدن المجاورة، بإنتاجهم في أول النهار ليبيعونه، وتستمر عملية البيع لبضائعهم إلى وقت الظهر، وبعد صلاة الظهر يتجهون إلى السوق لشراء ما يحتاجونه، فكان أغلب الناس آنذاك لا يملكون نقودًا عند انعقاد السوق، لذلك يتجهون إلى بيع أحد منتجاتهم لشراء منتجات أخرى بثمنها.

وتسمى بعض الأسواق باسم اليوم الذي تُعقد به، مثل سوق الخميس، وسوق الجمعة، وسوق الأحد، وكل سوق تميز بسلعة معينه مثل الحبوب والماشية والبز[4].

وفي ذلك اليوم كان أرباب الصناعات والبضائع يخرجون بضائعهم وسلعهم على اختلافها وتبدأ السوق في الصباح الباكر ويستمر إلى آخر النهار، وتزدحم طوال اليوم براغبي الشراء والبيع، وكل قبيلة تقام السوق على أرضها، تتولى حمايتها من أي اعتداء وتوفير الأمن والراحة للتجار ومرتادي الأسواق[5]. وكانت معظم السلع في الأسواق تعرض على الأرض، فيفرش البائع لها قطعة من القماش، وأحيانًا تكون على الأرض بدون أي فرش[6].

وكانت الأسواق التي تقام في القرى عادةً ما تقام في منطقة متوسطة بين مجموعة من القرى بحيث يستطيع أهل القرى الوصول إليه والعودة منه في نفس اليوم، وأحيانًا يسافر بعض التجار إلى أسواق أخرى بعيدة تستغرق في الذهاب إليه والعودة منه عدة أيام لأن الأسواق القروية

---

(١) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص١٩٩.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٧١.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٨.

(٤) السروري : المرجع السابق، ص٢٠١.

(٥) غيثان بن علي : دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، (ق١- ق١٠هـ / ق٧ - ق١٦م) جامعة الملك خالد، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ط١، ص٣٧٠.

(٦) غيثان بن علي : المرجع السابق والصفحة.

لا تحوى عادةً كل أنواع البضائع، فهي عادة ما تتوافر بها متطلبات القرى الخاصة والضرورية التي يحتاجها أغلب الأفراد مثل الملابس والحبوب والمنتجات التي تشتهر بإنتاجها هذه المنطقة(1).

ومن الأسواق التي تعامل معها تجار زبيد، سوق صنعاء التي يُجْلب لها القطن والزعفران والأصباغ، ويجلب منه البز والحرير والجلود والبرود، وسوق الشّحر الشهير ببيع اللبان والعنبر والأدم والصبر، وأيضًا سوق خَيْوان التي تجلب منها الزبيب الطيب المذاق(2)، ولا نغفل سوق عدن لأهميتها التجارية فكان محطة تجارية لكثير من المدن اليمنية(3) وغير اليمنية مثل مصر والعراق وعمان والبحرين والحبشة والصين والهند والسند، فكان تجار زبيد يأتون إليها فيجتمعون مع كثير من التجار غيرهم في سوق عدن التجارية التي تقام على شاطئ البحر ومن أهم التجارة فيه العطور والطيب بأنواعه والأدم واللؤلؤ والبرود(4).

كما تميزت أسواق عدن الداخلية وأهمها سوق العطارين بمنتجاتها الغالية الجودة، ويذهب إليها تجار زبيد للتبادل التجاري(5). وكان لكل سوق أسبوعي مشرف عليه يسمى صاحب السوق، وهو الذي يقوم بجباية الأموال من السوق وعادة ما كانت الضرائب " الجبايات " يأخذها مشرفو الأسواق عن طريق الضمان(6).

ومن الأسواق الموسمية سوق تقام في زبيد في موسم حصاد النخيل(7)، وهذا النخيل عبارة عن عشر قطع في زبيد كل قطعة طولها وعرضها ربع فرسخ، وفي كل قطعة ثلاث أصناف من الرطب، حماري، وخضاري، وصغاري، وعندما يحين نضج الرطب فيها يتقبل الأفراد النخيل كل على قدر طاقته، ويحضر إليه الناس من أنحاء اليمن، من أطراف أبْيَن إلى أطراف حَرَض، كما ينزل إليه الكثير من أهل الجبال، ويقيم الناس في هذا الموسم مدة شهرين أو ثلاثة يسودهم فرح وطرب واحتفال كبير، ويقوم فيه الناس بأعمال ترفيهية كثيرة مثل اللعب والضحك والشراب(8).

---

(1) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٠١.

(2) الإدريسي : نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٧.

(3) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، المعهد الفرنسي، القاهرة، د.ت، ص١٥٥؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٠.

(4) القلقشندي : المصدر السابق والجزء، ص١١.

(5) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٢٦-١٣٠.

(6) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١٣٤.

(7) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٧٩.

(8) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة.

ولم تكن وظيفة الأسواق تقتصر على مزاولة البيع والشراء، وإنما كان الناس يتداولون فيها الآراء، ويتناقلون الأخبار، ويتم فيها الوعظ والإرشاد، أو الإعلان عن خبر معين أو حادثة ما[1].

وجير بالذكر أنه مما ضمن الحركة التجارية الداخلية والخارجية بين مدينة زبيد والبلــدان المجاورة لها في اليمن والجزيرة العربية ومصر وغيرها من بلاد الحبشة والهند والــصين هــو اختلاف أقطارها في المحصول الصادر والوارد، وما أحسن قول ابن الفقيه : " ولولا أن الله خص بلطفه كل بلد من البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيــرهم لبطلــت التجــارات وذهبت الصناعات ولما تغرب أحد ولا سافر أحد "[2].

التجارة الخارجية :

تحتل زبيد موقعًا هامًا بين شمال تهامة وجنوبها، باعتبارها امتدادًا طبيعيًا لمينــاء غلافقــة فرضة عدن، لتكون هذه هي فرضة اليمن كما قال البيروني[3]، أي أن الجبــال تتــصل بزبيــد لتستورد منها حاجياتها من التجارة الواردة عليها عبر المنافذ المتعددة التي تصب في هذه المدينة التهامية المشهورة.

و جعل هذا الموقع التجارة في زبيد، من أهم نشاط سكان المدينة والقادمين إليهــا أيــضًا، فالمقدسي[4] يصفها تارة بقوله : " بها تجار كبار " وتارة يقول : " بها تجــار وتجــارات وفيهــا أسواق وإن كانت ضيقة إلا أن الأسعار بها غالية ".

ووصفها الإدريسي[5] الذي عاش في القرن السادس الهجري بأنها : " مدينة كبيرة وأهلهــا مياسير أهل ثروة ومال، والمسافرون إليها كثيرون، وبها مجتمع التجــار مــن أرض الحجــاز، وأرض الحبشة، وأرض مصر، الصاعدون من مراكب جدة وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إليهــا ويخرجون منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصيني وغيره ".

كما ذكر القلقشندي[6] : " أن زبيد فرضة اليمن وبها مجتمع من التجار من الحجاز، ومصر، والحبشة، ومنها تخرج بضائع الهند والصين ".

---

(١) غيثان بن علي : دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ص٣٧٠.

(٢) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص١٨٠.

(٣) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٨٩.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٨٥.

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٥٣.

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٠.

من هذين الوصفين نجد أن زبيد كانت تعتبر مركزًا تجاريًا هامًا يقوم بعملية التصدير والاستيراد، وأهم البلدان التي تصدر إليها وتستورد منها هي الصين والهند والحجاز ومصر والحبشة.

وتصدير التجارة من زبيد أو الاستيراد إليها عن طريقين أحدهما :

أ – الطريق البري :

وهو الطريق الموصل من زبيد إلى الحجاز ومصر، فهو الطريق الذي تسلكه قوافل الحجاج من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر، والعكس. ولقي الطريق البري اهتمامًا من قبل الأمير الحسين بن سلامة آخر أمراء الدولة الزيادية في زبيد في القرن الرابع الهجري[1]، فأصلح الطريق على طول اليمن، من حضرموت إلى عدن وطوله حوالي شهر، ومن عدن إلى مكة وطوله كذلك حوالي شهر، وأنشأ في كل مرحلة المساجد ووفر مياه الشرب على طول طرق الحجيج والتجار[2]، فانتفع به التجار والحجيج بعد ذلك في نقل البضائع المختلفة عبره إلى أماكن متعددة، وكذلك الجيش في انتقاله من مكان لآخر.

والطريق البري أو الساحلي لزبيد تسير القوافل التجارية مرورًا به والذي يبدأ من عدن إلى موزع وحيس وزبيد وفشال والقحمة والكدراء والمهجم ومور وجيزان والساعد وعثر والهجر ثم السرين ومنها إلى جدة أو مكة[3].

ويقدر سير القوافل على هذا الطريق حوالي شهر[4]، ومن المعلوم أن هذا الطريق زاد نشاطه التجاري في القرن السادس الهجري.

ب – الطريق البحري :

وطريق البحر يبدأ من ميناء " غلافقة "[5] وهو مرسى زبيد ويبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلاً، وتقصده السفن التي تحمل البضائع والتجار إلى زبيد، خاصة من مصر الواقعة على البحر الأحمر. ويسير الطريق من ميناء غلافقة إلى مصر، إلى بلاد الحجاز، وخاصة ميناء جدة ثم إلى بلاد الحبشة والصومال ثم إلى الصين والهند والعكس. وتصل إلى ميناء غلافقة السفن القادمة من

---

(١) عمارة : المفيد، ص٧١.

(٢) حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص١٠٥.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص٧٨–٨٠.

(٤) الاصطخري : المسالك والممالك، ص٢٨.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٤؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص٢٦٤؛ اليعقوبي : البلدان، ص٣١٩.

الشرق وخصوصًا من الصين والهند.

لذلك كان لزبيد دور بارز في التجارة، عندما سلك أهلها الطرق البحرية المؤدية إلى الهند والصين، وشرق أفريقيا والبحر الأحمر، واشتغلوا بالتجارة فيما بين مناطقها المتعددة.

وكان بعض التجار أصحاب المراكب في زبيد يقصدون الحجاز بتجارتهم في موسم الحج فهو فرصة كبيرة للنشاط التجاري مع التجار المسلمين من الأقاليم الإسلامية الأخرى مثل مصر والشام وخراسان والمغرب الذين يفدون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فيستنفذون بضائعهم وتعظم أرباحهم، وينتظرون ذلك من العام إلى العام[1].

وكان حتميًا لمن يسلك طريق البحار أن يكون خبيرًا بها، عارفًا بمواسم الصلاحية للرحلات البحرية وطرقها المسلوكة، من ارتفاع الأمواج، وشدة الريح ووجود الصخور والخلجان[2].

وكانت الرياح هي العامل الحاسم آنذاك في دفع المراكب الشراعية وانتقالها من مكان إلى آخر، وكان لها مواعيد محددة يجب على كل ملاح مراعاتها، كما يجب على الملاح أن يكون عارفًا بمواسم الرياح الصالحة للإبحار وغير الصالحة، واستطاع البحار في زبيد أن يعرف الرياح الموسمية الصيفية والتي تساعده على الاتجاه جنوبًا، والرياح الموسمية الشتوية التي تتجه شمالية شرقية، فاستفاد منها برحلاته المتجهة عبر مختلف البحار، والرياح الأصلية شمال وجنوب وقبول ودبور، وما بينها رياح هوجاء ضارة بالمراكب المسافرة[3].

وأول رياح الدبور أو الكوس ما يوافق ١١ مايو ويسمى " غلق الموسم " لأن السفر يتوقف، أما آخره فيسمى " مفتاح البحر " لأن السفر يبدأ فيه، وعلى ذلك فإن بدء السفر من المراسي الغربية والجنوبية إلى المراسي الشرقية والشمالية في موسم الصيف وهو ما يسمى " الدبور "، ويبدأ موسم السفر من المراسي الشمالية والشرقية إلى المراسي الجنوبية والغربية في الشتاء وهو ما يسمى " القبول "[4].

وكانت أقصى نهاية السفر لتجار زبيد عن طريق البحر من ناحية الشرق هي زنتيون "كانتون" بالصين حيث لا يسلك بعدها، أما المسافة من جزيرة العرب إلى الهند، فهي تستغرق

---

(١) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص١٥٨.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص١٧٩.

(٣) سيدة إسماعيل الكاشف : علاقة الصين بديار الإسلام، حولية كلية البنات، العدد ٣، يوليه، ١٩٦١م، ص١٣٣.

(٤) حسن شهاب صالح : فن الملاحة عند العرب، ص١٨٨-١٩٢.

شهرًا، ثم تستغرق من الهند إلى الصين حوالي شهرين[١]، وبعد التوقف في المراسي وانتظار الموسم فإن الرحلة تستغرق من الجزيرة العربية إلى الصين حوالي ستة أشهر، ورحلة العودة تستغرق نفس الفترة وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك[٢].

واستخدم بحارة زبيد واليمن عمومًا في ارتيادهم البحر طريقين، أحدهما : السير قرب الشواطئ لعدة أسباب إما لصغر المراكب أو لأنهم كانوا يتاجرون عبر مراسي هذه الشواطئ أو للتزود بالمياه والطعام، أو بسبب الرياح أو هروبًا من قراصنة البحر وكذلك لأمان من هياج البحر. والآخر : السير وسط البحر مباشرة، وكان للسفن الكبيرة التي تحمل بضائع ضخمة عبر المسافات الطويلة والبعيدة التي لا تحتاج للتوقف.

ووصف بامخرمة[٣] خروج التجار من مراكبهم بعد رحلة شاقة عبر البحر وكانوا يلاقون من الشدائد والأهوال نقلاً عن ابن المجاور بقوله : " وخروج الإنسان من البحر كخروجه، من القبر، والفرضة كالمحشر فيه : المناقشة، والمحاسبة، والوزن والعدد، فإن كان رابحًا طاب قلبه وإن كان خاسرًا اغتم، فإن سافر في البحر، فهو من ذات أهل اليمين، وإن رجع في البحر فهو من ذات اشمال، وإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا، فكيف حال المخلوق بين يدي الخالق غدا ".

الصادرات والواردات :

أ- الصادرات :

كانت زبيد تصدر أنواعًا متعددة من المصنوعات والمنتجات التي اشتهرت بها إلى كثير من المدن المختلفة. فكانت تصدر الأحجار الكريمة الجزع واللازورد[٤]، ومن المنسوجات أنواع البرود[٥] التي اشتهرت بها لجودتها، وأصباغ الملابس[٦] إلى مختلف الدول.

فتصدر إلى مصر ملابس الوشي " وهو نوع من الملابس الحريرية "، والعطور والبخور،

---

(١) جعفر كرار أحمد : العلاقات التاريخية بين شبة الجزيرة العربية والصين منذ ظهور الإسلام وحتى أوائل القرن العشرين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٩٢، يناير - فبراير - مارس ١٩٩٩م، ص١٤٤.

(٢) جعفر كرار أحمد : المرجع السابق والصفحة؛ محمد يوسف : علاقات العرب التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، القاهرة، م١٥، ج١، مايو ١٩٥٣م، ص٤.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج١، ص٤٨.

(٤) الأصطخري : المسالك والممالك، ص٢٦.

(٥) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٩٤، ٩٦.

(٦) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص٧١.

وكذلك السيوف والخناجر المطعمة بالعقيق، وكذلك الخواتم المطعمة بالأحجار الكريمة[١]. وكانت تصدر إلى الحجاز التمر والدخن والذرة، وأيضًا المربى منه المقصوص من قليل العسل، والمطحون وهو الجيد، والتمرهندي الذي أجوده المقلس وأيضًا الجلود[٢]. وتصدر إلى بلاد الحبشة الجزع[٣].

وكانت زبيد تصدر إلى الصين[٤] المنسوجات الغالية المصنوعة من الحرير والتيل والقطن والصوف، وخام الحديد، وسبائك الذهب والفضة والعطور[٥]، كما تصدر إلى الهند أنواع الطيب[٦].

ب- الواردات :

كانت زبيد تستورد منتجات متعددة من البلدان المختلفة، بعض هذه الواردات مواد خام تصنع للاستهلاك المحلي والآخر للتصدير.

وأهم البضائع التجارية التي كانت تستوردها زبيد من البلدان المختلفة، فمن مصر تستورد الكثير من المنتجات الزراعية منها، الحنطّة والدقيق والسكر والأرز والصابون والعطارة وزيت الزيتون والزيت الحار، والزيتون المملح، والقليل من النقل وعسل النحل[٧]، وأيضًا تستورد من مصر المنسوجات[٨].

وكذلك تستورد من الصين الحرير[٩]، والخزف والمسك والعود والخولنجان[١٠]، والسروج

---

(١) بدر عبدالرحمن : النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٢١، ١٢٢.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٩.

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف : علاقة الصين بديار الإسلام، ص١٤٣.

كان الصينيون يطلقون على تجار اليمن والعرب كلمة " تاشي " وهي محرفة من كلمة تاجر العربية لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارًا.

(٥) سيد إسماعيل الكاشف : المرجع السابق، ص١٥٦.

(٦) محمد يوسف : علاقات العرب التجارية بالهند، ص٢٧.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص١٤٢.

(٨) بدر عبدالرحمن : المرجع السابق، ص١٢٣.

(٩) ابن الديبع : نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية وشرحه نثر اللآلئ السنيّة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢م/١٤١٣هـ/ ط١، ص٨٠؛ جعفر كرار أحمد : العلاقات التاريخية بين شبة الجزيرة العربية والصين، ص١٤٧.

(١٠) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص٧١.

والدار الصيني والذهب والفضة واللؤلؤ والدار فلفل واللاهليلجات والأبنوس[1].

وتستورد من الهند الأحجار الثمينة والأفاوية وأنواع الطيب التي تجئ على رأس القائمة للمنتجات الهندية، ومن الأحجار الثمينة الياقوت بألوانه والماس والسنبانج الذي يعالج به الجوهر[2]. ومن الأفاوية البهار والتوابل والفلفل والقرنفل، ومن الطيب، الكافور والماكافور والجوزبوا والمسك والعنبر والعود الهندي والزنجبيل، ومن العقاقير الهليلج والبلاذر المعالج لأعراض البرد والرطوبة ولفساد الذهن[3]، أيضًا النارجيل والسمسم والصابون وأنياب الفيل[4].

كما استوردت زبيد من الهند الثياب المتخذة من الحشيش[5] والثياب العظيمة المخملة، وأيضًا النعال الكنباتية[6]، كما تستورد العاج والغلمان أو الرقيق من الحبشة[7].

النظام المالي " الإيرادات " :

تنوعت الموارد المالية في زبيد شأنها في ذلك شأن البلدان اليمنية الأخرى، وتنقسم تلك الموارد إلى قسمين أحدهما : موارد شرعية اقتصرت خلاله على عشور الأراضي الزراعية " الخراج " و" عشور التجارة "، وثانيهما : موارد غير شرعية مثل المكوس والمصالحات والغنائم.

الموارد الشرعية :

أ – عشور الأرض " الخراج " :

اعتبرت أرض اليمن من البلاد التي أسلم عليها أهلها فهي أرض عِشرية فيقول أبو يوسف : " وكل أرض أسلم عليها أهلها فهي أرض عشرية، وأرض الحجاز والمدينة ومكة واليمن وأرض العرب كلها أرض عشرية "[8].

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق، ج١، ص٥٤.

(٢) ابن خردانبه : المسالك والممالك، ص٧٠.

(٣) محمد سيف : علاقات العرب التجارية بالهند، ص٢٩.

(٤) ابن خردانبه : المصدر السابق، ص٧١.

(٥) الحشيش : نوع من التيل غليظ القوام. ابن خردانبه : نفس المصدر، ص٧١.

(٦) نسبة إلى كنبايت في الهند، وكانت في الجودة والحسن، بحيث أنها كانت تعتبر هدية فاخرة من العشاق إلى عشيقاتهم. محمد يوسف : المرجع السابق، ص٣٢.

(٧) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص١٧٨.

(٨) أبو يوسف : كتاب الخراج، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ط١، ص١٧٣.

والمقصود بالأرض العشرية هي ما فرض على ما تخرجه هذه الأرض من زروع وثمار بقيمة العشر أو نصف العشر حسب سهولة الري أو صعوبته(١).

ومع كل فإن كلمة خراج في زبيد ارتبطت بالنخيل، فخراج النخيل في زبيد في عهد بني مهدي يقدر بحوالي سبعين ألف دينار كل سنة، ويؤخذ الخراج عينًا وليس نقدًا(٢).

كان هناك بعض الحالات التي يكون فيها الخراج، عبءً على صاحب الأرض، خاصة إذا كانت ظروف الأرض غير مواتية لتحصيل هذا الخراج، وذلك ما حدث مع علي بن مهدي وأنصاره في بداية تأسيسه لدولته وهو مقيم في الجبال، فكان خراج أرضه وأراضي أخوته وأصهاره وأتباعه، يمثل عبء كبير عليهم، فالتمس من الحرة علم أم الأمير النجاحي فاتك بن منصور إعفاءه من الخراج، وكان له ذلك سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م(٣)، فاتسعت بهم الحال، بعدما أُعفَيت أرضهم من الخراج، مما ساعدهم على الاستمرار في مناهضة الدولة النجاحية بعد وفاة الحرة علم ٥٤٥هـ/١١٥٠(٤)، والقضاء عليهم وإقامة دولته في زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م(٥).

ب – عشور التجارة :

هي ضريبة تقدر بعشرة في المئة، تفرض على غير المسلمين من التجار الأجانب القادمين بتجارتهم إلى دار الإسلام، كما أخذت بمقدار نصف العشر من تجار أهل الذمة وبمقدار ربع العشر من تجار المسلمين وأول من فرضها في الإسلام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٦).

وكان للعشور عدة مسميات منها : الضريبة أو الجباية التي تشمل ضرائب أو رسومًا أخرى علاوة على العشور. وكانت زبيد من أهم المناطق في اليمن بعد عدن في تحصيل العشور على

---

(١) محمد أمين صالح : النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ط١، ص٩٣.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٠؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج١، ص١٨٨.

(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٥٧؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٩.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ص١٥٥؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٦.

(٥) الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٣٠٩.

(٦) أبو عبيدة بن سلام : الأموال، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، تحقيق د. محمد عمارة، ط١، ص٦٤٠.

البضائع التجارية.

وهناك من المواد الغذائية لا يؤخذ عليها عشور وخاصة الواردة من مصر والهند مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح[١]، وعسل النحل إن كان قليلاً، وحطب القرنفل، والنعال إن كانت بدون شراك.

وفيما يلي قائمة بمقدار العشور على بعض البضائع الواردة إلى ميناء غلافقة في زبيد والتي كانت تؤخذ مرة واحدة في السنة.

أولاً : ضرائب البهار " البهار = ٣٠٠ رطل "[٢] :

اسم الصنف	مقدار العشور
بهار الفلفل	٨ دنانير
بهار قشر المحلب	٣ ١/٢ دينار
بهار الطباشير	٢٠ ٢/٣ دينارًا
بهار الهيل	٧ دنانير
بهار الكتان	٧ ١/٢ دنانير
بهار الحمر " التمرهندي "	ثلاث جور
بهار السليط "زيت السمسم"	٥ دنانير
بهار الأنكزة " الحليتت أو الصمغ"[٣]	٨ دنانير

ثانيًا : ضرائب الفراسلة : الفراسلة = ٢٠ رطلاً " :

اسم الصنف	مقدار العشور
فراسلة القرنفل	١٠
فراسلة الزعفران	٣ ١/٢ دينار
فراسلة الكافور	٢٥ دينارًا ونصف وسدس

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٠-١٤٣.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٤٠-١٤٥.
كان البهار يوزن بالقبان وهو ميزان كبير توزن به الكميات الكبيرة الثقيلة من السلع. حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص١٢٥.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، ج٤، ص١٩٣..

ثالثًا : القماش :

اسم الصنف	مقدار العشور	
شقق الحرير	$\frac{1}{2}$ دينار وجائز	الشقة ٢٠ ذراعًا
الثوب الظفاري	$\frac{1}{4}$ دينار وجائز	
قطع السباعي	ديناران ونصف	الكَورَجَة ٢٠ قطعة
قطع الأحواك	دينارن ونصف	الكورجة
قطع المحابس	٤ أربعة دنانير	الكورجة
المقاطع	ديناران ونصف	العشرة
فوط السوسي	ربع وجائز	
سواسي الكتان الكبار	جائزان وقيراط	
سواسي الكتان الصغار	جائزان وفلسان	
الشقة البيضاء	ثمن دينار	

سلع لا تؤخذ عشورها بمقدار وزنها بل كانت تقدر من قبل القائم بأمر تحصيلها في الميناء:

اسم الصنف	مقدار العشور
الحصان الخارج من الفرضة	٧٠ سبعون دينارًا
قفْعَة ذرة، وهي كيس ينسج من الخوص	$\frac{1}{8}$ ثمن دينار
قطعة النِّيل (للصباغة)	$\frac{1}{4}$ دينار
الرقيق الخارج	٧٠ دينارًا
العويلي (إناء مملوء بالنبيذ من سندابور بالسند)	$\frac{1}{2}$ نصف دينار
بهار الفوّة[1] " نبات للصباغة لونه أحمر"	ديناران

(١) الفوة : عروق نبات، لونها أحمر يستعملها الصباغون. ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٠-١٤١.

الموارد غير الشرعية :

تأخذ الموارد غير الشرعية مسميات مختلفة مثل الضرائب والرسوم والمكوس وتضطر أي دولة لفرضها بسبب حاجتها للأموال.

وعن مقدار مبالغ المكوس في مدينة زبيد، ليس لدينا ما ينفي عدم ممارسته في الواقع إلا ما قيل عن أن بني مهدي " ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد ما خلا الحاج، وأنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم ثلاثة دراهم "[1].

كما وجدت في زبيد موارد مالية مؤقتة هي ضمن الموارد المالية غير الشرعية، مثل المصالحات وغنائم الحرب.

المصالحات :

كانت المصالحات تشكل إحدى موارد الدولة المالية المؤقتة لبني مهدي، ومن ضمن المصالحات المالية التي كانت بين دولة بني مهدي في زبيد، ودولة بني زريع في عدن، عندما هادن الداعي عمران الزريعي، مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملوة بمال محدد يؤديه إليه سنويًا[2].

ومن المصالجات التي أصر بنو مهدي على استمرارها وخاصة في عهد عبدالنبي بن مهدي، التي كانت بين النجاحيين حكام مدينة زبيد والشريف غانم بن يحيى حاكم المخلاف السليماني وكانت تقدر بستين ألف دينار سنويًا[3]، ولكن الأحداث أتت بغير ذلك.

الغنائم :

الغنيمة هي الفوز بالشيء، وفي الحرب الظفر بمال العدو، ونتيجة لاستمرار الصراع بين بني مهدي والبلدان اليمنية، ظلت عملية الاستيلاء على الغنائم ظاهرة بارزة وشكلت بذلك موردًا مؤقتًا غير شرعي لمالية دولة بني مهدي والتي بلغت مبالغ ضخمة في كثير من الأحوال.

ومن أمثلة ذلك ما غنمه بنو مهدي، وخاصة في عهد عبدالنبي بن مهدي (٥٥٩-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م) فقد غنم الكثير من أموال دويلات اليمن والتي يوضحها ابن الديبع

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٥٠.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٣، ١٦٤.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١١٠؛ عمارة : المفيد، ص٢٢٢.

بقوله[1] : " وانتقلت إليه جميع أموال اليمن وذخائرها، يقال أنه حصل في خزائنه ملك خمس وعشرين دولة من دول اليمن، أموال الحبشة (النجاحيين) ووزرائها وأموال عبيد فاتك وأموال بني سليمان الشرفاء وملك بني وائل ومعاقل بني الصليحي وذخائر علي الصليحي وولده المكرم وذخائر الحرة السيدة ومدينة الجند وأعمالها ومعاقل الداعي عمران بن محمد بن سبأ وحصن السمدان الذي لم يقدر عليه أحد ". كما ملك الذراري والنساء والمصوغ واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها[2].

طريقة تحصيل الأموال :

كانت أهم طريقة لجباية الأموال في زبيد هو نظام الضمان[3]، وهو تحصيل الموارد المالية مثل العشور التجارية والزراعية والضرائب، وهو عبارة عن التزام شخص ما مسبقًا بدفع مبلغ محدد للدولة لما ضمنته من مورد مالي، ثم يتولى الضامن من تحصيل الأموال المقررة، وفي هذه الحالة يلجأ الضامن أو الملتزم إلى استغلال الموقف، وذلك بفرض ضرائب أكثر من المبلغ المقترح بكثير فهو بحاجة إلى الصرف على الموظفين المكلفين بالتحصيل، وبحاجة إلى مبالغ خاصة به، بالإضافة للمبلغ المطلوب إيراده للدولة.

ويدلنا العمل بهذا النظام على نوعيات الإيرادات المختلفة، فمثلاً نقاط التفتيش والتحصيل المقامة على أبواب زبيد، فكان التاجر يدفع عن الحمل من السلع غير الضرورية دينارًا أما السلع الضرورية فيدفع نصف دينار[4]. والقوافل الصادرة من زبيد إلى عدن كان عليها ضمين يدفع كل عام ألف ومائتين دينار[5].

وفي زبيد تحدد الضمان بها المحاصيل الزراعية وأنواع البضائع التجارية، فكان يؤخذ بها قبالات أي ضمان عن عشور التجارة عن جميع ما يدخلها ويخرج منها .. فيوجد ضمين أو متقبل لكل ما يتحصل عن بعض الأنواع المباعة في الأسواق، مثل ما يبيعه الباعة المتجولون من

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) عمارة : المفيد، ص٢٣٣، ٢٣٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص١٠٨؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٣، ١٢٤.

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٣٢.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص١٠٥. السلع الضرورية مثل الأقمشة وغير الضرورية مثل الطيب.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٩٩، ١٠٠؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٦٠.

الخضرة والبقول والغلال وكل ما يدخل من باب زبيد[١]، وعليه أن يدفع للخزينة من ذلك كله تسعين ألف دينار ملكي[٢].

وكذلك ضمان خراج النخيل، الذي ركز عليه المتولون لزبيد لاعتباره من المحاصيل الأساسية، فكان بنو مهدي يدفعون هذا النخيل إلى ضمين أو متقبل نظير سبعين ألف دينار يدفعها كل عام للخزينة[٣].

وأيضًا ضمان دار النبيذ ومنه النبيذ المشهور في زبيد، وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعيرة وغير ذلك "[٤]، إثنا عشر ألف دينار[٥].

كما كان ضمان سنابيق[٦] الصيادين الذاهبة من زبيد إلى عدن والقادمة من عدن إلى زبيد، بأن يدفع كل سنبق شهريًا سبعين دينارًا[٧].

وكذلك ضامن سوق السمك بزبيد يتحصل كل يوم ثلاثة عشر دينار ملكي، وعلى ذلك يصبح ضمان سوق السمك في زبيد في السنة يساوي حوالي أربعة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارًا[٨].

وهناك نوع آخر من الضمان على المدابغ للجلود في زبيد، وما يستخلص منها، ويقدر بثلاثة عشر ألف دينار سنويًا[٩]، وكذلك ضمان دار الضرب، حيث يدفع ضمانها ثلاثة عشر ألف دينار[١٠].

ويذكر المقدسي صرامة هذا النظام وما يتعرض له التجار من خلال المراصد أو نقاط

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

(٢) الدينار الملكي نسبة إلى الملك المكرم الصليحي. عمارة : المفيد، ص١٣٥.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٠، ٩٠.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، ج١٤، ص١٧٤.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٩٠.

(٦) سنابيق : من المراكب البحرية التي تستعمل لأغراض النقل في الخليج العربي والبحر الأحمر والهندي. زين العابدين بن شمس الدين : كتاب معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء كمبيوسنتر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ط١، ص٣٢٨.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٩٩، ١٠٠.

(٨) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٢٤٣.

(٩) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٨٩.

(١٠) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة.

التحصيل[1]، اتبعت دولة بني مهدي هذا النظام في زبيد على الرغم من أنه غير مرغوب فيه عند بعض الفقهاء وغير جائز عندهم، ومنهم من يشترط له شروطًا، وعلى الرغم من ذلك، حرصت بل وأصرت دولة بني مهدي على إتباعه، وذلك رغبة في مصلحتها التي تقتضي عدم التكلفة في التحصيل المباشر، فهذا النظام (الضمان ــ نظام التقبل) لا يكلف الدولة شيئًا بل تتسلم ما يخصها من المتقبل دون تكلفة تذكر، وتناست مصلحة أهل زبيد لأنها أعطت المتقبلين الحق في أن يفرضوا على أهل زبيد ما يشاؤون من الضرائب، لأنهم يريدون تحصيل ما يورد للدولة وما يكفي موظفي التحصيل، هذا بالإضافة إلى ما يخص المتقبل نفسه، ولا بد أن يكون مُجزيًا.

وعلى ذلك فإن نظام الضمان شمل جميع موارد بيت المال من الأراضي الزراعية وأنواع البضائع التجارية، فلم يبق شيء يدور عليه اسم وحرف إلا وقد رجع فيه الضمان ما خلا الماء[2].

المصروفات :

تعددت أنواع المصروفات لدولة بني مهدي وأغراضها، كما تنوعت أهدافها وأساليبها فشملت مرتبات الموظفين والجند[3]، وذلك بعد وفاة علي بن مهدي[4]، أي في عهد أبناءه مهدي بن علي وعبدالنبي بن علي بن مهدي.

وكذلك إنفاق الأموال الطائلة على تسليح الجيش لأغراض الحرب والقتال، نظرًا لكثرة المواقع الحربية بين دولة بني مهدي وكثير من البلدان اليمنية وقراها، ورغبة بني مهدي في إخضاعهم عسكريًا. فشملت المصروفات شراء السلاح وشراء الحصون وتجديدها، كما شملت مكافآت الجند بعد الانتصار في المواقع الحربية المختلفة[5].

المعاملات المالية :

استخدمت في زبيد عدة أنواع من العملات ضربت من معادن الذهب والفضة والنحاس منها

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص١٠٥.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٨.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٢٧.

(٤) كان علي بن مهدي يتبع نظام ملكية الدولة لكل ما يحتاجه الجندي من سلاح وعتاد، والدولة تقوم بكفاية الجندي بكل ما يحتاجه من غذاء وملابس له ولأسرته وأهله. عمارة : المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٥) عمارة : نفس المصدر، ص١٣٣.

العملات الكبيرة، وهي الدينار والدرهم الكبير، ومنها العملات الصغيرة وهي الدرهم الصغير والفلس، فضرب الفلس والدرهم والدينار، وكان يضرب الدرهم على عدة أجزاء منها الدرهم الكامل ويسمى الدرهم الكبير[١]، ونصف الدرهم وربع الدرهم ويسمى الدرهم الصغير، كذلك ضرب الدينار على عدة أجزاء منها الدينار الكامل ذهبًا ويسمى الدينار الكبير أو المثقال، وضرب منه نصف الدينار، وثلث الدينار، وربع الدينار، ويسمى الدينار الصغير، ويزن الدينار مثقالاً من الذهب أي ٤,٢٦٥ من الجرامات أو ٧٢ حبة من الشعير[٢].

وتنسب العملة إلى الشخص الذي ضربها، فوجد في زبيد " الدينار السعيدية " نسبة إلى سعيد الأحول بن نجاح[٣]، و" الدنانير الملكية " نسبة إلى الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي[٤].

كما راجت في الأسواق الدراهم الفضية وكانت تعرف بالدراهم العباسية[٥]، بجانب الدراهم الفضية لعبد النبي بن مهدي آخر حكام دولة بني مهدي[٦]، وكل هذه العملات ضربت بدار الضرب بزبيد لكونها العاصمة ومركزًا للحكم[٧].

فضرب " الدينار الملكي " بزبيد سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م[٨] نسبة إلى المكرم أحمد بن محمد الصليحي وكتب عليه :

في أحد وجهيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله.

في الوجه الآخر : الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين[٩].

درهم عبدالنبي مهدي : ضرب في زبيد عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وهو ثاني درهم يضرب

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

(٢) سيدة إسماعيل الكاشف : دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥م، ص٦٦، ٦٧.

(٣) حسن سليمان محمود : الصليحيون في اليمن، ص٥٠.

(٤) عمارة : المفيد، ص١٣٥.

(٥) يحيى بن الحسن : غاية الأماني، ج١، ص٣٨٨.

(٦) أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة ضرب زبيد ٥٦٦هـ في زمن عبدالنبي بن مهدي، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الأول، ٢٠٠٥م، ص١.

(٧) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٩٠.

(٨) عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٩) محمد أبو الفرج العش : المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٥م، ص٢٦٢؛ مجلة الإكليل، عدد ٥ سبتمبر ١٩٨١م، ذو القعدة ١٤٠٤هـ، ص٤٣.

في زبيد خلال فترة حكم عبدالنبي بن مهدي، بل خلال فترة حكم الأسرة على مدة خمسة عشر عامًا وثلاثة أشهر (٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م) ووجد هذا الدرهم في حالة لا يمكن وصفها بأنها جيدة[1]، وكتابته على درجة كبيرة من الوضوح، وبه زخارف قليلة تتمثل في وجود دائرتين مفرغتين في أعلى مركز الوجه تحفان بحرف (ع) وكذلك أربع دوائر أخرى مطموسة تقع في أسفل مركز الظهر تحت كلمة الإسلام، أما حرف العين الواقعة بين الدائرتين الأوليين ويعتقد أنها كانت ترمز للحرف الأول من اسم عبدالنبي بن مهدي نفسه، أو اسم الضراب، أو متولي السكة في زمانه وهو طراز فريد، ويختلف في كثير من الوجوه من طراز الدراهم اليمنية المضروبة قبله وأيضًا عن تلك التي ضربت بعده ويقرأ على النحو التالي[2] :

الوجه : تقع كتاباته داخل دائرتين متوازيتين.

المركز : دائرة بداخلها الكتابات الآتية :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

علي ولي الله

الهامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بزبيد سنة ست وستين وخمسمائة.

الظهر : تحيط بكتاباته دائرة بداخلها.

المركز : دائرة بداخلها الكتابات الآتية :

الإمام

شمش

شريعة

الإسلام

الهامش : لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

الوزن : ١,٦١ جرام

---

(١) هذا الدرهم من الدراهم النادرة التي تحتفظ بها مؤسسة النقد العربي السعودي وينشر عنه لأول مرة. أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد عام ٥٦٦هـ، ص٢. رقم تصنيف الدرهم في المؤسسة هو م٣/ح/٧/٢٤.

(٢) أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد عام ٥٦٦هـ، ص٢.

القطر : ـــ

" الدراسة التحليلية للدرهم " وتتضمن قضيتين[1] :

القضية الأولى : ما يعتقده كثير من أن بني مهدي على مذهب الخوارج وتعارض هذا الاعتقاد مع عبارة " علي ولي الله " التي تظهر بجلاء على وجه هذا الدرهم.

القضية الثانية : ظهور " لقب الإمام شمس شريعة الإسلام " في مركز الظهر وهذا يفتح نقاشًا حول حقيقة لم تكن واضحة كثيرًا في المصادر التاريخية ونادرة في البحوث والدراسات الحديثة، وذلك أن نظام دولة بني مهدي، هل كان إمامه أم خلاف ذلك.

فبالنسبة للقضية الأولى، وهي أن بني مهدي كانوا على مذهبهم " الخوارج " ومن المعلوم أن نشأة الخوارج وأصل تسميتهم في سبب خروجهم على طاعة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حينما قبل التحكيم الذي عرضه عليه خصمه معاوية بن أبي سفيان، وكانوا من أشد الناس خصومة للإمام علي وأكثرهم حربًا وعداوة له[2]، فكيف نوفق بين القول بأنهم خوارج، وبين عبارة (علي ولي الله) التي تظهر بوضوح في السطر الثالث من مركز الوجه في هذا الدرهم، وهي عبارة تؤيد أحقية الإمام في خلافة رسول الله (ﷺ) عند أصحاب الرأي، وتتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج في الإمامة وهو " لا حكم إلا لله "[3].

ومن أقوال عمارة اليمني الذي كان معاصرًا لفترة بني مهدي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م) أنه لم يذكر كلمة خوارج في وصفه لمذهب بني مهدي، وإنما قال أن علي بن مهدي على مذهب أبي حنيفة في الفروع، ولكنه يكفر بالمعاصي ويقتل من يرتكبها[4].

ويلي عمارة في ذكر مذهب ابن مهدي الجندي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) الـي أتى على تفاصيل كثيرة مما ذكرها عمارة دون أن يذكر أنه أو أحد أبنائه كان خارجيًا، وإنما خلص إلى قول : " وبالجملة فكان علي بن مهدي ممن يسعى في الأرض فسادًا ودلائل ذلك ظاهرة "[5].

---

(١) الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد ٥٦٦هـ، ص٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م٣، ص٢٠٢.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق، والمجلد، ص٢٠٤.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٥.

(٥) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩.

أما عن لفظة خارجي فعند الخزرجي[1] في مخطوطة العسجد المسبوك، وسار على سيرته ابن الديبع الشيباني[2] في القول بخارجية ابن مهدي في الأصول دون أن يذكر صراحة المعنى الذي نعرفه عن طائفة الخوارج، والذي يعد التكفير بالمعاصي والقتل سمة اشتهروا بها[3].

وهناك من المؤرخين لم يعرض لمذهب ابن مهدي، ومنهم ابن سمرة الجعدي[4] وهو معاصر لدولة بني مهدي، ولد عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وتوفى ٥٨٦هـ/١١٩٠م. كذلك سليمان بن يحيى الثقفي، وهو معاصر أيضًا لتلك الأحداث حيث ولد عام (٥٣٢هـ-١١٣٧م/٥٦٦هـ-١١٧٠م) وهو مؤلف سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، فلم ينعت ابن مهدي بمذهب الخوارج وإنما نعته بالقرمطي ويصف ما هو عليه بأن ظاهره النسك والزهد وباطنه الزندقة والباطنية[5].

وهكذا يتضح من أقوال المؤرخين أنهم لم يذهبوا إلى أن بني مهدي على رأي الخوارج وأنهم تبرأوا من عثمان وعلي رضي الله عنهما، وإنما هم سلكوا مسلك الخوارج في الأصول من التكفير بالمعاصي لمن يخالفهم واستحلال دمائهم ونسائهم وأموالهم.

وبعد اكتشاف هذا الدرهم، الذي يمثل وثيقة رسمية مباشرة لدولة بني مهدي وما يشتمل عليه من عبارة (علي ولي الله) تتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج وتؤكد أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة[6]، ولعل التفسير الوحيد لتوضيح ذلك أن علي بن مهدي مؤسس الدولة كان على مذهب الخوارج وابنه مهدي من بعده أما عبدالنبي وكان آخر حكام هذه الدولة والذي سك في عهده هذا الدرهم كان على مذهب الفاطميين.

القضية الثانية : وهي ظهور لقب " الإمام شمس شريعة الإسلام " في مركز الظهر دون ذكر اسم هذا الإمام أو صفته، ودون ذكر لاسم الأمير أو السلطان الذي سك هذا الدرهم في عهده، كما هي عادة الأمراء والسلاطين والوزراء في وضع أسمائهم جنبًا إلى جنب مع أسماء الأئمة أو الخلفاء الذي تضرب السكة بأسمائهم، فمن هو هذا الإمام الملقب بشمس شريعة الإسلام ؟

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٧٠.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦.

(٣) الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد ٥٦٦هـ، ص٣، ٤.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٣، ٢٣٣.

(٥) الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٢.

(٦) الزيلعي : المرجع السابق، ص٥.

الأئمة أو الخلفاء في ذلك الوقت ثلاثة، أولهم الخليفة العباسي المستنجد بالله أو المستضيء بالله في بغداد، والثاني الإمام العاضد بالله خليفة مصر الفاطمي في القاهرة المعزية، والثالث الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان إمام الزيدية في شمال شرق اليمن، ومن المؤكد أن الإمام شمس شريعة الإسلام ليس من هؤلاء الثلاثة لأسباب منها :

١- أن لكل إمام لقبه المعروف به وليس من بينهم من لُقِبَ بشمس شريعة الإسلام الذي يظهر لأول مرة على السكة الإسلامية[١].

٢- أن أيًا من هؤلاء الأئمة لثلاثة لم يعترف بدولة بني مهدي، ولم يفوض أيًا من حكامها الأربعة حكم ما تحت يده من البلاد[٢]، فقد كان هؤلاء الأئمة يضمرون العداء لبني مهدي لتعارض مصالحهم مع وجود هذه الدولة التي اتسع نفوذها وقويت شوكتها في ذلك الوقت وبالتالي تهديد مصالحهم في منطقة اليمن[٣].

وعلى ذلك فإن هذا اللقب لعبد النبي بن مهدي، فهو ووالده وأخوته كانوا يتصرفون على أنهم أئمة أو خلفاء ولم يعترفوا بإمامة غيرهم من أئمة زمانهم، ومن دلائل ذلك اعتقاد عمارة اليمني وابن سمرة الجعدي من أن عبدالنبي بن مهدي كان يعرف على ألسنة العوام بالسيد والإمام[٤]، ويعتقد فيه ما يعتقد في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين[٥].

كما يذكر ابن خلدون وهو أكثر تفصيلاً حينما يقول : " وكان يخطب له بالإمام المهدي أمين المؤمنين، وقامع الكفرة والملحدين "[٦].

ومن الشواهد الشعرية بتلقب بني مهدي بلقب الإمامة أو الخلافة ما قاله الشاعر محمد بن عمر بن محمد العمراني (٥٢٥-٥٧٢هـ/١١٣٠-١١٧٦م)[٧] :

وضحت شموس الحق بعد أفولـه ... ورست هنالك قاعداتُ أصوله
أحيا الإمام دماءه بسيوفه ... ورماحه وبرَجْله وخيوله

---

(١) الزيلعي : دولة بني مهدي، ص٦، ٧.
(٢) الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣٣-٢٣٦.
(٣) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١٥٠-١٥٦.
(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٣.
(٥) عمارة : المصدر السابق، ص١٥٦.
(٦) ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠.
(٧) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٩٣.

كما قال الشاعر ابن الهبيني[1] (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م) :

سير الأنام قديمها وحديثها	أشهر من لماء الزلال على الظمأ
فاليوم يحتج الخليفة بعده	شبلية سبطية اللذين إليهما
فرح القلوب وروضة المتنزه	وألذ من عصر الشباب الأمره
بالقائمين الهادين وزهرة	شرف الإمامة والخلافة ينتهي

ويتجلى مما سبق أن نظام الحكم لدى بني مهدي كان يمثل إمامة مستقلة، وزعماء هذه الدولة تلقبوا بلقب " إمام " وأيضًا بألقاب " السيد الإمام " و" السيد المهدي "[2].

بيان بالعملات وما يساويها في دولة بني مهدي[3] :

الدينار الذهبي	:	يساوي أربعة دنانير ونصف.
الدينار	:	يساوي أربعة دراهم.
الدرهم	:	يساوي أربعة وعشرين فلسًا.
الفلس	:	يساوي أربعة دواس.

فكانت النقود الذهبية تمثل العملة الرئيسية في المعاملات والصفقات التجارية الكبيرة، والنقود الفضية تجرى بها عمليات البيع والشراء في الأسواق الداخلية لزبيد لاسيما السلع الغذائية، والنقود النحاسية أو الفلوس[4] بمثابة الوحدات النقدية المساعدة وتستخدم للتعامل في الأمور الصغيرة، كأن يشتري أحدهم رغيف خبز بفلس أو قطعة حلاوة بأربعة فلوس.

وعرف نظام الدفع بالأجل[5] في المعاملات المالية في زبيد، فكان بإمكان التاجر الصدوق أن ينال الثقة لدى التجار الكبار، فيأخذ ما يشاء من البضائع دون مال حتى يبيع ثم يسدد ما عليه من أثمان البضائع من عملية البيع طالما لا يستطيع الدفع نقدًا، وأحيانًا يقوم هؤلاء الباعة الصغار بدفع ما عليهم من ديون لتجار الجملة بالتقسيط ويحدد يوم معين من أيام الأسبوع، يتم الاتفاق عليه بين الطرفين موعدًا للسداد، وشاعت هذه الطريقة في بيع صفقات التمور.

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٦.

(٢) ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٠.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٩.

(٥) غيثان علي : تاريخ تهامة والسراة، ص٣٨٦.

الموازين والمكاييل والمقاييس :

اختلفت الموازين والمكاييل في زبيد من منطقة إلى أخرى، بل ومع غيرها من المدن المجاورة، فمثلاً معيار وزن سنجة زبيد أقل من سنجة عدن بشيء يسير[1]. كذلك اختلفت الموازين والمكاييل من زمن إلى آخر، كما اختلفت الموازين والمكاييل ووحدة القياس من سلعة إلى أخرى من حيث نوع السلعة من حيث الصلابة والسيولة والعد، وسميت باسم الوعاء الذي يحتويها، فمثلاً كان السمن يقاس " بالجَمّنَة " والشيريج " بالجرة " وهما الوعاءان أو الظرفان اللذان يحفظ بهما السمن والشيريج لسيولتهما[2].

ومن ضمن الموازين والمكاييل والمقايس في زبيد الآتي :

الموازين : استخدم " الرطل "[3] و" المن " و" الزبدي " لوزن بعض السلع، واستخدم "البهار" لوزن بعض السلع مثل الفلفل والهيل والكتان، والبهار يساوي ثلثمائة رطل[4]. واستخدمت " الفراسلة "[5] لوزن بعض السلع مثل الكافور والزعفران والقرنفل.

المكاييل : تعددت أنواع المكاييل وأسمائها التي استخدمت في زبيد في التعامل مع الحبوب والغلال والتمور ومنها " المد " واستخدم لكيل بعض السلع مثل أنواع الغلال والتمور وكان المد يساوي ٣٢ ثمن والثمن ٣٢ زبدي، والزبدي مَنْ والمن رطلين، والرطل ١٢٠ درهم والدرهم ١٣ قيراط[6].

كما استخدم في المكاييل الربيعة، الأوقية، والوساق، والوساق يساوي ٦٠ صاعًا، والصاع أربعة أمداد، والمد ٣٢ ثمن، والثمن ١٠ أصيع، والصاع يساوي ربيعة، ثم صار يساوي أربع ربيعات، والربيعة ١٨ أوقية، والصاع يساوي ٧٢ أوقية[7]، ووجد للصاع وزنين أحدهما ـ ٥ أرطال وهو المستعمل في سوق زبيد والآخر يزيد ٨ أرطال ويستعمل لكفارة اليمين.

---

(١) السنجة : سبخة الميزان، ما يوزن به كالرطل والأوقية. ابن منظور : لسان العرب، م٧، ص٢٧٠.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد أهل اليمن، ص٨٩، ١٤٤.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٨، ٩٩. الرطل المستخدم لدى أهل زبيد هو الرطل البغدادي.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٩.

(٥) الفراسلة : تزن عشرون رطلاً. حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص١٢٨.

(٦) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص٨٩، ١٤٠، ٤٤١. وحدد ابن المجاور الأوقية بـ ٢١ درهم.

(٧) الأهدل : كشف القناع في أحكام الزراع، ص١٥٣، ١٥٤.

وهذا جدول توضيحي لذلك :

" مقدار المد وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله		
المد[1] =	٣٢ ثمن =	الثمن = ٣٢ زبدي	الزبدي = رطلين الرطل = ١٢٠ درهم لدرهم = ١٣ قيراط

" مقدار الوساق وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله		
الوساق[2] =	٦٠ صاعًا	الصاع = ٤ أمداد	المد = ٣٢ ثمن الثمن = ١٠ أصيع

" مقدار الصاع وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله	
الصاع[3] =	ربيعه ثم صار يساوي ٤ ربيعات	الربية = ١٨ أوقية

المقاييس :

وكانت أهم وحدات قياس الأطوال المستخدمة في أسواق زبيد هي الذراع[4] : ويختلف طوله حسب نوعه فهناك الذراع اليدوي الذي يستخدم كوحدة قياس في بيع وشراء الأقمشة كالبرود وشقق الحرير ويتراوح طوله ما بين ٤٨,٥٤ سم إلى ٥٠,٣ سم. والذراع الحديدي، وكان يستخدم في قياس وبيع ألواح الساج وأيضًا بعض الأقمشة كالبز وطوله حوالي ٥٨,١٨٧ سم.

---

(١) المد : مكيال من معدن النحاس الأصفر وهو ملئ كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه يسمى مدا. سامح عبدالرحمن فهمي : المكاييل في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٠، ٣١، ٥١.

(٢) الوساق أو الوسق : هو حمل بعير. ابن منظور : لسان العرب، ج١٥، ص٢١٢.

(٣) الصاع : مكيال من معدن النحاس الأحمر. سامح عبدالرحمن : المرجع السابق، ص٥١.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

كما استخدم في القياس المعاد لقياس مساحات الأراضي الزراعية[1]، كما عـرف الميـل لتقدير مسافات الطرق بين زبيد والبلدان اليمنية الأخرى، بل ومعرفة المسافات بين زبيد وطـرق التجارة البرية وطرق الحجيج[2].

وهناك وحدات أخرى متعددة في القياسات منها استخدام العد لبعض السلع القابلـة للعـد، واستخدام كل من الكلمات الآتية كوحدة قياس وهي " قطعة " و" قفة " و" كورجة "[3]، فالذرة تقاس بالقفة، والقماش يعد بالقطعة، والكورجة عشرون قطعة من أي ثوب.

وبعض السلع توزن بعدة معيارات مثل السمن الذي يوزن بالرطل والمَنّ، ويقاس بالظرف الذي يُعبأ به، والحرير يوزن بالمَنْ ويقاس بالذراع، ويُعد بالقطعة[4].

وهناك بعض المعيارات تستخدم كوزن وكميكيال مثل السمن والزبدى والأوقية ففي الوزن يساوي مَنْ والمن يساوي رطلين. وفي المكيال الربيعة الزبيدية تساوي ثمانية عشر أوقية والمـد يساوي ربيعة[5].

وهكذا تنوعت وحدات القياس حسب نوع السلعة في الأسواق.

معوقات التجارة :

رغم النشاط التجاري الذي شاهدته زبيد، فإن نشاطها تأثر سلبًا بـبعض المعوقـات ومـن الملاحظ أن هذه المعوقات لم تلق بظلالها على التجارة فقط، بل أيضًا على جوانب أخـرى مـن الأنشطة في تلك المنطقة، ومن أهم هذه المعوقات :

١- المناخ الحار وارتفاع درجة الحرارة في زبيد، يعرقل حركة النقل والتجـار، ويقلـل حركة الإنتاج، وينشر الأمراض في بعض الأوقات من السنة.

٢- حروب بني مهدي العديدة والمتكررة، أثارت الخوف في نفوس التجار في زبيد ومـا يجاورها من المدن الأخرى والقبائل التي تنزح إليها من الجبال، وذلك خوفًـا علـى حياتهم وتجارتهم لغياب الأمن في زبيد في كثير من الأحيان.

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص١٣.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣٣٨، ٣٤٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٩.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٥) الأهدل : كشف القناع في معرفة أنواع الزراع، ص١٥٤.

٣- تهديد طريق التجارة والحج وهو الطريق البري الذي يبدأ من زبيد وينتهي في مكة فقطاع الطرق واللصوص يهددون التجار والحجاج من بلادهم إلى بلاد الحجاز، فأحيانًا يعتدون عليهم وأحيانًا أخرى يقتلونهم ويأخذون أموالهم[١].

٤- صادر أمير مكة مالك بن فليته أموالاً للتجار الذين قدموا من زبيد واليمن إلى جدة عن طريق البحر الأحمر[٢] وذلك سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م في شهر ذي القعدة، فكان في ذلك الوقت أمراء مكة وخاصة الهواشم يلعبون بمصالح البلاد والمسلمين جريًا وراء المال، حتى أنهم لم يتورعوا عن نهب التجار من أهل البلاد والحجاج، مما أدى إلى حدوث بعض الأزمات[٣].

وعلى الرغم من وجود معوقات للتجارة، إلا أن مدينة زبيد كان لها مكانتها التجارية وتعددت نشاطاتها الداخلية والخارجية، وكان لها دور ملموس في تنشيط الحركة التجارية في اليمن وشبه الجزيرة العربية.

---

(١) غيثان بن علي : تاريخ تهامة السراة، ج١، ص٣٩٤.

(٢) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص٢١١.

(٣) عطية عبدالعزيز : المرجع السابق، والصفحة.

الفصل الرابع

الأحوال الاجتماعية
عهد دولة بني مهدي في اليمن

الفصل الرابع
الأحوال الاجتماعية عهد دولة بني مهدي في اليمن

عناصر السكان :

تعددت العناصر التي تكون منها المجتمع الزبيدي، أهمها القبائل العربية التي شكلت الغالبية العظمى لسكان اليمن، وإلى جانبهم استقرت عناصر أخرى متعددة، منهم الأحباش والفرس وغيرهم.

القبائل :

لم تتغير الحياة القبلية في اليمن بعد الإسلام؛ فالقبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع اليمني، وهي التنظيم البدائي الذي يقوم على رابطة الدم والقربى والسلطة الأبوية حيث تتكون القبيلة من عشائر وعائلات وأسر، وهي دائمًا ما تتمرد على السلطة ولا تخضع إلا عن ضعف أو مصلحة، وسبب وجود ظاهرة القبيلة وأهميتها، يرجع إلى أن طبيعة اليمن لا تحتمل وجود جماعات بشرية كبيرة تمتد لمسافات طويلة، فتسكن القبيلة الواحدة عدة قرى متجاورة داخل زبيد وخارجها، مرتبطة بالأرض بهدف الزراعة والرعي[(١)].

اقتضى وجود نظام القبيلة احتياج الإنسان للعيش في جماعة والتوحد في كيان أكبر يكون قادرًا على توفير الأمن والطمأنينة وحماية مصالح أفراد القبيلة في مواجهة القبائل الأخرى[(٢)].

وسميت المناطق في زبيد واليمن بأسماء القبائل وأهمها حِمْيَر وكَهْلان ويتفرع منها عدة بطون، وممن سكن زبيد من حمير قبائل خَوْلان[(٣)]، وأما كهلان فمن أهم بطونها هَمْدان[(٤)] والتي انقسمت إلى بكيل وحاشد وتفرعت إلى قبائل كثيرة في أنحاء اليمن ومن أهمها الأَزْد[(٥)] التي سكنت زبيد مع هَمْدان وانتشرت في أنحاء ربوعها.

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١١، ١٢.

(٢) أحمد الحاج : وهم القبيلة وخداع السياسة في اليمن، مجلة الحكمة، العددان ٢٢٤-٢٢٥، ٢٠٠٣م، ص٢٢.

(٣) خَوْلان : من القبائل اليمنية الكبرى، وهي ثلاثة أقسام (١) خولان صنعاء، (٢) خولان صعدة، (٣) قضاعة. ياقوت : معجم البلدان، م٢، ج٣، ص٢٦١؛ المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٢٢٢.

(٤) هَمْدان : هي من أمنع القبائل الكهلانية اليمنية وأكثرها عددًا، وتحتل رقعة واسعة من اليمن تبدأ من شمالي صنعاء وتنتهي بصعدة شمالاً ومن مأرب شرقًا إلى البحر الأحمر غربًا. وتأخذ قبيلة بكيل القسم الشرقي من هذه الرقعة، بينما تأخذ قبيلة حاشد القسم الغربي. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص٦٨١.

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٣، ج٥، ص٣٤.

Kay : Yaman; its Early Medieval History, London, 1882, pp. 215-218.

كما سكن زبيد واستقر فيها قبيلة الأشعر(١) " الأشاعرة " وهي قبيلة مشهورة من ولد الأشعر ابن أدد الذي ينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ، ومساكنهم شمال شرق زبيد في " القحمة " والتي شاركهم فيها قوم من خولان وهمدان(٢). كما خالط الأشاعر في زبيد جزء من قبيلة بني واقر من ثقيف، وقد سيطر على كثير من القبائل في زبيد واليمن صراع حربي متعدد في أغراضه وأسبابه، منها الصراع حول السيادة والسلطة بمحاولة بعض القبائل والسيطرة على القبائل الأخرى سياسيًا إما السيطرة على أراضيهم الزراعية أو بسبب العداوات القديمة القائمة فيما بين القبائل وبعضها البعض(٣).

ومن القبائل التي تطلعت للسلطة قبيلة همدان، التي استغلت بطونها الكثيرة خاصة في صنعاء(٤)، واستولت على السلطة فيها وخلعوا على أنفسهم لقب السلطان، وتداولت السلطة بين ثلاث أسر، هم بنو حاتم المغلس وبنو القبيب وبنو اليامي(٥)، وأصبح الهمدانيون يمثلون قوة سياسية في ظل حكم السلطان حاتم اليامي (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م)(٦) يسيطرون على مناطق من شمال اليمن بصورة مستقلة متحالفين مع الزيديين في صعدة، وبنو زريع في عدن في محاربة دولة بني مهدي في زبيد، وذلك على الرغم من اختلاف دولة الهمدانيين مع الأئمة الزيديين مذهبيًا، ولكنهم كانوا على اتفاق مع دولة بني زريع في مذهبهم الإسماعيلي(٧).

---

(١) اسم الأشعر " النبت " وسُمِّيَ بالأشعر لأنه ولد على ذراعيه شعر، وهو أخو مذحج وطيئ ومُرَّة جد كندة. القرطبي : التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، تحقيق : سعد عبدالمقصود ظلام، ص١٩٨.

(٢) ابن الديبع : فضائل اليمن وأهله، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم رقم ١١٦٢، ق٤، ١٠؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٤، ج٧، ص٢٢.

(٣) الهمداني : الإكليل، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، تحقيق : محمد الأكوع، ج١، ص٢٠٨، ٢٠٩، ج٢، ص١١٩.

(٤) تسكن بطون كثيرة من همدان في المنطقة الممتدة من شمال صنعاء إلى صعدة. إيمان أحمد شمسان : اليمن في العصر العباسي الأول، دار الثقافة العربية للنشر، جامعة عدن، ٢٠٠١م، ص٥٤.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ص٢٩٧ ؛
Smith : The Political history of The is Islamic Yemen, p. 134.

(٦) يحى بن الحسين : المصدر السابق، ص٣١٤.

(٧) R.B. Searjant and Ronald : Sana and Arabian Islamic city, world of islam Festival trust, 1983, p. 50.

اعتمدت بعض القبائل في بسط سلطانها على المذهب الديني[1]، ويتضح ذلك جليًا في دولة بني مهدي (٥٣٣-٥٦٩هـ/١١٣٨-١١٧٤م)، فهي دولة قبلية ذات مذهب حنفي الفروع[2]، وكون ابن مهدي قبليًا ويعرف طبائع القبائل، أراد من خلال دعوته الدينية أيًا كان مذهبه، من السيطرة على القبائل ليقود بتحالف منهم دولته، حيث خرجت معه بعض بطون خولان وأهل الجبال، وكان على علم بنزعتهم الانفصالية فشدَّد على طاعتهم له طاعة عمياء باسم الدين[3]، فكان ذلك يمثل خطرًا من القبيلة على الدولة أيًا كانت قبلية أم مذهبية.

ودان لدولة بني مهدي خمس وعشرون دولة من أهل اليمن[4]، وهذا ما يؤكد أن كل دول قبيلة صغيرة تمثل بطونًا صغيرة لها حكومتها المحلية وقوانينها الخاصة الاقتصادية والمذهبية التي تعتمد عليها في استقلالها السياسي، أي أنها دولة داخل دولة، ويعتبر هذا النظام امتدادًا لنظام الأقيال والأذواد الذي كان متبعًا في اليمن قبل الإسلام[5].

ومن العوامل التي أدت إلى استمرار هذا النظام، العامل السياسي ويتمثل في غياب دولة مركزية واحدة قوية، وضعف الدويلات القائمة في أحيان كثيرة وعدم الاستقرار لفترات تاريخية طويلة نتيجة للحروب والتمردات بين الدويلات والطوائف الدينية المختلفة، مما دفع رجال القبائل إلى الاحتماء بالعصبية القبلية والتضامن القبلي للدفاع عن أنفسهم واللجوء إلا الأعراف لحل مشاكلهم اليومية، كما أن الأئمة والحكام الطامحين إلى السلطة غالبًا ما كانوا يلجأون إلى طلب الدعم القتالي من رجال القبائل،

---

(١) قال ابن خلدون : " الصبغة الدينية (لأي مذهب ديني) تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ". المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٥٨.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٦.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص١٢١، ١٢٢.

(٤) وهي مدينة ذي جبلة، مقر الدعوة الفاطمية، مدينة الجند وأعمالها، ثالبة وشرياق، وذخر وأعمالها، وملك بني الزر، مدينة ذي أشرق، ومدينة إب، إقليم المعافر وحصونه سامع ومطران، بلاد بني المظفر سبأ بن أحمد الصليحي، إقليم حراز، برع، بلاد بكيل، بلاد حاشد، ووادي عنه، ووادي زبيد، ووادي رمع، ريمة، والأشاعر وحصونها ومعاقلها وقراها، والمذيخرة وأعمالها، ووادي نخلة، ودمت، ووحاظة وأعمالها، وحصون خولان وبني ربيعة. عمارة : نفس المصدر، ص١٥٤، ١٥٥.

(٥) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م، ص٣١.

وأكثر ما ينطبق هذا على المناطق الشمالية والشرقية من البلاد[1].

كما يظهر لنا جليًا آفة التحاسد والتنافس والإنقسامات الداخلية بين القبائل اليمنية في جميع أنحاء اليمن[2]، التي أتت بالغرباء ليحكموا البلاد ــ متمثلين في الدولة الأيوبية ــ بالقوة فأصبح اليمن شبه موحد، يخضع لسيطرة الأيوبيين سياسيًا واقتصاديًا[3].

العناصر الأجنبية :

استقر بزبيد بجانب سكانها الأصليين عناصر أجنبية متعددة منها الفرس، والأحباش، وأهل النوبة، والبجة[4] والسلاجقة وغيهم ... فوجد في زبيد جماعات من الأبناء وهم بقايا أبناء الفرس المستولدون في اليمن[5].

وحاولت جماعة الأبناء أن تحافظ على وجودها في زبيد، بل كل أرجاء اليمن وذلك بأن اهتموا بالتجارة وأصبح لا يعنيهم الحكم أو السلطة، فكونّوا الأموال العظيمة وقام بعضهم بالأعمال الخيرية كبناء المساجد[6].

كما استقر في زبيد الكثير من الأحباش والنوبيين والبجة، جُلُبوا إليها كجند أو رقيق[7] وذلك

---

(١) قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠م، ط١، ص٢٠٩.

(٢) يذكر ابن خلدون : " أن العرب أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم ". المقدمة، ص١٥١.

(٣) Smith : The Political history of the Islamic yemen, p. 132; The Ayyubids and Rasulids the Transfer for Power in 7th / 13th Century yemen, Islamic clture, vol. xliii, No. 2, 1969, p. 175.

(٤) البُجة : بضم أولها، وهم يضمون قبائل البشارية الآن، وبلادهم على سواحل البحر الأحمر مما يلي صحراء عيذاب إلى بلاد الحبشة، تزوجوا وصاهروا من العرب ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم بالعرب واشتدت شوكة العرب بهم بعد الإسلام، على من ناوأهم وجاورهم من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار. وتتميز بلادهم بأنواع الزمرد الأخضر النفيس ومعادن الذهب. المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ط١، ج٢، ص١٥؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨؛ أمين واصف بك : معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٢.

(٥) Yosef Tobi : The Jews of Yemen, Leiden, 1999, p. 34.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤٧.

(٧) عمارة : المفيد، ص٩٧.

لموقع بلادهم القريب من بلاد الحبشة، ونشب الصراع بين العناصر الثلاثة في زبيد منذ القرن الرابع الهجري ولكنه حُسِمَ لصالح الأحباش أو النجاحيين الذين كانوا عبيدًا لآل زياد وبمجرد أنهم تسلموا السلطة صبّوا جام غضبهم على من حولهم من الأجناس الأخرى حتى العرب أنفسهم[1]، فكانت هذه الدولة " حبشية بكل ما تعني هذه الكلمة من معان، حبشية بسلاطينها، وحبشية بوزرائها، وحبشية بجنودها وعدتها، وحبشية بنظامها وتقاليدها "[2]، فقضت على المعارضين لها ومنهم الحسين بن سلاّمة الذي خلف آل زياد في الحكم والذي كان نوبي الأصل[3].

واستمدت دولة بني نجاح في زبيد قوتها من الأحباش الذين استوطنوا اليمن منذ القدم مهاجرين وغازين وكذلك من خلال الهجرة المباشرة بعد الإسلام إلى اليمن فقد أراد نجاح مؤسس الدولة النجاحية أن يرتكز على عصبية من السود تُعَضِدُ دولته مثلما كانت الدولة القبلية في اليمن تعتمد على العصبية، حيث استكثر منهم واسكنهم في مدينة خاصة بهم وهي مدينة حَيْس[4] القريبة من زبيد والتي لم يكن فيها بيت من العرب[5]، وأصبحت وحدة إدارية تتبع ولاية زبيد منذ عهد النجاحيين (٤١٢-٥٥٤هـ/٢١-١٠٢٢-١١٥٩م) وحتى نهاية دولة بني مهدي (٥٦٩هـ/١١٧٤م)[6].

كما كان النجاحيون يجلبون الأحباش من الحبشة لاستخدامهم في الحرب، ومن ذلك أن سعيد الأحول النجاحي أرسل إلى الحبشة لشراء عدد من الجنود يجيدون فن الرمي بالحراب فاشتروا له عشرين ألف منهم، لذلك كان الأحباش في عهد النجاحيين هم أهم الجند المدافعين عن زبيد وأعمالها، وأصبحت السيطرة الفعلية في زبيد وتهامة بأيديهم بجانب توليهم إمارة الدولة[7]. ثم ما لبث النزاع بين أبناء جياش بن نجاح بعد وفاته سنة ٤٩٨هـ/١١٠٦م، وتحالف بعضهم مع أعدائهم من الصليحيين الذين كان بينهم وبين النجاحيين حروب كثيرة، فأصبح الطريق ممهدًا لعلي

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤٧.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨٥.

(٣) الكبسي : اللطائف السنية، ص٢١.

(٤) حَيْس : بلد من نواحي زبيد باليمن، وتبعد عن زبيد ٣٥ كم إلى الجنوب وهي نسبة إلى الحيس بن ذي رعين بن حمير. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ج٣، ص٢٠٤.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٦) عبدالله عبدالسلام الحداد : مدينةحيس اليمنية (تاريخها وآثارها الدينية)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ط١، ص٥١.

(٧) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٧، ٧٨، ٩٢.

ابن مهدي فقضى على الدولة الحبشية النجاحية في زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[١]، ولكن ظلت آثارها الاجتماعية في زبيد متمثلة في بعض الصفات الجسمية والشكلية، وبعض أنماط المعيشة[٢]، وفي ذلك أورد عمارة قول : " اعلموا أن عرب التهائم يستولدون الجواري السود "[٣].

كما استقر بزبيد جماعات من الغز السلاجقة[٤] منذ عهد الدولة النجاحية، التي استعانت بهم لتدعيم جيشها في تصديها مع الصليحيين، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف وأربعمائة فارس، لم يبق منهم سوى أربعمائة فارس، استمروا في خدمة النجاحيين وأولادهم فترة طويلة، تم منحهم خلالها وادي ذوآل إقطاعًا لهم[٥]. وهكذا اختلطت هذه العناصر الأجنبية جميعًا في المجتمع الزبيدي واليمني وذاب أكثرها بفعل عامل الزمن[٦].

أهل الذمة :

أولاً : النصارى :

سكن النصارى اليمن ولهم فيها تاريخ طويل قبل الإسلام، وكانوا بعد الإسلام يزاولون أعمالهم في حرية كاملة ويدفعون الجزية[٧]، إلا أن أعداد النصارى الذين سكنوا اليمن في العصور الوسطى بدأ في التناقص بسبب اعتناق الإسلام أو الهجرة إلى جوار إخوانهم في الدين خاصة تلك الجماعات النصرانية التي لا ترتبط بعصبية في البلاد[٨]؛ فكانوا قليلين في مدن اليمن الداخلية، بالمقارنة مع تواجدهم في المدن التجارية والبحرية حيث إنهم شاركوا في تجارة زبيد وتجارة عدن التي جذبت الكثير من الأجناس ذات الملل والأديان المختلفة سعيًا وراء التجارة التي ازدهرت فيها منذ أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فقد كان المسلمون مع النصارى قبل هذا التاريخ يشاركون بنصيب وافر في التجارة الخارجية ما بين زبيد وعدن والهند،

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص٩٢-١٠٢.

(٢) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، ص٤٣.

(٣) عمارة : المفيد، ص١٣٤.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص٢١٥، ٢١٦.

(٥) ذُوَال : من أودية زبيد، يصب في البحر الأحمر وبلدة القحمة وهو في الشرق الشمالي أو شمال شرق مدينة زبيد. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ج٤، ث٢٧١؛ المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص٢٣.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٣٤.

(٧) عبدالرحمن بشير : المرجع السابق، ص٤٩.

(٨) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٠٩.

فارتاد النصارى زبيد – مع غيرهم من الذميين – كمدينة كبيرة بحثًا عن العمل التجاري الذي ظلّ له صدى حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي(١).

واتسمت علاقة النصارى بالسلطة بالحذر، وابتعدوا عن المشاركة في التنازع عليها لضعف قوتهم وقلة حيلتهم ورأوا أن عملهم بالتجارة والحرب هو طريقهم للعيش داخل المجتمع الزبيدي.

ثانيًا : اليهود :

تهوّد بعض عرب اليمن زمن أسعد بن كرب الحميري الذي حكم فيما بين سنتي ٣٨٥–٤٢٠م، فهو أول من أخذ بدين اليهودية(٢)، فظلت اليهودية هي الدين الرسمي للدولة اليمنية ما يزيد عن قرن من الزمان، ولم يترك يهود اليمن هذا الدين إلا قسرًا عندما غزا الأحباش النصارى اليمن سنة ٥٢٥م(٣).

وكان اليهود عند ظهور الإسلام، في المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانحصر عملهم في التجارة والربا والزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها، وهي أمور جعلت لهم نفوذًا عند سادات القبائل والأمراء والملوك(٤).

والتزم اليهود بدفع الجزية لحكام البلاد(٥)، مما أتاح لهم التمتع بالحماية من قبل النظام القبلي، حيث عاش اليهود في جوار القبائل وذمتها اليمنية فوفر لهم هذا النظام الحرية في شراء الأراضي الزراعية وجعلهم أعضاءً نشطاءً في المجتمع اليمني(٦)، وكانت الحماية القبلية لهم مقابل بعض الأمور الشكلية وأهمها عدم حمل أي نوع من السلاح والقيام بتمييز أنفسهم بارتداء زي معين غالبًا ما كان لونه أسود، وأن يميزوا أنفسهم أكثر بواسطة " الزنانير " وهي عبارة عن خصلتين طويلتين من شعر الرأس متسدلتين على جانبي الوجه(٧).

---

(١) Werner Daum : From Aden ti India and Cairo, : Jewish world trade in the 11th and 12th centuries, in yemen 3000 years of art civilization in Arabia Felix, Frankfurt, 1987, p. 169.

(٢) ابن خلدون : العبر، ج٢، ص٦١.

(٣) الهمداني : الإكليل، ج٨، ص٢٢٦.

(٤) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م، ص٥٣.

(٥) مجهول : التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، معهد المخطوطات العربية، مخطوط رقم ١٥٢٩ تاريخ، ق٧، ٨.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٠٩.

(٧) فضل علي أحمد غانم : البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٤٥.

أساءت دولة بني مهدي معاملة اليهود[١]، كما أساءت لغيرهم من أهل البلاد المسلمين[٢]، وكان ذلك نتيجة لما لاقاه اليهود من حرية سياسية واقتصادية ومذهبية من قِبَل الدولة الصليحية الموالية للفاطميين، خاصة أن موقف الدولة الفاطمية تجاههم، أدى إلى زيادة مكاسبهم الاقتصادية، وتَقرّبوا من أصحاب السلطة، مما أوغر صدر علي بن مهدي عليهم، ونجا من هذا الموقف يهود عدن الذين يتبعون دولة بني زريع الشيعة، وكذلك الشمال الذين تمتعوا بحماية الزيديين، فهرب معظم اليهود من العرب الذين سكنوا زبيد وأنحاء متفرقة من اليمن إلى مدينة عدن[٣]، واستقروا بها وتمتعوا بحرية الجوار، حتى أصبح يشار إلى يهود عدن بالعدني، وكان اتصال يهود اليمن مع غيرهم من المجتمعات اليهودية الأخرى يتم عن طريق يهود عدن، بواسطة التجارة[٤] حينًا والعلاقات الدينية حينًا آخر[٥].

وتبوأ يهود عدن قيادة اليهود في أنحاء اليمن لقربهم من أصحاب السلطة وكذلك سيطرتهم على النواحي التجارية في المدينة والتبادل التجاري بين عدن وزبيد داخليًا وبين الهند[٦] والصين خارجيًا، فتغير وضعهم الاجتماعي من ضعفاء يندرجون تحت حماية القبائل إلى أقوياء يتمتعون بحماية حاكم المدينة واختلطوا بأهلها[٧]، وتمتعوا بحق المواطنة والمساواة مع أهل المدينة فاجتمعت لهم السلطة والثروة[٨].

وأصبحت الأوضاع السياسية والاقتصادية مواتيةً لليهود في عدن، فالجماعات التي تركت زبيد منهم، اندمجت في المجتمع الجديد، واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وتعلمت اللغة العربية كونها

---

(١) Yosef Tobi : The Jews of Yemn, p. 41.

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٢٨.

(٣) Joseph B. Schecht man : The Jews of Aden The Jewsh social, vol.13, 1931, p.133.

(٤) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، ص٩٤.

(٥) Herbert S. Lewis; After The Eagles Landed The Yemen ites of Israead, London, 1989, p. 17.

(٦) استعمل اليهود الدنانير الذهبية في تجارتهم مع الهند، ومنها الدنانير الزبيدية والمالكية، والتي لاقت قبولاً في الهند. الدنانير المالكية نسبة إلى الصليحيين، وضربت في عدن منذ سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م وحتى سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م وكان يتعامل بها في عدن حتى سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م.

Bikhzi, Ramzi : Coins of Al-Yaman, Al-Abhath, vol., 23, 1970, p. 100.

(٧) Goitein : Jews and Arabs, Their Contacts Through The age, New York, 1974, p. 74.

(٨) Eliyahu Ashtor : The Jews and Mediterranean Economy 10^{th} – 15^{th} Centuries, London, 1983, p. 165.

لغة البلاد مع الحفاظ على لغتها العبرية، فدَّرسوها لأبنائهم في المعابد باعتبارها مهمة مقدسة[١]. فازدات العبرية فصاحة بمجاورتها اللغة العربية في الأرض اليمنية[٢].

وتضخمت ثروات اليمنيين اليهود، فأصبح يهود زبيد وعدن يصدرون البضائع اليمنية، واحتكروا مهنة الدباغة وتصديرها إلى الهند[٣]، وتظهر المصنوعات الجلدية كثيرًا في أوراق الجينيزا لأنها الغطاء الرئيسي للمسافرين على ظهر السفن التجارية[٤].

مما سبق نستطيع القول، أن العمل بالتجارة أعطى اليهود فرصة للحراك الاجتماعي والانخراط داخل الطبقة العليا من المجتمع، خاصة في المدن التجارية كزبيد وعدن، فعلى الرغم من كراهية اليمنيين المسلمين لليهود، كان يهود اليمن راضين بالحياة في أحيائهم الخاصة، حيث يوجد بها المعابد، ويمارسون داخلها شعائرهم وخاصة يوم السبت، وهذا الإنزواء كان من فوائده تسهيل أداء الفرائض الدينية[٥] مع التمتع بحق الجوار من قِبَل القبائل اليمنية.

طبقات المجتمع اليمني :

كان المجتمع الزبيدي في اليمن مقسم إلى قسمين أحدهما : الطبقات الخاصة، والثاني : الطبقات العامة.

أولاً : الطبقات الخاصة :

طبقة الحكام :

وتشمل عدة فئات هم : الملوك والسلاطين وزعماء القبائل والقادة وأرباب السيوف وكبار الموظفين وكل من يشترك معهم فيما يتعلق بالحكم.

تعددت عناصر الحكام في زبيد منذ القرن الثالث الهجري، وما بعده بدايةً من آل زياد ثم النجاحيين ثم الصليحيين ثم بني مهدي وأخيرًا بني أيوب[٦].

كما كانت الزعامات القبلية من أهم العناصر التي تولت السلطة في زبيد، واليمن كله، وذلك

---

(١) Aviva Klein – Franke; The Jews of Yemen, Frankfurt, 1987, p. 267.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٩٧، ٩٨.

(٣) Goitein : A Mediterranean Society, Jewish Communities of Arab world as Partrayed in Documents of the Cairo Geniza 969–1250, university of California, 4, p. 129.

(٤) Goitein : Jews and Arabs, pp. 74–75.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٤٣؛ عمارة : المفيد، ص٦٧.

(٦) عبدالرحمن الشجاع : المرجع السابق والصفحة.

بتأييد من الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية، وبعضها بواسطة القوة وعدم التبعية لإحدى الخلافتين مثل بني مهدي من قبيلة حمير[1].

فنهج مهدي نهجًا آخر بعيدًا عن اتجاه أهل السنة الموالين للخلافة العباسية أو الإسماعيلية الموالين للفاطمية أو الزيدية، فكونوا لأنفسهم سلطة بعيدة عن تلك الاتجاهات جميعها[2].

من هنا استند أغلب الحكام في المقام الأول على العصبية القبلية بجانب المذاهب الدينية، ولما كان لطبقة الحكام تأثير في المجتمع، فكان لهم دور كبير إلى استقرار الحكم لفترة طويلة أو انهياره، مثلما حدث مع دولة بني مهدي الذين حكموا زبيد منذ سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، والتي اتسمت سياستهم بالقوة والعنف[3]، والقتل والتخريب في كثير من الأحيان، فلم تستمر سلطتهم سوى خمسة عشر سنة وشهرين وأربعة وعشرين يومًا من سنة ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م[4].

تصدر الحكام في دولة بني مهدي أعلى فئات المجتمع، فتمتعوا بسلطات واسعة والحكم بشكل فردي مطلق، له كل الصلاحيات، مثل فرض الضرائب أو إلغائها، وإصدار الأحكام على عامة المجتمع، مهما كانت هذه الأحكام إلى حد القتل والتعذيب[5].

وحصل هؤلاء على ميزات كبيرة في المجتمع من حيث بناء وسكن القصور الكبيرة، والمتعددة ومن ذلك ما اشتهر بني مهدي من استيلائهم على القلاع، وأهما قلعة زبيد التي أصبحت مركزًا للحكم، بجانب الحصون والقصور كغنائم من أعدائهم والسكن والتحصن بها مثل حصن تعز الذي عسكر فيه عبدالنبي بن مهدي في بعض مواقعه الحربية[6].

احتوت قصور الحكام في زبيد على العديد من الجواري، بجانب الثروات الكبيرة من أموال، وكنوز ومصوغ ولؤلؤ ويواقيت فاخرة وملابس جليلة على اختلاف أصنافها، والتي تم

---

(١) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٢) عمارة : المفيد، ص٢٣٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٧٣.

(٣) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨، ٥١٩؛ عمارة : المصدر السابق، ص٢٢٣-٢٣٦.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق١٧٤؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص٣٩٧؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص٦٩.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٠، ١٤٠؛ قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، ص١٨٥.

(٦) الخزرجي : المصر السابق، ق١٦٨.

الاستيلاء عليها ممن سبق من حكام زبيد، النجاحيين[1]، وبلدان اليمن الأخرى[2].

كما اتسم الحكم في مدينة زبيد بجعله وراثيًا متمثلاً ذلك في أسر الحكام، منذ بداية الدولة المستقلة في عهد بني زياد، وكذلك كان الأمر بالنسبة للدولة النجاحية، والدولة الصليحية ثم دولة بني مهدي، وكانت الوراثة تنتقل ما بين الأبناء أو الأخوة. فمثلاً دولة بني مهدي جرى التوريث لها في زبيد، فبعد أن تولى علي بن مهدي السلطة في زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، لم يمكث غير ستة أشهر في الحكم، تولى بعده ابنه مهدي بن علي ثم تولى بعد أخوه عبدالنبي بن مهدي وأحمد بن مهدي، ولكن عبدالنبي استأثر بالحكم لنفسه، واستمر في الحكم إلى أن قدم الأيوبيون إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م[3].

والجدير بالذكر أن أي دولة مستقلة في زبيد أو اليمن يرتبط التوريث فيها بموافقة الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية، وتوثيق ذلك برسالة من الخليفة بالموافقة على ولاية العهد لهذه الأسرة[4]. ولكن دولة بني مهدي لم تتبع أو تتطلع إلى هذا النظام في التأكيد الشرعي لسلطتها وحكمها لمدينة زبيد لعدم اتباعها لأي من الخلافتين سواء كانت العباسية أو الفاطمية، واعتمادها على إحكام سيطرتها بالقوة على زبيد وغيرها من البلدان اليمنية.

وإلى جانب السلطان أو الملك أو الإمام هناك عدد من مساعديه الذين يقومون بالوصل بينه وبين أتباعه وشعبه، فكان لعلي بن مهدي نقيبان على طائفتي المهاجرين والأنصار واللذين لُقِبا بشيخي الإسلام، فلا يخاطبه أحد من أتباعه أو شعبه إلا عن طريقهما[5].

غير أن الشرائح الحاكمة التي سبقت دولة بني مهدي في زبيد، لم تنقرض من المدينة بمجرد إزالة سلطانها بل كان يبقى منها أجزاء أصبحت جزءًا من المجتمع كمجاميع بشرية أو كقبائل أو كأسر، تؤثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية[6].

---

(١) عمارة : نفس المصدر، ص١٥٨، ٢١١، ٢١٣.

(٢) الوصابي : الاعتبار، ص١٠٨؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن، ص٢٤٢.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق١٦٣، ١٧٤.

(٤) الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص٦٥، ٩٦؛ محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٨٤.

(٥) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨٦.

(٦) فضل علي أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص١٩٥.

زعماء القبائل :

أو مشايخ القبائل، كانوا يستمدون مرتبتهم الاجتماعية من الزعامة السياسية التي تنتقل من جيل إلى آخر، ومن ثم فإن ألقابهم وتسمياتهم بالمشايخ تعتبر ألقابًا وأسماء متوارثة عبر السنين(١).

ويضاف إلى النسب المستقل لشيخ القبيلة، بعض الصفات الأخرى التي يجب أن تتوافر فيه، ومنها كرم الأخلاق والشجاعة في القول والرأي والترحيب بالضيف وإكرامه، وإعانة المغلوب وتأمين الخائف، والعمل على حل المشكلات والمنازعات بين أفراد القبيلة والحفاظ على حقوق ومصالح القبيلة، والمسئوليات والنفوذ الذي يتمتع به شيخ القبيلة لا يتجاوز حدود القبيلة أو القسم الذي يتزعمه.

ونجد أن زعماء القبيلة لم يكونوا يتميزون عن رجال القبيلة الآخرين عن طريق ارتداء ملابس معينة، كما أنهم كانوا يشتركون مع بقية رجال القبائل من خلال أحد المظاهر الذي يميزهم عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى في المجتمع ويتمثل في وضع " العسيب "(٢) و" الجنبية " أي الخنجر مستقيًا في أحزمتهم وسط البطن(٣)، مرتدين عليه الخِرقة(٤).

ومن المهام الرئيسية لشيخ القبيلة أو زعيمها أن يتحمل الالتزامات المادية والأدبية، للأشخاص اللاجئين من القبائل الأخرى طالبًا للحماية والإقامة في القبيلة أو أشخاص القبيلة نفسها لتعرضهم لبعض النكبات فيحتاجون تقديم المساعدة والمعونة، بالإضافة إلى مساعدة بعض أفراد الفئات الضعيفة خارج القبيلة وداخلها ممن لا مورد ثابت لهم سوى ما يمنح لهم من هبات أو مساعدات في أوقات الحصاد(٥).

إذن كان زعيم القبلة يتمتع بالسلطة والقوة على مجمل العلاقات الخاصة بالقبيلة والمنطقة التي يتولى الزعامة فيها مستندًا إلى هيبته ومكانته الاجتماعية والسياسية بالدرجة الأولى وكذلك الثروة التي تأتي في المرتبة الثانية لتساعده على إتمام مهامه تجاه القبيلة(٦).

---

(١) فضل علي أبو غانم : المرجع السابق والصفحة.

(٢) العسيب : أو العصيب، وهو مشتق عن عَصَبُ الشيء أي شددته والمقصود به الحزام. ابن منظور: لسان العرب، م١٠، ص١٦٨.

(٣) فضل أبو غانم :البنية القبلية في اليمن، ص١٩٥.

(٤) الخِرْقة : هي نوع من الأردية الغليظة تستعمله القبائل في شبه الجزيرة العربية. اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٥٥؛ رجب عبدالجوا إبراهيم : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص١٤٧.

(٥) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص١٩٩.

(٦) فضل أبو غانم : نفس المرجع، ص٢١٠.

وأبلغ مثال على مكانة زعيم القبيلة ورئيسها، ما حدث في عهد عبدالنبي بن مهدي، عندما تحالف السلطان حاتم اليامي حاكم صنعاء مع السلطان الزريعي حاكم عدن ضد دولة بني مهدي، واستعانا ببعض القبائل ومنها قبيلة جنب، ومذحج وهمدان وسنحان وبني شهاب ونهد، بقيادة زعماء القبائل ومنهم عبدالله بن يحيى، والشيخ زيد بن عمرو، وكان لذلك أثره في هزيمة عبدالنبي ابن مهدي في ذي جبلة وتعز سنة ٥٦٩هـ/أكتوبر ١١٧٣م[١].

طبقة العلماء :

تشمل هذه الطبقة طوائف الفقهاء والقضاة والمحدثين والقراء والمفسرين بالإضافة إلى الأدباء والشعراء واللغويين وكل من يشترك معهم في الصفة العلمية.

يعتبر العلماء من أهم الطبقات نفوذًا وإجلالاً عند الحكام، وخاصة طبقة القضاة والفتوى لما لهم من إجلال ديني، وهم يشكلون شريحة هامة في المجتمع، لها تقاليدها واهتماماتها وأجوائها الاجتماعية المختلفة[٢]. على أن سياسة حكام دولة بني مهدي إزاء العلماء اختلفت كل الاختلاف عن الحكام السابقين لمدينة زبيد[٣]، فاتخذت موقفًا عدائيًا من علماء أهل السنة وفقهائهم، حتى اضطروا إلى الفرار خوفًا من القتل[٤].

كان العداء الصريح سمةً من سمات دولة بني مهدي مع القضاة والفقهاء لمدينة زبيد في بداية الدولة آنذاك، ومنهم بنو أبي عقامة[٥]، المنسوبون إلى القاضي محمد بن هارون التغلبي الذي

---

(١) بامخرمة : ثغر عدن، ص١٦٠؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٨.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨٧.

(٣) كانت الدولة النجاحية ذات اسهامات واضحة لمدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عن سواهم من الأراضي والمرافق، فكان الوزير مَنّ الله الفاتكي يتصدق على هذه المدارس، كذلك كان سرور الفاتكي يصرف لهم سنويًا اثنى عشر ألف دينار ويوضح ذلك عمارة بقوله : " رأيت جريدة الصدقات التي يدفعها عند دخوله إلى زبيد للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثنى عشر ألف كل سنة ". عمارة : المفيد، ص٢١٠، ٢٢٧.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٩، ١٨٧؛ محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٦٣.

(٥) بنو أبي عقامة جماعة منهم يسكنون وادي سهام بقرية تنسب إليهم فيقال لهم أبيات القضاة، ومنهم جماعة يسكنون بلاد المعافر، توارثوا القضاء في زبيد حتى أزال أغلبهم ابن مهدي. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ج٤، ص٤٦٨؛ اسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج١، ص٤٩.

قدم مع ابن زياد من بغداد، وكذلك كان بنو عقامة هم قضاة زبيد في عهد الصليحيين والنجاحيين أيضًا[1].

وفضائل بنو أبي عقامة مشهورة فهم " الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي، وقدماؤهم جهروا ببسم الله الرحمن الرحيم في الجُمعة والجماعات، ونسبهم في تغلب "[2]. وولي منهم الحسن ابن أبي عقامة القضاء في أيام الصليحيين ثم ولي لبني نجاح، لأنهم على مذهب الإمام الشافعي وهو مذهبه، فرأى أنهم أولى بالمُلْك من الصليحيين، مع أن النجاحيين من الأحباش، وكان هذا من أحد الأسباب لعودة المُلْك إلى جياش بن نجاح، لما بذله من جهد وعون صادق لجياش — الذي كان يبجله ويوقره ويلقبه بالنصير المؤتمن[3] — حتى تغلب على دولة بني الصليحي في تهامة[4].

وكل ذلك يوضح مدى التوقير من قِبل آل نجاح مقارنة ببني مهدي وعلاقتهم بالفقهاء والقضاة في زبيد، ثم تولى قضاء زبيد لنبي نجاح بعد الحسن ابن أخيه القاضي أبو الفتوح عبدالله ابن محمد بن علي بن أبي عقامة[5]، وجاء بعده ابن عمه القاضي محمد بن عبدالله بن علي بن أبي عقامة المعروف بالقاضي الحفائلي، وكان له رئاسة مذهب الإمام الشافعي في زبيد، وكان قتله على يد علي بن مهدي عند استيلائه على زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[6].

وقد أدى اعتداء دولة بني مهدي على علماء الشافعية في زبيد إلى فرار كثير من العلماء والقضاة والفقهاء إلى الجبال والبلدان اليمنية الأخرى مثل ذي أشرق وبعضهم هرب إلى عَدن والبعض الآخر إلى مكة[7]. ومن الذين هربوا إلى الجبال الفقيه أبو العباس أحمد بن خُمرطاش، خوفًا من بطش ابن مهدي وتوفى ولم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره وذلك سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[8].

---

(١) الجندي : السلوك، ج٢، ص٢٩١، ٢٩٣.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢٤١.

(٣) أحمد بن محمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ، السفر الثاني، ص٨٥.

(٤) إسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج١، ص٥٠.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤٠.

(٦) إسماعيل بن الأكوع : المرجع السابق، ج١، ص٥٢.

(٧) ابن سمرة : المرجع السابق، ص١٧٩؛ الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٤٠.

(٨) أحمد الشامي : المصدر السابق؛ السِّفر الأول، ص٥٦٧.

وبعد هجوم مهدي بن علي بن مهدي على الجَنَد وبواديها سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، خرج الفقيه الإمام يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني[١] من "ذي أشرق"[٢] متجهًا إلى قرية "ضَراس"[٣] مبتعدًا عن ساحة الشقاق الديني وبطش ابن مهدي، ثم توجَّه إلى " ذي السُّفال "[٤] فاستقر بها، ولكن لم يلبث أن توفي في ربيع الآخر سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م.

كما هرب الفقيه علي بن أحمد وكان يسكن اليهاقر بادية الجند، متوجًا إلى الأنصال وهي قرية من قرى العوادر سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، بعد أن دخل مهدي بن علي الجَنَد وقتل أهلها وحرق مسجدها[٥].

كما هرب القاضي طاهر بن يحيى بن أي الخير بن سالم العمراني الذي كان شافعي الفروع أشعري العقيدة على عكس والده، الذي كان حنبلي العقيدة[٦]، فهاجر إلى مكة بأولاده الرجال والنساء، فرارًا من حكم ابن مهدي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، فأقام بمكة سبع سنوات ثم عاد إلى اليمن في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ومرَّ بزبيد فظفر به عبدالنبي بن مهدي وأحضره إلى مجلسه، وأحضر القاضي محمد بن أبي بكر المدحدح وتناظرا بين يديه، فاستظهر عليه القاضي طاهر، فسأله ابن مهدي أن يخطب على منبر زبيد[٧]، ثم ولاّه قضاء إب وذي جبلة من سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى بعض أيام شمس الدولة توران شاه الأيوبي، وكانت وفاته سنة

---

(١) الموطن الأصلي للفقيه يحيى بن أبي الخير هو سَيْر وسَيْر تقع في الشمال الشرقي من الجند. ابن سمرة: نفس المصدر، ص١٧٩.

(٢) ذي أشرق : قرية كبير بالوادي المعروف بنخلان على نصف مرحلة من الجند. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٣١٥.

فر كثير من علماء الشافعية في زبيد إلى ذي أشرق بعد اعتداء علي بن مهدي عليهم، واختلفوا مع فقهاء ذي أشرق الذين ناصبوهم العداء وكفّروهم، لأن فقهاء زبيد شافعية الفروع أشعرية الأصول، بينما فقهاء ذي أشرق شافعية الفروع حنابلة الأصول لا يتأولون المتشابه من صفات الله، ولكنهم يحملونها على ظاهرها، من غير تأويل ولا تحريف. إسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج٤، ص٢٠٦٤.

(٣) ضراس : قرية من عزلة نخلان من ذي السفال من أعمال إب. ابن سمرة : نفس المصدر، ص٣٢٠.

(٤) ذي السُّفال : بلدة على مرحلة من قبلي الجند عن سفح جبل التعكر. ابن سمرة : المصدر السابق، ص٣١٥.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٣، ٤.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٧؛ إسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج٤، ص٢٠٦٨.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٨؛ إسماعيل بن الأكوع : المرجع السابق والجزء، ص٢٠٦٩.

٥٨٧هـ/١١٩١م[1]. كما طلب الشيخ الأجل عبدالله بن عبدالوهاب العريقي، الأمان من عبدالنبي، ورجع إلى الظَّفِر[2]، وذلك سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م.

وعندما غزا عبدالنبي بن مهدي مخلاف جعفر وحاصر حصن المجمعة واحتله يوم الاثنين ٢ من ربيع أول سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، قضى على كل ما كان بالحصن، وكان بينهم الشاعر يحيى بن أحمد بن عبدالسلام شاعر الإسماعيلية ولسانهم، ابن القاضي أحمد بن يحيى بن عبدالسلام الصنعاني، فذبحه أصحاب ابن مهدي في ذلك اليوم[3].

وعلى الرغم من ذلك، بلغ الكثير من طبقة العلماء مبلغًا كبيرًا في النواحي العلمية، وقد أطلقت عليهم ألقاب متعددة تعبر عن مقدار بلوغهم العلمي مثل إمام، وعالم ورئيس مذهب أو رئيس علم، وتولى منهم وظائف علمية هامة، وعلى سبيل المثال، تولى الفقيه محمد بن أبي بكر المدحدح رئاسة طبقة فقهاء المذهب الحنفي أيام بني مهدي[4].

كما تولى رئاسة الفقه بالإجماع الفقيه يحيى بن أبي الخير[5]، وتولى رئاسة الفتوى بذي جبلة الفقيه أبو الخطاب عمر بن علي بن سمره الجعدي (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م)[6]، وكان من قضاة بني مهدي في زبيد القاضي عبدالله بن نبيل[7]، والقاضي عبدالله بن محمد بن عبدالله وكان من القضاة المشهورين في تهامة[8].

كذلك القاضي عبدالجبار بن محمد الحنفي، الذي وُلي قضاء الجند أيام عبدالنبي بن علي بن مهدي وكان نائبه فيها الفقيه زياد بن أسعد الجُماعي الخولاني الذي توفي ٥٦٠هـ/١١٦٤م[9].

وجدير بالذكر أن الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي هم الذين كانوا يعينون على

---

(١) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٩.

(٢) الظَّفِر : حصن في جبل وصاب من أعمال زبيد. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٣، ج٦، ص٢٨١؛ ابن سمرة : نفس المصدر، ص٢٣٣.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٨٩؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٨؛ إسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج١، ص٢٥١.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٢٧٢، ٣٤٣.

(٦) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٥٣٨.

(٧) ابن سمرة : المصدر السابق : ص٢٢٦.

(٨) ابن سمرة : المصدر نفسه، ص٢٤١.

(٩) ابن سمرة : المصدر نفسه، ص٢٧٢، ٢١٧.

القضاء في اليمن في عصر الولاة[1]، وعندما بدأ اليمن يستقل من الناحية الاسمية عن الخلافة العباسية، أصبحت مهام تعيين القضاة موكولة إلى ولاتها وحكامها، فكان بنو نجاح والصليحيين وبنو مهدي هم الذين كانوا يتولون تعيين القضاة في اليمن[2].

وكان مذهب القاضي في الغالب هو نفسه مذهب الدولة الحاكمة، فلم يكن تعيين القاضي يتم إلا بعد التأكد من صلاحيته واستيفائه لشروط الولاية من حيث المعرفة بالدين والفقه والنزاهة والشرف، كما كان يُتحرى عن حاله وماله ومذهبه[3] الذي يكون أساس تعيينه كقاضي من قِبل دولة بني مهدي.

طبقة كبار الملاك :

تميز المجتمع الزبيدي كغيره من المجتمعات العمرانية بوجود كبار الملاك للأراضي الزراعية وكبار التجار، فالمال له أثر فعال في المجتمع الزبيدي؛ إذ جعل أصحابه طبقة متميزة في المجتمع، وساهم في صعود الزعامات القبلية إلى السلطة.

فبالنسبة إلى كبار ملاك الأراضي الزراعية، تملَّك كثير منهم أراضي زراعية واسعة منهم على سبيل المثال الوزير رزيق الفاتكي النجاحي ت ٥٢٤هـ/١١٢٩م الذي كان يمتلك أراضي واسعة وكثيرة في زبيد، حيث عجز الفقهاء عن تقسيمها بين ورثته لكثرتها[4]. والتي آلت فيما بعد لأملاك دولة بني مهدي كأملاك زراعية خاصة بهم كحكام.

كما وُجِد صغار الملاك للأراضي الزراعية ذات الملكية الخاصة في زبيد، وكانوا الأغلبية العظمى من الملاك في زبيد.

أما التجـــار : فقد ازدهرت التجارة في زبيد كمركز رئيسي هام في النشاط التجاري لليمن، فحقق التجار من وراء عملهم في التجارة مكاسب وثروات مما شجعهم على تنمية المال واستثماره فيها، وعبر عن ذلك ابن بطوطة بقوله واصفاً زبيد بأنها " ليس باليمن بعد صنعاء أغنى من

---

(١) وذلك مثل طاووس بن كيسان قضاء مخلافي صنعاء والجند سنة (١٠٦هـ/٧٢٤م) وتولى قضاء صنعاء الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز وهب بن منبه (١١٤هـ/٧٣٢م) وفي عهد الخليفة المأمون العباسي ولي قضاء أعمال تهامة القاضي محمد بن هارون التغلبي إلى جانب واليها محمد بن زياد. الأهدل : تحفة الزمن، ص٥٧، ١٥١؛ الجندي : نفس المصدر، ج٢، ص١٠٤.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤١؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٢٩١، ٢٩٣.

(٣) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٤٣٥.

(٤) عمارة : المفيد، ص٢١٢، ٢١٣.

أهلها"[1]، وذلك تأكيدًا على وجود شريحة كبيرة من التجار. كما أكد على ذلك المقدسي عند وصفه لمدينة زبيد بأن بها تجارًا كبارًا[2]، كما تنوعت أجناس التجار في زبيد، فكان فيها التجار الأصليين، وإلى جانبهم وُجِدَ عنصر الفرس الذين اهتموا بالتجارة وكوّنوا منها أموالاً عظيمة[3].

الطبقات العامة :

طبقة العامة من أهم الطبقات في أي مجتمع، حيث إنها أكثر تعدادًا وانتشارًا، وتأثيرًا في الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتشتمل هذه الطبقة على الجند والفلاحين وأرباب الحرف.

طبقة الجند :

هذه الطبقة من الطبقات المميزة في المجتمع وخاصة كبارهم من القادة العسكريين، باعتبارهم الطبقة العسكرية المحاربة، وأنهم يملكون القوة، وبواسطتهم يتم فرض السلم أو الحرب في البلاد تحت قيادة دولة بني مهدي السياسية والحربية.

ولأهميتهم كطبقة عسكرية كان أول ما يقوم به الحكام هو التأكد من ولائهم وطاعتهم، ويتضح ذلك من امتلاك علي بن مهدي كل ما يخص جنوده وقوادهم من مال ودار وعتاد وسلاح وخيل، وهم مظهرين طاعتهم وولائهم التام له، معتقدين بذلك أن الهدف هو نصرة الدين[4].

تكون الجيش في زبيد من رجال القبائل اليمنية، وخاصة قبائل بني خولان، التي ساهمت في إقامة دولة بني مهدي، ومحاربة كثير من الدول المستقلة في اليمن ومنها الدولة الزريعية في عدن والدولة الحاتمية في صنعاء وبعض الأشراف في المخلاف السليماني[5]، ففي القبائل اليمنية أهم الشخصيات صعودًا هم الزعامات القبلية أو ما يقربون إليهم، لأن النظام القبلي يلزم أفراد القبيلة طاعة زعمائها، لذلك كان كبار القادة العسكريين في النظام القبلي زعماؤها الذين اقتنعوا بأهداف علي بن مهدي العسكرية، وتدعيم قوته وسيطرته على زبيد، والقضاء على دولة الأحباش فيها وهي الدولة النجاحية[6].

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٢٤.

(٢) أحسن التقاسيم، ص٨٥.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤٧.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٦؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٧.

(٥) الخزرجي : العسجد، ق٦٥؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص١٥٩.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٥٠.

تغيرت المعاملة القاسية الشديدة للجنود بعد تولي مهدي بن علي الحكم[1]، وكذلك عبدالنبي ابن مهدي فأصبح للجنود حق في امتلاك ما يخصهم من مال ودار وسلاح وخيل، وحرية التصرف فيه، مع استمرار ولائهم وطاعتهم لمبادئ دولة بني مهدي السياسية والحربية[2].

العامة :

هم عامة الناس، وهم الطبقة المحكومة، وأكثر الطبقات عددًا وأكثرها اتساعًا وتشمل أرباب الحرف والصناعات والفلاحين وصغار التجار وصغار الموظفين والحمالين والصيادين والحراس والكناسين والبنائين والباعة المتجولين وكل من يمتهنون المهن الدنيا.

كانت هذه الطبقة بعيدة عن منأى الحياة السياسية[3] والصراعات الحربية لدولة بني مهدي م الدول المستقلة الأخرى في اليمن، إلا أن ذلك أثر بالسلب على حياتها الاقتصادية والاجتماعية، حيث كان التنقل من بلد إلى آخر لكسب الرزق غير آمن مع اضطراب الأوضاع السياسية في زبيد، كذلك كثرة الحروب التي استنزفت كثير من موارد زبيد، فتعرض سكانها إلى بعض المحن الاقتصادية في قلة مواردها المتاحة لديها، وغالبًا ما كانت هذه الطبقة تسعى لتخزينها فترة من الزمن لتفي بعض احتياجاتها أوقات الحرب.

الفلاحون :

يشكلون أغلب السكان في زبيد، وهم العاملون في الأرض، وتواجد منهم فلاحون أغنياء، ومتوسطون وفقراء ومعدمون، وفقًا لمقدار ما يمتلكون من أرض، والفقراء والمعدمون منهم العمال الزراعيون في زراعة الأرض وهي حرفتهم الأساسية[4].

ويتم تقسيم فئات الفلاحين وأهميتهم طبقًا لنوع المحصول المزروع، فالفئة التي تزرع الحبوب والفواكه وهم كثيرو العدد، تتقدم على الفئة التي تزرع الخضروات والبقول وهم قليلو

---

(١) عمارة : المصدر السابق، ص٢٣٧؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

(٢) الخزرجي : العسجد، ص١٦٦.

(٣) لم يشترك العامة من أهل زبيد في الأحداث السياسية زمن دولة بني مهدي لاسيما محاولة الاستنجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ليساعدهم في قتل مولاهم فاتك بن محمد بن نجاح لخروجه عن الدين والتصدي لمحاولات علي بن مهدي لدخوله زبيد وسيطرته عليها، ولكن الإمام لم ينجح في ذلك وترك زبيد عائدًا إلى ذمار. ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٢، ١٢٣؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٥٠، ٥١.

(٤) قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، ص١٩٩، ٢٠٠.

العدد[١].

وقد كانت العلاقة بين الفلاح الأجير ومالك الأرض عادلة بشكل عام، فلم تشر المصادر إلى وجود خلافات بين المالك والمستأجر[٢].

وكان رجال القبائل ممن ينتمون إلى الفلاحة، حيث يشتغلون بالزراعة كمهنة اقتصادية رئيسية إلى جانب القيام برعي وتربية الأغنام والماشية، وهؤلاء يؤلفون معظم أو غالبية السكان في المناطق القبلية[٣].

إلا أن الفلاحين في زبيد ظلوا يشكلون منزلة اجتماعية واحدة حيث إنهم يشتركون في أنماط سلوكية وعادات وقيم اجتماعية وأخلاقية واحدة، وذلك بالإضافة إلى تقاربهم في مستويات المعيشة وطرق ووسائل كسبهم ومهنتهم[٤].

غير أن بعض الجماعات في المجتمع القبلي كانت تدعم مكانتها الاجتماعية والسياسية من خلال نسبها الصريح وتاريخها الموروث، على الزعامات والقبائل الأخرى ممن يمتهنون بالزراعة أو الفلاحة، كقبائل خولان في زبيد وهمدان والأشاعر وعك العدنانية التي ارتبطت بالأشاعر في زبيد ولازمت علي بن مهدي.

أرباب الحرف والصناعات :

تميز الحرفي في زبيد بتعلم حرفته عن طريق الوراثة، فظهرت أسر متخصصة بالحرف المتنوعة، فكان الفرد يتعلم الحرفة عن طريق التدريب عليها وممارسة العمل بها بجانب السابقين له في الحرفة، ويظل الحرفي محتفظاً بنفس الحرفة التي تنحدر منها عائلته، وعلى ذلك فإن الحرفي غالبًا يتزوج من الفئة التي ينتمي إليها نفسها أو من المستوى الاجتماعي لعائلته نفسه[٥].

ارتبط الحرفي بتوافر الموارد والمواد اللازمة لصناعته، فضلاً عن نوعية النشاط السكاني، والحياة اليومية، وكان الصناع والحرفيون عادة ما يكتبون أسماءهم على أعمالهم بالإضافة إلى تاريخ الصنع ونوع الصناعة والبلدة التي صنع بها، سواء كان ذلك في مجال الصناعات المعدنية

---

(١) قائد الشرجبي : المرجع السابق، ص٩٩، ٢٠٠.

(٢) محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج٢، ص٣٧٤.

(٣) فضل أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص٢٣١.

(٤) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص٢٤١.

(٥) فضل أبو غانم : نفس المرج، ص٢٤٣.

أم المنسوجات أم مجال العمارة[١].

اشتغل الحرفي بمهنة الحدادة واستخراج الخامات والمعادن لصهرها، مثل الحديد والفضة، ثم استخدمها في صناعة السيوف والرماح والحراب والسهام، والأدوات الخاصة بالصيد، والآلات اللازمة للزراعة[٢].

واشتهر الحرفي أيضًا بزبيد بصناعة الحلي واستخدام الأحجار النفيسة للتزيين مثل العقيق وتفنن في ذلك بحرفية عالية مما جعل زبيد من البلاد المشهورة في تطعيم المشغولات الذهبية وخاصة اللازورد، وكانت طبقة صناع الحلي يطلق عليها الحكاكين[٣].

ومن ذلك كانت طبقة الحدادين والمشتغلين بالمعادن الأخرى، من الطبقات الضرورية والهامة لمصالح الناس ومعايشهم في زبيد.

كما وُجِدَت فئة الحلاقين وهم الأشخاص الذين يقومون بأعمال الخدمة العامة في المدينة والقرية، في مناسبات الأعياد الدينية والزواج وقدوم الضيوف وما شابه في المناسبات العامة[٤].

ومن أصحاب الحرف الأخرى، فئة النجارين، الذين اشتهروا في زبيد، ببناء السفن على ميناء غلافقة بزبيد، هذا بجانب الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية وما يلزم لبناء المنازل من أسقف وأبواب وكراس، وبعض الأدوات الخاصة بالطعام والشراب، ومن ذلك يتضح أن طبقة النجارين كانت ضروريةً للعمران في زبيد[٥].

كما وجدت طبقة العامة في وظائف أخرى متعددة منها رعاة الماشية، الذين كانوا يقومون برعي الأغنام والماشية ويعيشون عيشة التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ والماء، وكانوا من الأعراب الذين يعيشون عيشةً بدائية، وكذلك الحمالين وحراس الضيعات وصيادين السمك[٦]، وفئة الحمامين، وهم الأشخاص الذين يقومون بغسل ودلك الأجسام للأفراد في الحمامات العامة بزبيد[٧].

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفيسة، ص١١٢؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٥٤.

(٢) فضل أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص٢٣٥، ٢٣٦.

(٣) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص١١١.

(٤) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤١٤، ٤١٥.

(٦) عمارة : المفيد، ص١٣٨، ١٣٩.

(٧) فضل أبو غانم : نفس المرجع والصفحة.

الرقيق :

كانت اليمن تجلب الرقيق من غلمان وجواري من الهند، وكذلك الوصيفات والغلمان من الحبشة والنوبة، فانتشر بها الرقيق، حيث كان يدخل إليها في كل سنة ألف رقيق وخمسمائة غلام وخمسمائة وصيفة حبشية ونوبية[١].

وامتلأت زبيد بالرقيق والجواري والوصيفات في الفترة التي سبقت حكم دولة بني مهدي، حيث كان في قصور فاتك النجاحي أكثر من ألف جارية، آلت فيما بعد إلى علي بن مهدي وأبنائه فعندما استولى علي بن مهدي على الحكم أصبح كل ما يمتلكه آل نجاح في حوزته وتحت سيطرته في زبيد[٢].

كما استولى عبدالنبي بن مهدي على قصور الملوك الصليحيين ومنهم قصر المفضل بن أبي بركات في جبلة وكان من غنائمه مائة من الجواري[٣].

وكان من العبيد ما يستخدم في خدمة أسيادهم ويطلق عليهم الموالي، وأُدخِلوا إلى اليمن عن طريق التجارة، وكانوا على قدر من العلم والمعرفة والأدب والإلمام بشئون التربية والتجارة، مما جعلهم يحتلون مكانة خاصة لدى أسيادهم، فأوكلوا إليهم تربية وتعليم أبنائهم والاتجار بأموالهم وإدارة شئون ممتلكاتهم، وكانوا لا يحتقرون ولا يهانون بل يعيشون ضمن أسر أسيادهم كجزء منها وليس في حياة منعزلة حتى يورثونها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم، ومن ثم اندمجوا في المجتمع اليمني[٤].

ومن أشهر تجار الرقيق في زبيد الشيخ حمير بن أسعد الذي تولى منصب كاتب الوزير مَنّ الله الفاتكي وغيره من وزراء آل نجاح في زبيد، فكان يجلب الجواري من عدة أماكن ثم يقوم بتربيتهن في داره وتعليمهن الغناء والطبخ وخزن الثياب وعمل الطيب، ثم بيعهن، كما كان يتاجر ببيع السموم التي يقتل بها الملوك حيث إن سمومه كانت وراء كل من مات بالسم من ملوك بني نجاح ووزرائهم، فكان يستخدم جواريه ممن يبيعهن لهم ليقمن بوضع السم لمخدومهن[٥].

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص١٢٣، ١٢٤.

(٣) فاطمة علي فضل : الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام)،، دراسات يمنية، صنعاء، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، العدد ٤٩، ص٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) عمارة : المفيد، ص٢١٧؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٣٦.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٥.

كان كثير من التجار في زبيد يتوجهون إلى سوق عدن لشراء الجواري حيث اشتهرت عدن بذلك، فكانت الجارية إذا أرادوا بيعها تبخر وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويطوف بها المنادي في الأسواق، وعندما يحضر التجار لشرائها يفحصونها فحصًا دقيقًا، لمعرفة سنها وجمالها[1] فإذا أعجبتهم اشتروها وتبقى عند المشتري لمدة عشرة أيام، فإذا اكتشف بها عيبًا خلال تلك المدة رفع دعوى عند القاضي بذلك ضد البائع طالبًا إعادتها إلى صاحبها[2].

الأخدام :

كلمة أخدام من الناحية اللغوية هي جمع ومفردها " خادم "[3]، والخادم هو الذي يقوم بأعمال الخدمة، ومصطلح أخدام لم يدخل الحياة السياسية والاجتماعية إلا في منتصف القرن السادس الهجري، وأول من أطلق كلمة أخدام هو علي بن مهدي الرعيني الحميري مؤسس دولة بني مهدي في زبيد، وذلك في إحدى خطبه لحث أهل اليمن على الانضمام لثورته ضد الدولة النجاحية في زبيد حين قال سنة ٥٤٦هـ : " فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخذ منكم (أي يخدمن في بيوتكم) بنات الحبشة، وأخواتهم ولأخولتكم أموالهم وأولادهم "[4].

والمقصود بالحبشة هنا الدولة النجاحية التي اتخذت تدريجيًا طابعًا سلاليًا عرقيًا، فقد تحولت بعد وراثتها لحكم دولة بني زياد إلى دولة قومية عرقية تعتمد كليًا على أبناء قومها في إدارة شئون الدولة والجيش والتجارة، ودخلت في حروب وصراعات طويلة مع الدولة الصليحية ثم المقاومة لحركة ابن مهدي التي كانت مبادؤه السياسية تعتمد على إخضاع هذه الفئة بالتشريد والإجراءات التعسفية التي تنم عن أحقاد مزمنة، وكان قيمًا على تطبيق سياسته باستخدام العرب لهذه الفئة ليس كعبيد ولكن كخدم وإجازة استرقاق نساء الدولة النجاحية على الرغم من أنهن مسلمات، ومعاملتهن معاملةً قاسيةً لمدة خمس عشرة عامًا[5].

وبعد انتصار دولة بني مهدي على الدولة النجاحية والقضاء عليها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، نفذ ابن مهدي ما كان أقسم عليه فحوّل بقايا دولة بني نجاح إلى أخدام محكوم عليهم بالعيش في

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج١، ص٧٦، ٧٧.

(٢) ابن منظور : لسان العرب، م٥، ص٣١.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق١٥٧؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧.

(٤) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٤.

(٥) فاطمة علي فضل : الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام)، ص٢١٢، ٢١٣.

عزلة اجتماعية وسياسية تامة، وبتأدية كل ما هو حقير ووضيع من الأعمال والمهن[1]، وقد أمعن آل مهدي وأتباعهم في إذلال هذه الفئة واضطهادها واستغلالها وحرمانها من حقوقها الاجتماعية والسياسية كافة، وأصبحت في أدنى السلم الاجتماعي منفردة في حياتهم الاجتماعية محرومة من كل المعاملات الإنسانية، حيث يمارس المجتمع معها الأعمال العنيفة والشاقة بالإضافة إلى الاضطهاد والامتهان المريرين، وحرمانها من أبسط الحقوق والعلم والعدل والمساواة في ظل الإسلام. وأصبحت لا تتمتع بحق الحماية والرعاية القبلية التي تتمتع بها الطبقات الدنيا[2]، كما كان أفراد تلك الفئة لا يرتبط بأي علاقة مع أفراد المجتمع ولذا فهم معزولون تمامًا عن الحياة القبلية العامة ومكوناتها وكل ما يتعلق بها من مشاكل ونزاعات مختلفة[3].

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات " الأخدام " تدين بالإسلام مثلها مثل بقية فئات المجتمع، إلا أن المجتمع اليمني كان ينظر لتلك الفئة بطريقة مختلفة، بل حتى مغايرة للتعاليم الإسلامية[4]، مما أدى بجماعات الأخدام أن تصبح مصدرًا للإمتاع والترفيه، من خلال حفلات الرقص والغناء في الأعياد والمناسبات المختلفة، وكثيرًا ما كان أفراد المجتمع اليمني يترددون على أحياء الأخدام، كونها تمثل أماكن مثالية للاستمتاع، وإشباع الرغبات الغريزية خاصة في ظل الواقع المحافظ للمجتمع اليمني[5].

ومن هنا أصبحت فئة الأخدام في أفل السلم الاجتماعي من حيث الترتيب العام لفئات المجتمع اليمني، بعد أن كان أفرادها قبل ذلك الفئة الحاكمة لمدينة زبيد، متمثلين في بقايا الدولة النجاحية " الحبشية " في اليمن[6].

وهكذا تتعاون جميع الفئات والشرائح على أداء مهام المجتمع، بالرغم من التفاوت والتفاضل فيما بينها، ويرى ابن بطوطة أن " للتفاوت الطبقي حكمة ووظيفة، فالإنسان لا يستطيع القيام بجميع أعمال ووظائف المجتمع، فاختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتفاوت الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية "[7].

---

(١) فضل علي أحمد : البنية القبلية في اليمن، ص٢٤٧.

(٢) فضل علي أحمد : المصدر السابق، ص٢٤٧.

(٣) فاطمة علي فضل : المرجع السابق، ص٢١٥.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٣؛ فضل علي أحمد : البنية القبلية في اليمن، ص٢٤٧.

(٥) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨٧.

(٦) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق٥٥؛ عمارة : المفيد، ص٢٣٦.

(٧) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٢٧، ٢٢٨.

مظاهر الحياة الاجتماعية في زبيد :

تعددت مظاهر الحياة الاجتماعية في زبيد، من عادات وتقاليد مختلفة تميزها عن المجتمعات الأخرى في اليمن، ويتضح ذلك جليًا في الزواج والاحتفالات بالمواسم والأعياد الدينية والشعبية.

أولاً : العادات والتقاليد في زبيد :

اختص المجتمع الزبيدي ببعض الصفات والطباع، فكان أهل زبيد يتصفون بالنظافة في ملابسهم، وفي منازلهم، وفي أسواقهم، وفي حماماتهم، واهتمامهم بالمنازل الفسيحة وكذلك حسن الخلق وتزيين منازلهم، وكثرة طيبهم، والمركوبات الوثيرة(١).

يقول فيهم المقدسي(٢) : " وأهلها لهم أدنى ظرف " وذلك في حسن المعاملة، ويقسم ابن المجاور يمينًا ألا يوجد هذا الظرف في عموم اليمن(٣)، ثم يصف ابن بطوطة أهل زبيد بلطافة الشمائل وحسن الأخلاق وحسن الصور ولنسائها الحسن الفائق الفاتن(٤).

وأهل زبيد ضعاف البنية، محلقين الرؤوس، وتتصف نسائهن بارتداء ملابسهن مرخيات التكك، مائلات في مشيهن، فقال في ذلك ابن المجاور : " ما رأيت في جميع اليمن سهلها وجبلها وجهًا حسنًا يعتمد عليه النظر ولا فيهم طرافة ولا لطافة ولا ملاحة ولا حلاوة "(٥)، بمعنى تميزهم في الجمال عن غيرهن. ويذكر منطقة الحليلة جنوب زبيد والخوجة بأن فيها الصبايا الملاح والنساء الصباح، بينما رجال زبيد يتشبهون في بعض حركاتهم بالنساء(٦).

ثانيًا : المأكل والملبس :

(أ) المأكل :

كان أهل زبيد يميلون إلى الأكل والشراب ولا حديث لهم سوى عن الأكل(٧)، وهذا يعني أنهم يتميزون بالدّعة والكسل، وربما يرجع ذلك للبيئة الحارة التي تختص بها زبيد. وبالرغم من

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٠، ٢٤٦؛ المقدسي : أحسن التقاسيم : ص٨٤، ٨٥.
(٢) المقدسي : المصدر السابق، ص٨٥.
(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٢٤٦.
(٤) ابن بطوطة : الرحلة، ص٢٤٧.
(٥) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٨٥، ٩٢، ٢٤٦.
(٦) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٧٠، ٨٥، ٢٤٦.
(٧) من أحاديث عامتهم عن الأكل، أن حدث زيد عمرًا ــ مثلاً ــ يقول له اليوم " تصبحت " فطِر دخن و"قطيبًا" أو " ملتح " وأنت ما " تعوفت " فيقول عمرو " رغيف " خبز بفلس وقطعة حلاوة بأربعة فلوس، ويقول جعفر أنا أكلت أكله تكفيني ثلاثة أيام " فطير " و" حليب " و" قند " وترفت إلى أن شبعت، ويستدل من ذلك أنه يوجد محلات لبيع الطعام جاهزًا وقتذاك. ابن المجاور : نفس المصدر، ص٨٦، ٨٧.

اهتمامهم بالأكل إلا أنهم لا يهتمون ولا يتكلفون في طريقة أكلهم، وكانوا يصنعون الخبز في منازلهم، وبما أنه كان هناك نوعان من الحبوب يهتمون بهما وهما الدخن والذرة فكانوا يخزنوها في مدافن أرضية من موسم إلى آخر، ويستخدمون أنواعًا من الطعام المستخلصة من الدخن والذرة منها "الخفوش" أو "اللحوح" وهو خبز من الذرة، يوضع في اللبن المخلوط بأنواع من البهارات، ونوع آخر من الخبز يسمى " الكبان " يصنع بطريقة معينة تجعله مستساغ الأكل دون أدام أو سبغ، وهناك نوع آخر من الخبز يعرف " بالفطير " ويؤكل بالبن والسمك ويسمونه " الملتح "[١].

ولديهم مشتقات من الحليب، اللبن والقطيب وهو الجبن ويتداولونه في وجباتهم، ويفضلون في أغلب أكلهم السمك عن اللحوم الأخرى[٢]، وكثر طبيخ أهل زبيد الملوخية، وكثيرًا ما يستخدمون السليط أو زيت السمسم أدامًا لهم مخلوطًا بأنواع الخبز[٣].

لأهل زبيد من الفواكه البطيخ-ويسمونه " البرطيخ " أو " الْحَبْ حَبْ "، حتى أن الباعة ينادون عليه في الأسواق (حَبْ حَبْ كثير الماء قليل الحَبِّ) هذا بالإضافة إلى الموز والعنب، ولديهم أنواع من الحلويات منها " القند " والحلاوة و" الدُّبَّاء " وهو القرع أو اليقطين فيطبخونه بطريقة الشيء في التنور "[٤].

ووجباتهم ثلاث، ولكل وجبة نوع من الطعام، فالصبوح يتناولون فيه الدخن والقطيب أو الملتح والسليط، أما العواف أي الغداء، فيأكلون فيه الخبز مع قطع الحلاوة[٥]، والوجبة الثالثة غالبًا ما تكون مثل الوجبة الأولى.

ومن الأبيات التي توضح حبهم للأكل ما ذكره علي بن أبي علي السنوي[٦] :

خذي " الثريد " إذا ما جئت مقبلة	نحوي، ولا تأخذي، مسكًا باطياب
واستعملي من فطير " الدخن " مع لبن	وصبحيني به صبحًا على " الباب "
فإن " قلبي " إلى حب " الفطير " صبا	وليس " قلبي " إلى حب " النساء " صابي

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٦.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٣) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٨٩.

(٤) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ص١٨٦؛ عبالرحمن الشجاع : المرجع السابق، ص١٨٩.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٨٦، ٨٧. لم يذكر ابن المجاور الوجبة الثالثة، والاحتمال لبداهة وجودها لم يتعرض لها.

(٦) العقيلي : المرجع السابق، ص١٨٦.

اختلفت أنواع الأطعمة وتناولها بين الطبقات المختلفة وذلك بحسب مراكزهم الاجتماعية وثرائهم، فكان رجال الطبقة العليا من الأمراء والحكام ومن في مستواهم يتناولن أفخر المأكولات ومنها الخراف المشوية بالإضافة إلى الحلويات. وقد يبلغ طول السماط خمسين ذراعًا ويكثر عددها إلى أربعة أسمطة[1].

وقد وصف القلقشندي طعام طبقة الثراء وأصحاب السلطة بقوله : " إن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة وسعادات عندهم ملحوظة ولأكابرها من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل، يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ويعمل فيها السكر والقلوب "[2].

ذلك وصف المأكولات للطبقة الغنية والحاكمة، بينما كان رجال الطبقة الفقيرة لا يأكلون إلا ما تيسر من الطعام، فكان أهل الحرف والصيادين والحمالين والزراع يتناولون طعامًا بسيطًا حيث كان يشكل فطيرة خبز وقطيب أو رغيف خبز وقطعة حلاوة[3].

كذلك تنوع استخدام الأطعمة بحسب حاجات أهل زبيد لها من حيث المكوث والسفر، فصنعوا الأطعمة التي يستمر بقاؤها طويلاً دون أن يصيبها التلف مثل الخبز اليابس الذي لا يصيبه التغير حتى يتسنى لهم استخدامه في السفر، وعند استخدامه يُدَقّ هذا الخبز ويطرى باللبن أو السمن ويؤكل، كذلك جففوا الأسماك كي لا تتلف وتمكث في السفر شهر أو أكثر من ذلك[4].

(ب) الملبس :

تأثر لباس زبيد بالمناخ الحاري لتلك المنطقة، فكان لبس أهل زبيد الحرير والقطن والقلنسوات المصنوعة من خوص النخيل[5]، وغلب على أهل زبيد لبس الإزار بلا قميص[6]، والإزار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، كما لبسوا الأردية، وهي ما تلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة، والثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الإزار[7].

كما يلبس البعض منهم المئزر والصديرية، ويكون الشباب حاسري الرؤوس التي تزينها

---

(١) الوصابي : تاريخ وصاب، ص٥٨.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٧.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٦، ٨٧.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣١٥، ٣١٦.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٦٨.

(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٩.

(٧) رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٣١.

الشـ... المسدولة، أما الشيوخ فيعتمون بالعمائم على الكوفية غطاء الرأس من القماش ويتـــردون برداء يسمى اللحاف[1].

وكان الناس في زبيد يلبسون الملابس وفقًا لحالاتهم الاجتماعية والسياسية ونوع عملهـــم، فكانت ملابس الأمراء والحكام غير ملابس الرعايا والجند، كما كان لأصحاب الحرف والمهـــن ملابس خاصة تتناسب مع نوع عملهم[2].

فكانت ملابس طبقة الحكام ومعظم جنودهم وأتباعهم عبارة عن أقبية إسلامية ضيقة الإكمام مزندة على الأيدي وفي أوساطهم مناطق مشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف لانس[3]، ويلبسون في أرجلهم الدّلاكسات، وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلسي والعتّابي وغير ذلك[4].

أما لباس العامة فكان يختلف في المدينة عن القرية، ففي المدينة اللباس من القطن والحرير مع طول الأكمام وكبر العمائم، وكان يصل طول الكم ذراعًا ونصف ذراع وعرضه ذراع[5]، أما الفلاحون في القرية فكانوا يلبسون المآزر السوداء من غير قمصان وتسمى الفنيلة، كمـــا كـــانوا يضعون على رؤوسهم قطعًا من الثياب السوداء تلف على الرؤوس دون طاقية، كما لبس رعـــاة الماشية ملابس بسيطة تشتمل على إزار وسترة ومدرعة[6].

وكانت طبقة القضاة والفقهاء والعلماء تتميز عن غيرهم بلبس الجوخ[7]، وكانوا يفـــصلونه كجبة واسعة الأكمام، وتبطن ببطانة من القماش، أما الأطراف فتصنع من الحرير[8]. أما لبـــاس المرأة في زبيد، كان عبارة عن سراويل طويلة تلاصق الأرض وعليه ثوب طويل يستر جميـــع جسدها ما عدا الكفين وباطن القدمين، وكانت أكمامه ضيقة ويسمى هذا الثوب (زِنة) وكانت ألوانه ترتبط بالفرح أو الحزن، ففي حالة فقد عزيز عليها يكون لونه أسود، وفي حالة الفرح تلبس منه

---

(١) العقيلي : المخلاف السليماني، ص١٨٩.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) تخافيف لانس : اللانس هو نوع من الحرير اللطيف غالي الثمن، وكان لفظ " على رؤوس تخافيف لانس" من الألفاظ الدارجة على ألسنة العوام في اليمن. رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٤٤٧.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٣٤.

(٥) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص٢٥٢.

(٦) مدرعة : هي لباس من الصوف الغليظ يرتديه فقراء الناس. رجب عبدالجواد : المرجع الـــسابق، ص١٧١؛ المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٩.

(٧) الجوخ : نسيج صفيق من الصوف. رجب عبدالجواد : نفس المرجع، ص١١٩.

(٨) الواسعي : تاريخ اليمن، ص٣٠١.

الحرير الملون[١].

كما لبست المرأة في المدينة العبلات أو " العباءات "[٢] ووضعت على رأسها مجموعة مصرات " مناديل " من القماش الملون، وفوقها منديل كبير أبيض يسمى " فرادى " حوالي ذراعين وأطرافه مزينة بالأحمر أو بالأسود، وجميع أطرافه بالعذب " الطرز " ويوضع فوق ذلك ثوب من الذهب الخالص المنقوش بشكل هندسي، ويسمى هذا الثوب في اليمن " سماطة "[٣] والقماش "زربقت" وكان يأتي من الهند، ثم تربط هذه المناديل بحزام " زنار " وهو من الحرير والذهب طوله يتراوح بين ذراعين وثلاثة أذرع وعرض بعرض الكف وتتم صناعته في صنعاء، وفوق كل ذلك يوضع ثوب رقيق من الحرير الملون يسمى " الطرحة " طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع وربع[٤].

وفي الأعياد والاحتفالات والأفراح كانت المرأة تضع ثوبًا آخر أطول من الأول وأعرض يوضع مثنيًا فوق الرأس ويسمى " قناعًا " ويسمى ما على الرأس كله عَصبة[٥].

وللتزين لبست المرأة أنواع المجوهرات مثل اللؤلؤ والمرجان واليواقيت الفاخرة[٦]، وعقود الذهب والفضة الخالصة، كما ارتدين الخَلْخَال والدُمْلُج والحِجَلْ[٧]. وكما تزيّن بالحلي تعطرن وتكحلن بأطيب أنواع الزينة، وتميزت نساء " المحاليب " شمال زبيد بتطويل شعرهن وتربيته منذ الطفولة حتى الكبر، فيضفرنه ضفرًا ملاصقًا وهو ما يسمى " دبوقة " ويدهّنه ويسرحّنه ويغسلنه بالسدر والطين، وكانت بعضهن يضعن الأحجار الكريمة فوق جباههن يصلنه شعورهن ويسمى ذلك " قشيطة "[٨].

ونظم أحد الشعراء أبياتًا تتضمن ذلك[٩] :

---

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص٢٥٢.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٤٥.

(٣) سماطة : الثوب الذي ليست له بطانة. رجب عبدالجواد : معجم الملابس، ص٢٤١.

(٤) جميل حرب : المرجع السابق، ص٢٥٢.

(٥) الواسعي : تاريخ اليمن، ص٣٠١.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق، ص١٣٦.

(٧) الحِجَلْ : جمع حجل وهو ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. رجب عبدالجواد : المرجع السابق، ص١٢٧؛ ابن المجاور : نفس المصدر، ص١٣٦، ١٤٥.

(٨) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص٥٦، ١٣٦، ٢٥٣؛ الواسعي : المصدر السابق، ص٣٠٣، ٣٠٤.

(٩) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٥٦.

يـــــا بــــــدر تم طلعَــــــا ونــــــور فجــــــر ســــــطعا

ويــــا قــــضيبًا ناعمًــــا علـــــى كثيــــب مرعــــا

ويــــا غــــزالاً مربـــــى عــــصرًا يجـــر الخلعــــا

مخلخـــــلاً مـــــدملجًا ســــورًا مملجعًــــا

ممــــسكًا، محجــــلاً عــــصبًا مقنعًــــا

ثالثًا : الزواج :

من الظواهر الاجتماعية ظاهرة الزواج، ولها عادات مختلفة كالخطبة والمهر والطرح والزواج بالأباعد، وكذلك الطلاق، أو اتخاذ المظاهر المتعددة في هذه العادات، ومن ذلك :

الخطبة :

هي أول خطوة في الزواج، باختيار الزوج أو الزوجة، وكانت من المقدمات الأساسية للزواج وتبدأ بالتقدم وإبداء الرغبة في الزواج من فتاة بعينها فيتقدم لأهلها لخطبتها وتبدأ بتعريف الخاطب وأهله لأهل الفتاة التي يرغب في خطبتها[1]، فإذا ما تمت الموافقة على الخطبة، واستجاب الخاطب لمطالب أهل الخطيبة من كسوة وحلي، وجهاز ومقدار المهر مقدمه ومؤجله وغير ذلك، كان ذلك إيذانًا بالعمل على استكمال مراسيم الزواج والموافقة على المتقدم للزواج.

وفي حالة وجود فوارق اجتماعية تتمسك بها بعض الطبقات أو التزوج بأكثر من واحدة أو كبر السن، كان بعض الناس يطلبون عند التقدم للخطبة موافقة جميع الأقارب من أخوال وأعمام وغيرهم إلى جانب موافقة الأبوين لإتمام هذه الخطبة أو الزيجة[2]. وكانت بعض القبائل ترفض مصاهرة القبائل الأخرى لأسباب متعددة، أهمها العداء الواقع بينها أو للتمايز الطبقي، فتنظر بعض القبائل للبعض الآخر على أنها أقل رفعة وجاهًا، مما أدى لوجود العداء بينهما.

وفي نطاق معرفة الفتاة قبل الزواج فهناك فرصة كي يتعرف الخاطب من أهل الريف على جمال المرأة المخطوبة ونشاطها، فقد كانت أغلب فتيات البادية يعملن في الزراعة والتجارة فإذا أراد الرجل أن يخطب فتاة ريفية بدوية يدله الأب على السوق الذي تذهب إليه الفتاة للتجارة ليشاهد نشاطها وجمالها وبيعها وشرائها فإذا أعجبته تقدم لخطبتها[3].

---

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٥٦.

(٢) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٩١.

المهـــر :

كان المهر عادةً ما يدفع بما يتفق والحالة الاجتماعية للزوج أو الزوجة، وبما يتناسب مع مكانة الأسرتين ومستواهما، وحتى في إطار الأسرة الواحدة، فكان والد العروس يطمع في أن يزوج ابنته من أحد أبناء الأسر الكبيرة أصحاب الثروة والجاه، مغاليًا في مهر ابنته ليدفع له مبالغ ضخمة وصداقًا لزواجها[1]. فكانت المغالاة في المهور عند أصحاب الطبقة العليا من زعماء القبائل، فأقل ما كان يدفع من بطون حاشد من همدان من المهور المؤجلة ألف دينار وست جوار فرس وست جوار روم، وقد أدت ظاهرة ارتفاع المهور بهذا الشكل إلى الحد من الزواج في إطار تلك الطبقة[2].

أما في نطاق الطبقات الأخرى فكان المهر أقل من ذلك بكثير، وكذلك كان المهر عند الطبقة الفقيرة يكاد لا يذكر قياسًا بما كانت تدفعه الطبقات العليا، وقد أدت قلة المهور أو الصداقات إلى إقبال عامة الناس على الزواج[3].

ومن عادات بعض نساء زبيد عدم أخذ المهور من أزواجهن مقدمًا بل يُحبذن تأجيله، ويعتبر أخذ المهر بكامله مقدمًا عيب كبير على اعتقاد أن المرأة في هذه الحالة تريد الطلاق ويوضح ذلك ابن المجاور : " ونساء أهل هذه البلاد لم يأخذوا من أزواجهن المهر وأخذ عندهم عيب عظيم، وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها " مفروكة " أي أن زوجها أعطاها مهرها وفركها أي طلقها "[4].

فمن المعروف أن المهر يشترط من البداية أن يكون كله أو جزء منه مؤجلاً، وهو من حق المرأة عند الرجل، وهنا تبدأ هذه العادة عند المرأة نفسها، فإذا طالبت الزوج فهو العيب الذي يترتب عليه خوف الرجال وقلة رغبتهم في الزواج منها مرة ثانية، مخافة أن تعالمهم كما عاملت الأول، وفي ذلك يقول الرجل عنها : " أخاف أن تأخذ مني المهر كما أخذت من غيري "[5]. وعلى ذلك فإنهم يؤجلون دفع المهور إلى زمن غير محدود، وقد يموت الزوج والمهر في ذمته، أو تموت الزوجة والمهر دين على زوجها، وطريقة تأجيل المهر تساعد أكثر الشباب على الإقبال

---

(١) عمارة : المفيد، ص٩٨.

(٢) محمد أمين صالح : تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٩.

(٣) الوصابي : الاعتبار، ص٦٥.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٥.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٥، ٨٦؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٩٣.

على الزواج وخاصة متعسري الحال، فيكفي لزواجهم دفع مبلغ بسيط كمهر مقدمًا[١].

وكان تجهيز العروس وتقديم الكسوة والحلي بحسب المكانة التي تليق بالعروسين وفقًا لثرائهم ومقدرتهم المالية ومكانة طبقتهم الاجتماعية التي ينتميان إليها[٢].

وكانت تقام الولائم وفقًا لحالة الزوج المالية والاجتماعية، فكلما كانت حالة الزوج والزوجة متيسرةً كانت الولائم كبيرة وضخمة، وربما تستمر عدة أيام وقد تبلغ شهرًا[٣].

وكان على ذلك فلم يحدد المهر أو أنواع الحلي والكسوة وغير ذلك الذي تجهز به العروس، ولا كيفية الوليمة وترك أمرها لحالة العروسين ومكانتهما الاجتماعية، إلا أن ارتفاع المهور وتفاوتها يعبران عن مدى الفرق بين الطبقات بحيث لا يستطيع أصحاب الدخول الصغيرة الزواج من الطبقة الثرية لذلك يظل الزواج محصورًا بين الطبقة الواحدة[٤].

ومن عادات الزواج تجهيز العروس وزينتها، فكانت تقام الولائم والعزائم ثلاثة أيام، اليوم الأول يسمى يوم الحمّام، إذ كان أهل الزوجة يعزمون أقارب الزوج من النساء للذهاب مع العروس إلى الحمام لتغتسل وتضفر شعرها، ويبقين معها ذلك اليوم للأكل والشرب، واليوم الثاني يوم النفش أو الحنة، حيث تحضر قريبات الزوج عند العروس، وتُنَقَش يدي العروس ورجليها بنقش أسود يسمى الخطط، كان يبقى أيامًا لا يزول بالغسل، وكان ينقش مع العروس أخص نساء أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وبعد الظهر تحضر النساء إلى البيت عند العروس ويبقين للمغرب، وكانت تحضُر النشّادة التي تُنشد الأشعار في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح الزوج وأهله وأهلها وتهنئتهم بذلك الزواج المبارك، واليوم الثالث هو يوم الحفلة، ويسمى يوم الدخلة وكان العريس والعروس يدعوان إليها ما يشاءون من الأقارب والأصدقاء، وكان العريس يحضر إلى بيت العروس مع أحد أقاربه أو أصدقائه للعشاء ويرجع إلى بيته[٥].

وكما تتزين العروس يتزين العريس، فيخضب يديه ورجليه بالحناء قبل الدخول على عروسه[٦]، وفي صباح ليلة العرس، يقيم الزوج وليمة في بيته يشترط فيها أن يحضرها من أهل

---

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٦١.

(٢) عمارة : المفيد ، ص٩٩.

(٣) السروري : المرجع السابق، ص٣٦١.

(٤) السروري : نفس المرجع، ص٣٦٢.

(٥) الواسعي : تاريخ اليمن، ص٣٠٥، ٣٠٦.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٨٦.

الزوجة ضعف من حضر مع الزوج عند أهل الزوجة، وعلى الزوج أن يذهب صباح اليوم الثالث للزواج للسلام على أم زوجته وتسمى " عمة " وعلى أبيها ويسمى " عمًا "[1].

وفي اليوم السابع للزواج يدعو الزوج أهل زوجته إلى بيته فيحضرون من الصباح الباكر حيث لا يكون لهم أي عمل سوى الأكل والشرب حتى المساء وبعد ظهر ذلك اليوم تحضر النساء من الجيران وغيرهن ويبقين مع العروس إلى المغرب[2]، وفي اليوم العشرين يدعو أهل الزوجة أهل الزوج وأقاربه وأصدقائه بحيث يكونوا ضعف من حضر في بيت الزوج في اليوم السابع، وبعد يوم الأربعين تستطيع العروس أن تخرج من بيت زوجها إلى بيت أهلها إذا دعا شيء إلى ذلك[3].

الطَّرْح :

هي عادة عند أهل زبيد وأهل اليمن كله في الزواج، والطرح كلمة تفيد معنى الإلقاء وهي نوع من الهدية المقدمة في المناسبات المختلفة كالأعراس والولادة وغيرها، وهي مساهمة المدعوين بمبالغ من المال على قدر حالتهم، ويظل هذا المبلغ الذي قدمه المدعوون دينًا على العريس يعيده فيما بعد في مثل هذه المناسبة من الزواج، فكان عندما يُقْدِم أحد الشباب على الزواج يدعو أصحابه وأصدقائه وزملاءه وأهله وأقاربه وعندما يحضر هؤلاء احتفال العرس، يكتبون أسماءهم في قرطاس موضحًا أمام اسم كل منهم المبلغ الذي يقدمه إلى العريس[4].

وقد تصل مبالغ الطرح لبعض الناس إلى مبالغ كبيرة سواء كانت نقدية أو عينية فتساعد في القيام ببعض أعمال التجارة، ولكن لابد من ردها بقيمتها التي أخذت بها[5].

ويمارس الطرح في مجتمع النساء بصورة أوسع، حيث كانت تقدمن ويأخذن الهدايا والأموال في مختلف المناسبات وكان عليهن ردها في مناسبات مماثلة بمعنى إذا كانت الهدية مقدمة في عرس لابد وأن ترد في عرس مثله، وإذا كانت في ولادة ترد في ولادة وإذا كانت في ختان ترد في ختان وما إلى ذلك، ويعتبر عدم رد الطرح عيبًا كبيرًا، لأن هذا المبلغ يكون دينًا لابد من الوفاء به، ولذلك كانت النساء إذا ما تحصلت على شيء أسرعت لتدفعه إلى أصحابه وإذا

---

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٢٥٠.

(٢) الواسعي : تاريخ اليمن، ص٣٠٦.

(٣) الواسعي : المصدر السابق، ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٢.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٧.

لم تستطع رده، اقترضت لترده[١].

وكانت من عادة المناطق الشمالية لزبيد من أهل الزَريْبة والعَنْبَرة والهَرْمه والقْرشيَه، عدم ظهور بناتهم قبل الزواج، فهم لا يسمحون للبنت بالخروج أو التزين " إلا إذا عقد نكاحها وقطع مهرها وسلم دفعها بعد ذلك تظهر البنت بطبل وزمر على رؤوس الأشهاد ويقدمون بالضيافات والطرح ويتقدم الناس للتسليم "[٢]، وقد علّل ابن المجاور عادة احتجاب البنت بأن أهلها كانوا يخافون إطلاع البنت وهي صغيرة على أعمال العرس أو الزواج من تزين وتجمل لأن ذلك يجعلها عندما تكبر تخرج عن الطريق الصحيح إلى غيره[٣].

كذلك تميزت نساء زبيد عن غيرهن من بلدان اليمن، بالقبول **بزواج الأباعد** أي الزواج من أجنبي بل ويفضلنه، فكان هذا الزواج مرفوض تمامًا عند نساء أهل اليمن إلا مدينة زبيد، إلا أن نساء زبيد كن يرفضن الخروج من زبيد واليمن كله مهما عرض لهن، فإذا تزوجت إحداهن أحد الغرباء تقنع منه بالقليل من النفقة والكسوة، وإذا سافر بغرض العودة تودعه وهي راضية وهي تتكفل بالنفقة على أولادها حتى يعود ولا تطالبه بنفقة وكسوة عن الأيام التي غاب فيها عنها، أما إذا كان الزوج مقيمًا فإنها تقنع منه بالقليل ولا تثقل عليه بمطالبها ويكون من طبعها الوفاء له[٤].

الطلاق :

وعن الطلاق، يذكر ابن المجاور صورة من صور الطلاق، وهي أن الزوج إذا أراد الخلاص من زوجته لعدم رغبته فيها فإنه يعطيها مهرها وتصبح مفروكة أي مطلقة، والزوجة إذا غضبت من زوجها لزواجه من غيرها تجمع حولها نساء الحي فتعلن فِرك زوجها بأن تهب له المهر وتخرج من البيت قبل أن يعطيها الزوج مهرها، وهذا الإجراء من جانبها لا يكون عيبًا ولا يلحقها العار، وتظل محترمة عند الرجال فلا تُهْجَر، بل يمكن أن يتقدم إليها الراغبون والزواج منها[٥].

الولادة :

كانت المرأة إذا وضعت مولودًا كان على الزوج بعد الوضع مباشرة أن يجد مكانًا فسيحًا

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧، ٨٦.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٣) ابن المجاور : المصدر نفسه، والصفحة.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة، ص١٦٥.

(٥) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص٨٥، ٨٦.

يفرشه بأحسن الفراش ويزينه بأن يضع على الجدران قماشًا مزركشًا أما الأطراف فتزركش بأشكال تخالف الوسط وعلى دائرة شريط، وهذا القماش مبطن بقماش، مخالف للوجه يسمى " السيدار " ويملأ الجدار والسقف بالزينة من الزجاج والبللور سواء كان المولود ذكرًا أم أنثى، ومن المعتاد أن تحضر النساء إلى بيتها من اليوم السابع حتى اليوم الأربعين، من الظهر إلى المغرب، وطيلة فترة وجودهن يشربن القهوة المخلوطة بالزنجبيل أو الهيل والسكر، وتحضر النشادة في معظم الأيام ذلك المجلس تنشد المدائح النبوية، وصاحبة البيت تحضر ماء الورد ليصب على الجالسات ويُبَخّر المجلس بالعود الطيب، وخلال الأربعين يومًا كانت المرأة تأكل في الإفطار البر المفتوت بالسمن والعسل الذي يسمى " المعصوب " وفي الغداء والعشاء تأكل الفراخ الصغار المسماه " إلشران "[١].

رابعًا : الأعياد والاحتفالات :

كان عيدا الفطر والأضحى كما هو شأن المسلمين في مقدمة الأعياد التي يحتفل بها أهل زبيد سنّة أم شيعة، وكذلك ليالي رمضان بالإضافة إلى الاحتفال بمناسبة نضح النخيل. وتحتفل زبيد شأنها شأن البلاد الإسلامية الأخرى برمضان، ويبدأ هذا الاحتفال قبل هلال رمضان بيوم أو يومين، فيزين الأهالي أسطح المنازل ويضربون عليها بالدبادب[٢]، أي الطبول، فإذا دخل رمضان اجتمعت مجاميع من الناس يدورون عند السحر يقرعون القصائد إلى آخر الليل، وهكذا كل ليلة إلى نهاية الشهر، فإذا قرب العيد جبوا الناس مقابل عملهم هذا[٣].

وكان الناس في بعض المناطق من زبيد كالمهجم شمال زبيد، يقيمون المطابخ في شهر رمضان ويدعون إليها عامة الناس، ومن أشهر من مقام بذلك الوزير النجاحي سرور الفاتكي فكان يتجه للمهجم ليقيم بها مطبخًا طوال رمضان، وبلغت مصاريف مطبخه في كل ليلة حوالي ألف دينار[٤].

ومن مظاهر الاحتفال بعيد الفطر، يخرج الناس لأداء صلاة العيد رجالاً ونساءً، وبعد ذلك يتزاور الناس فيهنئ بعضهم بعضًا بهذه المناسبة الدينية، ويهتم بعض الأثرياء الذين يأمرون عبيدهم بالكنس أمام دارهم ورش المكان ثم فرشه بالحصير ويطرحون عليها الريحان وبعض الأزهار الطيبة العبقة ويرشونها بالكافور وماء الورد الكثير، ويضعون في المباخر أنواع الطيب

---

(١) الواسعي : تاريخ اليمن، ص٣٠٧-٣٠٩.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص١٠٠.

(٣) المقدسي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : المفيد، ص٢٢٦.

الغالي الثمن، فيبخرون الموضع كله من الفجر وحتى انصرام الإمام، والناس من صلاة العيد وأمام كل باب أكواب الماء البارد ليشرب منها المصلين بعد خروجهم من المصلى[1].

وفي غلافقة يقوم بعض أهلها بوضع الأسمطة، الموائد بعد صلاة عيد الفطر، ويدعون الناس إلى أكل ما بها من أنواع الطعام والحلوى[2].

أما عيد الأضحى فكان بعض الأفراد يضحون بأنواع الأضحيات فيذبحون الأبقار، والماعز والضأن ويعدون أنواع المأكولات ويلبسون الملابس الجديدة[3].

ومن الاحتفالات التي تميزت بها زبيد، الاحتفال بموسم النخيل، ففي هذا الموسم بعد نضج الثمار وقطعها يتوافد اليمنيون على زبيد من كثير من أنحاء اليمن ليحضروا الاحتفال السنوي الذي يستمر شهرين أو ثلاثة أشهر حيث يختلط النساء والرجال ولا هم لهم سوى اللعب والضحك وشرب النبيذ الذي يُعد من التمر والبر والرطب الذي يصبح عمله في يوم وليلة ويسمى " الفضيخ "[4]، ويكون أكلهم الرطب مع الموالح والحوامض[5].

وإذا ما تم الانتهاء من جني الثمار وفرغ النخيل، خرج الصغار مع الكبار، والأبرار مع الفجار بالطبل والزمر، خلال يومي الاثنين والخميس إلى موضع اسم " الفازة " بالقرب من غلافقة، بعدما يلبسوا الجمال عدة تامة من الأجراس والقلاقل " الجلاجل " ويشد على رقبتها المعانق والحلي، ويركبون على كل جمل أربعة أفراد وبعضهم من أصحاب الثراء والجاه يركبون " الشقادف "[6]، بينما يسير الناس على الأقدام إلى البحر ليسبح الرجال، والنساء عرايا مختلطين، وهم في شرب ولعب ورقص، ثم يرجعون إلى زبيد بقية الأسبوع[7].

كما يحتفل أهل زبيد بمناسبة أخرى للنخيل، وهي ما تسمى " بسبوت النخيل " وذلك لأنهم

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤١.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٦٥.

(٣) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٤) المجاور : المصدر السابق، ص٧٩، ٨٠.

(٥) العقيلي : المخلاف السليماني، ص١٨٧، ١٨٨.

(٦) الشقادف : مفرد شقدف وهو صندوق خشبي ذو شقين يوضع على ظهر الجمل وبه أغراض وأدوات يستخدمها صاحبه. زين العابدين نجم : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٣٤٣.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص٨٠، ٨١.

يخرجون في أيام البسر والرطب[1] في كل سبت إلى حدائق النخيل، ولا يبقى في المدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه، والحلاوات ويخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل[2].

ومن خلال مظاهر الاحتفالات في زبيد بالأعياد الدينية أو المناسبة الشعبية، نلحظ ظاهرة الاهتمام بالآلات الموسيقية لدى أهل زبيد، فالاحتفالات كلها تصحبها الطبول والمزامير، والاحتفال بمواسم الزراعة، حتى الاحتفال بهلال رمضان والأعياد الشرعية كان يستخدم فيها الدبادب وهو نوع من الطبول إيذانًا ببداية الاحتفال[3].

العمران :

تنوعت العمائر الإسلامية في مدينة زبيد، واشتملت على أبنية عديدة، تخدم أغراضًا مختلفة، منها ما هو ديني كالجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والأربطة، والمشاهد والأضرحة والأسبلة، ومنها ما هو مدني كالقصور والمنازل والخانات والوكالات والحمامات وغيرها من المنشآت ذات الأغراض المدنية، وكذلك المنشآت الحربية والدفاعية كالقلاع والأسوار والأبواب والأبراج التي تميزت بمناعتها وصلابتها، ولا تزال أسوار وأبواب مدينة زبيد باقية كما في غيرها من المدن اليمنية كصنعاء وصعدة[4].

أولاً : العمائر الدينية :

تتميز عمارة المساجد عن بقية الفنون الإسلامية الأخرى في كونها نتاجًا لأكثر التعبيرات أمانة وصدقًا عن جوهر الروح الإسلامية، والأكثر استجابة وتجسيدًا للرسالة الإسلامية ووحي تعاليمه وأهدافه السامية، فمنذ قيام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بإنشاء أول مسجد في تأريخ الإسلام شهدت عمارة المساجد تطورات نوعية كبيرة بدافع تطور فن العمارة الإسلامي، وبفضل الاهتمام الكبير الذي أبداه المعماريون المسلمون في مختلف البلدان الإسلامية، فاكتسبت

---

(١) ثمرة النخيل لها أطوار، وكل طور له اسم، فأوله طلع، ثم خَلال بالفتح، ثم بَلَح ثم بُسر ثم رطب ثم تمر. الرازي : مختار الصحاح، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت، ص٥١.

(٢) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٢٥.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٨٠، ٨١.

(٤) مصطفى عبدالله شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة اسكرين للدعاية والتجهيز الفني، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ط١، ص١٧، ١٩.

العمارة خصوصية للمساجد من الناحية الفنية والجمالية والتراثية[1].

ومن المؤكد أن توظيف الفنون الإسلامية الأخرى في تشييد المساجد، كزخرفة الآجر والحجر والخشب والنقش على السيراميك واستعمال المرمر والرخام العربي بأنواع وخاصة الخط الكوفي الذي استخدم بشكل رائع وجميل في كتابة الآيات القرآنية الكريمة، قد أصبح من الحقائق المعمارية الثابتة التي مَيزت الطابع المعماري للمساجد الإسلامية وحملته ميزة خاصة عن سائر الفنون الأخرى، ومن هنا تأتي أهمية دراسة فن عمارة المساجد وتأريخ تطورها، وخصوصيتها من حيث القيمة الدينية والإبداعية[2].

وإلى جانب المكانة الدينية للمساجد، توجد الأهمية الدنيوية، حيث كانت مركزًا من مراكز الحياة العامة سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا، فكانت المساجد مركزًا للناس، ومقرًا للسياسة ومعهدًا للعلوم المختلفة، فيها يجتمع الناس، وفيها ينتقدون حكامهم وفيها تذاع قرارات الدولة، أو تعلن الثورة، وفيها تدرس العلوم والآداب والفقه وفيها كان يجتمع كثير من التجار الذين يحرصون على عقد صفقاتهم التجارية في المساجد، وفي بعض الأحيان كانت تقام الأسواق على مقربة من المساجد[3].

كما كان للمسجد دور كبير في النهضة العلمية والأدبية في زبيد، فكانت بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم، فكان كل عالم يتخذ سارية من سواري المسجد يجلس تحتها، ويلتف طلابه وتلاميذه حوله، وهناك كانت تتلقى الصبية دروس القرآن ثم العلوم العربية، كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب، وكثيرًا ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التي كان يعقدها العلماء والمناظرات الأدبية[4].

كما استفاد المسلمون من المساجد في بعض الأغراض الاجتماعية المختلفة، فيها يتلاقى الناس فيتحادثون ويتسامرون ويتآلفون، ويقيمون فيها بعض احتفالاتهم في الأعياد والمواسم

---

(١) رؤوف الأنصار : عمارة المساجد، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ط١، ص١١.

(٢) رؤوف الأنصاري : المرجع السابق، ص١٢.

(٣) علي حسن الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، حولية كلية البنات بجامعة عين شمس، مطبعة جامعة عين شمس، العدد ٣، يوليه ١٩٦١م، ص١٩٤-١٩٦.

(٤) علي حسن الخربوطلي : المرجع السابق، ص١٩٧.

الدينية والاجتماعية ويعقدون بها عقود الزواج[1].

وفي زبيد بنيت عدة جوامع، منها الجامع الكبير[2]، الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجري مع نشأة مدينة زبيد، وبداية الدويلات المستقلة، وأخذ أهميته الكبيرة كمسجد جامع في عصر الدولة الزيادية، وفي عهد القائد الحسين بن سلامة تم تجديده وذلك سنة ٣٩١هـ وفي عهد النجاحيين جددوا عمارته أيضًا، وعندما تولى بنو مهدي الحكم ٥٥٤هـ/١١٥٩م تعرض الجامع الكبير للهدم بعد إهماله لهم ومنعهم إقامة الخطبة فيه، ولبث خرابًا فوق خمسة عشر سنة[3]، وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن أمر توران شاه المبارك بن منقذ تجديد الجامع الكبير بزبيد فبدأت العمارة فيه سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، وعمره وجدده أيضًا سيف الإسلام طغتكين عام ٥٨٢هـ عندما أكمل مؤخرة الجامع والجناحين الشرقي والغربي والمنارة[4]، وكان يقام في هذا الجامع الجمعة والجماعات.

كذلك وُجِدَ في زبيد مسجد الأشاعر[5]، الذي كان يتوسط المدينة، وشيَّد هذا المسجد الصحابي أبو موسى الأشعري سنة ٨هـ/٦٢٩م، وكان له دور متميز في نشر العلوم الإسلامية لقاصديها داخل اليمن وخارجها، حيث درس فيه عدد من العلماء والفقهاء من أعلام القرن السادس الهجري، ويعد هذا المسجد من الناحية العمرانية واحدًا من أعرق المساجد اليمنية وأقدمها، وقد جُدد هذا المسجد عدة مرات على مراحل مختلفة وأول تجديد شهدِه كان سنة ٤٠٧هـ/١٤٠١٧م في عهد الحسين بن سلامة " الدولة النجاحية في زبيد " وكان تجديد شامل لعمارته ويتضح ذلك من الاسم المكتوب بالخط الكوفي على لوح من خشب الساج المثبت فيّ جدار قبلة المسجد ومازال هذا الاسم لحسين بن سلامة موجودًا[6].

وتوالت عملية عمليات التجديد في عهد الدولة الرسولية ثم عهد الدولة العثمانية[7].

---

(١) علي حسن الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، ص١٩٨.

(٢) مصطفى شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية، ص٤٥، ٤٦؛ غازي رجب : الفن العربي الإسلامي،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٨٢.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٨٠.

(٤) مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص٤٦.

(٥) رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد، ص٣١.

(٦) ابن الديبع : المصدر السابق، ص٥٣؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٥٢.

(٧) مصطفى شيحة : نفس المرجع، ص٤٩، ٥٠.

ومن الملاحظ استخدام بعض مواد البناء في عمارة الجامع أو المسجد في زبيد، ومنها الأحجار المختلفة خاصة نوع الحجر المعروف بحجر الحبش الأسود والذي يُجلب من المحاجر اليمنية الكثيرة المنتشرة في كل بلاد اليمن، كذلك استخدم الطابوق " الآجر "[1] في البناء أيضًا، إضافة إلى مواد الجص والنورة[2]، ومادة القضاض[3] التي تشبه الأسمنت، كما كان يستجلب من خارج اليمن المواد الجيدة من الأخشاب خاصة لزخارف السقوف[4].

ومن الملاحظ أيضًا أن كل مسجد أو جامع كان مزودًا بميضأة من حوض وأحيانًا بنوه من الأنابيب أو القنوات التي تحمل الماء إلى المصلين ليقوموا بفريضة الوضوء[5].

---

(١) الآجر : فرضت البيئة الحارة في زبيد على العمار استخدام الآجر في البناء نظرًا لتوفير التربة الطينية اللازمة لصناعته، فضلاً عن سهولة البناء به عن الأحجار، ويضع الآجر في محارق أو أفران خاصة وتجلب طينتها من الوديان الزراعية المحيطة بالمدينة ويتم تشكيلها بعد خلطها على هيئة قوالب مستطيلة أو مربعة أو مثلثة، ويتم إحراقها في الفرن، وتمثل المادة الأساسية للبناء. عبدالله الحداد : مدينة حيس، ص٢٤١.

(٢) النورة : هي مادة بنائية مساعدة تتكون من كلسية تشبه الجص، تستخرج من الجبال وتكون على هيئة صخور ضخمة يقوم العمال بتكسيرها إلى قطع صغيرة، ثم يضعونها في الفرن لإحراقها، ثم يوضع فوقها غطاء من الأحجار مع ترك بعض الفراغات بينها، ويملأ باقي الفرن بالحطب ويوقد عليها حتى تنضج وتتحول إلى قطع حمراء، وبعد أن يبرد الفرن تستخرج قطع النورة منه ويصب عليها الماء، والذي ينتج عن تفاعله مع النورة ما يشبه الغليان، وبذلك تتحول أحجار النورة إلى مادة بيضاء ناعمة. مطهر الأرياني : القضاض، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ١٤١٢هـ/١٩٢م، ط١، ج٢، ص٧٧٠، ٧٧١.

(٣) القضاض : هو خليط من مادة النورة والماء والنيس والحصى، ويتم خلط هذه المواد بطريقة معينة تستمر لعدة أيام، ثم تكس بها الجدران أو الأرضيات بكل دقة ومهارة في عملية طويلة، حيث يقوم العمال بتثبيتها على الجدران أولاً ويستمرون في عملية طرقها لعدة ساعات حتى لا يتركون أي فراغات تتخللها حتى ولو كانت فقاعات هواء ثم يقومون بتدليكها بواسطة أدواء ملساء حتى تجف تمامًا ويختتم التدليك بطلاء القضاض بطبقة رقيقة من الشحم لتمنع تسرب الماء مع الاستمرار في التدليك حتى يصبح سطح القضاض أملس مصمت. ومن المعلوم أن مادة القضاض استخدمت في إنشاء سد مأرب وغيره من السدود والقنوات والخزانات نظرًا لما تتمتع به من خاصية عدم السماح بتسرب المياه من خلاله فضلاً عن استخدامه في جدران القصور والمساجد لما يتميز به من شدة الصلابة والتماسك والشكل الجمالي.
Bannenfant, Baul : La, Qadad, Les Maisons Tours De Sana'a Les Presses Du Cnrs, 1989, pp. 151–161.

مطهر الأرياني : المرجع السابق والجزء والصفحات.

(٤) مصطفى شيحة : المدخل، ص١٨، ٢٣.

(٥) عبدالله كامل : الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ط١، ص١٥٦؛ مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص٢٥.

وتشغل المطاهير والحمامات والبرك " الميضأة " أهمية معمارية هامة في المساجد اليمنية ففي الجامع الكبير بزبيد توجد فتحة من الناحية الغربية من الجدار الجنوبي تؤدي إلى الحمامات والمطاهير بالمسجد والتي تتوسطها بركة المياه، وفي مسجد الأشاعر توجد الحمامات والمطاهير الملحقة بالمسجد من الناحية الشرقية[١].

أما المدارس :

انتشر التخطيط المعمار لها كمنشأة دينية بجانب الجوامع والمساجد في إطار العمائر الإسلامية، والمدرسة كتخطيط معماري، لها وظيفتها الخاصة، بتعليم الطلبة المذاهب الإسلامية أو بعضها، فضلاً عن العلوم الدينية الأخرى المتنوعة، ومن المعروف أن التخطيط المعماري للمدرسة يختلف تمامًا عن التخطيط المعماري للمسجد أو الجامع، فالمدرسة تعتمد على الإيوان[٢]، والمسجد يعتمد على الرواق، فضلاً عما تتطلبه المدرسة كوحدة معمارية للدراسة والتعليم من مساكن للطلبة والأساتذة وما يتطلب ذلك الأمر من أوقاف للصرف عليها تتضمن صيانة العمارة وأجور المدرسين ونفقات معيشة الطلبة[٣].

على أن كثير من مؤرخي اليمن مثل الخزرجي وابن الديبع وكذلك المعاصرين مثل القاضي إسماعيل بن علي الأكوع والدكتور مصطفى عبدالله شيحة والدكتور محمد سيف النصر أبو الفتوح وغيرهم أجمعوا على نشأة المدارس في اليمن " زبيد " ترجع إلى فترة الحكم الأيوبي الممتدة من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م-٦٢٦هـ/١٢٢٩م، حيث تذكر المصادر والمراجع أن المعز إسماعيل بن طغتكين هو أول من قام ببناء المدارس في اليمن[٤].

ولكن من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التاريخية، أمكن العثور على العديد من الإشارات التي تدل على وجود المدارس في زبيد قبل العصر الأيوبي، فقد ذكر ابن سمره الجعدي

---

(١) عبدالله كامل : الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، ، ص١٥٦.

(٢) الإيوان : هو مساحة مستطيلة الشكل مصمتة من ثلاث جوانب ومفتوحة من جانب واحد. مصطفى شيحة: المدخل، ص٨٣.

(٣) مصطفى شيحة : المرجع السابق والصفحة.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ مصطفى شيحة : نفس المرجع، ص٨٥؛ إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط١، ص٧.

في كتابه " طبقات فقهاء اليمن " لفظ مدرسة جامع الأشاعر بزبيد[1]، فضلاً عن ذلك، ما ذكره المؤرخ عماره اليمني : " أنه كان يدرس في مدرسة من مدارس زبيد، حيث يذكر أنه عند ظهور علي بن مهدي في ساحل زبيد، كنت ملازمًا له منقطعًا إليه في أكثر الأوقات مدة سنة، ثم علم والدي أني تركت التفقه، ولزمت طريق التنسك، فجاء من بلاده مستمرًا حتى أخذني من عنده وأعادني إلى المدرسة في زبيد وكنت أزوره في كل شهر زورة، فلما استفحل أمره انقطعت عنه خوفًا من أهل زبيد "[2].

ويذكر عمارة اليمني أن الملك النجاحي جياش بن نجاح قال وهو يتحدث عن خروجه إلى المهجم لقتل الملك علي بن محمد الصليحي سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م، وكانت الأخبار قد سبقتنا للصليحي بخروجنا والأسماع يومئذ قد امتلأت في الجبال والتهائم أن هذا وقت ظهور سعيد الأحوال بن نجاح حتى لا تكاد المساجد والمدارس والأسواق والطرقات تخلو من الخوض في ذكر ذلك[3].

كما يذكر عمارة أيضًا : " أن الوزير النجاحي أبو منصور مَنّ الله الفاتكي، تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية، وكذلك تصدق على الفقهاء أنفسهم بما أغناهم عن غيرهم من الأراضي والمرافق والرباع "[4]، كذلك كان سرور الفاتكي يصرف لهم سنويًا اثنى عشر ألف دينار فيقول في ذلك عمارة أيضًا : " رأيت جريدة الصدقات التي يدفعها عند دخوله زبيد للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثنى عشر ألف كل سنة"[5]. وذلك مما يدل على وجود المدارس المخصصة للمذهب الشافعي والمذهب الحنفي منذ عهد النجاحيين في زبيد.

ويمكم القول بأن هذه النصوص التاريخية تؤكد أن المدارس في زبيد وُجِدَت منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي سواء كانت عبارة عن مبان بسيطة ملحقة بالمساجد بمنازل العلماء أو مستقلة عن أي مبنى[6].

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤٥.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٤٩.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص١١٤.

(٤) عمارة : نفس المصدر، ص١٢٦، ١٢٧.

(٥) عمارة : نفس المصدر، ص١٤٦.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢١٤؛ عبدالله الحداد : مدينة حيس اليمنية، ص٩٤.

أما عن الخانقاوات :

مفردها الخانقاه، فهي ذات أصل فارسي، وبمعنى دار للتعبد، خاصة برجال الصوفية، وهي تشبه النظام المعماري المعروف لتخطيط المدرسة، إلا فيما عدا وجود خلوات في جناح منفصل إذا اجتمعت الخانقاه والمدرسة في مجموعة واحدة(1)، وهي تتكون من صحن أوسط يحف به إيوانات وحجرات لسكن الصوفية تتكون من عدة طوابق، وقد أسهمت الخانقاوات في النواحي التربوية والدينية والاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان فترة تأسيس وتنظيم الخوانق لانتشار المذهب الصوفي في اليمن، وذلك لانتشار أهم الكتب التي كتبت في الصوفية ومنبع أفكارهم وعقائد سلوكهم، ففي أواخر القرن الرابع، ألف أبو عبدالله السُّلمي "طبقات الصوفية"، وفي سنة ٤٣٧هـ ألف القشيري " الرسالة القشيرية "، وفي حوالي سنة ٤٨٨هـ ألف حجة الإسلام الغزالي " إحياء علوم الدين "، وزادت رقعة الصوفية وأوليائهم ومشايخهم وبنيت الخانقاوات بتشجيع من الحكام والأمراء، ابتغاء لطلب العلم، وانتشرت الصوفية في الشام واليمن وأصبحت من معالم الزهد والعبادة(2).

ومن اشتهر في اليمن من الصوفية في القرن الخامس الهجري " سود بن الكميت " المتوفى سنة ٤٣٦هـ، وفي القرن السادس أحمد بن أبي الخير المتوفى ٥٧٩هـ، وكان من عوام زبيد ثم تحوّل إلى التصوف(3).

وعن الأربطة :

فهو نوع من المباني الإسلامية في العمارة الإسلامية كان يسكنه المجاهدون في الإسلام(4)، ومنها ما أقدم على بناءه علي بن محمد الصليحي وذلك كمرحلة من مشروع طويل المدى قام من خلاله ببناء مسجد ورباط في كل مرحلة من المراحل الممتدة للطريق من زبيد إلى مكة(5)، وبدأ في التنفيذ حتى وصل إلى مدينة المهجم ولكنه قُتل قبل أن يتم المشروع(6).

---

(1) مصطفى شيحة : المدخل، ص١٧.

(2) أحمد بن حسن المعلم، القبورية في اليمن، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، صنعاء، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ط١، ص١٨٦، ١٨٧..

(3) أحمد بن حسن المعلم : المرجع السابق، ص٢٨٦.

(4) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٦٩-١٧٣.

(5) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٥، ٧٦.

(6) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٧٥.

كما وجد في زبيد الجنابذ والمشاهد :

فأما عن الجنابذ فهي أبنية لها قباب وأول من أنشأه في زبيد علي بن محمد الصليحي وأسماه الجنابذ، من الآجر المحكوك والجص " الجير " ويتكون هذا المبنى من ثلاث قباب متقاربة بين الواحدة والأخرى مقدار أربعة أذرع، وأشار إلى أن العامة يسمونه الكعبة، يصلي فيه من يدينون بالمذهب الإسماعيلي حيث كانت لهم شعائرهم الخاصة بهم، وعلى عادة الإسماعيلية في بناء مساجدهم فقد كانت الجنابذ زاخرة بالنقوش والكتابات المطعمة بالذهب والازورد، بالإضافة إلى نقوش وزخرفة بالجص، وهذا المبنى يحتوي على أموال عظيمة، وربما كانت هذه الأموال هي النقوش الذهبية أو هي أموال في خزائن خاصة، وحينما دخل سيف الدولة الأيوبي إلى زبيد أخذ هذه الأموال وجعل " الجنابذ " مسكنًا لقوم من الفقراء[١].

وعن المشاهد :

لم يثبت في تاريخ اليمن وجود قبر معظّم عليه مشهد أو مسجد قبل العقد الأول من القرن الخامس الهجري[٢]، وكان ذلك المشهد[٣] هو مشهد آخر أمير من أمراء بني زياد وعمته، إذ إن وزير الأمير الطفل ــ وسمي نفيسًا ــ كان قد قتل الطفل وعمته بتهمة أن المرأة كانت تكاتب خصمه ومنافسه نجاحًا، وكان وقتها فارًا من زبيد بسبب تسلط " نفيس " فقتلها هي والطفل، ثم بنى عليها جدارًا، فلما علم نجاح بذلك اتخذ ذريعة للانقضاض على خصمه ثم هجم بهم على زبيد في عدة وقائع آخرها سنة ٤١٢ هـ/١٠٢١ حيث قتل نفيس فلما دخل زبيد، وصلى عليهما، وبنى لهما مشهدًا، وأعاد مرجانًا في موضعهما، فبنى عليه حيًا وعلى جثة نفيس[٤].

ومن المشاهد الشهيرة في زبيد مشهد آل الصليحي المعروف بمشهد الرأسين[٥]، الذي يرجع تاريخه إلى أحداث قتل بني نجاح لعلي بن محمد الصليحي وأخاه وأخذهم رأسيهما، ونصبوهما بزبيد أمام زوجة الصليحي " أسماء بنت شهاب، وعندها هاجم الملك المكرم أحمد بن

---

(١) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٥٥، ١٥٦.

(٢) أحمد بن حسن المعلم : القبورية في اليمن، ص٢٦، ٢٦٧.

(٣) المشهد : عبارة عن مدفن يتكون الجزء الشرقي من ثلاث حجرات الوسطى مغطاة بقبة وبها مدفن. مصطفى شيحة : المدخل، ص١٧.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٥؛ أحمد المعلم : المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٥) أحمد المعلم : نفس المرجع، ص٢٦٧؛ عبدالله كامل : الفاطميون، ص١٥٧.

علي الصليحي زبيد لإنقاذ أمه من الأسر، واسترجاع ملك أبيه، أنزل الرأسين، ودفنهما في زبيد، وبنى عليهما مشهدًا، قال عمارة : " وأنا أدركت مشهد الرأسين "[١]، وكان ذلك سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م. كذلك المشهد الذي عاينه علي بن مهدي ـ مؤسس دولة بني مهدي في زبيد ـ لولده وأمره أن يُدْفَن فيه وأن يكون جامعًا يُصلى فيه الجمعة تأسيًا بمشهد الحرة الصليحية في ذي جِبْلة، وبالفعل دُفن علي بن مهدي فيه وعمل أولاده على قبره وصاروا يحجون إليه، كما دفن في المشهد مهدي بن علي بن مهدي بجوار والده[٢].

ولكي يُوَفِّر لهذا المشهد مواد لبناءه، أخذ ابن مهدي أخشاب الساج الهندية الموجودة في قرية الأهواب، التي تقع غرب زبيد، وكان أحضرها تاجر هندي معه من الهند عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م ليبني بها مسجدًا في الأهواب[٣].

على أن هذا المشهد قد خرب بعد ذلك وجعله ملوك بني أيوب اصطبلاً لخيولهم[٤].

أما الأسبلة :

فكانت غالبًا ما تلحق بالمسجد أو المدرسة في العمارة الإسلامية في اليمن خلال العصر الإسلامي، ونادرًا ما كانت منفردة[٥].

ثانيًا : العمائر المدنية :

ومنها القصور والمنازل، فالدولة التي حكمت مدينة زبيد في فترات متعاقبة كان لابد لها من دار للإمارة أو قصرًا للإمارة، متمثلاً في قلعة زبيد، وأشار لنا ابن المجاور[٦] واصفًا دار الملك كما أسماها قائلاً : أنها بنيت في عهد بني زياد، والذي بناها " شخار بن جعفر " وكانت دار ذات طول وعرض، بنيت بالآجر والجص، على مفترق داخل المدينة، وهي بالضخامة والمتانة ما جعلها باقية حتى عام ٦١٨هـ/١٢٢١م، بالإضافة إلى ذلك كانت محصنة حيث بنيت بطريقة مرتفعة عن الأرض، حتى أن كان الباب عاليًا جدًا إلى حد أنه أصبح كالبرج يشاهد منه القادم على بعد فرسخين " حوالي ١١ كم"، وحفر حوله خندق عظيم عميق عريض، وظل الباب هكذا

---

(١) عمارة : المفيد، ص١٣٤.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٥؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٥٧.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٦٣.

(٥) مصطفى شيحة : المدخل، ص١٨.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٨.

حتى هدمه المسعود يوسف بن أبى بكر الأيوبي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[١]، وأخذت مواد بنائه فبنى بها دورًا، وظلت آثار هذا الباب باقية حتى شاهدها ابن المجاور عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م[٢].

وقد مثلت دار الإمارة[٣] بزبيد مدينة ملكية، اتخذها بنو مهدي مقرًا للحكم والإدارة فأدخلت إليها المياه الكافية لحاجتها، عن طريق السراديب الأرضية التي مدت إلى داخل المدينة وضواحيها من الأعين الواقعة في أرس الوادي في زبيد، كما مدت إليها المياه من الآبار القريبة منها.

ارتبط مبنى قلعة زبيد أو دار الإمارة بسور المدينة[٤]، ووجدت بها أسوار عالية وتحصينات دفاعية، على امتداد أسوارها الشرقية وتحصيناتها، وكذلك الغربية والشمالية واليمانية وأحيطت برحاب واسعة، وامتدت من خلال موقعها الرئيسي إلى جميع أبواب زبيد الأربعة ومسجد الأشاعر والجامع الكبير وسوق زبيد الكبير[٥].

وكانت القلعة تتكون من الجناح الشرقي، وبه الحصون واصطبلات الخيل، ومخازن للأعلاف وارتفاع جدران سوره ما بين ثمانية أمتار، وسمكه حوالي ٥٠سم، والجناح الشرقي يضم بعض الحصون، والجناح الغربي فيه ثكنات خاصة بالجند، الجناح اليماني فيه مخزن للغلال من خمس قاعات مستطيلة. وجدير بالذكر أن بني مهدي قد بنو الجامع المشهد الذي دفن فيه علي بن مهدي في الجانب الشرقي من قلعة زبيد أو دار الإمارة[٦].

كما أن الأمراء والحكام بنو لهم ولأسرهم وحواشيهم قصورًا ضخمة تعبر عن الأبهة والفخامة ومن بين من بنى دورًا ضخمة، الوزير النجاحي أنيس الفاتكي وزير منصور بن فاتك النجاحي فقد بنى دارًا واسعًا أقام به عدة حجرات واسعة، عرض كل قاعة ثلاثون ذراعًا، وعرض كل مجلس فيها أربعون ذراعًا[٧].

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤٠.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص٢٤٧؛ أحمد إبراهيم صلاح : زبيد بين الماضي والحاضر، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٢٥.

(٣) عمارة : المفيد، ص٥٤

(٤) محمد عبدالستار عثمان : المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ أغسطس ١٩٨٨م، المجلس الوطني الثقافي، الكويت، ص٦٥.

(٥) محمد آدم المرزوقي : قلعة زبيد (دار الإمارة) دراسة تاريخية أثرية، ٢٠٠٩م، ص٤.

(٦) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٦٤.

(٧) عمارة : المصدر السابق، ص٢١٠.

وجدير بالذكر أنه عندما استولى بنهو مهدي على زبيد والقضاء على الدولـــة النجاحيـــة، وتولى الحكم سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩، استولوا على جميع ما ملك بنو نجاح من دور وأموال وكنوز وجواري وغير ذلك.

أما عن منازل مدينة زبيد، فتميزت بطراز معماري يتكون من عدة طوابق، تبعًـا للحالـة الاجتماعية والاقتصادية لصاحب المنزل، ويكون الطابق الأول عادة بمثابة مخزن، يتم فيه تخزين المواد اللازمة للمعيشة، والطوابق الأخرى معدة للسكن وفق نظام معين[١].

ومن العناصر المعمارية الهامة التي تتوافر في المنزل ما يعرف باسم المفرج وهو عبـارة عن قاعة فسيحة أشبه بالمنظرة، يوجد في قمة المنزل من أعلى وبه فتحات، ويـستخدم كقاعـة استقبال رسمية[٢].

وبنيت هذه المنازل من مادة الحجر، خاصة النوع الأبيض، حجر الحبش الأسود، بالإضافة إلى الأحجار البركانية، واستخدم في مادة البناء الآجر والطوب اللبن الذي يتميز بكبر حجم قوالبه واستعمل الخشب بين مداميك البناء في السقوف والأرضيات، وغشيت المنازل بالـداخل بمـادة الجص ومن الخارج بمادة النورة بالإضافة إلى مادة القضاض[٣].

هذا وقد زخرفت المنازل من الداخل بأشرطة من الجص، وازدانت بالكتابات والزخـارف المختلفة ويكثر بها وجود الشمسيات والقمريات والمشربيات الخشبية، ويستخدم علـى واجهـات المنازل العقود في الفتحات كزخرفة معمارية وهي ستائر تتخذ أشكالاً متنوعة وتركب فـي كـل نافذة تقريبًا وتعمل عادة من الجص الذي يقسم إلى أشكال مخرمة هندسية نباتية وحيوانية وكتابات لإبراز العناصر الزخرفية في كل عقد لتزيد من جمالها[٤].

الخان :

كان للخان دور تجاري في زبيد، فهو من المباني التي توجد على الطرق التجارية وكـان

---

(١) مصطفى شيحة : المدخل، ص١٨.

(٢) غازي رجب : الفن العري الإسلامي، ص٢٨٤.

(٣) مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص١٨ ؛

Bannenfant, Baul : La, Qadad, Les Maisons Tours De Sana'a, pp. 151-161.

(٤) غازي رجب : المرجع السابق والصفحة؛ مصطفى عبدالله شيحة : بعض التأثيرات الأسيوية علـى العمـائر والفنون الإسلامية، مجلة المؤرخ المصري؛ كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤ يوليـو ١٩٨٩م، ص٣٧٠، ٣٧٨.

بمثابة المكان الأمين لإقامة المسافرين والتجار في لأماكن التي تتعرض لهجمات اللصوص، كذلك كانت القوافل التجارية تحتاج إلى أماكن لتنزل بها بعد عناء السفر الطويل لتستريح ولتريح دوابها من التعب، وكذلك لتتمون بالماء والزاد إن احتاجت إليه ثم يواصلون السير نحو جهتهم المقصودة[1]، فهذا المكان يكون بمثابة منزلاً صغيرًا كان أم كبيرًا مهيئًا لاستراحة المسافر والتاجر، ليس على الطريق فقط وإنما داخل المدن أيضًا، حيث كانت مدينة زبيد مركزًا تجاريًا هامًا يأتي إليها التجار من أنحاء البلاد المجاورة برًا وبحرًا، فكانت من المحطات التجارية الهامة التي يرسوا فيها التجار ببضائعهم لذا وُجِدَ " الخان " في زبيد وبلاد اليمن.

والخان داخل اليمن يكون عبارة عن دار أو مكان لإقامة المسافرين يتكون من حجرات لإقامة المسافرين ومصلى وفي بعض الأحيان حمام بالإضافة إلى وجود إسطبل للحيوانات[2]، وغالبًا ما كان الخان قريبًا من الأسواق في زبيد.

الوكالات :

أيضًا وجدت الوكالات أو السماسر لشئون التجارة، وهي أبنية مخصصة لإقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة لزبيد، حيث كانوا يقيمون في الطوابق العليا وتوضع بضائعهم في مخازن بالطابق الأرضي، وكذلك حيواناتهم، وغالبًا ما كان مبنى الوكالة يتكون من عدة طوابق قد تصل إلى أربعة، تفتح حجراتها على فناء مكشوف، ويشتمل الطابق الأرضي على حوانيت مطلة على الطريق، وكانت الغرفة في المدخل تستخدم لسكن حارس الوكالة والذي يراقب دخول وخروج البضائع والحيوانات ويقوم بقبض الأجور[3].

والسماسر مفردها سمسرة، وتجمع في داخلها بين وظائف الخان والوكالة، فالخان مكان يكون صغير الحجم نسبيًا يخصص لنوم النزلاء، أما السمسرة أو الوكالة يزيد عليه في التخصص لتخزين البضائع، ويرتبط السماسر عمومًا بالنشاط التجاري بزبيد وبغيرها من المدن التجارية في اليمن[4].

انقسمت السماسر إلى نوعين رئيسيين من حيث التخطيط المعماري (أ) الشكل الرأسي وهي السماسر المتعددة الطوابق وذات الفناء المسقوف. (ب) الشكل الأفقي وتكون طابقًا واحدًا أو اثنين

---

(١) محمود إبراهيم حسن : الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١، ص٢٩٥.

(٢) محمود حسين : المرجع السابق، ص٢٩٥؛ مصطفى شيحة : المدخل، ص١٨.

(٣) خالد العاقل : أطلس تاريخ العمارة، القاهرة، ج١، ص١١٥؛ مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص١٩.

(٤) محمود حسين : نفس المرجع، ص٣٣٣.

وفناءً مكشوفًا[1].

استخدمت مواد بناء مختلفة في السماسر مثل الحجر البركاني الأسود والأصغر، والحجر الجيري الفاتح، والطوب المحروق رباعي الشكل، وكذلك مادة الجبس كمونة فاصلة بين الأحجار، وللتبييض في كافة الأجزاء الداخلية للسماسر، كما استخدمت مونة الطين المخلوط بالرمال والجبس في بعض أعمال البناء، وكذلك مونة القضاض الصلدة والناعمة كمادة واقية من تأثيرات المياه، على أوجه المباني، وعلى الأجزاء السفلية للمباني والحوائط لتبرز وجه زخرفي ناعم[2].

كما استخدمت عروق الخشب المدور الضخمة ككمرات حاملة وأعتاب للنوافذ والأبواب، وتفاوتت الزخارف التي تزين واجهات السماسر من حيث الحجم، على أنها كانت كلها زخارف هندسية، وقد لجأ المعماري في زبيد إلى نوع من الزخارف يعرف باسم القمريات على واجهة السماسر، وكانت القمرية عبارة عن جزء مستطيل يعلو النافذة، ويأخذ الشكل العلوي منه شكل العقد النصف دائري المزخرف هندسيًا.

ويلاحظ أن كثيرًا من السماسر، احتوت على أعمدة ذات تيجان منحوتة مختلفة الزخارف كلها منقولة من أبنية قديمة تعود إلى عصور سابقة على الإسلام، وكانت هذه الأعمدة تتفاوت الارتفاع تبعًا لارتفاع السقف المطلوب رفعه، واستعملت عقود متنوعة بوائك هذه السماسر إلا أن العقد النصف دائري كان العنصر المعماري الرئيسي الذي ظهر في عمائر هذه السماسر[3].

ثانيًا : المنشآت الحربية والدفاعية :

هي من المظاهر المميزة للعمارة في زبيد وأهمها الأسوار المنيعة المرتفعة المحيطة بمدينة زبيد والمدعمة بالأبراج والتي تعكس عدم الاستقرار السياسي والافتقار إلى الأمن والطمأنينة، والذي شجع حكام زبيد على تحصين المدينة وحمايتها من الغازين الطامعين[4].

تتميز أسوار زبيد بأنها دائرية الشكل، عالية بحيث لا يستطيع العدو اختراقها بسهولة[5]، فبعد تخطيط مدينة زبيد من قِبل الدولة الزيادية سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، وكانت المدينة مدورة أو

---

(١) محمود حسين : الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية، ج١، ص٣٣٦.

(٢) محمود حسين : المرجع السابق، ج١، ص٣٣٧ ؛

Bannenfant, Baul : La, Qadad, p. 151–161.

(٣) محمود حسين : المرجع السابق والجزء، ص٣٣٠.

(٤) غازي رجب : الفن العربي الإسلامي، ج٢، ص٢٨٤.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٨١.

مستديرة الشكل(١)، بُني لها سورًا بالطين وبه عدة أبواب وعدة حصون، يوضح ذلك المقدسي بقوله: " عليها حصن من الطين بأربعة أبواب : باب غلافقة، وباب عدن، وباب الشام وباب الشبارق "(٢).

ثم حدث أن بُنيت عدة أسوار لزبيد في عهودها المختلفة، فأول من قام ببناء سور لها بعد سورها القديم الحسين بن سلامة (٣٩١هـ-١٠٠٠م/٤٠٢هـ-١٠١١م) ويرجع ذلك إلى أن المدينة كانت قد توسعت في عهده خارج الأسوار القديمة، فأدار سورًا حول المدينة كلها جديدها وقديمها(٣).

ثم أدار النجاحيون سورًا آخر في عهد مَنّ الله الفاتكي وزير الأمير منصور بن فاتك ابن جياش النجاحي (٥٠٣-٥٢١هـ/١١٠٩-١١٢٧م)(٤)، واستمرت عملية بناء السور لمدينة زبيد في عهد دولة بني مهدي، حيث أداروا عليها سورًا ثالثًا، ودخل هذا السور في البناء الجديد الذي أنشأه بعد ذلك الملك سيف الإسلام طغتكين الأيوبي (٥٧٩-٥٩٣هـ/١١٨٣-١١٩٧م) فأدار سورًا على مدينة زبيد بناه بالطين واللبن في عرض عشرة أذرع ووضع عليه أربعة أبواب هي باب غلافقة إلى الغرب، وباب سهام إلى الشمال، وباب الشارق نحو الشرق، وباب القرتب نحو الجنوب(٥).

ثم أدار سورًا آخر بناه بالطين واللبن ذا طول كبير وسعة في العرض، وذلك لإسكان الجند فيما بين السورين بأموالهم ودوابهم، فلما فرغ من بناء السور توفى قبل أن يسكن الجند به فسكنوا في عهد المعز إسماعيل بن طغتكين(٦).

ويذكر ابن المجاور قوله : " عددت أبراج زبيد فوجدت بها مائة برج وتسعة أبراج، بين كل برج وبرج ثمانين ذراعًا، ويدخل في كل برج عشرون ذراعًا، وجعلوا على تلك البروج والأبواب

---

(١) كان تخطيط مدينة زبيد متأثرًا لحد كبير بنفس الشكل المستدير لمدينة بغداد، وهذا التأثير المباشر ربما كان ناتجًا عن وصية الخليفة المأمون العباسي للقائد الزيادي الأمير محمد بن عبدالله الزيادي بأن يحدث له مدينة باليمن ببلاد الأشاعر بوادي زبيد. مصطفى شيحة : بعض التأثيرات الأسيوية على العمائر في اليمن، ص٣٧٧.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٨٤.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٩؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص١٤٩، ١٥٠.

(٤) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٤.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة، السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٨٦.

حراسًا مناوبين "[1].

الحمامات :

أشار المقدسي إلى مرافق زبيد بأنها أكثر من مرافق مكة وأن حماماتهم نظيفة[2]، والمرافق تشمل أحواض الوضوء أي الميضئة والتي كانت تجاور أو ترافق المساجد، أما الحمامات فكانت لها مباني مخصصة للاستحمام، وهي معدة بالماء والحار والغرف الحارة ليعرق المستحم، ويصفها المقدسي بالنظافة، مما يدل على توفر المياه والعناية بها، وهذا ما أكده ابن بطوطة بأن مدينة زبيد كثيرة المياه، وكثيرة العمران[3]، ولا يوجد باليمن أجمل منها.

ولكن في بعض الفترات تأثر العمران والحياة الاجتماعية عمومًا من جراء الحروب والاضطراب السياسي لكون زبيد مسرحًا للنزاعات، وساحة للحروب بين الدول والسلطات المختلفة.

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٤.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٨٤، ٨٥.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص٢٢٤.

الفصل الخامس

الأحوال الثقافية
في اليمن في عهد دولة بني مهدي

الفصل الخامس
الأحوال الثقافية في اليمن في عهد دولة بني مهدي

المؤثرات الثقافية :

اليمنيون ورثة حضارة عريقة قديمة، فقد ساهموا مساهمة فعالة في ازدهار علوم الإسلام متأثرين كغيرهم من البلدان التي دخلها الإسلام بحركة الفكر الإسلامي السائدة في قلب العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، مثل مكة والمدينة والشام ومصر والعراق وخراسان وإفريقيا وكانت كل من مكة والمدينة هما المعبر الذي سلكته تلك المؤثرات حيث يلتقي اليمنيون بغيرهم من مسلمي البلدان الأخرى أثناء موسم الحج حيث يتوافد الفقهاء من أنحاء بلاد الإسلام كافة لأداء فريضة الحج. ويقول ابن سمرة : (وأكثر ما تفقه أهل اليمن في صدر الإسلام وما بعده إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية بفقهاء مكة والمدينة)[1]. ثم يعرجون بعد ذلك لليمن فكثير من طلبة اليمن تلقوا علومهم على يد علماء مكة أو الواردين إليها، فأخذوا عنهم علوم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك من حقول المعرفة.

وكذلك كان للعراق وبالنظر إلى ثقله العلمي المتميز ودوره الفكري الرائد، تأثير عظيم في مسيرة الحركة الثقافية وتطورها في اليمن قبل القرن السادس الهجري وبعده. فمن أشهر العلماء الذي انتقل من زبيد وأقام ببغداد محمد بن يحيى بن علي بن عمران الزبيدي (ت ٥٥٥هـ) واشتهر بوفرة مصنفاته التي بلغت ما يزيد عن مائة مصنَّف[2].

ولم تقتصر اليمن في علاقاتها الفكرية على الأخذ فحسب، بل ساهمت في العطاء الفكري، فكان لمدن اليمن دور رائد في نشر الثقافة العربية في إفريقيا، إذ ورد إليها في القرن السادس الكثير من الطلبة الأفارقة فأخذوا عن علمائها، وقد ذكر المؤرخ الجعدي عددًا من هؤلاء الطلبة ممن تتلمذوا على يد الفقيه الشافعي اليمني يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨هـ) منهم : ذكي بن عبدالله الحبشي، وأحمد بن مطروح الحبشي، وموسى بن يوسف الزيلعي، وأبو القاسم بن عبدالله، وإبراهيم بن محمد المثني، وعبدالله بن عبده، وأحمد بن المزكبان، ويوسف بن عبدالله المزكي، وهؤلاء الطلبة كانوا بمثابة جسر ثقافي يربط بين اليمن وإفريقيا فقد أسهموا بعد عودتهم

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٥.

(٢) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، دراسات يمنية، العدد ٥٠ أبريل – يونيو ١٩٩٣م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ص١٨، ١٩.

إلى بلادهم في نشر الثقافة العربية فيها[١].

على أن المذاهب الرئيسية المختلفة التي انتشرت في بلاد اليمن، كان لها تأثير كبير على الحياة الثقافية والسياسية والدينية والاجتماعية، وهي مذهب الإمام مالك الذي كان يُدَرَّس بها كتابه " الموطأ " ثم مذهب الإمام أبي حنيفة الذي كان مذهبه أكثر انتشارًا في القرون الثلاثة الأولى للهجرة[٢]، وقد ظل المذهبان المالكي والحنفي منتشرين في أنحاء اليمن حتى القرن السابع الهجري[٣]، أما المذهب الشافعي فأخذ في الانتشار في جميع أنحاء اليمن ابتداءً من القرن الرابع الهجري.

كذلك تأثرت اليمن بمذهب الإسماعيلية بقدوم ابن حوشب الكوفي وظهور علي بن الفضل في نهاية القرن الثالث الهجري، وبلغ هذا المذهب أوج قوته أيام الدولة الصليحية في القرن الخامس الهجري، واستطاع أن يحكم اليمن سياسيًا قرابة قرن من الزمن، ثم انتهى أمام كل من المذهب الشافعي في اليمن الأسفل والمذهب الزبيدي في اليمن الأعلى[٤].

كما تأثرت اليمن بالمذهب الزيدي بدخول الأئمة الزيدية منذ أواخر القرن الثالث الهجري ابتداء من سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م عندما قدم إليها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وأيضًا بدخول العديد من فقهاء الزيدية القادمين من خراسان مثل القاضي زيد البيهقي[٥].

وكان مذهب الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالاً وأقربها إلى السنة، فلم يكفر أتباعها أبا بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب ولا الصحابة[٦]، ولكن من الملاحظ أن الأئمة الزيدية تأثرت بمذهب الاعتزال باعتبار أن أغلب الزيدية هم تلاميذ المعتزلة بجانب دخول كتب المعتزلة إلى اليمن في القرن السادس الهجري بواسطة القاضي الزيدي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)[٧]. وكان علماء وفقهاء الزيدية كثيرين في بلاد اليمن، ولهم مصنفات عديدة، والمعروف أن أئمة الزيدية علماءً وفقهاءً حرصوا ــ كما حرص علماؤهم ــ على إبراز

---

(١) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، ص١٨.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٧٤.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٤١.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٥٩؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص٢٦٥.

(٦) البغدادي : الفَرق بين الفِرق، ص٢٥، ٢٦.

(٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٦٤.

حقيقة مذهبهم وتوضيح أسسه ومبادئه وسماته، وقد عاصروا الإسماعيلية ردحًا من الزمن، وردوا على ادعاءاتهم وعارضوا اتجاهاتهم المعارضة لمذهبهم والمتنافية مع آرائهم ومعتقداتهم[1]. مما كان له تأثير على انتعاش الحياة الفكرية في اليمن في ذلك الوقت.

على أن أهم مذهب تأثر به اليمن هو مذهب الإمام الشافعي منذ دخوله في القرن الثالث الهجري وظهوره بها في القرن الرابع[2]، وانتشر انتشارًا واسعًا في أنحاء اليمن، وذلك لدراسة اليمنيين على تلاميذ الشافعي وتلاميذ تلاميذه في كل من مكة والمدينة أو بقدوم الكثير من الشافعية إلى اليمن وكذلك دخول كثير من كتب الشافعية إلى اليمن مثل " الرسالة " للشافعي، و" المهذب " و" التنبيه " و" اللمع " للإمام أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٢م) و" العدة " للحسين بن علي الطبري (ت ٤٩٥هـ/ ١١٠١م) الذي كان ينصح تلاميذه بالاشتغال بالعلم ولا تصرفهم العبادة عن طلب العلم[3]، وكتاب " الإبانة " و"شرح التلخيص " لابن علي السنجي (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م)، و" الشامل " لابن الصباغ (ت ٤٧٧هـ/١٠٨٤م)[4]، وكذلك تأثر أهل السنة في اليمن وخاصة الشافعية بعقائد الإمام أحمد بن حنبل[5]، ثم بعده بعقائد الإمام أبي الحسن الأشعري[6].

وهكذا تأثرت اليمن بكثير من المذاهب المعروفة في العالم الإسلامي مما أثر على حركة النشاط الفكري فيها.

هذا من ناحية المذاهب الفقهية، أما من ناحية القراءات، فعرف الزركشي القراءات بأنها " اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تشديد وتخفيف وغيرها "[7]. وفي اصطلاح القراء عُرِّفت القراءات بأنها " وجوه مختلفة من الأداء في النواحي الصوتية أو التصريفية أو النحوية، واختلاف القراءات على هذا النحو اختلاف تنوع وتغير؛ لا اختلاف تضاد

---

(١) عصام الدين عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣٢٦.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٥.

(٣) وروى الشيخ الحسين الطبري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا لا خير في عبادة ليس فيها فقه ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر ". ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٥٠، ١٥١.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٦.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٦٣.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٥٦؛ أيمن فؤاد السيد : تاريخ المذاهب في اليمن، ص٧٣.

(٧) عبدالهادي الفضلي : القراءات القرآنية، دار البيان العربي، جدة، ١٣٩٩هـ، ص٦٤.

وتناقض يتنزه عنها الكتاب العزيز "[1].

أركان القراءة الصحيحة ثلاثة :

١- صحة روايتها، واتصال سندها إلى الرسـ ل صلى الله عليه وسلم مع توثيق رواتهـا الذين نقلوها.

٢- أن يكون للقراءة وجه في العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن.

٣- أن تكون موافقة لرسم المصحف العثماني[2].

فمتى استوفت القراءة الأركان السابقة لا يجوز ردُّها أو إنكارها، ووجب على الناس قبولها، ومتى اختل ركن منها أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة[3].

كان من أسباب ظهور القراءات الحكمة الإلهية التي ذكرها الرسول صلى الله عليه بقولـه " أنزل القرآن على سبعة أحرف "، ولأن المصحف في العهدين النبوي والراشدي غيـر معجـم " منقوط "؛ فتعددت القراءات من الصحابة والتابعين في القرنين الأول والثاني الهجريين ومـرت بهما القراءات بمرحلتين :

١- مرحلة نسخ المصاحف العثمانية، واتسمت هذه المرحلة بـبعض الخـصائص مـن أهمها[4]:

أ- أمر عثمان بأن يتم الاقتصار على ما ثبت بالتواتر واتصال الـسند القرآنـي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ب- كتب بطريقة تجمع وجوه القراءات والأحرف السبعة التي نزل بها.

ج- كتابته بلسان قريش لأنه نزل بلغتهم

د- ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن.

هـ- إهمال ما نسخت تلاوته، ولم يستقر في صحف حفصة رضي الله عنها.

و- تجريد ما ليس قرآن، كالذي يكتبه الصحابة في مصاحفهم الخاصة من شرح للآيات.

---

(١) السيد رزق الطويل : في علوم القراءات، مكتبة الفيصلية، مكة، ١٤١٥هـ، ص٢٧.

(٢) الطويل : المرجع السابق، ص٢٩.

(٣) الطويل : المرجع نفسه، ص٣٠.

(٤) سيد مظفر الدين : التاريخ الجغرافي للقرآن، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤، ٥.

٢- مرحلة التسبيع حيث اختار أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) بعد كثرة القراءات الشاذة والضعيفة والمكذوبة سبعًا من القراءات فقط لاقت قبولاً عند جمهرة علماء القراءات[١]، وبعد ذلك أضيف ثلاث قراءات فصارت القراءات العشر ثم أضيف أربع قراءات شاذة فأصبحت أربع عشرة قراءة[٢].

أصحاب القراءات السبع هم :

١- عبدالله بن كثير المكي (٤٥-١٢٠هـ)[٣].
٢- نافع بن أبي نعيم (٧٠-١٦٩هـ)[٤].
٣- عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧هـ)[٥].
٤- حمزة بن حبيب الكوفي (٨٠-١٥٦هـ)[٦].
٥- علي بن حمزة الكسائي الكوفي (١١٩-١٨٩هـ)[٧].
٦- عبدالله بن عامر الشامي (٨-١١٨هـ)[٨].
٧- أبو عمرو بن العلاء البصري (٦٨-١٥٤هـ)[٩].

من ناحية أخرى تأثرت اليمن بالقراءات السبع حيث دخلت فروع القراءات إلى اليمن عن طريق الطلاب اليمنيين الذين رحلوا للدراسة إلى مكة والمدينة وغيرها عن طريق العلماء الوافدين إليها.

ففي القرن الرابع والخامس الهجريين كانت القراءة الشائعة في اليمن هي قراءة عاصم وقراءة عمرو بن العلاء[١٠]، انتشرت فقراءة عمرو بن العلاء في كل زبيد، فكان غالب القراء

---

(١) الطويل : في علوم القراءات، ص٣٤، ٧٤.
(٢) الطويل : المرجع السابق، ص٧٤، ٧٥.
(٣) خالد عبدالله القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ، ص١٧٢.
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص٥٤٧.
(٥) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٣، ص٣.
(٦) ابن خلكان : نفس المصدر، ج٢، ص١٨٦.
(٧) ابن خلكان : نفس انمصدر، ج٣، ص٢٥٨.
(٨) خالد عبدالله القاضي :المرجع السابق، ص١٧٣.
(٩) ابن خلكان : نفس المصدر، ج٣، ص٤٠٨.
(١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٦-٩٧؛ أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص٥٧.

يقرؤن بها، وأوضح مثال على ذلك عندما قدم عمارة اليمن من قريته في المخلاف السليماني إلى زبيد للدراسة قرأ القرآن بحرف عمرو بن العلاء[١]، واستمرت هذه القراءة مستخدمة في زبيد في القرن السادس الهجري[٢].

أدت المؤثرات الثقافية إلى إنشاء المراكز العلمية باليمن وزبيد، كما كان للعوامل التالية أثرها في الحياة العلمية ومنهاء العامل الديني أو المذهبي هو العامل الأول في تأسيس المراكز العلمية في جميع أنحاء اليمن، حيث عملت الفرق المذهبية المختلفة على نشر مذهبها، وهكذا تميزت فترة الدراسة بالطابع المذهبي عند كل الفرق، وصبغت المراكز العلمية بصبغة مذهبية ودخلت في صراعات فيما بينها.

ففي الفترة التي سبقت حكم دولة بني مهدي في زبيد، قوى المذهب السني على حساب المذهب الإسماعيلي، فأخذ بنو نجاح على عاتقهم رفع لواء السنة في اليمن والدفاع عنها وسط محاولات الشيعة القضاء عليها وأصبحوا في نظر فقهاء السنة هم حماة للمذهب السني في اليمن[٣]، غير أن المذهب الإسماعيلي استعاد نشاطه وانتقل من دور الكتمان إلى الدور العلني بقيادة الصليحيين وتبعيتهم للخليفة الفاطمي في مصر، فاستولوا على مناطق متفرقة من اليمن امتدت من عدن إلى صنعاء[٤]. وبعد مقتل الخليفة الآمر بالله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م، استقلت الدولة الصليحية عن السيطرة الفاطمية وأصبحت الدعوة للإمام المستور الطيب بن الآمر، وبعد سقوط الدولة الصليحية ٥٣٢هـ/١١٣٨م انتقلت الدعوة الطيبية إلى بني حاتم في صنعاء وتمسك الزريعيون في عدن بالتبعية للفاطميين في مصر، وهكذا انقسمت الدعوة الإسماعيلية في اليمن[٥].
أما الزيديون فكانوا يسيطرون على مناطق اليمن الشمالية، وكان إمامهم قبيل الفتح الأيوبي لليمن هو أحمد بن سليمان الذي انتشرت في عهده المطّرفية التي أنشأت مدرسة لها في وَقّش وسَنّاع[٦]، وقد وصف يحيى بن الحسين هذه الفرقة بقوله : " وفي أيام الإمام أحمد بن سليمان استفرعت

---

(١) عمارة : المفيد، ص٢١٤.

(٢) بامخرمة : ثغر عدن، ص٧٨.

(٣) عبدالعال : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٧.

(٤) العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص٥٣.

(٥) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ط٢، ص١١٨.

(٦) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٣.

بدعة المطرفية ومذهبهم الردئ "[1].

ولما كانت زبيد في أغلب فتراتها حاضرةً سنية، على رغم من تأرجح السلطة فيها بين الصليحيين والنجاحيين، حيث كان الصراع حول زبيد على أشده فيما بينهما، فالنجاحيون سنة والصليحيون شيعة إسماعيلية، مما جعل الكثير من العلماء يتجنبون السكن بها وينتقلون إلى مناطق أخرى بعيدة عن الصراع السياسي[2]، كما وجد الصراع السياسي فيما بين النجاحيين وابن مهدي حول السيطرة على زبيد وعندما استولى عليها ابن مهدي ٥٥٤هـ/١١٥٩م هرب الكثير من فقهائها إلى جبال اليمن الأسفل وإلى عدن ومكة[3].

فضلاً عن العامل الجغرافي الذي لعب دورًا كبيرًا في تعدد المراكز العلمية في اليمن، ففي المناطق الجبلية كثرت بها المراكز نتيجة صعوبة المواصلات فيها بين المنطقة والأخرى، فمثلاً وجدت حول " ذي جبلة " العديد من المراكز[4]، بينما قلت في المناطق السهلية، فقد قدم عمارة من المخلاف السليماني من منطقة الزرائب إلى " زبيد " للدراسة بها[5]، مما يدل على أنه لم يكن بذلك المخلاف مركزًا علمي.

أما العامل الاقتصادي فكان له أثره في تعدد مناطق المراكز العلمية، فنجد أن المناطق التجارية والمناطق الأكثر خصبًا، أكثر سكنًا فاستقر بها العلماء ووفد إليها الكثير من الطلبة مثل الجَنَد والمَعَافِر وذي جِبْلَة وإِبّ وذي أَشْرق وعدن وزَبِيْد وغيرها[6]، فانتشرت في هذه البلاد أغلب المراكز العلمية اليمنية آنذاك، لتوافر الإمكانات المالية بها لتمويل التعليم ذاتيًا من قبل المجتمع أو العلماء، فكان الكثير من المدرسين يحضرون إليها للتدريس كما كان الكثير من الطلبة يذهبون إليها للتعلم[7]، ثم يعودون إلى مناطقهم حيث توجد أراضيهم ليستقروا بها، فتوافد الطلاب والفقهاء إلى تلك المراكز في كل مكان، بذلك أصبحت المناطق التجارية والزراعية الخصبة أكثر المناطق

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٠٤.

(٢) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٤٢، ص٣٧٥.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٩٤-١٠٢.

(٤) عمارة : المفيد، ص١٢٤، ١٢٥.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٤٥.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٨٨، ١٥٢.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص٢٤٦.

سكنًا، كما أصبحت أماكن سكن المدرسين والعلماء والطلاب مراكز علمية[1].

خصائص الحركة العلمية :

أولاً : شمولية المعرفة :

كانت أهم خصائص الحركة العلمية في اليمن هي الشمولية مثلها في ذلك مثل بقية الأمصار الإسلامية، فقد كان الفقيه يجيد عدة علوم سواء كانت علوم لغوية، مثل النحو واللغة والشعر والأدب، أو علومًا دينية مثل الفقه والحديث والتفسير والقراءات[2].

فممن كان يجيد الفقه والحديث وجمع بين علم الكلام وعلم القراءات، الفقيه أبو زكريا يحيى بن أبي الخير اليمني (٤٨٩-٥٥٨هـ) والذي وُليّ قضاء ذي جبلة في عهد بني مهدي وذلك سنة ٥٦٠هـ، كذلك الفقيه العلامة محمد بن يحيى بن علي الزبيدي (٤٦٠-٥٥٠هـ) وكان من علماء الحنفية وفقهائها، جمع ما بين علوم شتى منها الفقه، وعلوم اللغة العربية نحوًا وصرفًا وعروضًا وألف في ذلك كتبًا نفيسة[3]. وكذلك الحسين الزبيدي بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مسلم (٥٤٦-٦٣١هـ) وكان فقيهًا حنفيًا، ومحدثًا وأديبًا لغويًا، ومقرئً وله منظومات في اللغة والقراءات وفي علم الفرائض والعروض[4].

أيضًا أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) وكان فقيهًا وأديبًا ونسابه وعلى علم بالعروض واللغة والنحو وله كتب في ذلك[5]، اليمني الواعظ الزبيدي الحنفي محمد بن يحيى بن مسلم بن عمران (ت ٥٥٥هـ) وكان واعظًا حنفيًا عالمًا بالنحو والأدب وله كتاب في القوافي وكتاب في الحساب وغير ذلك[6]، ممن جمع بين قراءة القرآن وتحفيظه مع العلم باللغة والأدب، هو الأديب الفاضل الحسين بن علي بن محمد الزبيدي، الذي جمع مع كل ذلك الشعر ونظمه[7]. وممن جمع بين عدة علوم، الفقيه أبو عبدالله محمد بن موسى بن الحسين بن أسعد العمراني (ت ٥٥٨هـ/١١٦٢م) الذي كان أول من داوم في مجلس الإمام يحيى بن أبي الخير

---

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن ، ص٢٤٧.

(٢) اليافعي اليمني : مرآة الجنان، ج٣، ص٣١٨، ٣١٩.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٤٠٧.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٨.

(٥) إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج٣، ص١٦٨٤.

(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٩٨.

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ج٩، ص١٤٧.

أحمد سنة ٥١٧هـ/م١١٢٣م، فكان عارفًا بالفقه والنحو واللغة والحديث والفرائض والحساب[١].

وهكذا اتصف علماء اليمن وزبيد آنذاك بإجادة عدد من العلوم، مما يدل على شمولية المعرفة وهي الصفة التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

ثانيًا : الرحلة في طلب العلم .. الرحلة الداخلية :

ومن خصائص الحركة العلمية في زبيد واليمن، الرحلة في طلب العلم اعتمادًا على شهرة المدرس بالعلوم الدينية واللغوية، فحيثما يستقر الفقيه العالم في أحد مناطق اليمن ومنها زبيد يرحل إليه الطلبة من كل مكان من أنحاء اليمن، وقد كثرت الرحلات الداخلية من وأماكن متعددة في اليمن وإليها، ومن ضمن من اشتهر بالعلوم ورحل إليهم الطلاب نذكر منهم بعض العلماء : يحيى ابن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني[٢]، الفقيه، الإمام، وهو عالم كبير في الفقه وفروعه وأصوله، وعلوم العربية انتهت إليه رئاسة العلم والإفتاء في عصره وكان يُلَقّب بالإمام وجمال الإسلام وشمس الشريعة[٣]، وكان يُرْحَلُ إليه من نواح كثيرة من اليمن لطلب العلم، وكان قد تصدر للتدريس في بلدة "مَصْنَعة سَيْر "[٤]، ثم انتقل إلى " ذي السَّفَال "[٥] فأقام بها مدة قصيرة، ثم انتقل إلى " ذي أشرق " وأقام بها سبع سنوات، عندما ظهرت دولة علي بن مهدي سنة ٥٥٤هـ[٦]، واعتداؤه على علماء الشافعية في زبيد، فر كثير منهم إلى الجبال واتجه عدد منهم إلى ذي أشرق حيث كان يسكن الإمام العمراني، فاختلف هؤلاء مع علماء

---

(١) الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٤.

(٣) ويفسر هذا اللقب بعدة معاني منها ما كان له من رئاسة العلم والإفتاء في عصره، والحكم بشريعة الإسلام من خلال القرآن الكريم كمصدر للشريعة الإسلامية، وكونه شيخًا للشافعية ببلاد اليمن، وكذلك كونه عالمًا بالفقه فروعه وأصوله، وما كان له من مكانة جليلة عند طلابه وكذلك علماء وقضاة عصره. ابن سمره : المصدر السابق، ص١٧٤-١٨٢.

(٤) مَصْنَعة سَيْر : بلد باليمن في شرقي الجند، كانت من معاقل العلم الشهيرة في اليمن الأسفل فكانت موئلاً لطلبة العلم، ولا تجد في الجبال من المدرسين والمفتين والفقهاء والمحققين إلا من كان غالب تفقهه بها، إن لم يكن جملته أو تفقه على من تفقه بها. ياقوت : معجم البلدان، ج٣، ج٥، ص١٠٤؛ اسماعيل الأكوع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج٤، ص٢٠٦١.

(٥) ذو السَّفَالُ : بفتح أوله وآخره لام مشتق من السفل ضد العُلُوّ، وهي من قرى اليمن وقد نسب إليها بعض أهل العلم. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٣، ج٥، ص٤٨.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٤؛ إسماعيل الأكوع : المرجع السابق، ج٤، ص٢٠٦٣، ٢٠٦٤.

ذي أشرق الذين ناصبوهم العداء وكفّروهم، لأن فقهاء زبيد شافعية الفروع، أشعرية الأصول، بينما كان فقهاء ذي أشرق شافعية الفروع حنابلة الأصول[1] لا يتأولون المتشابه من صفات الله، ولكنهم يحملونها على ظاهرها، من غير تأويل ولا تحريف، فاضطر الإمام العمراني إلى الانتقال إلى قرية " ضراس "[2] للابتعاد عن ساحة الشقاق، ولاسيما بعد وصول قوات ابن مهدي إلى الجَنَد وقتل علمائها، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى ذي السَّفَال فاستقر بها حتى وافته المنية في ربيع الآخر سنة ٥٥٨هـ[3].

كذلك رَحَلَ للعلم الفقيه محمد بن عبدالله المُقَيْبِعي، كان عالمًا محققًا في الفقه، فانتقل من التُّرَيْبَة[4] إلى زبيد فسكنها ودرَّس بها حتى توفى بها سنة ٦٠٠هـ[5].

أيضًا كان الحسن بن إسحاق أبو محمد اليمني الذي عُرِف بابن أبي عباد وهي كُنية أبيه إمام النحاة في قطر اليمن، وإليه كانت الرحلة في علم النحو وإلى ابن أخيه إبراهيم، وكان الحسن عالمًا فاضلاً مشهورًا، صنف مختصرًا في النحو يدلّ على فضله ومعرفته، وكان موجودًا في أوائل المائة الخامسة، وتوفى قريبًا من سنة ٥٩٠هـ[6].

وكذلك أسعد بن محمد أبو محمد اليمني الذي كان عالمًا بارعًا في اللغة العربية، وكان فقيهًا أديبًا عارفًا بالفقه والعربية، ودَرَّسَ إلى أن مات سنة ٥٩٦هـ[7].

ومن العلماء الذين أثْروا علم الحديث، سيف السنة أبو العباس أحمد بن محمد البُرَيْهي السكسكي الكندي (ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م)[8]، الذي ذاع صيته في علم الحديث وقام بتدريسه في كل من إب وذي جِبْلَه ثم نزل مدينة الجَنَد للتدريس بها.

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٩.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٧٩.

(٣) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٤؛ إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج٤، ص٢٠٦٤.

(٤) التُّرَيْبَة : هي بلدة عامرة في الشرق من مدينة زبيد بشمال، وتبعد عنها بحوالي عشرة كيلو مترات، وهي من بلاد الأشاعر، وكانت من القرى المقصودة لطلب العلم، وجميع فقهائها كانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة. الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، ج١ ص١٤٣؛ المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص٩٠.

(٥) إسماعيل الأكوع : المرجع السابق، ج١، ص٢٥١.

(٦) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ص٥٠٠.

(٧) السيوطي : المصدر السابق، ج١، ص٤٤١.

(٨) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٩٠.

فارتحل إليه الطلاب لدراسة الحديث بها من أماكن متعددة من اليمن مثل " ظُبَا "[١] و" ذي أشرق " و" الشعبانية "[٢] وأعمال الجند وزبيد وغيرها.

وهكذا اتسعت الرحلة الداخلية في سبيل طلب العلم إلى مناطق كثيرة من اليمن.

الرحلة الخارجية :

جدير بالذكر أن نذكر بعضًا ممن رحلوا خارج اليمن بهدف طلب العلم والتفقه في الدين إلى مكة والمدينة والعراق ومصر وغيرها من البلدان، وعلى سبيل المثال :

رحل إلى مكة أبو الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م) وذلك عندما عمت سلطة ابن مهدي على اليمن، فارتحل بأولاده ونسائه ومكث في مكة سبع سنين، روى عن كبار المحدثين في الحرم منهم الشيخ الإمام أبى علي الحسين بن علي الأنصاري، والشيخ الإمام أبو حفص المانشتي، وعبدالدايم العسقلاني مقرئ الحرمين الشريفين أبى عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي، ثم عاد إلى اليمن في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٣].

العلامة العروضي النحوي محمد بن يحيى بن علي القرشي الزبيدي (٤٦٠-٥٥٥هـ/١٠٦٧-١١٦٠م)[٤]، كان من علماء الحنفية وفقهائها البارزين ولد في مدينة زبيد، وأخذ على علمائها في شتى الفنون وتفوق في علوم اللغة العربية نحوًا وصرفًا وعروضًا وألف في كل ذلك كتبًا نفيسة بلغت المئة مصنف، منها : " الرد على ابن الخشاب "، وكتاب "العروض "، وكتاب " القوافي " و" مقدمة النحو "، و" منار الاقتضاب ومنهاج الاقتفاء " في النحو[٥]، ورحل إلى دمشق ٥٠٦هـ طلبًا للعلم، فلم يحتمله ولاة الأمور (الأتابك طغتكين) بها لصراحته[٦] في وعظه فقصد بغداد وكان بها كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وانتفع الوزير ابن هبيرة بصحبته،

---

(١) ظُبَا : عزلة ما بين ذي السفال وسهفنة قرب الجند من أعمال إب. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٣٢٠.

(٢) الشُعْبَانية : عزلة كبيرة بها قرى كثيرة من أعمال تعز. ابن سمرة : المصدر السابق، ص٣١٨.

(٣) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٧-١٨٩.

(٤) الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، م٧، ١٩٨٦م، ط٧، ص١٣٧، ١٣٨.

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٩٨.

(٦) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٥٠٧.

وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ[١] ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد[٢].

ابن الزَّبيدي (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)[٣]، هو الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مَسلم بن موسى بن عمران الربعي الزبيدي، الحنبلي، أبو عبدالله، سراج الدين، فقيه ومحدث أديب، لغوي ومقرئ، تفقه وأفتى ودرَّس وحدث في بغداد ودمشق وحلب وغيرها، من تصانيفه " البلغة في الفقه "، و" منظومات في اللغة والقراءات "، توفي ببغداد في صفر سنة ٦٣١هـ[٤].

الفقيه الفاضل محمد بن محمد إسماعيل بن أبي الصيف، أصله من اليمن من أهل زبيد ثم رحل إلى مكة طالبًا للعلم فسكن بها، وله كتاب أسماه " الميمون " جمع فيه الأحاديث الواردة في فضائل اليمن وأهله، وجمع أربعين حديثًا عن أربعين شيخًا من أربعين بلدة، وله مصنفات أخرى وأكثر أسانيد أهل اليمن تنتهي إليه، توفي بمكة سنة ٦٠٩هـ[٥].

وإذا كان علماء زبيد واليمن ارتحلوا داخل اليمن وخارجه من أجل الحصول على العلم، نجد من ناحية أخرى أنه قَدِمَ إلى اليمن كثير من الفقهاء من الأمصار الإسلامية وساهم بعض منهم في النشاط التأليفي والحركة العلمية في زبيد واليمن ومنهم :

القاضي الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني (ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م)[٦]، كان أوحد عصره في علم الشرع والشعر والرياضيات والأدب والهندسة، قدِم إلى اليمن رسولاً من الخليفة الحافظ عبدالمجيد الفاطمي (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٢٩-١١٤٩م) إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي، وأقام في اليمن مدة، وانتفع به وبعلمه كثير من أهل اليمن[٧]، خاصةً أهل زبيد، حيث أنه أول من أنشأ عين للمياه الجارية خارج مدينة زبيد وعمل مجرى لها وأدخلها المدينة بتقنية هندسية محكمة، وله كتاب " الجنان ورياض الأذهان " كما صنف

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م٩، ص٤٤٣.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص١٩٢، ٢٠٣؛ بامطرف : الجامع " جامع شامل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم "، عدن، ١٩٨٤م، ط٢، ج٤، ص٦٧.

(٣) الزركلي : الأعلام، ج٢، ص٢٥٣.

(٤) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٤، ص٤٢، ٤٣.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(٦) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٦٧.

(٧) نصاري فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص٤٢؛ محمد كريم إبراهيم : عدن، ص١٨٣، ١٨٤.

باليمن " المقامة الحُصَيْبِيّة "[١] التي تدل على علم غزير وفضل كثير، وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[٢].

ثالثًا : انتشرت حركة التأليف في اليمن منذ بدأت حركة تصنيف المؤلفات في العالم الإسلامي في منتصف القرن الثاني الهجري، في مختلف العلوم الدينية واللغوية وكتابة التاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى النشاط الأدبي وبدا ذلك واضحًا في القرن السادس الهجري وهو ما نعبر عنه بالحركة العلمية في اليمن، ومن أهم هذه المؤلفات :

الدراسات الدينية :

تعتبر هذه الدراسات أظهر الحركات الفكرية في اليمن وزبيد باعتبار أن اليمن كانت في ذلك الوقت في أوج ازدهارها الفكري المذهبي، وتتميز بوفرة طلبتها وعلمائها ومجالاتها العلمية، وتأتي في مقدمة هذه الدراسات دراسة القرآن الكريم ويسمى علماؤها بالمفسرين.

التفسير :

عُرِّف علم التفسير بأنه " علم يُبحَث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك "[٣]، ووضع العلماء شروطًا يجب أن يتمتع بها المفسر، أهمها أن يعرف خمسة عشر علمًا على وجه الإتقان والكمال[٤].

ومن بين العلماء الذين أسهموا في مجال دراسة القرآن الكريم وعلم التفسير، علي بن محمد بن سليمان الرسي الذي يعرف بالمفسر، وضع " كتابًا في التفسير "[٥]، ووضع الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري (ت ٥٣٣هـ)[٦]، وهو من كبار أدباء اليمن رسالة في إعجاز القرآن

---

(١) سميت بالمقامة الحُصَيْبِيّة لأن مؤلفها كما جاء في مقدمتها نزل بالحُصَيْب وهو اسم الوادي الذي منه زبيد باليمن. ياقوت الحموي، ج٣، ص١٥٤؛ ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٣٤٦٩ ز ، وأخرى بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ١١٥ ب. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، هامش ص١٦٧.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨؛ اليافعي : مرآة الجنان، ج٣، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٣) القنوجي : صديق بن حسن (ت ١٣٠٧هـ) أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (٣ أجزاء)، ج٢، تحقيق : عبدالجبار زكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ص١٧٣.

(٤) القنوجي : المصدر اسابق، ج٢، ص١٨٥.

(٥) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق٦ هـ، ص٢٢.

(٦) أحمد الشامي : قصة الأدب في اليمن، دار العمير للثقافة والنشر، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ط٢، ص٣٣٢-٣٣٤.

والأعمال الشرعية عنوانها " رسالة في بيان إعجاز قرآن "، وألف محمد بن أحمد بن عبدالله بن سهل الخزرجي اليمني (ت ٥٦٧هـ)[١] كتاب " الدر النظيم في خواص القرآن الكريم"، أورد في أوله فصولاً في فضائل القرآن الكريم وتلاوته ، وألف نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ)[٢] كتاب " مسك العدل والميزان في موافقة القرآن "، وكتاب "التبيان " وهو تفسير للقرآن الكريم يقع في عدة مجلدات.

وفي مجال علم الحديث : يعتبر الحديث النبوي وعاء السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فمن الجدير بالذكر أن مضمون كلمة الحديث أشمل من مضمون كلمة السنة؛ لأن الحديث يتناول كل أقسام الكلم النبوي من " الأحكام والعقائد والرقائق والشمائل والمناقب والمثالب والفتن والأطعمة والأشربة والتفسير والمغازي والسير "[٣].

ومن رواد حركة التأليف من اليمنيين أبو قرة موسى بن طارق اللَّحْجي[٤] (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) ألف في علم الحديث كتابه " الجامع " واشتهر باسم " سنن أبي قرة " وقد وصفه الجندي بقوله[٥] : " لم يكن أهل اليمن يعولون في معرفة الآثار إلا عليه، وذلك قبل دخول الكتب المشهورة، وله دراسات قرآنية وتواليف في الفقه اقتبسها من الإمام مالك والإمام أبي حنيفة ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينه، وكان يتردد للتدريس بين لحج وعدن ومكة وزبيد، وترك تلاميذ في كل هذه البلاد، وله آثار طيبة فيها[٦].

كما أسهم عدد من علماء اليمن في القرن السادس الهجري بدراسة الحديث النبوي الشريف والتأليف فيه ومنهم على بن أبى بكر بن حمير الهمداني العرشاني (٤٩٤-٥٥٧هـ) وكان إمامًا في الحديث متقنًا للرواة، عالمًا بصحيحة ومعلوله، وروى عنه كثير من مشايخ اليمن " صحيح البخاري "، و" سنن أبى داود "، وله كتاب في الحديث سماه " الزلازل والاشراط "[٧]. أيضًا ألف

---

(١) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق٦ هـ، ص٢٢.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى ق٧ هـ، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد ١٣، يونيو ١٩٧٨م، جمادي الآخرة، ١٣٩٨هـ، ص١٠٨.

(٣) صبري المتولي : علم الحديث النبوي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٤١٨هـ، ص٥.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٩.

(٥) الجندي : السلوك، ج١، ص١٥٩.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٦٩.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧١، ١٧٢.

الإمام أحمد بن سليمان (٥٠٠-٥٦٦هـ)[١] كتاب " أصول الأحكام في الحلال والحرام " جمع فيه ما يزيد على ثلاثة آلاف حديث من أحاديث الأحكام وهو مرتب على أبواب الفقه[٢]، وكتاب " أصول الأحكام في أحاديث سيد آلاف الأنام "، وهو في الأحاديث الفقهية، تضمن ثلاثة مئة واثني عشر حديثًا[٣].

كذلك وضع محمد بن سعيد بن معنى القُرَيْظي (٤٩٧-٥٧٦هـ) وهو من كبار علماء الحديث كتاب " القمر "، وكتاب " المستصفى في سنن المصطفى " جمعه من كتب الصحاح، وهو من كتب الحديث المتداولة في اليمن[٤].

كما صنف في الحديث القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)[٥]، وهو من فقهاء الزيدية، كتاب " تيسير المطالب من أمالي أبي طالب "، وذكر فيه معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله وشمائله.

وفي **مجال الفقه** وأصوله، حفل اليمن في هذه الفترة من القرن السادس الهجري بعدد وافر من الفقهاء ذوي التأليف، وانتشرت مؤلفاتهم انتشارًا واسعًا.

والفقه[٦] في اللغة هو فهم غرض المتكلم من كلامه واصطلاحًا هو العلم بالأحكام الشرعية[٧]

---

(١) إبراهيم بن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، م١، ص١٣٢.

(٢) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، تحقيق دكتر الكه نيوونر، ابرخرد، ١٩٧٩م، ص٣٢، ٣٣.

(٣) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق٦ هـ، ص٢٢، ٢٣.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٢٥؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٤٣٣.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٦٤؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٠؛ عبدالعزيز المقالح: المرجع السابق، ص٢٣.

(٦) نشأت مدرسة الفقه في المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري مرتكزة على جهود فقهائها السبعة وهم : عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٣هـ) وأبو بكر عبدالرحمن بن الحارث (ت ٩٤هـ) وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ) وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة (ت ٩٨هـ) وخارجة بن زيد بن ثابت (ت ٩٩هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت ١٠٧هـ) وسليمان بن يسار (ت ١٠٧هـ). ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٣، ج١، ص٢٧٣، ج٢، ص٣١٣، ج٢، ص١٨٩، ج٣، ص٤٨٨، ج٢، ص٣٣٣.

(٧) وتشمل الأحكام الشرعية كلاً من العبادات والأحوال الشخصية والسياسية الشرعية والعقوبات وأحكام دار الحرب والسلم وأحكام العادات والآداب وفصل المنازعات أي القضاء. وهذه الأنواع قرّرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. خالد القاضي : الحياة العلمية، ص٢٣١.

العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية[1].

ومن ضمن من ألف أو شرح أو اختصر كتبًا في الفقه أو فروعه ما يلي :

إسحاق بن يوسف بن يعقوب بن عبدالصمد الصَّرْدَفِي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)[2]، كان علامة في علم المواريث، الحساب، والفرائض، وصنف كتاب " الكافي في الفرائض "، فاستغنى أهل اليمن به عن كافة الكتب القديمة في المواريث[3]، وقد وصفه الجندي بقوله : " ومنذ وجد كتابه لم يتفقه أحد من أهل اليمن في شيء من الفنون المذكورة إلاً منه "[4].

والفقيه القاضي أبو الفتوح عبدالله بن محمد بن علي بن أبي عقامة[5]، سكن زبيد وصنف كتاب " التحقيق " وله " مختصر في أحكام الجنايات "[6]. وصفه عمارة اليمني بقوله : " وصنف بالمذهب (الشافعي) والخلاف لم يفقه أحد من أهل عصره بعد تصنيفها إلا منها "[7].

والفقيه محمد بن الحسن بن عبدويه النهرواني كان من الأئمة[8] والفقهاء غزيري العلم، يرحل إليه الناس وكبار فقهاء اليمن من أهل أبين ولحج ليتفقهوا منه، الذي سكن عدن مدة ثم انتقل إلى زبيد أثناء حكم الدولة النجاحية وذلك سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، فكان مؤلفًا للمسلمين من كل أفق وله تصنيف في أصول الفقه سماه " المهذب " وأيضًا " الإرشاد "[9]، الذي تفقه به كثيرين من فقهاء أهل اليمن ومنهم راجح بن كهلان من أهل زبيد. وتوفى الفقيه محمد بن الحسن في ربيع الآخر سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م[10].

الفقيه زيد بن الحسن بن محمد الفائش الذي سكن أحاظة (٤٥٨-٥٢٨هـ/١٠٦٥-

---

(١) الجرجاني : التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق : إبراهيم الإبياري، ١٤٠٥هـ، ج١، ص٢١٦.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٠٦، ١٠٧.

(٣) كان فقهاء البلاد قبل تأليفه لكتابه، يتفقهون في الفرائض، بكتاب أبي بقية محمد بن أحمد الفرضي، و" بكفاية المبتدي " لمحمد بن يحيى بن سُراقة العامري. ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٠٧.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٢٨٤.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٢٤٠.

(٦) اليافعي : مرآة الجنان، ج٣، ص٣٢٥.

(٧) عمارة : المفيد : ص٢٨٩.

(٨) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٤٤

(٩) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٤٩.

(١٠) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٤٧.

١١٣٣م)[١]، كان عالمًا بعلوم كثيرة منها علم القراءات والتفسير والحديث واللغة والنحو والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام في التوحيد الدَّوْر والحساب، وكان رحّالاً في طلب العلم وجمعت خزانة كتبه ما يزيد على خمسمائة كتاب، وصنف في فقه الشافعي مختصرًا أسماه كتاب " التهذيب " وتفقه به فقهاء أهل اليمن كافة[٢].

كذلك منهم الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م)[٣] الذي وُلّيَ قضاء ذي جِبْلَة وأعمالها من جهة عبدالنبي بن مهدي من سنة ٥٦٧هـ بعد أن ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المُدَحْدَح، بين يدي عبدالنبي بن مهدي مرارًا، فقطعه واستظهر عليه وسأله بن مهدي أن يخطب على منبر زبيد وكان هذا يوم الجمعة، فنظم يومئذ الخطبة على المنبر، وولاه ابن مهدي قضاء إب وذي جلة من سنة سبع وستين إلى بعض أيام شمس الدولة تورا ن شاه[٤]. وله مصنفات كثيرة منها " مقاصد اللمع " وكتاب " جلاء الفكر في الرد على تقاة " نفاة القدر ردًا على المعتزلة في نفي القدر، و" سحر قناة القدرية "، وتصنيف آخر في " مناقب الإمامين أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، و" معونة الطلاب بفقه معاني كلم الشهاب "[٥] فجمع بين علم القراءات والحديث والفقه وعلم الكلام.

كذلك كان الفقيه ابن الزبيدي، الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)[٦]، له منظومات في علم اللغة والقراءات وله في الفقه مؤلفات منها " البلغة في الفقه "، وكان الفقيه ابن الزبيدي من المحدثين ببغداد ودمشق وحلب وبلدان اليمن ومنها زبيد[٧].

وممن كان له كثير الأثر في حركة التأليف في الفقه الزيدي الإمام المتوكل على الله أحمد

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص١٥٥.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٥٧، ١٥٨.

(٣)ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٦، ١٨٧.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، هامش ص١٨٨.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٨٨.

(٦) الزركلي : الأعلام، ج٢، ص٢٥٣.

(٧) عبدالقادر بامطرف : الجامع، ج١، ص٣٧٨؛ عبدالله الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص١٩٩.

بن سليمان بن محمد بن المطهر (٥٠٠-٥٦٦هـ/١١٠٦-١١٧٠م)[١]، فهو أحد أئمة اليمن الذين شجعوا العلم حتى خرجت كتب المعتزلة في أيامه من العراق إلى اليمن مع القاضي جعفر بن عبدالسلام أحد أعوانه[٢]، ومن مؤلفاته كتاب " الحكمة الدرية والدلالة النبوية "، وقسمه على مقدمة وثمانية فصول هي الفصل الأول في بلايا الأنبيا عليهم السلام، والثاني في المضادة بين الأشياء، والثالث في ذكر التأليف، والرابع في قضايا القرآن وإعجازه، أما الفصل الخامس في قضايا الرسول صلى الله عليه وسلم، والسادس في فضايل أمير المؤمنين عليه السلام، والسابع في فضايل أهل البيت عليهم السلام والثامن في ذكر الفرقة الناجية الزيدية[٣].

وأيضًا صنف الإمام كتاب " الزاهر في أصول الفقه "، وكتاب " المدخل في أصول الفقه"[٤]، وأيضًا الرسالة الصادقة في بيان ارتداد الفرقة المارقة (في الرد على المطرفية من الزيدية)، وكتاب " الرسالة الهاشمية لأنف الضلال من مذهب المطرفية الجهال "، وكتاب "العمدة شرح الرسالة الهاشمة"، وكتاب " الرسالة المتوكلية في هتك أستار الإسماعيلية "، و"محجة الزمان إلى معرفة حجة الزمان"، و" العمدة في الرد على المطرفية "، وكذلك كتاب "حقائق المعرفة في معرفة النظر ووجوبه"[٥]، وفي هذا الكتاب يذكر طرفًا من علم الكلام والأصول والفروع والمعقول والمسموع وتفاصيل المعارف وهي ثلاثة عشر معرفة، معرفة طريقة النظر ووجوبه ومعرفة الصنع، ومعرفة الصانع، ومعرفة التوحيد، ومعرفة الجزاء، ومعرفة الكتاب، ومعرفة الرسول، ومعرفة الإمام، ومعرفة الاختلاف[٦].

كما ألف في الفقه الحنفي القاضي محمد بن أبي عوف الحنفي الذي سكن زبيد وله مصنف

---

(١) ابن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، م١، ص١٣٢.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ط٢، ج٢، ص٣٤٦.

(٣) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص٣٣، ٣٤.

(٤) حميد بن أحمد المحلي : الحدائق الوردية في ذكر الأئمة الزيدية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ٢١٢، ج٢، تاريخ، ق١٠٧، ١٠٨؛ محمد بن زبارة : خلاصة سيرة الهادي من أرجوزة الأئمة، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ص٩٥، ٩٦.

(٥) حميد بن المحلي : الحدائق الوردية، ق١٠٨؛ عبدالله الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات ٢٠٠٤م، ص٦١٦-٦١٩؛ أحمد الشامي : جناية الأكوع على ذخائر الهمداني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط١، ص٦١؛ الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن، ص١٧٨، ١٧٩؛ عبدالصاحب عمران الدجيلي : أعلام العرب، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦م، ج١، ص٢٩١.

(٦) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص٣٣.

سُمّيَ " القاضي "، وهذا الكتاب مشهور عند الحنفية في زبيد، فأُخذ عنه بعد ذلك، حيث توفى في أوائل القرن السادس الهجري[١].

الدراسات اللغوية والأدبية :

لم تقتصر شهرة البلاد التهامية العلمية ومنها زبيد على علمائها الذين نبغوا في العلوم الشرعية المختلفة بل ظهر فيها أيضًا العديد من الأدباء الذين ساهموا في ازدهار علوم اللغة والأدب وكانت لهم مساهماتهم الواضحة في هذا المجال[٢].

ففي مجال اللغة العربية وجد الكثير من اليمنيين من ألفوا فيها سواء أكانت تأليفًا أو شروحًا، ومنهم :

الحسن بن إسحاق بن أبي عباده كان موجودا أوائل ق٦ هـ، له مختصر في النحو سمي " مختصر الحسن "[٣]، وقد وصفه الجندي بأن " غالب فقهاء اليمن وأنحائها كل منهم لا يستفتح الاشتغال بصناعة النحو إلا به "، فكان يقرؤه المبتدئون، وبلغ من أهمية هذا الكتاب أنه ظلّ يُدَرّس لأهل اليمن زمنًا طويلاً. وهو القائل[٤] :

لعمرك ما اللحنُ من شيمتي ... ولا أنا من خَطَأ ألْحَنُ

ولكنني قَدْ عَرَفْتُ الأنام ... أخاطِبُ كُلاً بِمَا يُحْسِنُ

وأيضًا ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أبي عباد (ت ٥٥٣هـ/١١٥٨م)، له " تلقين المتعلم " في النحو، وله " مختصر كتاب سيبويه "[٥] وعُرف " بمختصر إبراهيم "، ويعتبر الحسن وابن أخيه إبراهيم إمامين في النحو في اليمن في عصرهما، وليها وإليها ارتحل طلاب النحو من أنحاء اليمن[٦].

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٠٣، ص٢٤٩.

(٢) غيثان بن علي بن جريس : دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج١، ص٢٨٧.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج١١، ص٤٠٠.

(٤) الصفدي : المصدر السابق، ج١١، ص٤٠١.

(٥) الجندي : السلوك، ج١، ص٢٨٧؛ ياقوت : معجم الأدباء، م٢، ص٤٥٦.

(٦) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١١٤.

كما ألف أبو بكر بن أبي عبدالله بن محمد اليافعي (٤٩٠-٥٥٢هـ/١٠١٦-١١٥٧م) سكن الجَنَد ألف مختصر في النحو يعرف " بالمفتاح " وهو من الكتب المفيدة عند أهل اليمن(١).

كان للفقيه الحسن بن المبارك بن محمد بن يحيي الزَّبيدي (٥٤٣-٦٢٩هـ/١١٤٨-١٢٣١م)(٢)، مؤلفات في النحو، فكان على معرفة تامة بالنحو وكتب بخطه كثيرًا من كتب الأدب والتاريخ بجانب كتب التفسير والحديث، وكان الفقيه الحسن حنبليًا ثم تحول شافعيًا ثم استقر حنفيًا، يرتحل كثيرًا ما بين زبيد وبلدان اليمن، وبغداد، ومكة.

الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزَّبيدي الفقيه الحنفي (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)(٣)، كام عالمًا باللغة، حدَّث ببغداد ودمشق وحلب وله " منظومات " في اللغة والقراءة.

محمد بن يحيى بن علي بن مَسْلَمة بن موسى بن عمران القُرَشِيُّ الزَّبيدي، أبوعبدالله (٤٦٠-٥٥٥هـ/ ١٠٦٧-١١٦٠م)(٤)، وقد تقدم ذِكْرُ حفيدية : الحسن والحسين، ابنى المبارك بن محمد، كان فقيهًا إمامًا، نحويًا، أديبًا، بارعًا في علوم اللغة، وصنف كتبًا في فنون العلم تزيد على مائة كتاب، منها " الرد على ابن الخشّاب "، و" مقدمة في النحو "، وكتب في علم العروض عدة كتب منها " كتاب العروض "، وله أيضًا " كتاب القوافي "، و" منار الاقتضاب ومنهاج الاقتفا في النحو "(٥).

وكذلك نذكر الإمام العلامة أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي الحنفي الزبيدي (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م)(٦)، كان فقيهًا عالمًا فرضيًا حسابيًا لغويًا، نحويًا، أديبًا، نسابة، وصنف في فنون كثيرة منها " اللباب في الآداب "، و" مختصر في النحو "، وكان مشارك في فقه المذهبين الحنفي والشافعي في الفرائض، كما تأثر بمشايخ الصوفية الذين خالطهم في زبيد(٧).

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٦٥.

(٢) محيي الدين القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية، دار إحياء الكتب العربية، الرياض، ١٣٩٨-١٤٠٨هـ/١٩٧٨-١٩٨٨م، ج٢، ص٧٨، ٧٩؛ عبدالقادر بامطرف : المرجع السابق، ج١، ص٣٦٦.

(٣) الزركلي : الأعلام، ج٢، ص٢٥٣؛ عبدالقادر بامطرف : الجامع، ج١، ص٣٧٨.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م٩، ص٤٤٣؛ محيي الدين القرشي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٤، ٣٩٥.

(٥) الزركلي : المصدر السابق، م٧، ص١٣٧، ١٣٨؛ عبدالله الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص٣٧٢.

(٦) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب والتنبيه لذوي الأحساب، ص٧، ٨، ١٠.

(٧) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٤.

ومن علماء اللغة أيضًا علي بن سليمان الملقب بحيدرة، صاحب كتاب " كشف المشكل في النحو "[١]، والحسن بن محمد الرصاصي صاحب كتاب " المقصور والممدود "، وهما من علماء القرن السادس الهجري.

كما ظهر في اللغة كتاب قيم هو " شمس العلوم " لنشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ)[٢]، وهو من أعلام اللغة في ذلك العصر (ق٦ هـ) وهو معجم لغوي فقهي تاريخي يسير على الحروف الأبجدية، وفي هذا المعجم الكثير من المواضيع التاريخية المتصلة باليمن ونجد[٣]، وكذلك مصنفات متعددة في اللغة منها كتاب " شكل الروي وصراطة، السوي "[٤].

ويقول نشوان الحميري : العرب مخصوصة بأمور منها، البيان الذي ليس مثله بيان، واللغة التي ليس مثلها في السعة لغة، وللعرب الشعر الذي لم يشاركهم فيه أحد من العجم[٥].

كما نشطت الكتابات اللغوية في ذلك الوقت، فقد نشطت الكتابات الأدبية، فنبغ عدد غير قليل من الأدباء، جمع الكثير منهم بين قرض الشعر والنثر الأدبي، فصار موسومًا بالشعر من جهة أخرى، ومن أشهر هؤلاء : إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقا من أبرز شعراء زبيد، وكاتب الدولة النجاحية قبل سقوطها، وشعره كثير يتميز برقته وبساطته، وأشار إلى ذلك عمارة اليمني[٦].

ومن الكتّاب البارزين أيضًا أبو بكر بن أحمد العندي (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها، وكان شاعرًا وكاتبًا بليغًا، يعود إليه الفضل في تطور النثر الأدبي الفني في الدولة الزريعية التي عاصرت دولة بني مهدي في زبيد[٧].

---

(١) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢٢٧؛ عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ص٢٦.

(٢) عبدالعزيز المقالح : المرجع السابق، ص٢٦.

(٣) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص٣٤٩.

(٤) شاكر مصطفى : المرجع السابق، ص٣٤٨، ٣٤٩.

(٥) عصام الدين عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣٣٩.

(٦) عبدالعزيز المقالح : نفس المرجع، ص٢٦.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٦٩.

وأحمد بن محمد إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) الذي صنف في فن الأسمار وهو كتاب " اللباب في الأدب "[١].

ومن الجدير بالذكر منذ بداية القرن السادس الهجري زاد عدد علماء اللغة المهاجرين إلى اليمن إلى نهاية حقبة الدراسة، وكان للعلماء المهاجرين الريادة في ازدهار هذه العلوم عن طريق تدريسهم اللغة والنحو في المساجد، وتصنيف عدد من الكتب، ومن هؤلاء العلماء الشاعر المصري السكندري نصر بن عبدالله بن قلاقس (٥٣٢-٥٦٧هـ)[٢]، الذي تميز بموهبة الكتابة الفنية النثرية وترسّله الجميل الذي وصف به رحلاته إلى اليمن وصقلية، واشتغاله بتجارة الكارم وذكره لإلغاء الوزير صلاح الدين للمكوس عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٣]، وامتدح في كثير من كتاباته وشعره أبا الفرج ياسر بن أبي الندى بلال بن جرير المحمدي وزير آل عمران بن زريع في عدن، الذي أحسن إليه وأجزل له العطاء[٤].

النشاط الأدبي في الشعر :

شهدت الحركة الشعرية في اليمن خلال فترة الدراسة انتشارًا واسعا وظهر فيها نوابغ الشعراء والأدباء، ولهم شعر راق وجيد أغلبه بعيد عن التكلف، وقد تنافس الشعراء في بلاط الأمراء والسلاطين الذين كانوا يشجعون الشعراء والأدباء فيجزلون لهم العطايا والهدايا الفاخرة ويبالغون في إكرامهم، والشعراء يبالغون أيضًا في مدح الحكام، مما جعل الكثير من الناس يتأثرون بهذا المديح فيؤيدون الحكام ويسلمون لهم بالطاعة، لأن الشعر كان آنذاك بمثابة الإعلام عن الحكام وأعمالهم، ولذلك ظهرت نهضة شعرية شاملة في اليمن[٥].

فاتصف الشعر في معظمه بالمديح للأمراء والحكام والعلماء وغيرهم. كما شمل عدة أغراض منها الهجاء والغزل، التهديد والوعيد والتأنيب والرد والعتاب، والتوبيخ والرثاء والفخر والتحريض على القتال، كما تحدث عن فلسفة بعض الشعراء وعقائدهم المذهبية.

---

(١) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص٨؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣٣٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م٤، ص٥٦٠.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة، ج١، ص٢٤٢؛ خالد القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص٢٧٩.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م٢، ص٥٦١. ومن ذلك الشعر :

يا راويا عن ياسر ... خبرًا ولم يعرفه خُبرا

اقرأ بغرة وجهه ... صحف المنى إن كنت تقرا

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٧٠، ٢٧١.

وربما عبر الشعر عن قص حيوات الشعراء والأمراء والحكام وبلدانهم وقومهم، فيصف حيواتهم ومعاركهم ضد القبائل الأخرى، وانتصاراتهم وهزائمهم، إلا أن الشعر قد يشير إلى أخبار هامة للتاريخ في فترات حياة الشعراء والأمراء والمعاصرين لهم، ويوضح أسلوب حياة المجتمع الثقافية والاجتماعية والدينية.

وقد ظهر الكثير من الشعراء في اليمن وزبيد من نوعيات مختلفة في المجتمع منهم شعراء أمراء وحكام، وأدباء وكتّاب وفقهاء وقضاة، وكذلك أئمة أيضًا، وذلك لتعدد دوافع نمو الحركة الشعرية وازدهارها في هذا العصر فنبغ منهم عدد كبير.

فمن الملوك والحكام آل مهدي الشعراء وأولهم علي بن مهدي الحميري (٥٠٥-٥٥٤هـ/١١١١-١١٥٩م) وكان علي بن مهدي له نصيب كبير من العلم والأدب واشتهر بالفقه والمعرفة والبلاغة إلى جانب الإمارة والسلطة السياسية، ولقب بألقاب الخلفاء بعد أن تتلمذ على يد فقهاء وعلماء العراق، فأصبح يتمتع بالخطابة وحسن البيان[(١)].

فقال المؤرخ[(٢)] " يحيى بن الحسين " أن ابن مهدي لما استولى على زبيد عام (٥٥٤هـ/١١٥٩م) قال أبياتًا منها :

عناق العتاق الصافنات النّواتق ألذ وأشهر من عناق العواتق[(٣)]

وسهرتنا في الليل فوق ظهورها ألذ إلينا من رقاد النمارق[(٤)]

كما أن المؤرخ الحافظ بن عبدالرحمن بن علي الديبع، ذكر قبل يحيى بن الحسين القصيدة كاملة في كتابه " قرة العيون بأخبار اليمن الميمون " ونسبها إلى علي بن محمد أبودل "النواتق"[(٥)]. بلفظة السوابق " وأكمل القصيدة كما يلي[(٦)] :

وما العزّ إلاّ في صُهَا كل صاهل من الخيل لا في صهوتيْ كلّ ناهق

---

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٤٣٣.

(٢) اليماني : غاية الأماني، ج١، ص٣١٣.

(٣) هي الجارية الشابة البكر. ابن منظور : لسان العرب، ج٩، ص٢٧.

(٤) جمع نمرق وهي الوسادة. ابن منظور : لسان العرب، ج١٤، ص٣٥٩.

(٥) النواتق جمع ناتق وهو من الخيل الذي ينفض راكبه ويزعزعه. قرة العيون، ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٦) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الأول، ص٤٤١؛ قصة الأدب في اليمن، ص٣٣٩، ٣٤٠.

وفي الـــذابلات العاســلات مـــن القنـــا   وفي المـــــشرفيات العتـــاق الفواتـــــق

وفي بعض الأبيات الأخرى يصرح علي بن مهدي باسمه مفاخرًا بحكمه، وحكمته وبلاغته وبجبروته وملكه مغرقًا مبالغًا متعجرفًا، فيقول[1] :

أنـــا الـــسيد المهـــدي والفيلـــق الـــذي   يمـــزّق يـــوم الـــروع شمـــل الفيـــالق

لـــه حكـــم داوودٍ، وصـــورة يوســـفٍ،   وحكمـــة لقمـــان، وملـــك العمـــالقِ

أما مهدي بن علي بن مهدي الذي تولى الحكم بعد أبيه وقبض على زمام السلطة مع أخيه، فكما كان له أعمال سياسية وحربية كانت لديه نزعة أدبية وفكرية، وشعر حسن يدل على علوّ همته وما كان في نفسه من العزيمة وبعد الهمة في طلب الملك والفتنة، وقد أنشد له الشاعر أبو محمد بن عتيق المصري ابن الرفّا المقيم بالعراق، وهو يهدد قومًا في اليمن الآتي[2] :

أبلـــغ قـــرى " تعكـــر " ولا جرمـــا   إن الـــذي تكرهـــون قـــد دهمـــا

وقـــل لجناتهـــا ســـابد لهـــا   ســـيلاً كأيـــام " مـــأرب " عرمـــا

ظنـــت " خـــويلان " أن ستـــشغلني ،   عمـــيّ ، لمـــا ظنّـــت اللئـــام عمـــي !

كما أورد محمد بن عتيق الشاعر من شعر مهدي بن علي بن مهدي قصيدة فـــي حـــوالي ثلاثين بيتًا بها بعض الأخطاء[3] :

حلفـــت بـــسامي المجـــد يـــدرك بالجـــد   وحـــدّ اعتـــزام لم يقـــف بـــي علـــى حـــد

وعـــزّة نفـــس لم تكـــن مـــذ صـــحبتها   تنـــافس إلاّ في الرفيـــع مـــن المجـــد

وصـــحبة آســـادٍ تهـــزّ أســـاوداً ،   فمـــن فتيـــة مـــردٍ علـــى قـــرّح جـــرد

تخـــوض خـــضم البحـــر عـــبٌ عُبابُـــه   كـــصمّ صـــخور في غـــدير مـــن الـــسردِ

تطـــيح بتيجـــان الملـــوك ســـيوفها   وتبـــدلها مـــن عزهـــا صـــعر الخـــدّ

كما قيل بعض الشعر في غزوات مهدي بن علي بن مهدي على البلاد التي أغـــار عليهـــا واستباحها ومنها لحج التي أغار عليها مرتين وقتل كثيرًا من أهلها وسبى حريمها واستولى على أموالها... ومن ذلك[4]:

---

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٤٤١.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٤؛ أحمد الشامي، المرجع السابق، السفر الأول، ص٤٤٧، ٤٤٨.

(٣) تم تصحيح ما حُرِّف من ألفاظ في هذه القصيدة بواسطة الأستاذ أحمد الشامي : نفـس المرجـع، ص٤٤٨، ٤٤٩.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

لـــن عـــسكري لليـــل يعـــدو بدهمـــة ويزهـــو بميمـــون الزمـــان وشـــهمه

بـــأبلج إمـــا جـــاد لـــو فمحمـــد بيانـــا وإمـــا جالـــدوا فـــابن عمـــه[1]

أما آخر حكام وملوك دولة بني مهدي وهو عبدالنبي بن علي بن مهدي الذي " كان شاعرًا فصيحًا بليغًا مع المُلك والشجاعة والإقدام، وله ديوان شعر جيد ومن مستحسنات شعره القـصيدة المسمّطة التي احتوت على معان كثيرة، ورثى فيها والده، وشـهدت بمعرفتـه التامـة وفـضله الكامل"[2]، فهذه القصيدة تدل على أن عبدالنبي كان شاعرًا مجيدًا[3]، كما كان مقاتلاً، وكانت هذه القصيدة بمناسبة مهاجمته للأشراف السليمانيين وتغلبه عليهم وقتله لأميرهم وهاس ابن غانم ابـن يحيى بن حمزة بن وهاس وأخذ أمواله وسبى حريمه[4].

وأول هذه القصيدة التي تبلغ سبعة وأربعين بيتًا الآتي[5] :

لـــن طلـــول بـــالحمى كـــان كـــسين معلمًـــا تلقـــى بهـــا المـــصلّما والأحقـــب الكِـــدَّما[6]

لـــوت بوهـــاس ضـــحى فابتدرتـــه مرحًـــا فظـــل مـــن تحـــت الرّحـــي مـــضرّجًا مرغّمًـــا

ومنها :

عـبرت مـذ زمـنْ؛ أبكـي الـديار والـدمنْ؛ فما وجدت من ثمنْ أبكـى لوحـدي مغرمـا !

ولـو علمـت منـصبي ومـن أنـا ومـن أبـي لُطفـتَ حـول مـذهبي مـصليًا مـسلّما !

أنـا ابـن مـن جـرّ القنـا والخيـل تجـري سننا يلقي الخميس الأرعنا والقيروان الأدهما

أمامهـــا الرجبـــا ودرهـــا المحجبـــا الحـــوْليَّ القُلبّـــا المـــصقع المعظمـــا

أنـــت المجلّـــي " يـــا علـــي " وصـــاحب التبتـل لله أنـت مـن ولـي وقائـدٍ عرمرمـا

أعـــزز علـــي أن تـــرى مغيبًـــا تحـــت الثري فلو نبذت بالعرا ملأت قطريْها دما !

وقوله أنت المجلي يا علي يقصد أباه علي بن مهدي[7]، الذي يرثيه ويذكر له بإفتخار نصره

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٧٠، ١٧١.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص٣٢٤.

(٤) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة؛ ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص٦٠٣.

(٥) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٧١ إلى ١٧٣.

(٦) المصلم نثرية اللّم مقطوع الأذن أو الأذنين، والأحقب حمار الوحش، والمكرم المعضض لأنه مشتق من الكدم الذي هو العض بأدنى الفم. ابن الديبع : نفس المصدر، هامش ص٢٦٠.

(٧) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٤٥٢.

على بني وهاس السليمانيين[1].

وعلى الرغم من أن حكام دولة بني مهدي كانوا علماء وفقهاء بلغاء، خطباء وأدباء من الصغر، إلا أنهم طغوا وتجبروا سياسيًا وحربيًا مدة حكمهم لمدينة زبيد في اليمن.

أما الأئمة الشعراء فأبرزهم الإمام أحمد بن سليمان الذي تولى الإمامة الزيدية في (٥٣٢-٥٦٦هـ/١١٣٧-١١٧٠م)[2]، وهو المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر علي بن الناصر أحمد بن الهادي للحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الهاشمي اليمني[3]. ولد سنة خمسمائة، ونشأ على طريقة آبائه الأطهار وسلفه الأخيار، جامعًا بين العلم والعمل، درس في الأصوليين على الفقيه زيد بن الحسن البيهقي الخراساني القادم إلى اليمن، والسيد الحسن ابن محمد المرتضي، وعن الفقيه عبدالله بن علي العنسي اليماني الواصل من بلاد الديلم إلى اليمن سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، وعن الشيخ إسحاق بن أحمد بن عبدالباعث اليمني أمام محراب جامع صعدة وخطيبه، وغيرهم من أعلام عصره[4].

وكان الإمام أحمد بن سليمان عالمًا كبيرًا وشاعرًا وأديبًا ناظمًا ناثرًا زاهدًا عابدًا شجاعًا ومجاهدًا، وممن امتدح نسبه الشاعر نشوان الحميري حيث قال[5] :

يا بْنَ الأئمةِ مِنْ بني الزَّهراءِ	وابْنَ الهُداةِ الصَّفْوةِ النُّجباءِ
وإمام أهل العصر والنور الذي	هُدِيَ الوليُّ به منَ الظلماءِ

ابتدأ الإمام دعوته من بلاد صعدة ونجران والجوف باليمن[6]، داعيًا الناس إلى الرشاد والمبايعة، وبعث ولاته إلى بلدان كثيرة في اليمن منها وادعة وسنحان وشريف وخولان وصنعاء وبلاد مذحج ونواحيها، وبعث إليهم قوله[7] :

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٠.

(٢) يحيى بن الحسن : طبقات الزيدية، ق٦٠، ٦١.

(٣) إبراهيم بن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، م١، ص١٣٢.

(٤) أحمد بن المحلي : الحدائق الوردية في ذكر أئمة الزيدية، ق١٠٦، ١٠٧.

(٥) أحمد الشامي : جناية الأكوع على ذخائر الهمداني، ص٦٢.

(٦) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص٣١.

(٧) محمد زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص٩٦.

ما إن بكيت على رسم ولا دمن	ولا لطلعة ظبي أغيد حسن
لكن بكيت على الإسلام حيث ذوى	مخضره وثوي في اللحد والكفن
لما رأيت الهدى قد مات واندرست	أعلامه فسبيل الحق لم يبن
نهضت أدعو عباد الله مجتهدًا	إلى الهدى وفروض الدين والسنن

وفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وعندما بايعت قبائل حاشد الإمام أحمد، سار إلى بلاد وادعة ثم الجوف حتى وصل إلى بلاد جنب وذمار، وكان ذلك في عيد الأضحى فقال قصيدة منها(١):

لأحكمن صوارمًا ورماحا	ولأبذلن مع السماح سماحا
ولأقتلن قبيلة بقبيلة	ولأسلبن من العدى أرواحا
ولأجلون الأفق عن ديجوره	حتى يعود دجى الظلام صباحا

لقد صادف قيام دولة بني حاتم في صنعاء قيام الإمام أحمد بن سليمان أمر الإمامة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، فلما استولى حاتم بن أحمد على صنعاء سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م أصبح يشكل خطرًا على دولة الإمام الواقعة إلى الشمال من دولة بني حاتم، فأراد الإمام أن يؤمن حدود بلاده بالاستيلاء على صنعاء والتخلص من دولة حاتم بن أحمد أو مخاطبة السلطان حاتم والدخول في طاعة الإمام(٢).

فرد عليه السلطان حاتم وتمثل بقول المتنبي(٣) :

كدعواك كل يدعي صحة العقل	ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

فرد عليه الإمام أحمد بن سليمان قائلاً(٤):

إذا كنت لا تدري بما فيك من جهل	فذاك إذًا جهل مضاف إلى جهل
ولم انتحل ما ليس فيّ وإنما	مقالي حق قد يصدقه فعلي
ومن جحد الرحمن والرسل لم يكن	بمعترف يومًا بحق بني الرسل
وكل عباد الله غيرك عارف	بما فيّ من أصل شريف ومن فضل

ومن قصائد الإمام أحمد ما قاله عند علمه بخبر مقتل الأمير وهاس بن غانم أمير المخلاف السليماني على يد ابن مهدي بغتة، وقد اغتم لذلك غمًا شديدًا وأكثر غمه لسبي الحرائم وقال لا

---

(١) محمد زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص١٠٠.

(٢) أحمد بن المحلي : الحدائق الوردية، ق١٠٨.

(٣) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٢٦.

(٤) أحمد بن المحلي : المصدر السابق والصفحة؛ سليمان الثقفي : المصدر السابق، ص٢٢٦.

حرم الله وهاسًا لقد كان لنا غمًا وعارًا في حياته ومماته وكتب إلى الأمير قاسم بن غانم يعزيه في أخيه ويؤنبه وكافة بني هاشم فيما جرى بقوله[1] :

هو الدهر يرضى أهله ثم يغضب ... ويبني لهم حينًا وحينًا يخرب

ويرفعهم حينًا ويخفض مرة ... ويعطي ويستعطي ويكسو ويسلب

كفعل ابن مهديٍّ اللعين وحزبه ... وهم ثلة ترعى المواشي وتحلب

وما أظهروا من منكر في تهامه ... وخطب جسيم صَدْعُهُ ليس يشعب

وقد كانت الأحبوش فيها أعزة ... ملوكًا لهم أمر ونهي ومرحب

فأخرجتهم من أرضهم وبلادهم ... وقد عجزت عنهم نزار ويعرب

وما كان هذا باقتدار وقوة ... وهم عصبة تجني وتشري وتوهب

ولكن أخافوا الناس حتى تمكنوا ... بقتل اليتامى والنسا ثم أرعبوا

وصالوا على الوهاس غدرًا وبينه ... وبينهم عقد ولم يتطيبوا

كذلك ساهم القضاة في حركة الشعر في زبيد واليمن فمن الشعراء القضاة بنو أبي عقامة في زبيد منهم القاضي محمد بن عبدالله علي بن أبي عقامة المعروف الحفايلي (ت حوالي ٥٥٤هـ/١١٥٩م)[2]، وهو فقيه متكلم، شاعر مترسل، كان بينه وبين الشاعر عمارة اليمني مطارحة شعرية، فمنه ما كتبه جوابًا على عمارة[3] :

إذا فاخرت سعد العشيرة لم يكن ... لأخلاقها إلا بأسلافك الفخرُ

وبيتك منها، يا عُمارةُ، شامخٌ ... قَوَتْ تحته الشِّعرى، دان الشِّعْرُ

وأيضًا القاضي أبو الفتوح بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي عقامة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[4]، كان فقيهًا إمامًا عالمًا وشاعرًا جوادًا مدّاحًا ممدّحًا،، يخلع على الشعراء ويغنيهم، وكان من شعراء اليمن المجيدين المكثرين في كل منه، وفيه يقول القاضي عبدالعزيز بن الحباب المصري حين قدم

---

(١) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٥٢ إلى ٢٥٤؛ وهذه القصيدة ٤٤ بيتًا من الشعر.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤٠.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٨٨-٢٩١؛ إسماعيل بن علي الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج١، ص٥٢.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق والصفحة.

اليمن من قصيدة وكانت بينهما صداقة ومودة[1] :

أبـــني عقامـــة لســت مقتـــصدًا   في وصـــفكم بالمـــدح مـــا عـــشتُ

علقـــت يـــدي مـــنكم بحبـــل فتـــىً   مـــــا في مرائـــــر ودّه أمـــــتُ

كذلك في قصيدة في الفخر منها[2] :

أصيـــغ أذنـــًا وانظـــر بعينـــك هـــل تـــرى

مـــن النـــاس إلا عقامـــة تـــردفُ

تـــرى النـــاس مـــا ســـرنا يـــسيرون خلفنـــا

وإن نحـــن أو مأنـــا إلى النـــاس وقفـــوا

وله رائيًا أسرته حينما زار مقبرتهم في العَرقْ خارج مدينة زبيد[3] :

يـــا صـــاح قـــف بـــالعَرْق وقفـــةُ مُعْـــوِلِ

وانـــزل هنـــاك فـــثمّ أكـــرمُ منـــزل

كذلك ساهم الشعراء الفقهاء في حركة الشعر، في زبيد واليمن بشعر جيد، فمـن الفقهـاء الشعراء الفقيه أبو العباس أحمد بن علي بن بُجارة الحنفي[4]، أصله من قرية التُرْبَية بالقرب من زبيد ولا نعلم سنة وفاته. كان شاعرًا مبرزًا في الأدب واللغة وعلم الكلام، يحذو طريق أبى نواس في الاشتهار بالخلاعة، فقد اجتاز ليلة وهو سكران بدار القاضي أبى الفتوح بن أبي عقامة، وكان القاضي فظًا في ذات الله عزّ وجل، وابن بُجارة يخلط في كلامه فصاحَ عليه، وليس عنده أحد من الأعوان : إلى هذا الحدّ يا حمار، فوقف ابن بُجارة مخاطبًا للقاضي[5] :

ســـــكراتُ تعتـــــادني وخِمـــــارُ

وانتـــــشاء أعتـــــادُه وتعـــــارُ

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١٣٧.

(٢) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الثاني، ص١٣٧.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٨٩؛ إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج١، ص٥٣.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص٢٩٤؛ إسماعيل الأكوع : المرجع السابق والجزء، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٥) إسماعيل الأكوع : نفس المرجع والجزء، ص٢٥٣.

فملـــــومٌ مــــن قـــــال : إنـــــي ملـــومٌ

وحمـــــارٌ مـــــن قـــــال : إنـــي حمـــارُ

ومن الشعراء الأدباء الذين كان لهم شعر جيد، الشاعر الحسن بن إسحاق بن أبـــي عبـــاد اليمني النحوي[1]، عالم في النحو شاعر أديب، قصده كثير من أهل اليمن لتعلم النحـــو وقراءتـــه عليه فله مختصرًا في النحو مشهورًا، وكان إذا تكلم بين العامة لا يتكلف في حديثه عن الإعراب، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال[2]:

لعمـــرك مـــا اللَّحـــن مـــن شـــيمتي

ولا أنـــا مـــن خطـــأ ألحـــنُ

ولكـــن عرفـــتُ لغـــات الرجـــال

فخاطبـــتُ كُـــلاً بمـــا يُحـــسنُ

كذلك الشاعر الأديب الحسين بن علي بن محمد بن مُمَوَيْهِ أبو عبدالله المعروف بابن القـــم الزَّبيدي اليمني[3]، ولد بزبيد سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م، وتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، كـــان أديبًـــا شاعرًا من أفاضل اليمن المُبَرِّزين في النظم والنثر والكتابة، ومن شعره :

وقال :

خـــيرُ مـــا وَرَّثَ الرجـــال بيـــنهم

أدبٌ صـــالح وحُـــسن وثنـــاء

ذاك خـــير مـــن الـــدنانير والأو

راقِ في يـــوم شـــدَّة ورخـــاء

تلـــك تغـــني والـــدِّين والأدب الـــصـ

ـــالحُ لا يغنيـــان حتـــى اللِّقـــاء

ويقول[4] : أقول لنفسي الدنية هبي طال نومك، واستيقظي لا عزّ قومك، أرضيت بالعطـــاء

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ط١، م٢، ص٤٥٦.

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق، م٢، ص٤٥٦؛ إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج٢، ص٧٢٦.

(٣) ياقوت الحموي : نفس المصدر، ج٣، ص١٨٥؛ عبدالرحمن الحضرمي : نظرات في التاريخ العـــام للـــيمن، ٢٠٠٢م، ص١٦٠، ١٦١.

(٤) ياقوت الحموي : نفس المصدر والجزء، ص١٨٩.

المنزور وقنعت بالمواعيد الزُّور ! يقظةً فإنَّ الجدَّ قد هَجَع، ونُجْعَةً فمن أجْدَبَ انتجع. أعجزتُ في الأدباء عن خُلُقِ الحِرْبَاء، ولي لِسَانُ كالرِّشَاء تنسَّم أعلى السماء، ناطَ هِمَّتَهُ بالشمس، مع بُعدِهَا عن اللمس، ....

ويقول[1]: أضع نفسي في أقل المواضع وأقول لمولاي قول الخاضع :

فأسْبِلْ عليها سِتْرَ معروفك الذي
ستَرت به قِدْمًا مخازي عوْراتي

وقال[2] :

هدايا الناس بعضهم لبعض
تُوَلِّدُ في قلوبهم المودَّةْ
وتزرع في النفوس هوى وحبًّا
لصرف الدَّهر والحدَثان عُدَّةْ
وتصطادُ القلوب بلا شراكٍ
وتُسعدُ حظُّ صاحبها وَجَدَّةْ

أيضًا من الشعراء البارزين في زبيد، إسماعيل بن محمد المعروف بابن البوقا[3]، وزر لجياش بن نجاح أحد ملوك النجاحين في زبيد ثم لأولاده الفاتك والمنصور وعبدالواحد، وما منهم إلا من قدمه وعظمه وأكرمه، وكان يتميز شعره برقته ورشاقته كما كان في نفسه سيدًا جليل القدر سمحًا بماله وجاهه، وشعره موجود في زبيد واليمن منه الخفيف ومنه الكامل.

ومنه[4] :

عند روض الربيع لي أوتارُ
تقتضيها الصهباءُ والأوتارُ

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ج٣، ص١٩٠.

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق والجزء، ص١٩٣.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١٠؛ عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ص٢٦.

(٤) الصفدي : المصدر السابق والجزء، ص٢١١.

ومنه[1] :

يـــا طـــاوي الفلـــوات طـــيّ المـــدرج

عُـــجْ نحـــو منعـــرج الكثيـــب وعَـــرِّجِ

كما اشتهر الكثير من الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم، فكانوا يمدحون الأمراء والسلاطين والحكام ليتقاضوا من وراء ذلك بعضًا من المال، ولهم في ذلك المديح شعر جيد، ومـن هـؤلاء الشراء : ابن مكرمان ٤٤٥-٥٥٦هـ[2]، هو شاعر كبير له في قومه منزلة كبيرة وجاه عريض، وكان أهل زبيد واليمن يتهادون أشعاره، وحفظه الناس، وسار في الأفواه، ويقول عمارة في كتابه " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد " ما يلي :

" وممن رأيته شيخًا، قد ناهز المائة الشاعر المعروف بابن مكرمان، وهو من أهل جبـال " برع " ورأيت أهل تهامة يكرمونه ويعظمونه ويعتمدون عليه، ولست أحفظ إلا قصيدة مدح بهـا الشريف الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني (قتل على يد عبدالنبي بن مهدي) فأثابه عنهـا بألف دينار[3].

وقصيدة ابن مكرمان سلسة الألفاظ، بديعة المعاني، جيدة السبك تنبض بحـرارة الـصدق وعمق الولاء ...

واشتهرت في عهد عمارة ولم يسر شعر يمني مسيرها في أفواه أبناء اليمن بما فيهم الشاعر الكبير عمارة الذي ظل يحفظها بعد هجرته إلى مصر، وتغنى بها وسجلها بعد أن جاوز الخمسين في كتابه عن أخبار صنعاء وزبيد[4].

أيضًا الشاعر محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبـي عمـران ولـد سـنة ٥٢٥هـ ووفاته سنة ٥٧٢هـ، العالم المحقق في الفقه والشاعر الأديب، ومن شعره قصيدة يمدح بها عبدالنبي بن علي بن مهدي الرعيني جاء منها قوله[5] :

وضـــحت شمـــوس الحـــق بعـــد أفولـــه

ورســـت هنالـــك قاعـــداتُ أصُـــوله

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١١..

(٢) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١١.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٤) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص١٢.

(٥) إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج٤، ص٢١٣٤.

وتألقت منه الرياضُ وفُتّحت

أكمامها بالنور بعد ذُبوله

واختال ثاني عطفه متسربلاً

حُلَلَ البَهاء يجرُّ فضل ذُيوله

أحيا الإمام دماءَه بسيوفه

ورماحه وبَرجْلِه وخيوله

ولما أراد أن ينسخ كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي لم يجد في إبّ ولا في ذي جِبْلَة العَفصَ لصنع المداد منه ووجد الكِلِبْلاب فصنع منه المداد، وقال شعراً[1] :

فلا لإبٍّ وذي جِبْلَةٍ

إن مَنَعَا الحِبْرَ وشحّابه

فإن في وادي شُواحِطنا

بحراً غزيراً من كِلِبْلابه[2]

ومن الشعراء المادحين لدولة بني مهدي، الشاعر أبو الحسين علي بن سليمان العكي، عاش في القرن السادس الهجري[3]، تكسب بشعره في مدح أمراء ورؤساء عصره، فله مدائح في أواخر أمراء الدولة النجاحية ثم علي بن مهدي وقضائه على الدولة النجاحية، كما مدح أوائل رجال الدولة الأيوبية هذا عدا غيرهم من رؤساء القبائل وزعماء البلاد، كما أنه له أشعار غزلية وإخوانية ومراث وغير ذلك من أبواب فنون الشعر التي كانت تطرق في عصره، ولم يُعثَر على شعره سوى على بيتي شعر من قصيدتين الأولى في مدح الزعيم القبلي عمر بن عدنان يقول فيه[4]:

إذا الليالي أساءت غير عالمة

كان ابن عدنان لي من جورها جارا

---

(١) إسماعيل الأكوع : هجرة العلم ومعاقله، ج٤، ص٢١٣٤.

(٢) كِلِبْلابه : هو شجر مشوك الساق، وفي أعالي غصونه أوراق حمراء.

(٣) أحمد بن محمد العقيلي : من أدب جنوب الجزيرة، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م، ط١، ج١، ص٢٨.

(٤) أحمد العقيلي : المرجع السابق، ج١، ص٢٨.

والثاني في هجاء قومه (عك) وهو[1]:

فمن يشتري عك بفلس فإنني

جميعًا على قطع الخيار أبيعا

ونستدل من البيت الأول على أنه ممن يعشقون الجناس والمزاوجه، كما ورد في البيت (من جار وجار).

ومن أشهر شعراء بني مهدي المادحين لهم والمسجلين كل وقائعهم، الشاعر ابن الهُبَيْني (ت٥٦٩هـ/١١٧٤)[2]، وهذا الشاعر المجهول اسمًا ونسبًا ومولدًا ووفاة كمعاصره " ابن مكرمان" وصاحب الأبيات المشهورة التي منها على لسان ابن مهدي[3]:

أتشرب الخمر في ربا عدن	والسمر والبيض في " الحُصَيب " ظما
ويُلْجَمّ الدين في محافلها	والخيل حولي تعلك اللجُما ؟
كلا ومهدي فارس بطل	وصدر جبروم بملاء الحُزَما

ومن المرجح أن ابن الهبيني قتل مع عبدالنبي بن مهدي ضمن من أعدمهم صبرا السلطان " توران شاه " الأيوبي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م.

وبالرغم من أن " ابن الهبيني " و" ابن مكرمان " نشآ في عصر واحد، وربما ينتسبان لبلدة واحدة ولعلهما كانا صديقين وكلاهما شاعر فحل، إلا أنهما كانا على طرفي نقيض؛ رأيًا وهوى ومذهبًا، فبينما كان ابن مكرمان سني الهوى محبًا لآل الرسول مدّاحًا للأشراف السليمانيين؛ كان ابن الهبيني خارجيًا يدين بمذهب ممدوحه علي بن مهدي وأولاده[4]. ويقول عمارة[5] : من شعراء تهامة ابن الهبيني، وهو شاعر علي بن مهدي صاحب زبيد وأولاده من بعده، وهو أمتن كلامًا وأقوى نظامًا من كثير ممن سمعت بهم من شعرائهم وهو القائل على لسان مهدي بن علي بن مهدي[6] :

---

(١) أحمد العقيلي : من أدب الجزيرة، ج١، ص٢٨..

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك ق١٦٦؛ أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١٤.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص١٤، ١٥.

(٥) عمارة : المفيد، ص٢٧٧، ٣٢٣.

(٦) الخزرجي : نفس المصدر، ق١٦٤؛ أحمد الشامي : قصة الأدب في اليمن، ص٣٣٥.

أبلـــغ قـــرى " تعكـــر " ولا جرمـــا ان الـــذي تكرهـــون قـــد دهمـــا

وقـــــل لجناتهـــــا، ســــأبدلها ســـيلاً كأيـــام " مـــارب " عرمـــا

ولابن الهبيني شعر على لسان علي بن مهدي ويلقبه بالملك " أبا حسن "[1]:

مـــا بـــال خـــولان لا تـــوفى بمـــا تعـــد يـــدنوا أبـــو حـــسن منهـــا وتبتعـــدُ

ومـــا لجنـــب وســـنحان واختهمـــا همـــدان تلـــك الأعاريـــب الـــتي حـــشدوا

وقال ممدِح أحمد بن علي بن مهدي عندما دخل " الجوْة " وأحرقها وهزم عسكر الـداعي عمران بن محمد بن سبأ بعد قتال شديد بين الجيشين سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م[2] :

بكـــرت تفِـــلُ مـــن الكُمـــاة ضـــراغما

وجـــرت يهـــزُّ عواســـلاً وصـــوارما

علويـــــة مهديـــــة قلـــــدتها

مـــن آل مهـــدي هُمامًـــا حازمـــا

وكـــذاك لـــيس تـــروقُ أبنيتـــه العُلـــى

إلا إذا كنـــــتم لهـــــم دعامـــــا

صـــبُحت أكنـــاف الجـــواة بغـــارة

شـــعواء طبقـــت الجـــواة جماجمـــا

في يـــوم عيـــد صـــبّحوا الـــولايم

فيهـــا فاضـــحوا للحمـــام ولايمـــا

وحـــرمتهم فيهـــا مطـــاعم عيـــدهم

وتـــركتهم للمرُهفـــات مطاعِمـــا

وقال يمدح الأخوين مهدي بن علي وعبدالنبي بن علي بن مهدي[3] :

---

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، ص٤٤٣.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق١٦٦؛ إسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله، ج١، ص٤٠١.

(٣) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص٤٤٣، ٤٤٤.

العز في صهوات خيل الأجبه   وطرادها من مهمه في مهمه

من كل صهصلق الوغا متوقد   وتـراه عند قياده كالأبله

وبهانسي تحت العجاج فريقها   شعث الوجوه مكلّمات الأوجه

أسدُ إذا ما أبصرت أسْد الشرى   ورأت حياض الموت لم تتجهجه

تعدو أمام متوجٍ متبلج   متيقظٍ، متوقد، متنبه

متفقه في الدين، لكن لم يكن   من عند غير الله بالمتفقه

ملك إذا اشتبه الملوك فما له   في ملكه وصلاحه بالمشبه

جبّاه حق من بني هود متى   تسألهُ يصدع بالبيان وبجبه

ومنزه الدين الحنفيّ الذي   لولا الإمام القطب لم يتنزه

وأيضًا :

سير الإمام قديمها وحديثها   فرح القلوب وروضة المتنزه

أشهى من الماء الزلال على الظّما   وألذ من عصر الشباب الأموه

فاليوم بخ بخ للخليفة بعده   بالقائمين الهاديَيْن بهديه

سبطيه، " قطبيه " الذين إليهما   شرف الخلافة والإمامة تنتهي

ويقول :

اشبهتما قطب الملوك أباكما   قولاً وفعلاً من غير مشبّه

تالله أنكما لأكرم معشرٍ   جذبت لهم خوص الرقاب التيه

ويمدح ابن الهبيني بهذه القصيدة ابني علي بن مهدي الذي وليا السلطة بعد وفاة أبيهما إذ قال فيها " سبطية بل قطبية " وقد كان من ألقاب علي بن مهدي أبيهما " القطبي " و"الأجْبَه"[1].

وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م عندما هاجم مهدي بن علي بن مهدي أهل الجَنَد وحاصرهم، وقتل كثير من أهلها أحرق مسجدها بمن فيه من الضعفاء والعواكف والعجائز والودائع والمصاحف وعاد إلى زبيد، قال في ذلك ابن الهبيني مادحًا الملك مهدي بن علي[2] :

لمن عسكر كالليل يعدو بدُهْمِهِ ،   ويزهو بميمون الزمان وشهمه

---

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص٤٤٤.

(٢) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الأول، ص٤٤٦.

بـــأبلج إمـــاج دلـــو فمحمـــد .. بيانـــا، وإماجـــا لـــدوا " فـــابن عمّـــه "

وهنا يشبهه فصاحة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وشجاعة وفروسية ابن عم الرســول " علي " كرم الله وجهه !.

وفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م عندما استولى عبدالنبي بن مهدي على شرياف وتعز وصبر ثم مخلاف جعفر وحصن المجمعة أنشد ابن الهبيني يقول في ذلك افتخارًا بعبدالنبي[١] :

قـــل لـــذات الأســـبُ الرّتِـــل تحـــت ذاك الفـــاحم الرجـــل

وفيه يقول :

أن في غربـــــي مجمعـــــــة لفخـــــار غـــــير متـــــصل

ومليكًـــــا كُلمّـــــا ســــالوا ســـال ســـيل العـــارض الهطـــل

ومن الشعراء الذين كانوا يتكسبون بشعرهم الشاعر عمارة اليمني (٥١٥-٥٦٩هـ/١١٢١-١١٧٤م) من مدينة مرطان بوادي السباع باليمن، من منازل قبيلة السليماني، من أسرة توارث بنوها السؤدد والغنى، هاجر لطلب العلم إلى زبيد سنة ٥٣١هـ وفيها عرف بالقاضي عمارة؛ ثم سـموه عمارة الفرضي أما أهل عدن وجبلة وصنعاء فقد عُرف لديهم بعمارة " الفقيه " ثم عمارة الشاعر[٢].

ولد ونشأ عمارة في بيئة علم وصلاح، محيطها سني شافعي، وتتلمذ لأستاذ علي بن مهدي الحميري وانقطع إليه لمدة سنة، ولم ينقطع عن زيارته الشهرية له إلاّ لما استفحل أمره خوفًا من أهل زبيد[٣].

درس بجانب الفقه، اللغة والأدب، ثم بدأ يشتغل بالتجارة ما بين عدن وزبيد وفي عدن بــدأ حياته الشعرية عن طريق الأديب الشاعر أبى بكر أحمد العندي الذي أشار إليه أن يقول شــعرًا يمدح فيه الداعي محمد بن سبأ حاكم عدن، وفي البداية عمل الأديب العندي قصيدة شــعر علــى لسان عمارة هنأ بها عرس الداعي محمد بن سبأ على بنت الشيخ بلال، فنال عمارة عليها جائزتين إحداهما من الداعي محمد بن سبأ والأخرى من بلال المحمدي[٤].

---

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق١٦٦.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص٩، ١٠؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٧، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١٤٣، ١٤٤.

(٤) عمارة : المفيد، ص٢٨٠. بامخرمة : ثغر عدن، ص١٩٧؛ ذو النون المصري : عمارة اليمنـي، النهـضة المصرية، ١٩٦٦م، ص١٠٨.

بعدها أشار العندي على عمارة أن يطالع كتب الأدب ويتوقف عن الفقه فاشتغل عمارة منذ ذلك الحين بالشعر ومدح الملوك والأمراء، وكذلك مدح آل أبي عقامة قضاة زبيد، ونال الكثير من العطايا والجوائز[١].

وفي سنة ٥٤٩هـ حج عمارة، وأوفده صاحب مكة قاسم بن هاشم بن فُليته سفيرًا عنه، ومعه رسالة إلى الديار المصرية، فقدمها في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ، والخليفة فيها يومئذ الفائز بن الظافر، ووزيره الملك الصالح، طلائع بن رزيك، فلما أحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخلافة أنشدهما قصيدته التي أولها[٢] :

الحمد للعيس، بعد العزم، والهمم	حمدًا يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق، عندي للركاب يد	تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظري	حتى رأيت إمام العصر من أمم

حتى إذا أتم إنشادها أفيضت عليه الخلع المذهبة من ثياب الخلافة، ودفع له الصالح خمسمائة دينار وأخرجت له السيدة الشريفة بنت الحافظ خمسمائة دينار أخرى، وأطلق من دار الضيافة رسوم جليلة واستحضره الصالح للمجالسة، ونظمه في سلك حاشيته، وغمره بره.

أقام عمارة في مصر إلى شهر شوال ٥٥٠هـ/١١٥٥م ثم عاد إلى مكة، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى إلى مصر في صفر ٥٥١هـ/ أبريل ١١٥٦م، فأقام في القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الفائز والعاضد[٣]، وبلغ من تشجيع الفاطميين له إغداقهم المنح عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنيًا شافعي المذهب وقال في ذلك :

مذاهبهم من الجود مذهبُ سُنَّة	وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

وبعد أن استقر الأمر لصلاح الدين، حاول عمارة أن يجد له مكانًا في الدولة الجديدة، فمدحه

---

(١) بامخرمة : ثغر عدن، ص١٩٨؛ ذو النون المصري : عمارة اليمن، ص١٠٨.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص٢٥٢-٢٥٤؛ أحمد أحمد البدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٩م، ط٢، ص١٦٣، ١٦٤؛ عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١ ١٩٤٧م، ص٢٢٦.

(٣) الزركلي : الأعلام، ط٧، ص٥، ٣٧؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلامي السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ج٤، ص٤٨٦؛ حسين بن عبدالله العمري : مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٣٨.

ومدح جماعته من أهل بيته[١].

ويبدو من هذا المدح أن صلاح لم يفسح مكانًا لعمارة في دولته، وضيق عليه رزقه، فمضى يندب أيام الدولة الفاطمية ويبكي حظه العاثر لزوالها، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله ويوازن بين عهديه في عصر الدولة الفاطمية وفي أيام صلاح الدين، وسمى القصيدة " شكاية المتظلم ونكاية المتألم "[٢].

وقال فيها :

فيا واصل الأرزاق كيف تركتني ... أمد إلى كف المنى كف أقطع ؟

فإنك أهل الجود والبر والتقى ... ووضع الأيادي البيض في كل موضع[٣]

ولكن هذه القصيدة لم تجد نفعًا عن صلاح الدين، فمضى ليتفق مع جماعة من بقايا الفاطميين بينهم داعي الدعاة ابن عبدالقوي واتفقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكاتبوا الفرنج في بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم، فعلم بأمرهم صلاح الدين[٤] :

فأمر صلاح الدين بشنقه، فتم اعتقاله وشنقه مع الذين دبروا الخطة، وتم شنق عمارة في درب يُعرف بخزانة البنود في القاهرة يوم ١٢ رمضان ٥٦٩هـ/١١٧٣م[٥].

ولعمارة ديوان شعر ضخم، معظمه من النوع الجيد الجزل، طرق فيه أغراض الشعر الغنائي : من مدح ورثاء، ووصف، وغزل، وغيرها، وندر الهجاء في شعره عملاً بوصية والده[٦]، وقد مدح عمارة بشعره خلفاء مصر، وكبار رجال دولتهم، وحظي بنو زريك بأفخم

---

(١) عمارة : النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠٠هـ/١٩٩١م، ص٣٠٠؛ أحمد البدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص١٦٦.

(٢) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١٥٥؛ شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ط٣، ص١٥٥.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص٢٨٨-٢٨٩؛ علي أحمد بيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر، ص١٢٠، ١٢١.

(٤) أيمن فؤاد السيد : الدولة الفاطمية في مصر(تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ط١، ص٢٤٢.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٢٤٤؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص٣٨٤-٣٨٦؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م١٠، ط٣، ص٥٣، ٥٤.

(٦) أحمد بدوي : المرجع السابق، ص١٦٨.

مدائحه في ديوانه، كما مدح حكام اليمن[1].

ومن شعراء اليمن وزبيد والذين استخدموا الشعر في تدوين الكتابة التاريخية، ابن خمرطاش وهو الشيخ أحمد بن خمرطاش بن أبي بكر بن محمد بن النعمان الحميري الشراحي الزبيدي (المتوفى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م)، لُقِبَ بالشيخ الذي يطلق على شيخ العلم وشيخ الرياسة وجمعهما ابن خمرطاش فهو من بيت رياسة، كما أنه عالم ومن بيت علم[2].

تميزت بعض قصائد ابن خمرطاش بالافتخار، فقد افتخر بنسبه للشراحيين بقوله:

أنا ابن فرعي حمير إن بذخت	حمير في العنصر منها المنتقي
من الشراحيين في جرثومه	بورك في قدموسها كلا ولا

كما كان ابن خمرطاش فقيهًا جليلاً عارفًا نبيلاً وأحد بُلغاء عصره، وسيد قضاة دهره، ومن شعره القصيدة المشهورة والمعروفة " بالخُمرطاشية " التي مدح فيها قومه وجمع فيها تاريخ اليمن القديم بما في ذلك من أساطيره، وهذه القصيدة متداولة بين الناس نحو ثلاثمائة بيت[3].

وتوفى أحمد بن خمرطاش شابًا، وكانت وفاته في جبل قُسُوَّة من نواحي ريمة فارًا من علي بن مهدي الذي لم يدخل في طاعته فلما ظهر عليهم ابن مهدي فر ومن معه من بلدهم خوفًا منه، ولكنه أرسل قصيدته الخمرطاشية إلى علي بن مهدي بعد ذلك يطلب منه العفو مادحًا ومستعطفًا له ولجماعة من القحطانيين، ولكنه قد مات قبل أن يصله الرد[4].

وكان ابن خمرطاش لايزال محتفظًا برئاسته وسلطانه، ولهذا كاتب ابن مهدي، ولو كان فردًا من الناس لما تجرأ على ذلك.

وكان من جيد شعره قصيدة له في التصوف والعقائد تزيد على خمسين بيتًا، أولها[5]:

كشف الصباح دُجنة الظلماء	فعلام رمي كواكب الجوزاء

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م٢، ص٣٦٦؛ ذو النون المصري : عمارة اليمني، ص١٤١، ١٤٢؛ عبدالصاحب عمران الدجيلي : أعلام العرب، ص٢٩٧.

(٢) أبي الربيع سليمان بن الجون : الرياض الأدبية في شرح الخمرطاشية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ١٩٩٩م، تحقيق : إسماعيل الجرافي، محمد بن الأكوع، ص٥، ٦.

(٣) ابن الجون : المصدر السابق، ص٧.

(٤) ابن الجون : نفس المصدر، ص٥، ٦.

(٥) ابن الجون : نفس المصدر، ص٧، ٨.

ونقل عن تاريخ اليمن القديم من القصيدة الخمرطاشية بعض المؤرخين استنادًا على أحداثها ومنهم المؤرخين سليمان الأشعري (المتوفى سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) الذي أُعجب بها وشرحها وأقام على أساسها كتاب تاريخ وآداب كامل، أيضًا نقل عنها المؤرخ الخزرجي (المتوفى ٨١٢هـ/١٤٠٩م) في كتاب العقود اللؤلؤية، أيضًا المؤرخ بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي (المتوفى ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) في السلوك في طبقات العلماء والملوك[1].

وفي أبيات القصيدة الخمرطاشية أبيات يسميها الناس " أبيات الفرح " وهي أبيات مشهورة الفضل فيها : اسم الله الأعظم.

وتبدأ القصيدة بهذه الأبيات :

تأوّب القلب بتاريخ الجوى	وعاده عائد شوق قد ثوى
وانبعثت في سره بواعث	أذكين في أحشائه جمر الغضا
أسيٌ تحاماه الأساة إنّما	أضنى الأسي ما تحاماه الأسَا
ولوعة ما يأتي لا عجُها	يطفو على الأحشاء إن قيل انطفا

وقال :

أعزز عليّ بالذي كان جرى	وإن بذاك قلم الغيب جرى
ما كانت بالنّاسي أناسي ساليًا	لكن أرجّى للقضا صرف القضا

وقال :

فهل لشت الشمل جمع يُرتجى	وهل يراح الصبّ من وشك النّوى

وقال :

ملكت يا دهر فإسْجح فإذا	ما قدر الحرّ على الجاني عفا

---

(١) ابن الجون : الرياض الأدبية، ص٧؛ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى ق٧هـ، ص١٠٧.

الدراسات التاريخية :

بدأت ظهور المؤلفات التاريخية في اليمن منذ ظهور الدويلات المستقلة بها أواخر القرن الثالث الهجري، وقد أخذت كتابة التاريخ في اليمن الطابع المحلي، وغالبًا ما كان تدوين التاريخ يساير امتداد السلطة السياسية، كما اتصف التاريخ اليمني بعدم تأثره بعلم الحديث، في تدوين الأحداث التاريخية وذلك بسبب تأخر نشأة الكتابة التاريخية في اليمن عن نشأته في العالم الإسلامي(١).

ونتيجة لتعدد وجود المذاهب في اليمن ما بين سنية وإسماعيلية وزيدية، تعددت كتابة التاريخ بحسب وجود هذه المذاهب، كما وجدت عدة طرق وأساليب في تدوين التاريخ في اليمن مثل الكتابة بحسب السنين لحوادث اليمن أو حسب الدويلات أو حسب المذاهب(٢).

ومن الكتابة التاريخية في عهد الدولة المستقلة هي الكتابة على شكل سير ذاتية لمؤسسي المذاهب أو الدويلات، ومن ذلك سيرة الإمام الزيدي المتوكل على الله أحمد بن سليمان(٣).

وتعود أهمية هذه السيرة للإمام أحمد إلى أنها تغطي فترة تمتد من سنة ٥٣٢-٥٦٦هـ لم تأخذ حظها من التدوين مع أنها تتناول فترة تاريخية في غاية الأهمية لتاريخ اليمن وهي فترة تفكك الدولة الصليحية وقيام الإمارات المستقلة على أنقاضها، كما تتناول علاقة الإمام المتوكل أحمد بن سليمان بالقبائل اليمنية وبأبناء عمومته في المخلاف السليماني، وبالقوى السياسية الأخرى مثل بني حاتم في صنعاء وبني نجاح في زبيد ومن بعدهم بني مهدي، وبني زريع في عدن(٤).

وتتناول أيضًا الصراع العلمي والفكري الذي شهدته اليمن في القرن السادس الهجري بين فرق الزيدية الثلاث وهي المخترعة والمطرفية والحسينية وخاصة بين علماء المطرفية(٥).

حفظت السيرة أشعار الإمام أحمد بن سليمان التي عبر فيها عن كل الأحداث التي مر بها، والتي تعد مرآة للحياة الأدبية السائدة في القرن السادس الهجري(٦)، وأيضًا توضح اهتمام الإمام

---

(١) أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص٨، ١٤؛ السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن، ص٢٦٣.

(٢) السروري : المرجع السابق، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) أحمد بن المحلي : الحدائق الوردية، ق١٠٦.

(٤) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٩؛ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص١٠٩.

(٥) أحمد بن المحلي : المصدر السابق، ق١٠٨؛ سليمان الثقفي : المرجع السابق والصفحة.

(٦) سليمان الثقفي : نفس المصدر والصفحة.

وابنه باستصلاح الأرض وزراعتها في منطقة الجوف ونواحي ذمار وهي من الأمور التي لم نعهدها في إمام سابق[١].

وسيرة الإمام أحمد بن سليمان من تأليف سليمان بن يحيى الثقفي من علماء القرن السادس الهجري[٢].

وجدت كتب في تاريخ التراجم والطبقات ومنها كتاب " طبقات فقهاء اليمن " للفقيه عمر بن علي بن سمرة الجعدي ٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م ويسمى أيضًا كتاب " طبقات فقهاء اليمن وعيون أخبار سادات ورؤساء الزمن، ومعرفة أنسابهم، ومعرفة أعمارهم، ووقت وفاتهم "، كما يسمى أيضًا " طبقات فقهاء اليمن الأسفل "، أو " طبقات الفقهاء في جبال اليمن من صنعاء إلى عدن ". وهو عبارة عن تراجم للفقهاء الشافعية في اليمن منذ ظهور الإسلام إلى زمن المؤلف سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م[٣].

أما كتب الأنساب فلعل أبرزها " التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب "، وأيضًا " اللباب في معرفة الأنساب " لأحمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي الزبيدي وميزة الأشعري أنه جمع عناصر من القبائل والبطون لعدنان وقحطان لم يدركها غيره، ويركز على الفقهاء والعلماء والمحدثين والشعراء والأعلام عمومًا وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومن شهد على موقعتي صفين والجمل، كما يذكر الأشعري السكني والإقامة والارتحال والظروف كلها وطريقة السفر أو وسيلة النزول والروايات، وهذا الكتاب يؤرخ لأنساب منطقة " عسير " بالجزيرة العربية لأول مرة[٤].

كما وُجدت كتب تاريخية أُلفت بأسماء مدن يمنية ونخص بالذكر مدينة زبيد والدول التي حكمتها وعلمائها وغير ذلك مما تستعرض من تاريخ معظم أنحاء اليمن. منها كتاب "المفيد في أخبار زبيد" لنصر الدين حياش بن نجاح ثالث ملوك أسرة بني نجاح في زبيد والمتوفى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م، فكان بجانب الملك والسياسة شاعرًا ونسابة كما كان مؤرخًا ويعتبر " المؤرخ الهاوي الصحيح بين الأمراء " وقد ألف في التاريخ نظرًا لشغفه بالأنساب التي ذكرت في المادة

---

(١) محمد بن زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص٩٦.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص١٠٩.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ط، ي

(٤) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص٢٥-٢٩.

التي استعملها[1].

ويستعرض فيه تاريخ الدولة النجاحية في زبيد واليمن، وقد استفاد منه عماره وغيره في كتبهم بعد ذلك[2].

وكتاب " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها " لنجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان الحكمي، قتل سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، تحدث فيه عن أخبار اليمن سهلاً ووعرًا وبحرًا، ومدد ممالكها، وأبعاد مسالكها، وحروب أهلها ووقائعهم ومآثرهم، وصنائعهم، وأخبار قضاتها ودعاتها، وأخبار أعيانها وأمرائها وأدبائها وشعرائها. وألفه عمارة سنة ٥٦٣هـ وجمع فيه مادة تاريخية هامة تبدأ من مطلع القرن الثالث الهجري وتنتهي سنة ٥٦٣هـ وبذلك تنظم أحداثه التاريخية أكثر من ثلاثة قرون عرض فيها لدول متعددة حكمت اليمن، كالدولة الزيادية والصليحية والنجاحية والزريعية ودولة بني مهدي[3].

وكان عمارة يتحرى فيما يكتب، فكان يؤرخ للأحداث التي يشاهدها ويعتمد على الرواية والنقل في كتابة الأحداث السابقة على عصره، واعتنى كثيرًا بالإسناد والتقصي، وأخذ مادته التاريخية لكتابه هذا من مصادر متنوعة مثل كتاب " المفيد في أخبار زبيد " لجياش بن نجاح، وما أخذه عن طريق شيوخه، وفي الفترة التي عاصرها يأخذ من مصادر موثوقة لها تماس مباشر بالأحداث، وهذا يعطي لكتابه أهمية كبيرة ويكاد ينفرد عمارة بالكثير من مادته التاريخية عن كثير من المؤرخين الذين اعتمدوا عليه في تاريخ اليمن الإسلامي، فكثير من الذين كتبوا عن تاريخ تلك الحقبة لم يكتبوا شيئًا أكثر مما كتبه عمارة، وكانوا ينقلوا ألفاظه بنصها في بعض الأحيان[4].

كذلك لعمارة كتاب " أنموذج ملوك اليمن "[5]، وكتاب " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " وهو كما وصفه بنفسه " مجموع لم أقصد به شيئًا مخصوصًا ولا فنًا منصوصًا، بل ذكرت فيه نبذًا من الأخبار مختلفة المقاصد ... "[6]، وهو مصدرًا رئيسًا لأحوال مصر السياسية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري؛ حتى قتل الوزير شاور سنة ٥٦٤هـ. وكتاب

---

(١) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون، ص١٠٦.

(٢) شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات، ص٨٥.

(٣) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ق٦ هـ، ص٢٤، ٢٥.

(٤) عبدالعزيز المقالح : المرجع السابق، ص٢٥.

(٥) أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن، ص١٠٨.

(٦) شاكر مصطفى : المرجع السابق، ص١٠٨.

عمارة يوضح الأحوال الاجتماعية بمصر خاصة الطبقة العليا، وقد صدره بترجمة حياته، وذكر أخبار الوزراء المصريين، مع كثرة القصائد والمقطوعات الشعرية والتي تعتبر تتمة للأخبار التي ينسبها لكل من يتحدث عنه من الوزراء ورجال الدولة وزعماء الخلافة الفاطمية(١).

الدراسات العلمية :

نلاحظ في فترة الدراسة من خلال الحياة الثقافية في بلاد اليمن وزبيد، اهتمام العلماء والدارسين بالعلوم التقنية والدراسات الأدبية أكثر بكثير من اهتمامها بالعلوم العقلية أو الدراسات العلمية التي تشمل العلوم الفلسفية والهندسة، وعلم الفلك والنجوم والجغرافيا وعلم الحساب والموسيقى ويطلق عليها أحيانًا العلوم الحكمية(٢)، والتي يهتدي إليها الإنسان بفكره، وبمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرف الخطأ من الصواب ويصيب الحقيقة(٣). فوجدت كتابة الجغرافيا في اليمن وهو ما كان يطلق عليه علم البلدان، وأول من ألف في هذا الموضوع الهمداني وهو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بابن الحائك (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) وله كتاب " صفة جزيرة العرب " وهو يعطي تعريفًا عن الأماكن المختلفة في اليمن مع ذكر بلدان اليمن وسلاسلها الجبلية ووديانها ومواقع الكثير من مدنها ويبدأه بأفضل البلاد المعمورة(٤).، وله كتاب أيضًا في " المسالك والممالك في عجائب اليمن وجزيرة العرب وأسماء بلادها "(٥). وكانت مؤلفات الهمداني في الجغرافيا من الكتب التي اعتمد عليها أهل اليمن وزبيد اعتمادًا أساسيًا سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م.

كذلك من كتب الهمداني التي أثّرت فيما يختص بعلم الطبيعة لدى أهل اليمن كتاب الإكليل وهو من أشهر كتبه " فالإكليل " موسوعة في أمور اليمن، وضعه في عشر مجلدات، وهو كتاب مفيد في علم الطبيعة والنجوم وآراء الأوائل في قِدَم العالم وحدوثه، واختلافهم في أدواره وتناسل الناس، وتقرير أعمارهم وأصول أنساب العرب والعجم ونسب آل حمير(٦).

أيضًا اشتهر بعلم الفلك زيد بن عطية الصعدي، كما كان لعلم النجوم تأثير كبير في توجيه

---

(١) خالد القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص٢٨٦؛ ذو النون المصري : عمارة اليمني، ص١٩٧-٢٠٢.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص٥٣١، ٥٤٠.

(٣) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣١٠.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص٣٤، ٣٥؛ أيمن فؤاد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص٧٢.

(٥) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص١٠٢، ١٠٣.

(٦) عمارة : المصدر السابق، ص٣٠٦-٣٠٨.

سياسة بعض الملوك الزريعين كالملك محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠هـ/١١٣٨-١١٥٥م)، فكان يعتمد على التنجيم ويعود ذلك للفكر الإسماعيلي على تقديس الخلفاء والملوك وإلصاق القدرات الخارقة بهم ومنها معرفة الغيب[١]، فكان له من الخواص سبأ بن قاسم وأخيه محمد، أحدهما طبيب والآخر منجم[٢].

وفي علم الرياضيات والهندسة، وضع أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري الزبيدي (ت٥٥٠هـ/١١٥٥م) كتابًا بعنوان " التفاحة في المساحة " وهو في علم الرياضيات[٣].

وكان للقاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاضي أبي الحسن الرشيد بن إبراهيم بن الزبير الغساني، الفضل في إنشاء عين جارية غزيرة المياه تأتي من شرق زبيد في سرب تحت الأرض حتى تقرب المدينة ثم تظهر فتسقي جميع البساتين من خارج المدينة والتي من داخلها، فكان أوحد عصره في علم الهندسة وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ[٤].

كما ظهرت على الساحة الفكرية اليمنية في العصر الذي ندرسه تيارات ثقافية متعددة كان لها أبرز الأثر في تعميق وتنويع النشاط العقلي وتطور علم الكلام، وأبرز هذه التيارات الفكر الإعتزالي الذي يؤمن بسلطان العقل، ويدعو إلى التفلسف والجدل، وقد أدت إسهاماته الجدلية إلى توسيع المنهجية العقلية وإثراء الفكر العربي الإسلامي، فقد اشتد الجدل الفكري بين المذاهب المتعددة فتولد بذلك تحد فكري أدى إلى شحذ الفكر واستثارة الهمم العلمية فاتسعت حركة التأليف بشكل لم نلحظها من قبل وبرزت ظاهرة جديدة وهي كثرة كتب النقض والردود، ويمكننا أن نلحظ هذه الظاهرة بشكل واضح في مصنفات عدد غير قليل من علماء هذا العصر[٥].

علم الكلام :

قبل شرح موقف الفقهاء من علم الكلام لابد لنا من الإشارة باقتضاب إلى تعريف الكلام وفيه يقول ابن خلدون " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة "[٦].

---

(١) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص٩٦، ٩٧.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٠٨.

(٣) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص١٢.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨.

(٥) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ص٢٩.

(٦) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٠٣.

وهذا التعريف جمع في محتواه أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة ومع كون هذا التعريف جامعًا فإن الاحتجاج على المسائل الغيبية بأدلة العقل فيه قصور، لأن هذه المسائل فوق طور العقل[1]، ومن هنا جاء تفريق أصحاب الأثر والحديث بين علم الكلام البدعي وعلم الكلام الشرعي ويعنون بعلم الكلام البدعي آراء المعتزلة والفرق الإسلامية الحائدة عن منهج الكتاب والسنة، وأما علم الكلام الشرعي فهو ما استند إلى الكتاب والسنة وشرح الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه " كان يتمتع بأكثر العقول وأعلاهم ذكاء وفطنة، وهو صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء الذين خاطبوا عقول البشر وتسلحوا بأدلتها المتوافقة مع الفطرة[2].

ويمثل علم الكلام بصفة عامة مرحلة أو منعطفًا تاريخيًا وفكريًا في حياة المجتمع الإسلامي، تاريخيًا، لأن علم الكلام كان تعبيرًا أو بمعنى أدق وليدًا لذلك المشكل السياسي المتمثل في الحروب التي دارت بين المسلمين وموقف العلماء المسلمين في هذه الحروب.

وفكريًا لأنه انتقل بعلمائه من الاكتفاء بظواهر النصوص ـ الثبات على عقيدة السلف الصالح ـ إلى الغوص في معانيها، أي تأويل النص بمختلف مراحل التأويل لدى كل الاتجاهات الدينية معتزلة وأشاعرة وصوفية وفلاسفة وباطنية[3].

إذن لم ينشأ علم الكلام من فراغ أو من اجتهاد فقهي أو عقلي مجردين بل كان مصاحبًا لذلك التطور السياسي في اليمن بعد القرن الخامس الهجري، حيث بدأ القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ) يدعوا صراحة إلى مذهب الاعتزال في أنحاء اليمن، تلك الدعوة التي ظلت محصورة في باطن الفكر الزيدي في الشمال الشرقي لليمن، أما بقية أنحاء اليمن فكانت قديمًا وحديثًا على معتقد الحنابلة[4]، وسبب ذلك وصول كتب الحنابلة إليهم ككتاب " الآجرى للشريعة " وكتاب " التبصرة " وكتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزل وغيرهم من أهل الضلال والبدعة " للحسين بن جعفر المراغي (ت ٣٢٤هـ) وهو أحذ شيوع الحنابلة الكبار[5].

---

(١) مصطفى حلمي : منهج علماء السنة والحديث من أصول الدين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٦٧، ٦٨.

(٢) مصطفى حلمي : المرجع السابق، ص٢١٦.

(٣) أحمد عبدالله عارف : المدارس الكلامية في اليمن، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٦.

(٤) عبدالله حبشي : مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص١٢٠.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٨٣.

ومعنى هذا أن اليمن كانت على معتقد الحنابلة إنما ذلك في أصول الدين وليس في مسائل الفروع، حيث كان فقهاء السنة في اليمن متبايني الاتجاهات المذهبية، فهناك المالكي والحنفي والشافعي، وكان مريدو هذه المذاهب متعصبين لها حتى وصل ذلك التعصب إلى طور من الضغائن والأحقاد والتحزب للصلاة في مسجد دون آخر ووراء جماعة دون أخرى(١).

وكان علماء المذاهب الفقهية في اليمن يتناظرون في الفروع من الدين، ويعني ذلك نفور أولئك الفقهاء من الكلام في الدين، وهي الطريقة التي سبقها إليها قبلهم أئمة المذاهب الفقهية كالمالك والشافعي، ومن ثم انصب اهتمامهم على اقتفاء المسائل الفروعية وخاصة الفقه، ومن هذا الاهتمام جاء تسميتهم بذلك(٢). ويتضح ذلك الاهتمام من الفقهاء باجتماعهم بمدينة الجَنَد عند قدوم الإمام زيد بن عبدالله اليفاعي من مكة سنة ٥١٢هـ(٣) ليقرءوا عليه كتاب " النكت " في الخلاف في المسائل الفقهية بين الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة، وقد ضم ذلك الاجتماع فقاء تهامة وأبين وحضرموت والسحول بالإضافة إلى فقهاء الجند، وكان هذا الاهتمام بالفقه شاغل لهم عن قراءة ما عداها حتى صار الفقيه إذا ما أراد زيادة منطقة اشتغل فقهاء هذه المنطقة حين علمهم بزيارته باستخراج المسائل الدقيقة والخلافية في الفقه لتلقى عليهم حال استقبالهم، وكانت الإجابة على تلك المسائل هي المقياس في تلقيبه بالعالم الفقيه(٤).

أما علماء الزيدية فإنهم ناصروا آراء المعتزلة، وتابعوهم في القول بخلق القرآن، وألفوا كتابًا سموه " الدافع للباطل من مذهب الحنابل "، وردوا على الحنابلة ردًا عنيفًا(٥).

ومن المعلوم أن الإمام زيد بن علي زين العابدين أمام مذهب الزيدية تتلمذ على يد واصل بن عطاء صاحب مذهب المعتزلة، لذا فإن مذهب الزيدية أخذ بآراء المعتزلة، مما أدى إلى نمو آراء الاعتزال في مذهب الزيدية وانتشارها في اليمن، واستمر تأليف الكتب الكلامية من أئمة علماء الزيدية مثل كتاب شرح القلائد في علم الكلام، والأدلة على الله في التوحيد وحقائق المعرفة والحكمة الدرية والرسالة الصادقة للإمام أحمد بن سليمان وأيضًا " الهاشمية لأنف الضلال في مذاهب المطرفية الجهال "(٦)، وألفت كتب عديدة في معرفة رجال المعتزلة(٧).

---

(١) الجندي : السلوك، ج٢، ص٢٢٥,

(٢) أحمد عبدالله عارف : المدارس الكلامية في اليمن، ص٨.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١١٩-١٢١.

(٤) أحمد عارف : المرجع السابق، ص٩.

(٥) سليمان المالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ص٣٤٦.

(٦) أحمد حسين شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ج٤، ص١٦٥، ١٦٦.

(٧) سليمان المالكي : المرجع السابق والصفحة.

المذاهب الإسلامية في اليمن :

شهدت بلاد اليمن كغيرها من بلدان العالم الإسلامي مرحلة ما قبل المذاهب واستمرت إلى منتصف القرن الثاني الهجري، وقد بلغت اليمن آنذاك مبلغاً كبيرًا في العلم، فكان " العلم في اليمن أشهر من سواه "[١]. فارتحل إليها الكثير لطلب العلم، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، وابن مبارك وغندر وهشام بن عروة[٢]، وكذلك محمد بن إدريس الشافعي وأخذ عن هشام بن يوسف الإنباوي قاضي صنعاء وغيره، وأحمد بن حنبل الذي وصل إلى عدن ليتلقى العلم على إبراهيم بن الحكم العدني[٣].

ويبدو أن الرحلة كانت نتيجة أن الكثير من اليمنيين كانوا سباقين للذهاب إلى مكة والمدينة لقربهما إليهم، للتفقه على أيدي الصحابة والتابعين، وكانت صفة العلماء آنذاك هي الرحلة إلى بلدان من أخذوا العلم عن الصحابة والتابعين وخاصة بعد موت أكثر الصحابة[٤].

ثم بدأت تظهر المذاهب الإسلامية وتنتشر في الأمصار ومنها اليمن، وممن ساهم في دخول المذاهب إلى اليمن، الإمام أبو قرة موسى بن طارق اللحجي الجندي (٢٠٣هـ/٨١٨م)[٥]، كان فقيهًا حافظًا وإمامًا عارفًا لمعرفة السنة والآثار، صنف كتاب "الجامع" في السنة المعروف بـ " سنن أبي قرة " يروي فيه عن أصحاب المذاهب، كما أن له مؤلفات في الفقه، انتزعها من فقه الإمام مالك وأبو حنيفة ومعمر وابن جريج الثوري وابن الثوري وابن عيينة، لأنه لقيهم جميعًا وروى عنهم[٦].

وكان أبو قرة إمامًا مشهورًا بالفضل يتردد بين الجَنَد ولحج وعدن ومكة وزبيد، في كل واحدة من هذه البلاد له رواية وأصحاب وصاحبه في زبيد أبو حُمَه الزُّبيدي واسمه محمد بن يوسف[٧]. وكان أهل اليمن قبل دخول الكتب المشهورة إليهم من كتب أهل السنة لا يرجعون إلا إلى سنن أبي قرة وسنن معمر[٨].

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص١٣٨.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦.

(٣) الجندي : المصدر السابق، ج١، ص١٥٧.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن، ص٢٧٨.

(٥) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٦٩.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٦٩.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر والصفحة.

(٨) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص١٥٩.

بعد ذلك انتشرت المذاهب الإسلامية في كل أنحاء اليمن، فأخذت كل منطقة بمذهب معين، ففي القرن الثالث الهجري كان انتشار المذاهب الإسلامية في اليمن على الوجه التالي:

كان الغالب على منطقة ما بين صنعاء وصعدة أول الأمر مذهب أبي حنيفة، وكانوا متولين أمر الجوامع فيها، كذلك انتشر حول صنعاء مذهب الإباضية، كما انتشر شمال غرب صنعاء مذهب الباطنية الإسماعيلية، أما في أواخر القرن الثالث منذ سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م والقرن الرابع الهجريين فقد انتشر في صعدة مذهب الشيعة الزيدية[١].

كذلك انتشر في نواحي نجد اليمن مذهب سفيان الثوري، وفي المعافر انتشر مذهب أبي المنذر وفي تهامة انتشر المذهب المالكي حيث كان الآذان فيها يردد على مذهب مالك كما انتشر مذهب الإمام مالك في عدن[٢]، وأيضًا كانت تكبيرة العيدين في زبيد على أقوال أبي مسعود[٣].

ومع انتشار المذاهب المختلفة في اليمن، إلا أننا نجد أنه في القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع، كان الغالب في اليمن مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة، وكان مذهب أبي حنيفة أكثر انتشارًا[٤]، ولكن بمجرد أن ظهر مذهب الإمام الشافعي قل عدد المعتنقين للمذاهب الأخرى، وبقي عدد قليل من أهل تهامة يتمذهبون بمذهب الأشاعرة[٥].

على أن المذاهب الرئيسية التي انتشرت في بلاد اليمن، وكان لها تأثير كبير على حياة الناس السياسية والدينية والاجتماعية، هي مذاهب الشافعية والزيدية والإسماعيلية.

أولاً: المذهب الشافعي وجهود علماء السنة:

بدأ المذهب الشافعي في اليمن بداية بسيطة في القرن الثالث الهجري[٦] ثم ظهر أكثر وضوحًا إبان القرن الرابع الهجري، مبتدئا من المعافر والجند على يد عدة فقهاء كان لهم دورًا بارزًا في تدريس الفقه الشافعي ونشره، على رأسهم الفقيه المعافري موسى بن عمران الخداشي السكسكي من أعيان القرن الثالث والرابع الهجريين روى كتاب " المنتقي في السنن" عن مؤلفه موسى بن أبي الجارود المكي المتوفى في القرن الثالث والذي بدوره روى كتاب "الأمالي" عن

---

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٧٩.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص١٣٢.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٧٤، ٧٩؛ أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص٥٨.

(٥) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣١٥.

(٦) أحمد شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، ج٤، ص٤٠.

الشافعي[1]، وقد استقر موسى بن عمران المعافري يدرس المذهب الشافعي في قرية " المَلْحَمة " قرب الجند فكان يتردد عليه الكثير من الطلاب من أماكن متعددة من اليمن، مثل المعافر والجند ومخلاف جعفر لدراسة الفقه، ومكّن ذلك جماعة كثيرة منهم من دراسة المذهب الشافعي ونشره في اليمن[2].

كما يعتبر الفقيه القاسم بن محمد الجمحي القرشي المتوفى بسهفنه (٤٣٧هـ/١٠٤٥م) من أهم الفقهاء الذين دَرّسوا مذهب الشافعي ونشروه في اليمن في القرن الخامس الهجري[3].

وممن ساهم في نشر المذهب الشافعي في نهاية القرن السادس الفقيه عبدالله بن أحمد بن محمد الزبراني من زَبَران الذي ورافقه الفقيه عبدالله بن يحيى الصعبي من " سَهْفَنه " سنة ٥٥٠هـ/١١١١م، ورحل إليه زيد بن الحسن بن محمد الفائشي من " أُحَاظَة "، وعمر بن علي بن أسعد السلالي من نَخْلان، وعيسى بن عبدالملك من المعافر، ويحيى بن محمد بن عمران من شواحط، وعمر بن عبدالعزيز بن أبي قرة وأخوه عبدالله من أبين ولحج، وراجح بن كَهْلان من زبيد[4].

أما الفقيه يحيى بن أبي الخير العُمْراني (٤٨٩-٥٥٨هـ/١٠٩٥-١٠٦٢م) ممن اشتهروا بالفقه وعملوا على نشر مذهب الشافعي، وقد بدأ حياته العلمية بقراءة القرآن الكريم في بلدة " سَيْر " ثم تفقه على خاله أبو الفتوح بن عثمان بن أسعد بن عمران، فأخذ عنه "الكافي في الفرائض" للصردفي[5]، ثم تفقه بموسى الصعبي فأخذ عنه " التنبيه "[6].

وعندما قدم إلى " سَيْر " الفقيه عبدالله بن أحمد الزَبَراني باستدعاء من مشايخها أخذ عنه يحيى بن أبي الخير " المهذب " و" اللمع " لأبي إسحاق الشيرازي و" الملخص " و" الإرشاد " لابن عبدويه، كما أعاد عليه " كافي الفرائض " للصردفي[7].

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٨٠، ٨١؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٢٢٧.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٢٥٠.

(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٢٦٥.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٤٨، ١٤٩؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٢٤؛ الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٢٤.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٤؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٤٠.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٢٣٨.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٥.

ثم ارتحل يحيى بن أبي الخير إلى الإمام زيد بن الحسن الفائشي بأحاظة فأخذ عنه "التعليق" في أصول الفقه، و" الملخص " لإبي إسحاق، وفي اللغة أخذ عنه " غريب الحديث " لأبي عبيدة، و" مختصر العين " للخوافي، و" نظام الغريب " للربعي وغير ذلك في مسائل الدور والخلاف، ثم رحل إلى " ذي السُّفَال " فأخذ الفقه عن عمرو بن بيش اللحجي، و" كافي النحو " لأبي جعفر الصفار، و" الجمل " للزجاج(1).

وعندما وصل الإمام زيد اليفاعي من مكة إلى الجند، ارتحل إليه يحيى بن أبي الخير كغيره ممن ارتحلوا إليه من أهل اليمن، فسمع عنه كتاب " النكت " وأخذ عنه " المهذب " للمرة الثالثة.

وبعد موت الفقيه زيد اليفاعي، انتقل يحيى إلى سَهْفَنَه فقرأ عند القاضي مسلم بن أحمد الصعبي كتاب " الحروف السبعة " في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين للشيخ الحسين بن جعفر المراغي(2).

وفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م انتقل يحيى إلى ذي أشْرق فسمع بها " الجامع للسنن " تصنيف الترمذي عن الشيخ سالم بن أحمد بن سالم، كما سمع كتاب " التبصرة " في علم الكلام وأصول الدين، تصنيف أبي الفتوح في مدرستي الشيخين الإمامين زيد بن الحسن الفائشي، وزيد اليفاعي والمدرستان تنقلانه عن الشيخ أبي نصر البندنيجي مصنف "المعتمد" في الخلاف(3).

كذلك ابتدأ الإمام يحيى في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م بمطالعة " شروح المزني " وكتب أخرى مثل " المجموع " للمحاملي " والشامل " لابن الصباغ وكتاب " الفروع " لسليم الرازي، و" شرح المولدات " للقاضي ابن الطيب، و" العدة " للقاضي حسين الطبري " والإبانة "، و" شرح التلخيص " لأبي علي السنجي(4).

وفي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ارتحل الفقيه يحيى إلى مكة للحج، فالتقى فيها بالفقيه الإمام محمد بن أحمد العثماني الدمياطي، فناظره وذاكره في مسائل الفقه والأصول، ولما عاد إلى اليمن استمر في تدريسه للفقه الشافعي في منطقة " سَيْر " فتعذر عليه البقاء بها فانتقل إلى "ذي السُّفَال "، ثم إلى " ذي أشْرق "، وأقام بها سبع سنين، وفي أثناء وجوده بها انتقل إليه فقهاء تهامة هاربين من ابن مهدي، فأقاموا عنده أيامًا طويلة مطمئنين بوجودهم معه، إلا أنه حدث خلاف بين فقهاء

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٥؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٣٤٠.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق والصفحة.

(٣) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٦، ١٧٧.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٦.

تهامة وفقهاء ذي أشرق بسبب مناظرة كلامية في المعتقدات أدت إلى تكفير بعضهم البعض(١).

وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م قدم إلى " إب " القاضي الزيدي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام المعتزلي الذي أحضر كتب المعتزلة من العراق بغرض المناظرة الشافعية في اليمن الأسفل فأرسل إليه الإمام يحيى تلميذه على بن عبدالله بن عيسى بن أيمن الهرامي لمناظرته، فاجتمع معه في حصن " شُواحِط "، فناظره الهرامي حتى قطعه في عدة مسائل، فعاد إلى صنعاء دون مقدرته من مناظرة الشافعية(٢).

وعندما أغار عبدالنبي بن مهدي على الجَنَد وبواديها سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م خرج الإمام يحيى من ذي أشرق خوفًا منه إلى " ضراس " ثم ذهب إلى ذي السفال وتوفي بها سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، ومن أعمال يحيى بن أبي الخير " الزوائد " وهو كتاب جمعه من شروح "المهذب" وقد بدأه في عام ٥١٧هـ/١١٢٣م وانتهى منه سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦(٣).

أيضًا صنف كتاب " البيان " بدأه سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م، وانتهى منه سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ورتبه على نمط ترتيب " المهذب " وكان كتاب " البيان " من أشهر الكتب الفقهية في اليمن ويقع في حوالي عشر مجلدات، وقد وصفه بعض المحققين بقولهم : " إنه انتحل الشروح المفيدة والأدلة السديدة والمسائل العتيدة والأقيسة الأكيدة، وضمنه الكتاب المذكور "(٤).

كذلك اشتهر كتاب " البيان " خارج اليمن، فلما قدموا به إلى بغداد وُضِعَ في أطباق الذهب وطيف به مزفوفًا داخل العراق، وقال جماعة من أهلها عن الكتاب " ما كنا نظن في اليمن إنسان حتى قدم (البيان) بخط علوان "(٥). كما وصفه ابن سمرة بقوله : " فكان كتابه (البيان) كاسمه بيانًا وللعلماء هدى وتبيانا "(٦).

كما وصف الإمام يحيى كتابه " مشكلات المهذب " في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م(٧)، وكتاب "الانتصار في الرد على القدرية الأشرار " وكان سبب تأليفه ما أثاره القاضي الزيدي المعتزلي

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٤٢، ٢٤٣.

(٢) الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٤١.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٦.

(٤) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٣٤٥.

(٥) الجندي : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ الأهدل : المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٢.

(٧) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٤٢؛ الأهدل : نفس المصدر، ص٢٤٠.

جعفر بن عبدالسلام من فتنة الخوض في علم الكلام في " إب " سنة ٥٥٤هـ[١].

ومن أهم تلاميذه، ابنه الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م)[٢]، وكذلك الفقيه سيف السنة وزين الحنبلية، أحمد بن محمد بن عبدالله مسعود البريهي السكسكي (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م) الذي سكن إب، والذي دَرَّس صحيح مسلم إلى كثير من الطلاب في أنحاء اليمن[٣].

وجدير بالذكر أن حكام اليمن من الصليحيين والزريعيين أتاحوا الحرية الكاملة لأهل المذاهب السنية، أن يمارسوا نشاطهم المذهبي كيفما يشاءون، فلم يحاولوا العمل على محاربتهم من أجل تغيير مذهبهم، باعتبار أن مذاهبهم مذاهب إسلامية، ليسوا على خلاف كبير معهم من الناحية الدينية، ولكن الخلاف بينهم كان حول مفهوم السلطة والحكم، إذ أن لكل مذهب إسلامي مفهومًا سياسيًا حول السلطة، كان هذا المفهوم أكثر شدة وارتباطًا بالمذهب عند الشيعة منه عند أهل السنة، لذلك ترك الصليحيون لأهل السنة الحرية في نشر مذهبهم بل والاستعانة بهم في تولي مناصب القضاء في كافة المناطق التي دخلت تحت سيطرتهم في اليمن[٤]، أي أن السلطة الدينية في عهد الصليحيين كانت في يد أهل السنة، في حين كانت السلطة السياسية سلطة إسماعيلية، وذلك لأن معظم السكان الذين حكمهم الصليحيين كانوا من أهل السنة، لذلك تركوا لهم الحرية يحلون مشاكلهم من واقع مذهبهم. إلا أن الأمر لم يخل من بعض الصدام بين فقهاء السنة الشافعية وأمراء الإسماعيلية الصليحيين في بعض الأوقات[٥].

كما كان الفقهاء الشافعية من عوامل استمرار دولة بني نجاح السّنية، فقد أيدوها كل التأييد وناصروها إلى أن سقطت عام ٥٥٤هـ[٦]/١١٥٩م، حيث إن النجاحيين أخذوا على عاتقهم رفع لواء السنة في اليمن، والدفاع عنها وسط محاولات الشيعة القضاء عليها، فأصبحوا في نظر فقهاء السنة الذين أيدوهم حماة للمذهب السني في اليمن رغم كونهم أحباشًا ليسوا عربًا[٧].

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨١؛ أحمد شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، ص٥٨.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٦، ١٨٧.

(٣) الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٤) عمارة : المفيد، ص١٢١، ١٢٣.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٠.

(٦) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص٣٢٣.

(٧) عبدالعال : تاريخ اليمن السياسي، ص٢٧.

وفي عهد بني مهدي تعرض أهل السنة إلى القتل والتشريد، فعندما استولى ابن مهدي على زبيد وتهامة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، هرب الكثير من الفقهاء في زبيد إلى الجبال حيث استقروا في ذي أشرق عند الإمام يحيى بن أبي الخير[١].

ومن ضمن الفقهاء الذين هربوا من زبيد إلى عدن من بطش بني مهدي الفقيه أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن قريظة[٢]، والفقيه حسين المقيبعي[٣]، ومنهم من انتقل إلى مكان آخر كالفقيه أبو الحسن علي بن أحمد علي اليهاقري الذي انتقل إلى العوادر شرق الجند فمكث بها حتى توفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[٤]. وأيضًا الإمام يحيى بن أبي خير العمراني انتقل من ذي أشرق إلى ذي السفال، والفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير ارتحل بأسرته إلى مكة فمكث بها سبع سنين ثم عاد إلى اليمن[٥].

إذن كان لفقهاء المذهب الشافعي دور كبير في طريقة نشر فقه ومذهب الإمام الشافعي في اليمن، عن طريق نشاطهم العلمي والتأليفي ورحلاتهم داخل وخارج اليمن وكيفية اجتماع التلاميذ حولهم وعلاقتهم الطيبة بهم[٦].

ثانيًا : المذهب الزيدي وجهود علماء الزيدية :

في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، عندما قدم إلى اليمن باستدعاء من قبائل صعدة الموالين للعلويين، فكانت قبائل خولان صعدة منقسمة فيما بينها إلى فريقين : الأكيليون وعلى رأسهم آل عياد كانوا موالين للخلافة العباسية والفطيميون كانوا موالين للعلويين، وعلى أثر خلاف فيما بين القبيلتين ذهب آل فطيمة إلى المدينة المنورة لطلب الإمام الهادي إلى الحق، فقدم إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م وفي سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بايعوه إمامًا عليهم وناصروه، واستقر الإمام بصعدة وأصبح الفطيميون عماد دولته وأولاده من بعده، وعليهم كان قيام الدولة الزيدية وبدايتها نكاية منهم لأعدائهم الأكيليين أنصار الخلافة العباسية[٧].

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٤٢.

(٢) الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٧٩.

(٣) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٣٧٥.

(٤) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٨٠، ٣٨١.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٩، ١٨٧.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٠.

(٧) الهمداني : الأكليل، ج١، ص٣٠٧، ٣٢٧، ٣٢٩؛ الفطيميون من سعد بن سعد بن خولان، والأكيليون من الربيعة بن سعد بن خولان.

Journal of Islamic Studies, 1990, vol. 1, p. 163.

يتضح من ذلك أن الدعوة للإمام الهادي لم تكن صادرة من عامة قبائل اليمن، بل كانت من قبائل خاصة هم خولان صعدة، لذلك ظلت صعدة أهم مركز للزيدية[١]، وفيها عمل الإمام على حل الخلاف فيما بين القبيلتين الكبيرتين من أهل خولان[٢]، كما كان توسعه نحو نجران بالطريقة نفسها، بأنه عمل على حل الخلاف فأصلح بين " بني الحرث " من جهة و" شاكر " و"يام " و" الأحلاف " من جهة أخرى الذين كانوا على عداء مع بعضهم البعض[٣].

والزيدية هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي أجازوا الإمام في أولاد فاطمة ولم يجوزوا الإمامة في غيرهم، وبذلك يتضح أن مفهوم الزيدية السياسي هو أن يكون الإمام عدلاً فاطميًا، أي من نسل كل من الحسن والحسين وفي نطاق بني فاطمة، ولا يتولى السلطة منه إلا من كان مجتهدًا بلغ درجة الإمامة في العلوم الدينية، لذلك غلب على من تولى الإمام عند الزيدية علماء مجتهدون ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة[٤].

ومن ضمن مفهوم الزيدية السياسي أيضًا أنهم يجوزون ولاية المفضول مع وجود الأفضل إذا كان به مصلحة عامة للمسلمين، كما أجازوا خروج إمامين في وقت واحد، إذا كانا في بلدين متباعدين، أما عصمة الإمام والاعتراف بنظرية المهدي المنتظر فهم لا يقرون بها[٥].

ويطلق على الزيدية في اليمن " الزيدية الهادوية " نسبة إلى الإمام الهادي الذي أسس له مذهبًا خاصًا به في الفروع، وقد خالف جده الإمام زيد بن عليٍّ على ما في مذهبه ولم يتقيد بأقواله[٦]، أي أن الإمام الهادي سار في الأصول على حسب مذهب الإمام زيد أما الفروع فقد اجتهد بها، وهذا يرجع إلى اشتراط الزيدية في الإمامة بالاجتهاد وعدم التقيد بمذهب من

---

(١) العلوي : سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٢م، تحقيق : سهيل زكار، ص٣٨٦؛ محمد عيسى الحريري : تطور المذهب الزيدي في اليمن (قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لابن الشرفي)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، المجلد السابع، العدد ٢٦، ١٩٨٧م، ص٤٥.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص١٦٧.

(٣) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل، ج١، ص١٢٧؛ يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٢٠؛
C. H. Becker : Der Islam, Hamburg, 1912, vol. 3, p. 187.
محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٣٤، هامش ٢.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٦.

(٦) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٥ أ.

سبقوهم[1].

وكان الهادي يطمع في الاستيلاء على اليمن كله وليس على المناطق المجاورة لصعدة فقط لإقامة الدولة الزيدية، وهذا يعني بداية مرحلة من الصراع بينه وبين القوى المنافسة سياسيًا، ومذهبيًا، وأبرزها السنية والإسماعيلية[2].

وفي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس افترقت الزيدية الهادوية في اليمن إلى ثلاث فرق، فرقة سميت المُختَرِعة، وهي التي تقول باختراع الأعراض، وفرقة مُطَرِّفية، وهي التي تقول بحدوث العالم وأن العالم يحيل ويستحيل، وفرقة حسينية نسبة إلى الحسين بن القاسم العياني (ت ٤٠٤هـ/١٠١٣م)[3] والتي ادعت أنه المهدي المنتظر، ونتيجة لهذا التقسيم دخلت الزيدية والمطرفية والزيدية المخترعة في صراع فكري حول العقيدة تلاه صراع عسكري في عهد الإمام عبدالله بن حمزة، والذي أجبر الكثير من المطرفية على ترك مذهبهم والعودة إلى مذهب الاختراع[4].

وكذلك عمل على نشر المذهب الزيدي في عهد الصليحيين كل من الشريف الفاضل وأخيه ذي الشرفين، وكان هذان الشريفان أهم من قاما بنشر المذهب الزيدي في هضبة شمال صنعاء عهد علي الصليحي وابنه المكرم، وقد ظل الشريفان يصارعان الدولة الصليحية مدة حياتهما، فتارة يتصالحان معها وأخرى يدخلان في حرب معها، فلما سعى علي الصليحي إلى تكوين دولته نهض إليه الشريف الفاضل سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م بمساعدة بعض رؤساء همدان لمقاومة الصليحي، فخاض معه معركة شديدة في منطقة " الهرابة " انتهت بانتصار علي الصليحي، بعدها توقفت الحرب بينهما إلى أن قُتل علي الصليحي سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م[5]، فعاود الشريفان الحرب على الصليحيين في عهد المكرم على أثر قتل أبيه مباشرة، واستطاع الشريفان أن يسيطرا على

---

(١) يحيى بن الحسن المذحجي : نزهة النظار في ذكر أئمة الزيدية الأطهار، مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رقم ٣٥٨، ق١٦ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : ابناءالزمن، ق ٢٠، ٢١؛ الأشرف الرسولي : فاكهة الزمن ومفاكهة ذوي الألباب والفطن، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩، تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ٢٧٨٠٩، ق٧٧.

(٣) هو الإمام القاسم بن علي بن عبدالله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل من أولاد القاسم الرسي، أحد أئمة اليمن، ويلقب بالمنصور، أما العياني نسبة إلى " عيان " مدينة، شمال صنعاء واتخذها مقرًا له. يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٣٥؛ ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٣٢.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٧.

(٥) حسين الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص٨٢.

بلاد وادعة وبكيل مما اضطر المكرم إلى أن يعقد صلحًا معهما بأن يكون " نقيل عجيب " الحد الفاصل بين الزيدية والإسماعيلية، وذلك بسبب اتجاه المكرم لاستخلاص أمه من أسر آل نجاح لها[1]، كذلك استطاع الشريفان أن يوجدا للزيدية مراكز هامة هي شهارة، والجوف، وصعدة[2].

وهكذا سيطرت الزيدية على معظم هضبة شمال صنعاء، برغم أن الصليحيين في بعض الأحيان كانوا يصلون إلى صعدة والجوف ويحكمونها لبعض الوقت، إلا أن الزيدية سرعان ما تستولي عليها وتعيد سيطرتها على تلك المناطق[3].

وعندما سقطت الدولة الصليحية بموت السيدة الحرة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م ظهر الإمام أحمد بن سليمان يدعو إلى نفسه بالإمامة حسب مفهوم الزيدية، فبايعه الكثير منهم واستولى على صعدة ونجران والجوف والظاهر[4]، فساهم الإمام أحمد مساهمة كبيرة في نشر مذهب الزيدية في هذه الأماكن، وبذلك يُعد مؤسس الدولة الزيدية الثانية باليمن[5].

كما أصبحت هضبة شمال صنعاء في عهد الإمام أحمد بن سليمان في الغالب تحت سيطرة المذهب الزيدي[6].

ومن أهم من ساهموا في نشر المذهب الزيدي من اليمنيين من غير الأئمة الزيدية في عهد الإمام أحمد بن سليمان، هو القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)[7] والذي يُعد من أهم علماء الزيدية الهادوية المخترعة، وكان يميل أول الأمر إلى المُطَّرفية، إلى أن قدم القاضي زيد البيهقي سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) من خراسان إلى اليمن[8]، فحوله من الزيدية المُطَّرفية إلى الزيدية المخترعة.

ويبدو أن علماء الزيدية في ذلك الوقت لم يتمكنوا من الصمود أمام براعة المُطَّرفية وحذقهم لأفكارهم، فقرر الإمام أحمد بن سليمان إرسال جعفر بن أحمد بن عبدالسلام، إلى العراق لدراسة

---

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٧-٩٧.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني، ج١، ص٢٦٢-٢٦٩.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٨.

(٤) حميد بن المحلي : الحدائق الوردية، ق١١٧.

(٥) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء، ص٣١٦، ٣١٧.

(٧) محمد عيسى الحريري : تطور المذهب الزيدي في اليمن، ص٥٦.

(٨) حميد بن المحلي : المصدر السابق، ق١٠٧.

مذهب الاعتزال وعلومه والعودة إلى اليمن لمواجهة الخلافات الحادة بين الزيدية والمُطْرفية، فرافق القاضي جعفر الفقيه زيد البيهقي إلى العراق، إلا أن الفقيه زيد مات في الطريق في تهامة، وهناك في العراق وجد عبدالسلام الزيدية مشايعين للمعتزلة بصفة عامة ولأبي هاشم الجبائي وأبي القاسم البلخي بصفة خاصة، مما سهل مهمته التي رحل من أجلها(١).

وعند عودة ابن عبدالسلام إلى اليمن سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م اصطحب معه الكثير من كتب المعتزلة وبعض كتب الحديث مثل الأمالي في الأحديث المسندة، وأمالي أبي طالب الهاروني (ت ٤٢٤هـ/١٠٣٢م) وأمالي السيد المرشد بالله (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م)، مما أحدث انقلابًا فكريًا، حيث أقبل السواد الأعظم من الزيدية على قراءة كتب المعتزلة التي قَدِمَ بها جعفر، وتركوا كتب قدامي الزيدية، بل وصل بهم الأمر إلى حد رفضها، ومزقوها وجلدوا بها الكتب الجديدة التي تتضمن أفكار المعتزلة(٢).

وحمل جعفر بن عبدالسلام لواء فكر الزيدية الجديد المتأثر بفكر الاعتزال، واتخذ لنفسه من قرية " سناع " ـ معقل فكر المُطّرفية وعلمائهم ـ مقرًا لتدريس هذه الكتب الجديدة، فوصل إليه الكثير من الناس من مناطق كثيرة يدرسون فقه المذهب الزيدي(٣).

وكانت أفكاره تقوم على أساس الاستفادة من علوم المعتزلة في الرد على خصوم الزيدية من المُطّرفية وغيرهم من الباطنية، ومهاجمة عقائد المُطّرفية، فغضب المُطّرفية لذلك وكتبوا إلى جميع أصحابهم بهجاء القاضي جعفر واتهموه بأنه باطني بن باطني، فطلب منهم المناظرة وقال لهم : " تعالوا إلى المناظرة ويظهر كل منا ما عنده بين يدي حاكم "، فقالوا ومن الحاكم ؟ فقال لهم: إمام الزمان أحمد بن سليمان، فرفضوا المناظرة على اعتبار أن الإمام أحمد بن سليمان إمامًا زيديًا لا يعترفون بإمامته ولا يمكن أن يكون حكمًا فيما بينهم في عقائدهم المُطّرفية(٤).

ثالثًا : المُطّرفية وجهود علمائها :

كان أول ظهور للمطرفية زمن القاسم العياني(٥) (٣٨٨-٣٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م) على أثر

---

(١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٦٤، أ، ب ؛ محمد عيسى الحريري : تطو رالمذهب الزيدي في اليمن، ص٥٦.

(٢) محمد عيسى الحريري :- المرجع السابق، ص٥٦.

(٣) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٦٤ أ ، ب.

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ونفس الورقة؛ سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٨٢.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ق٤١ أ ؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٢م، ط١، ص١٤.

الخلاف الذي حدث فيما بين علي بن شهر أحد علماء الزيدية المخترعة، وبين علي بن حرب، والذي ترتبت على يديه المطرفية، فعلي بن شهر كان يعتقد بأن الله يخترع الأعراض في الأجسام أي أن الله يخلق الأصول والفروع معًا، بينما يعتقد علي بن حرب بأن الله خلق الأصول وفيها الطبائع وهذه الطبائع هي التي تغير نفسها بنفسها، أي أن الأصول تخلق الفروع عن طريق الإحالة والاستحالة[1].

غير أن المطرفية لم تظهر بشكل أساسي إلا في بداية القرن الخامس الهجري على يد مؤسسها مُطَّرِفَ بن شهاب، الذي بلور هذه الأفكار الجديدة وطبع المذهب بطابعه وصار أبرز دعاته حتى انتسب إليه أتباعه وأطلقوا على أنفسهم المطرفية[2].

ولم تلجأ المطرفية إلى العنف في سبيل نشر معتقداتهم، كما لم يتطلعوا للسلطة أو إلى تكوين دولة، وإنما استغلوا غياب السلطة السياسية فترة ما قبل دولة الصليحي في سنة ٤٣٩هـ ثم التسامح والحرية الفكرية التي اتسم بها حكم الصليحيين، فانصرفوا للدعوة إلى مذهبهم وكان سبيلهم في ذلك المحاورة والمناقشة الهادئة[3].

كما لم يقف دور المطرفية عند هذا الحد بل خرج بعضهم للدعوة إلى مذهبهم في أنحاء اليمن فخرج مطرف بن شهاب ونهد بن الصباح إلى " بلاد عنس " حتى وصلا مدينة " ذمار "، وكان أهلها مخترعة فنزلا بمسجدها، واجتمع إليها الناس، وتصدى مطرف للحوار والنقاش فما انقضى المجلس إلا وقد وافقه الجمهور وغلب على أكثر الناس اعتقاد مذهبه، كذلك خرج عليان بن إبراهيم للدعوة في خولان قضاعة[4].

كما قام كثير من رؤساء المطرفية بإنشاء هجر جديدة لاتخاذها مأوى لهم ومكانًا للانقطاع والعبادة والدراسة، فقام عليان بن سعد بتأسيس هجرة الروعة بالطرف من حضور الأحبوب[5]،

---

(١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٣٩ ب، ٤١ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق٥٣؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، ص١٣

(٣) عبدالغني محمود : المرجع السابق، ص١٦.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٤٦؛ خولان قضاعة هم ولد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة من نسب حمير بن سبأ وأوطانهم بالجزء الشمالي من تهامة. الحجري : مجموع بلدان اليمن، ج٢، ص٣١٣، ج٤، ص٦٥٣.

(٥) الأحبوب : عزلة من ناحية الحيمة الداخلية من قضاء صنعاء. المقحفي : معجم البلدان، ص١٥.

كما ابتنى ببلاد حمير هجرة ثانية هي هجرة قاعة[1]، وأسس هجرة ثالثة وهي هجرة جنب[2] التي تعرف بمعين، وهكذا انتشر تأسيس الهجر، ويرجع السبب في ذلك إلى اعتقاد المطرفية في وجوب هجر الظالمين واعتزال الفاسقين، كما كانوا يرون أنه يجب على الإنسان أن يهرب بنفسه وولده وحرمه من مجامع الناس، وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس والمدن والقرى في دينهم ودنياهم، وهذا يفسر السبب في تجمع المطرفية داخل هجرهم التي انتشرت في أنحاء اليمن فيما يشبه حركة تعمير وتجميع سكاني في مناطق صعدة وصنعاء وآنس وشمال تهامة[3].

وكانت الحياة داخل الهجر تتصف بالقسوة والتقشف وقيام الليل في التعبد والدراسة، إلا أن الحياة العلمية كانت نشطة ومزدهرة، فمن أوجه النشاط العلمي هو عقد حلقات التدريس التقليدية حيث يجلس المدرس وحوله طلابه وغالبًا كانت لهذه الدروس أوقاتًا محددة سواء كان ذلك بالليل أو النهار، وكان الشيخ علي بن رزين من علماء المطرفية ذو مكانة كبيرة في حلقات التدريس[4].

وقد شهدت هجر المطرفية نشاطًا علميًا كبيرًا تركز على العلوم اللغوية والدينية وخاصة تعاليم وفقه مذهبهم، فكانوا يدرسون أصول مذهبهم بأن للعالم أصولاً هي الماء والهواء والرياح والنار، وهي أصل ما خلق الله، والعالم على كماله محدث مخلوق، والله تعالى خالقه سواء خلق ما خلق من ذلك جملة أو تدريجًا، وأن الله خلق العالم يحيل ويستحيل[5]، كما أدرك المطرفية المحاذير التي تنتج عن الخوض في مسائل القرآن، ومع ذلك كانت لهم آراؤهم الخاصة، فهم يقرون بأن القرآن كلام الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدين به ويخبر به وهو عليه الصلاة والسلام لا يدين إلا بالحق ولا يخبر إلا بالصدق، وأن القرآن مُعجز عجز الخلق عن الإتيان بمثله وأنه محدث مخلوق[6].

وفي مسألة النبوة رأي المطرفية أن النبوة هي علو الشيء وارتفاعه على الخلق في أعلى درج المتقين التي يستحق بها ذلك المقام وبَنْوُ النبي هي زيادته وعلوه وهو فعله، كما أكد المطرفية

---

(١) قاعة : ناحية العشة بقضاء خَمِر وهجرة قاعة تبعد على ٤٥٠٠م جنوب قرب قرية قاعة. المقحفي : معجم البلدان، ص٥٠٤.

(٢) جنب : عزلة من ناحية بني مطر قضاء صنعاء. المقحفي : معجم البلدان، ص١٣٠.

(٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٥٧.

(٤) ابن الوزير : تاريخ بني الوزير، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٨٣١٦ ح، ق ٢١٩، ٢٢٠.

(٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٤٠.

(٦) عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن، ص٢٥.

أن الله تعالى واحد، ثم يتحدثون في أسماء الله ويقسموها إلى قسمين، الأول : ما سمي به لأجل ذاته نحو عالم وقادر وحي وقديم، والثاني : ما سمي به لأجل فعله كالخالق البارئ المصور المحيي المميت الباعث الرازق، وقد اتهم المطرفية بسبب قولهم أن أسماء الله هي ذات الله بأنهم جعلوه أكثر من واحد فأبطلوا بذلك التوحيد[1].

وهكذا قام معلموا المذهب المطرفي بنشاط علمي كبير داخل هجرهم وخارجها لنشر مذهبهم في اليمن، وما إن حل القرن السادس الهجري إلا وكان مذهب المطرفية قد مثل تهديدًا خطيرًا للزيدية المخترعة، وزاد من تفاقم المشكلة عجز علماء المخترعة عن التصدي لعلماء المطرفية فقاموا بالاستعانة ببعض علماء مذهبهم من خارج اليمن، فقدم الفقيه العالم زيد بن الحسن بن علي الخراساني للرد على المطرفية فاجتمعوا إليه ألوفًا، ورجع كثير منهم عن مذهبه بين يديه[2].

وكانت لهذا العالم شهرة كبيرة في اليمن إذ تتلمذ عليه كثير من علماء اليمن منهم الإمام أحمد بن سليمان والقاضي جعفر بن عبدالسلام الذي كان على مذهب التطريف ثم رجع إلى الاختراع[3].

وبعد وفاة الفقيه زيد، جمع القاضي جعفر كتب الزيدية والمعتزلة من العراق وعاد بها إلى اليمن ليحتج بها على المطرفية ويناظرهم في مذاهبهم، فكان يقال عن القاضي جعفر أنه سار إلى العراق " وهو أعلم أهل اليمن، ورجع وهو أعلم أهل العراق "[4].

وكانت عودة القاضي جعفر نقطة تحول في تاريخ اليمن الثقافي بصفة عامة وفي بداية انحسار المد المطرفي بصفة خاصة، فقد تصدى القاضي جعفر للتدريس والوعظ والمناظرة بسنّاغ، وفشل المطرفية في صرف الناس عنه، كما التف حوله الكثير من العلماء الذين أخذوا العلم عنه وصاروا يمثلون مدرسة قائمة بذاتها، وهم الذين صاروا علماء الزيدية المخترعة[5].

وبالرغم من ذلك لم يعلن المطرفية معارضتهم للإمام أحمد بن سليمان، كما أنهم لم يرحبوا

---

(١) جعفر بن عبدالسلام : رسالة في الرد على المطرفية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطط رقم ٢١٥٣، ق٦٩ أ، ٧٣أ ؛

Tirton : The Mutrrafya, Le Muson, vol. BX. III ; Britishlibrary, London, 1950, p. 65.

وردت في هذه الدورية بعض النصوص في الآراء عن المطرفية.

(٢) ابن الوزير : تاريخ بني الوزير، ق ٢٢١.

(٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٥٩؛ ابن الوزير : المصدر السابق، ق٢٢٢.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق٦٤؛ ابن الوزير : نفس المصدر، ق٢٢٢.

(٥) ابن الوزير : نفس المصدر، ق٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢.

به، ولكن تغير موقفهم السلبي بقيام حاتم بن أحمد اليامي صاحب صنعاء باغتيال محمد بن عليان ابن سعد فاجتمع بسبب ذلك فريقا الزيدية وبايعوا الإمام أحمد وسألوه النهوض معهم إلى اليمن فوافقهم لرغبته في الأخذ بثأر الشيخ محمد بن عليان(١).

ولكن هذا التحالف بين المطرفية والإمام أحمد بن سليمان لم يستمر طويلاً، فسرعان ما تنكر المطرفية للإمام، ورجعوا عن بيعتهم، فصمم الإمام على قتالهم فتراجعوا وطلبوا الصفح، فقبل منهم ودخل الإمام وقش وأحل بها القاضي جعفر بن عبدالسلام(٢).

ويرجع سبب تنكر المطرفية للإمام أحمد بن سليمان إلى تشددهم في أمر الإمامة والشروط الواجب توافرها في الإمام فيقول ابن الوزير : " وقد كانت المطرفية لسعة علومهم وصلابة تدينهم وصبرهم على العبادة والقيام والصيام، يحتقرون معارف غيرهم ويقع من بعضهم إعجاب بالتبحر في العلوم، وللعلم طغيان كطغيان المال(٣).

غير أن الإمام استخدم أسلوب الإقناع عن طريق إظهار عقائد المطرفية وبطلانها، بالتهديد تارة، وبالمناقشة والخطب تارة أخرى، فكان لمؤلفاته التأثير الكبير لتراجع الكثيرين من معتقدي المطرفية عن هذا المذهب، ومن أهم هذه المؤلفات : " الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الضلال والجهال "، " الرسالة الواضحة الصادقة في تبيين ارتداد الفرقة المارقة المطرفية الطبيعية الزنادقة " وفي هذه الرسالة جمع بين المطرفية وكل فرقة من فرق الضلال الخارجين على الملة وذكر لهم أقوالاً تفردوا بها عن جميع الأمم موحدها وملحدها(٤). إلى أن حدة العداء للمطرفية خفت بعد وفاة الإمام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ، والقاضي جعفر بن عبدالسلام سنة ٥٧٣هـ وقد استمر الوجود المطرفي في عهد بني مهدي مما أعطى الفرصة من جديد لازدهار مذهب المطرفية وانتشاره خاصة في عهد الأيوبيين الأوائل في اليمن(٥).

رابعًا : المذهب الإسماعيلي وجهود علماء الشيعة :

تعددت أسماء المذهب الإسماعيلي، فأطلق عليه أول الأمر لقب القرامطة نسبة إلى قرمط، الذي ابتدأ يدعو إلى الإسماعيلية، فلما تولى أحد أتباعه وهو أبو سعيد الجنابي السلطة في البحرين

---

(١) ابن الوزير : تاريخ ابن الوزير، ق٢٢٠؛ سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٨١-٢٨٤.

(٢) سليمان الثقفي : المصدر السابق، ص٢٨٥.

(٣) ابن الوزير : المصدر السابق، ق٢١٥.

(٤) أحمد بن المحلي : الحدائق الوردية، ق١٠٨.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق٣٨؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن، ص٣٥.

استقل عنهم، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والباطنية لأنها تفسر القرآن والسنة بتأويلات باطنية لم يقل بها غيرها من الفرق، وسميت بالفاطمية لأنها تحصر الإمامة في أبناء فاطمة لا غيرهم، كذلك سميت بالإمامية نسبة إلى الأئمة من آل البيت(١).

تميزت الدعوة الإسماعيلية في اليمن بثلاثة أدوار رئيسية، هي : الدور الأول وهو دور الستر الذي كان قائمًا قبيل الدولة الصليحية، وهو الدور الذي ارتبط دعاته بالإمام الإسماعيلي الغائب، ثم بالإمام المهدي بالمغرب، والدور الثاني هو دور الظهور، متمثلاً بظهور الدولة الصليحية في اليمن وارتباطها بالدولة الفاطمية بمصر، والدور الثالث وهو دور العودة إلى الستر مرة أخرى وهي فترة ما بعد انتهاء الدولة الصليحية، وفي هذا الدور انفصلت اليمن عن دعوتها للإمام الطيب.

مرت الدعوة الإسماعيلية في اليمن بعدة مراحل وأدوار، ووجدت تأييدًا ومناصرة من الدولة الصليحية، فقد أعلن علي بن الصليحي طاعته وولاءه للفاطميين بمصر ودعوتهم الإسماعيلية حتى قتل ٤٥٩هـ/١٠٦٦م.

استمر علي بن الصليحي يحكم اليمن معلنًا طاعته وولاءه للفاطميين بمصر ودعوتهم الإسماعيلية حتى قُتل سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، فتولى بعده ابنه المكرم أحمد ثم السيدة الحرة بنت أحمد، والذين سارا على نهج علي الصليحي في الولاء والطاعة للدعوة الإسماعيلية للدولة الفاطمية(٢).

وبعد مقتل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله في ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ/أكتوبر ١١٣٠م، انقسمت الإسماعيلية في مصر إلى فرقتين، إحداهما فرقة إسماعيلية حافظية، وهم أتباع أبي الميمون بن عبدالمجيد الملقب بالحافظ لدين الله، والذي نسبت إليه الدعوة الحافظية وهو من غير ولد الخليفة الفاطمي السابق، فسلمت مصر بهذه الدعوة. والأخرى فرقة إسماعيلية.

الدعوة الطيبية في اليمن(٣) :

أدت وفاة الخليفة الفاطمي العاشر الآمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ) مقتولاً على يد بعض

---

(١) حسين الأمين : دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ١٩٩٦م، ط٥، م٣، ص٣، ٤.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص٦٩، ٧٥ ؛ Marc Bergé : Les Arabes, Paris, 1978, p. 417

(٣) الطيبية نسبة إلى أبى القاسم بن الآمر الذي قيل أنه وُلد قبل موت أبيه بأشهر ونص عليه من بعده. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الإسلامية في اليمن، ص١٨٣، ١٨٤.

النزارية في ذي القعدة ٥٢٤هـ/ أكتوبر ١١٣٠م[١]، إلى بدء تطور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية كانت له آثار بعيدة المدى على تاريخ مصر الفاطمية وعلى تاريخ اليمن بوجه خاص.

فبعد وفاة الخليفة الآمر وقيام السيدة الحرة الصليحية برفض خلافة الحافظ وتوليها الإشراف على الدعوة الطيبية ونشرها، رأت ضرورة الفصل بين وظائف الدولة ووظائف الدعوة فأوكلت أمر الإشراف على الدعوة إلى الداعي ذؤيب بن موسى[٢]، الذي كان مقر إقامته في بلده مدينة "حوث" والذي في عهده دخلت الدعوة الطيبية دور الستر[٣].

وانفصلت الدعوة اليمنية نهائيًا عن الخلافة الفاطمية في مصر بعد تولي الحافظ للخلافة، وتولت الإشراف على الدعوة للإمام الطيب، واستحدثت اصطلاح الداعي المطلق للدلالة على رئيس الدعوة الطيبية، وأصبح الداعي الذؤيب بن موسى أول سلسلة الدعاة المطلقين[٤].

انحصرت الدعوة الطيبية في مغارب اليمن الأعلى في غرب وشمال غرب صنعاء في كل من حَرَاز والجَرِيْب وحُوثْ وكَوْكَبان، واستخدم دعاة الدعوة الطيبية في هذه المناطق مساعدين لهم في نشر الدعوة، فاستحدث الداعي الذؤيب، رتبتي المأذون المُطْلَق والمأذون المحصور (المُكَاسِر) ليكونا في معاونته، وهي رُتّب بعد الداعي المطلق[٥].

ظل الداعي ذؤيب بن موسى يرأس الدعوة الطيبية، يعاونه في رتبة المأذونية كل من الداعي الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري (ت ٥٣٣هـ/١١٣٨م)، والداعي إبراهيم ابن الحسن الحامدي (ت ٥٤٤هـ/١١٥٩م)[٦].

وعندما توفى الداعي الذؤيب في المحرم ٥٤٦هـ/١١٥١م تولى مكانه رئاسة الدعوة الطيبية مأذونه الداعي إبراهيم بن الحسن الحامدي كداع مطلق للإمام المستور الطيب بن الآمر

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١١٠؛ أحمد محمد جلي : دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة "، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ط١، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) إدريس : عيون الأخبار، ص٢٤٥؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص١٩٢.

(٣) إدريس : نزهة الأفكار، ق٣٥.

(٤) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص١٩٣؛ عبد عون الروضان : موسوعة تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٤م، ط١، ج٢، ص٦٩٥، ٦٩٦.

(٥) أيمن فؤاد سيد : نفس المرجع والصفحة، ص١٩٣.

(٦) إدريس : المصدر السابق، ق٣٧؛ الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص٢٠٠-٢٠٣.

لأحكام الله وأقام الحامدي مساعدًا له في رتبة المأذونية الداعي علي بن الحسن بن أحمد بن الوليد بن الأنف العبشمي القرشي، فعمل هذا المأذون على نشر الدعوة الطيبية الإسماعيلية حتى تـوفي في رمضان ٥٥٤هـ/١١٥٩م، فأقام مكانه في رتبة المأذونية ابنه حاتم بن إبراهيم الحامدي الذي استقر في بعض أوقاته في صنعاء، وإلى جانبه جعل مساعدًا له في رتبة المكاسر محمد بن طاهر الحارثي[١].

وفي عهد الداعي المطلق حامد الحامدي دخلت الدعوة الطيبية حروب طويلة مع السلطان حاتم بن علي إليامي حاكم صنعاء في كل من كوكبان والعروس وغيرهما، ذلك لمعاداة السلطان علي بن حاتم للدعوة الطيبية[٢].

وهكذا أصبحت الدعوة الطيبية منظمة دينية محضة، ولجأت إلى التستر خاصة بعد أن سيطر على اليمن علي بن مهدي، الذي ظلت له السطوة حتى أن فتح اليمن تورانشاه الأيوبي، ففي أيام الداعي المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدي ومأذونه الداعي محمد بن طاهر الحارثي، دخل الأيوبيون إلى اليمن، فاستمر المأذون الداعي محمد بن طاهر يدعو بصنعاء في عهدهم إلى وفاته سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م[٣].

دور العلم والمعرفة والمراحل التعليمية :

أولاً : المراحل التعليمية :

تعددت مراحل التعليم ومدارسه في بلاد اليمن وزبيد، كما تعدد مجالسه وطرق الدراسة ومواد التدريس وتمويل التدريس وانتهاءً بمنح الإجازات العلمية، فأخذ التعليم باليمن ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى :

الدراسة في الكتاتيب " **المِعْلاَمة** " ويتركز الاهتمام في هذه المرحلة على تعليم الصبية القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم كله عن ظهر الغيب[٤]، وقد يكلف الصبي بإعادة قراءته وحفظه مرة أخرى أو أكثر، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن بحيث يتيسر للأولاد الالتحاق بأقربها إلى بيوتهم، حتى إذا ما أتموا هذه المرحلة التي تختتم باستكمال حفظ القرآن

(١) إدريس : نزهة الأفكار، ق٣٧، ٣٨؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص١٩٤.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٣٢٤.

(٣) إدريس : المصدر السابق، ق٤٢؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص١٩٧.

(٤) الجندى : السلوك، ج١، ص٣٤٠.

الكريم، انتقل من أراد أهله استمراره في التعليم إلى الالتحاق بالمدرسة أو المسجد لتلقي العلوم الدينية واللغوية في القرى الكبيرة أو المدن(١).

ويبدأ الالتحاق بالدراسة في الكتّاب في سن الخامسة أو قبل ذلك أو بعده، وعادة ما يكون أولاد المعلمين في هذه المرحلة هم الذين يدرسون في سن مبكرة، وتعتمد فترة بقاء الصبي في الدراسة في هذه المرحلة على مدى قدرته على حفظ وختم القرآن وهي فترة يستطيع البعض إنهاءها في سنتين وقد تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات(٢).

وتبدأ هذه المرحلة بتعليم القراءة والكتابة باستخدام الألواح الخشبية وحفظ قصار سور القرآن، ثم التدرج إلى أن يتم الانتهاء من حفظ القرآن كله، فإذا ما ختم الصبي القرآن يكون قد انتهى من هذه المرحلة، ويقام له احتفال أو وليمة بهذه المناسبة حسب حالة ولي أمره، فقد تكون مقصورة على زملائه فقط من الطلاب، وقد يدعى إليها الكثير من الناس ذوي العلم وغيرهم(٣).

المرحلة الثانية :

وهي الدراسة في المسجد أو المدرسة، وهي مرحلة التفقه في العلوم ويدرس الطالب في هذه المرحلة العلوم الدينية واللغوية على أساتذة متفقهين في هذه العلوم. وتبدأ الدراسة الميسطة بحيث يدرس الطالب مثلاً " مختصر ابن عباد " في النحو وهو ما كان يبدأ المبتدئون في قراءته وتعلمه(٤)، كما يجب حفظ قواعد اللغة، ثم يتم التدرج إلى ما هو أكثر صعوبة وهكذا حتى يدرس الطالب العديد من كتب الفقه واللغة، وقد يعيد الطالب دراسة الكتاب أكثر من مرة، فمثلاً ارتحل يحيى بن أبي الخير العمراني (٤٨٩-٥٥٨هـ/١٠٩٥-١١٦٣م) إلى الإمام زيد بن حسن الفائشي (٤٥٨-٥٢٨هـ/١٠٦٥-١١٥٧م) في أحاظة فأعاد عليه كتاب " المهذب "(٥)، كما درس عنده " التعليق " و" الملخص " و"غريب أبي عبيدة"(٦)، وتعتمد هذه المرحلة على الحفظ والفهم معًا. ويعد الطالب الأكثر حفظًا من الطلاب النجباء.

كما يبدأ الطالب في هذه المرحلة بسماع قراءة الأستاذ لما يدرسه في الكتب، ثم يقرأ ما سمع

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٣.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢١٤.

(٣) بامخرمه : تاريخ ثغر عدن، ص١٤٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٢٨٧؛ ياقوت : معجم الأدباء، م٢، ص٤٥٦.

(٥) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٧٥.

(٦) الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٣٨.

إلى أن يحفظه، ومن أمثلة الحفاظ الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير الهمداني العرشاني (ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م) أحد الشيوخ المشهورين بالحفظ، قال عنه تلميذه الإمام يحيى بن أبي الخير : " ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ في الحديث ولا أعرف منه، قيل له : ولا في العراق، قال ما سمعت "[١]. كما سمع عليه خلق كثير من أنحاء اليمن. وحفظ يحيى بن أبي الخير كتاب " المهذب " و" اللمع " غيبًا أخذهما عن الفقيه عبدالله بن أحمد الزبراني[٢].

وبالنسبة لاختيار المدرس الذي يدرس على يديه الطالب فلأولياء التلاميذ أن يتفقوا على من يرغبون من معلمي الصبيان، ليتلقى أبناؤهم العلم عليهم، وفي مرحلة التفقه قد يختار الطالب أستاذه بنفسه، ولم يكن هناك إجبار على التقيد بأن يتعلم الأولاد القراءة والكتابة على معلم بذاته أو التفقه في كتاب بعينه[٣]، وكان الإقبال على من هم أكثر شهرة في العلم، وفي هذه المرحلة يرتحل الطالب في طلب العلم إلى أماكن كثيرة داخل اليمن أو خارجها[٤].

وفترة الدراسة اليومية في هذه المرحلة الثانية مثل المرحلة الأولى تبدأ من الصباح إلى أن تحين صلاة العصر، وقد يقوم بعض المدرسين بإعطاء الطلبة رياضة بدنية، فكانوا يتسابقون ويتعلمون الوثب إلى اصفرار الشمس قرب صلاة المغرب وبعدها ينصرفون إلى الوضوء لصلاة المغرب[٥].

وتنتهي الدراسة الفقهية في كثير من الأحيان بنهاية هذه المرحلة، حيث يسمح للحاصل على الإجازة العمل في القضاء لمن يجيد الفقه، أو في التدريس لمن يجيد الفقه واللغة، أو الذهاب إلى الأعمال الكتابية لمن يجيد اللغة[٦].

المرحلة الثالثة :

يستمر الطالب في هذه المرحلة الثالثة المتقدمة في مواصلة دراسة العلوم، والتدريب على المناظرات العلمية، وأهم ما تتميز به هذه المرحلة السعي للالتقاء بمشاهير العلماء والأخذ عنهم أينما كانوا، هذا بجانب المشاركة في المناظرات، فكان الفقيه أبو بكر بن جعفر المحابي

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص١٧١، ١٧٢.

(٢) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٤٠.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢١٦.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٧٠.

(٥) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص٢٣١.

(٦) السروري : المرجع السابق والصفحة، ص٢١٦.

(ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م) يرحل كل سنة إلى زبيد لمناظرة فقهائها[١].

وفي هذه المرحلة تظهر الشروخ والاختصارات، والتهميشات وشروح الشروح، والتعليقات على الكتب، أو بعض المسائل، كما تظهر المؤلفات، فمن شرح المختصرات "شرح مختصر المزني" تصنيف أبو الفتح يحيى بن ملامس (ت بعد ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) ومن المختصرات مختصر في النحو يعرف " بالمفتاح " لأبي بكر الفقيه بن عبدالله بن إبراهيم اليافعي الجندي (٤٩٠-٥٥٢هـ/١٠٩٦-١١٥٧)[٢].

ومن المؤلفات كتاب " الكافي " في علم المواريث للصردفي، وكتاب " القاضي " في المذهب الحنفي للقاضي محمد بن أبي عوف[٣]. وكتاب " المجموع " للإمام جعفر المحابي (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٧م)، وكتاب " البيان " للعمراني (ت ٥٥٨هـ/١١٦٢م)[٤]، وتظهر في هذه المرحلة التأليفية القدرة على الابتكار والتجديد والإضافة مع غزارة العلم والاجتهاد، ويطلق على العلماء في هذه المرحلة الألقاب المختلفة مثل الإمام والشيخ الحافظ، وقد يضاف إليها ألقاب أخرى مثل سراج الدين[٥]، وجمال الدين شمس الشريعة، أو سيف السنة، أو إمام الأئمة[٦]، وهؤلاء هم الذين يتصدون للفتوى ورئاسة علماء العلوم مثل رئاسة أو إمامة الحديث، أو الفقه، أو اللغة، أو النحو. وكان هؤلاء العلماء ينتقلون من بلدة إلى أخرى للتدريس بها أو طلبًا للأمان، فمثلاً كان الفقيه يحيى بن أبي الخير (٥٥٨هـ/١٠٦٢م) يدرس في " سَيْر " وعندما حدث بين أهلها الحرب انتقل إلى ذي السفال، فمكث بها يدرس مدة ثم انتقل إلى ذي أشرق فمكث بها أكثر من سبع سنين يُدَرِس[٧]، ولما هجم ابن مهدي على الجند سنة ٥٥٧هـ/١٠٦١م، وقتل الكثير من علمائها وأهلها، خاف الإمام يحيى فانتقل إلى ذي السفال مرة أخرى ومات بها سنة ٥٥٨هـ/١٠٦٢م[٨].

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص٢٨٢.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٢٦٦، ٣٥٤.

(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٢٨٢-٢٨٤.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٧.

(٥) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٤٤٧.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٨٧، ١٧٩، ١٩٠.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٩؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٤٢.

(٨) ابن سمرة : نفس المصدر والصفحة.

ثانيًا : مراكز التعليم :

١- المسجد :

كان المسجد أهم مراكز التعليم في الإسلام، فكان له دور كبير في النهضة العلمية والأدبية في اليمن، وزبيد، فكان بمثابة المدرسة التي يقصدها طلاب العلم، فكان كل عالم يتخذ سارية من سواري المسجد يجلس تحتها، ويلتف طلابه وتلاميذه حوله، وهناك كان يتلقى الصبية دروس القرآن ثم العلوم العربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب، وكثيرًا ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التي كان يعقدها العلماء والمناظرات الأدبية[(١)].

فكان لمسجد الأشاعر في زبيد دور كبير ومتميز في نشر العلوم الإسلامية لقاصديها داخل اليمن وخارجها، حيث درس فيه عدد من العلماء والفقهاء من أعلام القرن السادس الهجري[(٢)].

٢- المدارس :

تطور نظام أماكن التدريس من المسجد إلى إيجاد أماكن خاصة بها وهي المدرسة، التي اقتصرت على تعليم الطلبة المذاهب الإسلامية أو بعضها، فضلاً عن العلوم الدينية الأخرى المتنوعة.

وكان التعليم القائم في المسجد يعتمد في أغلبه على المجهود الذاتي لرجالات الدين، ففي بناء المدارس في زبيد، اعتمد التعليم على توجيه رجالات الدولة، سواء كانوا رجال دين أم علم أم سياسة، فاتجهت الدولة إلى بناء المدارس والإشراف عليها وتوحيد انتماء المجتمع إلى مذهب واحد، أو مذاهب متقاربة ليس بينها صراع سياسي، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن الوزير النجاحي أبو منصور مَنّ الله الفاتكي، كان يتولى الإشراف المالي وغيره على مدارس الفقهاء في زبيد سواء كانت الحنفية أو الشافعية[(٣)].

ومن المدارس التي اشتهرت في زبيد في عهد دولة بني مهدي، مدرسة ابن الأبّار والتي أنشها الفقيه أبو عبدالله محمد بن القاسم الأبّار سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[(٤)]، وخصها لتدريس المذهب

---

(١) الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، ص١٩٧.

(٢) رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد، ص٣١.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص١٢٦، ١٢٧.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص١٥٥.

الشافعي، وكان هذا الفقيه إمام الشافعية في زبيد، بل في اليمن على حد قول المؤرخ عمارة اليمني الذي درس الفقه الشافعي على يد هذا الفقيه، وكانت هذه المدرسة في بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي من أهم مدارس العلم في مدينة زبيد، ويتضح ذلك من الإقبال الشديد على طلب العلم فيها وكثرة عدد الدارسين فيها، حيث يذكر عمارة بأن الشاعر الغرنوق، دخل مدرسة الآبار وقد تضايقت المجالس لكثرة طلبة العلم، وقال في ذلك[1] :

مجلسك الرحب في تراحمه	لا يسع المرء فيه مقعده
كل على قدره ينال فذا	يلقط منه وذا يحصده

وتعتبر هذه المدرسة من أقدم المدارس المذهبية التي أُنشئت في زبيد، وكان من أشهر تلاميذ الفقيه ابن الأبّار، عبدالله بن عيسى المهري، ومحمد بن عطية، فضلاً عن عمارة اليمني.

كما كانت من أشهر المدارس في زبيد، مدرسة جامع الأشاعر، ومن المدرسين بمدرسة مسجد الأشاعر القاضي عياش بن محمد المخزومي، ومحمد وعلي ابنا عيسى بن همدان، فكانوا يرشدون الطالب ويفقهون السائل[2]. ومن هنا يمكننا القول أن المدارس في زبيد وُجدت منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) سواء كانت عبارة عن مباني بسيطة ملحقة بالمساجد، أو مستقلة عن أي مبنى[3].

كما كان للبيوت دور مهم في تدريس العلوم الدينية واللغوية وغيره فكان بعض العلماء يستخدمون بيوتهم للتدريس، كما كان الأغنياء يتدبرون من يتولى التدريس لأبنائهم في بيوتهم وخاصة في مراحل التعليم الأولى، ويرجع سبب استخدام العلماء البيوت للتدريس إلى مرحلة شيخوخة الفقهاء، فمثلاً كانت مدرسة دلال في منزل الفقيه منصور بن علي ابن عبدالله بن إسماعيل (ولد سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م) في بعدان[4]، والتي كانت ترد إليها كثير من الطلاب والفقهاء للتعليم فيها[5].

ثالثاً : مجالس التعليم :

في مرحلة الدراسة في المسجد وجدت عدت مسميات لمجالس التدريس، منها ما سمي " حلقة علم " أو" مجلس استماع " أو " مجلس تدريس "، وهي تأخذ في مجموعها شكل دائري

---

(١) عمارة : المفيد، ص١٦٨، ٢٣٧.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٤٥.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢١٤.

(٤) بَعْدان : مخلاف مشهور من بلاد إب. الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، م١، ص١٢٤.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص٢١٤.

حول الأستاذ المكمل للدائرة، وهناك فرق بين هذه المجالس من حيث نوعية العلم الذي يدرس بها.

حلقة العلم :

وهي عبارة عن جلسة علمية يجلس فيها الفقهاء والمدرسين للمناقشة في الأمور العلمية والدينية واستذكارها، ومنها حلقات دائمة في المساجد والمدارس وأخرى طارئة مؤقتة ترتبط بالعلماء الوافدين إلى اليمن لفترة قصيرة، وأحياناً تعقد هذه الحلقة للفتوى فيحضرها عامة الناس والطلبة(١).

مجلس التعليم :

وهي عملية التدريس نفسها، فعندما يذهب الطلاب للدراسة في المسجد كانوا يجلسون على الأرض أمام الأستاذ الذي يجلس على كرسي مرتفع، أو يجلس على الأرض متكئاً بظهره على جدار المسجد بجانب المنبر أو متكئاً على المنبر نفسه، أو على أحد الأعمدة(٢)، أما الطلاب فيجلسون حوله، ويتسع عدد طلاب هذا المجلس نحو خمسين طالبًا، وقد يبلغ الثلاثمائة، وممن كان له مجلس تدريس هو الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا (ت ٦٠٩هـ/١٢١٢م) في زبيد ثم خلفه في مجلس التدريس تلميذه الفقيه موسى بن عجيل(٣).

مجلس السماع :

وفيه يجلس الطلبة أمام الأستاذ كجلسة مجلس التدريس نفسها وغالبًا ما تختص تسمية مجلس السماع على مجلس سماع الحديث، ومن أشهر الشيوخ المحدثين الذين عقدوا هذا مجلس الفقيه الحافظ علي بن أبي بكر بن حمير العرشاني (ت ٥٥٧هـ/١١٦١م) الذي كان له مجلس سماع في شرح " صحيح البخاري " في إبّ وقد روى عنه كثير من المشايخ منهم يحيى بن أبي الخير العمراني، وكان مجلسه يحضره الطلاب من جميع أنحاء اليمن(٤).

وليست هناك مدة محددة للدراسة في هذه المجالس فقد تطول أو تقصر حسب نوعية الكتب الدراسية وحجمها، فقد يدرس الطالب كتابًا واحدًا وقد يدرس عدة كتب، وقد يستمر في حضور تلك المجالس إلى أن يكتفي(٥).

وبالإضافة إلى تلك المجالس هناك مجالس أخرى تسمى مجالس المذاكرة وتختص بمذاكرة

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٣؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٣٨١.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٣٠٤؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص١١٥.

(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٤٧٤؛ ابن سمرة : نفس المصدر، ص٢٤٦.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧١.

الفقه أو ذكر الله تعالى فيدعون الله عز وجل ويرغبون إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهذه المجالس عادة ما تعقد بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وقد تستمر إلى ما بعد صلاة العشاء(١).

من أهم الطرق التعليمية المستخدمة في اليمن في القرن السادس الهجري، هي السماع والقراءة والحفظ والكتابة والإملاء والمناظرة وهي الطرق نفسها المستخدمة في العالم الإسلامي آنذاك.

طريقة السماع :

وهي أول طريقة من الطرق التعليمية سواء أكانت طريقة السماع في مرحلة الكتاتيب " المعْلامة " أو مرحلة المسجد أو المدرسة، فكان الطالب في مرحلة المعلامة يسمع نطق الحروف والكلمات، ثم يعيد نطقها كما سمعها من الأستاذ ثم يحفظها، واستمر السماع أسلوبًا من أساليب التدريس في مرحلة القراءة بالمسجد والمدرسة، فكان الطالب أول ما يحضر مجلس التدريس يبدأ بسماع قراءة الكتاب من أستاذه سواء كانت كتب فقه أو حديث أو لغة وكانوا كثيرًا ما يهتمون بأن يسمع الطالب قراءة الأستاذ للكتاب، حتى وإن كان الطالب يعرف القراءة، لأن بداية تصحيح نطق الكلمات هي قراءة الأستاذ للكتاب على الطالب ثم سماعه منه(٢).

ثم أصبحت كلمة " السماع " بعد ذلك مصطلحًا يطلق غالبًا على من يسمع الحديث ويقرأه، فعندما ترد كلمة فلان سمع عن فلان، تعني درس الحديث، وتفقه على علان، أي درس الفقه(٣).

طريقة القراءة :

وهي تأتي بعد السماع في التعليم، وذلك بإعادة الطالب قراءة ما سمعه من أستاذه، وهذا الأسلوب لتصحيح نطق الطالب، وقد يأمر الأستاذ طلابه بإعادة قراءة الكتاب أكثر من مرة حتى يستطيعوا قراءته كاملاً بطريقة صحيحة(٤). على أن كلمة قراءة إذا أتت غير مقرونة باسم أي كتاب أو العلم الذي يقرؤه الطالب فهي تعني قراءة القرآن، ومن يمنح إجازة القراءة يعني منح إجازة في قراءة القرآن الكريم، أما من درس الفقه فيذكرون اسم من قرأ أو درس عليه.

ومن المقرئين الذين سكنوا زبيد، علي بن أبي بكر بن داود القُرَنْطِيُّ أصله من لحج، ومات

(١) بامخرمة : ثغر عدن، ص٨٢؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٤٥٩.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٥٤؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٢٣.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٨٩، ١٩٠.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٥٤؛ الأهدل : تحفة الزمن، ص٢٢٨، ٢٤٧، ٢٤٨.

بزبيد سنة ٥٨٠هـ[١]. أيضًا المقرئ والفقيه عبدالله بن أسعد، الذي كان مدرسًا في مسجد الأشاعر بزبيد، وله كثير من الطلاب يقرأون عليه[٢]. كذلك كان من مقرئي القرآن الحسين بن علي بن محمد الزبيدي المولود في زبيد سنة ٥٣٠هـ وتوفى ٥٨١هـ، والذي قرأ عليه جماعة من طلاب زبيد واليمن[٣].

طريقة الحفظ :

وهي تبدأ من السنة الأولى لدخول الطالب مرحلة الكتاتيب، ثم يستمر الحفظ في مرحلة القراءة في المسجد والمدرسة، وتعتبر عملية الحفظ وخاصة للقرآن الكريم والأحاديث من أهم عمليات التحصيل العلمي عند المسلمين، كما تمتد عملية الحفظ إلى كتب الفقه وأصوله وكتب اللغة والشعر، وذلك من خلال التلقين والتكرار من المدرس لطلابه، هذا وقد بالغ الكثير من الناس بالحفظ، فكانوا يحفظون إلى جانب القرآن وآلاف الأحاديث كتبًا فقهية ولغوية ونحوية كاملة[٤]، فمثلاً كان الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر العرشاني (ت٥٥٧هـ/١١٦١م) من أشهر علماء الحديث حفظًا[٥].

طريقة الكتابة والإملاء :

وهذه الطريقة تعتبر من أقدم بل وأهم طرق التعليم فالكتابة هي النقل من الكتب أو الإملاء، وهي من أهم متطلبات الدراسة، ويبدأ الطالب بتعليم الكتابة منذ مرحلة الكتاتيب، ثم يستمر في ممارسة الكتابة بشكل أوسع في مرحلة الدراسة في المسجد والمدرسة[٦]، وكان الطلاب غالبًا ما يقومون بنقل الكتب التي يدرسونها من أساتذتهم سواء في المسجد أو المدرسة، فيقوم الأستاذ بمطابقة النسخة التي نقلها الطالب بنسخته لأن النقل الحرفي لكتاب الأستاذ شرط مهم من شروط الدراسة في تلك الفترة، وبعدها يقوم الطالب أو الأستاذ بوضع شروح الكتاب، أو تعليقات أو تهميشات، أو مختصرات، كما كان الأستاذ يملي كتابه على الطلاب بعد الفراغ من تدريسه أو في أثنائها[٧].

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٠٣.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢٤٠.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء، ج٩، ص١٤٧.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٠٣، ١٢٢؛ الجندي : السلوك، ج١، ص٢٤٠.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص١٧٢؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٢٥.

(٦) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٧) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٤٧٤؛ السروري : نفس المرجع والصفحة.

وإذا كان بالكتاب الذي درسه الطالب تعليقات أو غيرها ينقل الكتاب بتعليقاته موضحًا صاحب الكتاب وصاحب التعليق، والأستاذ الذي درس عليه الكتاب، وتسمى عملية الكتابة استنساخ، ويسمون الكتابة نسخة، وقد يكتب الأستاذ على الكتاب الذي نقله الطالب ودرسه عليه " إجازة " للطالب بهذا الكتاب، بعد أن يكون قد تفقه فيه(١).

طريقة المناظرة والحوار والجدل :

وهي من أهم طرق التفقه، وعادة ما تُتبَع في المرحلة الأخيرة من عملية التفقه العلمي وغالبًا ما تكون المناظرة بين العلماء أو الفقهاء أو بين فقهاء كبار وفقهاء جدد أو بين أصحاب مذهب ومذهب آخر، أو بين المدرس وطلابه أو بين الطلاب وبعضهم بإشراف المدرس ومن أمثلة ذلك :

في مجال المناظرة بين أصحاب مذهبين سنيين، كان الفقيه الإمام أبو بكر بن الإمام المحابي، يرحل إلى زبيد كل عام يناظر فيها فقهاء الحنفية وعلى رأسهم يومئذ القاضي محمد بن أبي عوف(٢). كذلك الفقيه أبو الطيب بن الإمام يحيى بن أبي الخير ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحدح، بين يدي عبدالنبي بن مهدي مرارًا، فقطعه واستظهر عليه(٣).

وفي مجال المناظرة بين العقيدة فيما بين مذهبين أحدهما المذهب الشافعي والآخر المذهب الزيدي، هي محاولة القاضي الزيدي جعفر بن عبدالسلام النزول إلى اليمن الأسفل لمناظرة أهل السنة في العقائد، ومن مناظراته ما جرت مع تلميذ العمراني الشافعي المعروف بسيف السنة في مدينة إب، فاستظهر سيف السنة على القاضي جعفر(٤). ولما عاد القاضي جعفر من اليمن كتب رسالة سماها " الدامغة " للحنابلة، فأجابه العمراني بكتاب " الانتصار " في مجلد فيه ما ألزم به القاضي جعفر من الجبر وقال أنه لا يقوم به أحد منهم. وألزم القاضي جعفر بإلزامات كثيرة وقابل كل حجة يحتج بها بحجة تناقضها(٥).

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٦٨؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٢٥.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٢٨٢.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٨٦-١٨٨.

(٤) يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق٥٣. كان العمراني وتلميذه سيف السنة على مذهب الحنابلة، ثم اعتنقا مذهب الشافعي.

(٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة.

رابعًا : وظائف التدريس :

اتبع الفقهاء المدرسون نظامًا وظيفيًا في سلك التدريس فأوجدوا عدة درجات ومراتب وظيفية تنظم علاقتهم مع بعضهم، وتنظم سلطة كل واحد منهم وظيفيًا في المدرسة أو المسجد، وشملت هذه الدرجات الوظيفية كل مراكز التعليم في اليمن، ومن هذه المراتب والدرجات الوظيفية " مرتبة " معيد والمقصود بها إعادة الدرس وقد عرفها القلقشندي بقوله : " المعيد وهو ثاني رتبة المدرس فيما تقدم وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه "[١].

ثم مرتبة " فقيه مدرس " وتحتل المرتبة التالية بعد رئاسة التدريس ويتولى شاغلها تدريس العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأيضًا العلوم اللغوية من نحو وصرف ولغة، وانتشرت هذه المرتبة في جميع مراكز التدريس في اليمن، ويتولى هذه الوظيفة من بلغ درجة عالية في العلوم الدينية واللغوية[٢]، فهي من أهم مراتب التدريس، ففي هذه المرتبة يتخصص الفقيه المدرس بتدريس علم واحد فيسمى باسم العلم الذي يُدَرِسه مثل محدث لمن يدرس الحديث[٣]، ومقرئ لمن يقرأ القرآن[٤]، وقد يجمع بين تدريس عدد من العلوم مثل الفقه والحديث واللغة معًا، فيطلق عليه لقب إمام، وقد يتولى رئاسة هذا العلم، ومن ذلك كان الحافظ علي بن أبي بكر بن أحمد العرشاني إمامًا في الحديث كما كان أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقامة إمامًا في عدد من العلوم[٥].

أيضًا مرتبة " رئاسة تدريس " وهي أرفع المراتب الوظيفية في التدريس، وكان غالبًا ما تضم إلى هذه الوظيفة رئاسة الفتوى، وممن تولى رئاسة التدريس والفتوى بزبيد، الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي القاسم بن حسن الذي عرف بابن الأبار والذي تفقه بابن عبدويه، واشتهر بهذه الوظيفة فكان مجلسه للتدريس مزدحمًا بالطلبة[٦]. وكذلك الفقيه محمد بن عبدالله بن علي بن أبي عقامة المعروف بالحفايلي (ت ٥٥٤هـ)، انتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي في زبيد[٧]. ومن

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٤.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٢٧.

(٣) القلقشندي : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٢٨٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٤٥٣.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٦) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص٣٧٧.

(٧) ابن سمرة : المصدر السابق، ص٢٤٠.

العلماء الذين انتهت إليه رئاسة العلم والفتوى هو الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨هـ) فكان يُرحل إليه من نواحي كثيرة من اليمن لطلب العلم[١].

خامسًا : أوقات الدراسة :

كانت الدراسة في المدارس والكتاتيب تتم في الغالب من بعد صلاة الفجر حتى آذان الظهر وفي الكتاتيب كان الطلبة بعد تناول طعام الغداء يعودون للدراسة حتى صلاة المغرب، أما مدة الدراسة فكانت تستمر لمدة تسعة شهور تبدأ من أول شهر المحرم وتنتهي في آخر شهر ذي القعدة مع عطاء الطالب إجازة سنوية لمدة ثلاث شهور هي شعبان ورمضان وذي الحجة، فضلاً عن أيام الجمع والأعياد والمناسبات الدينية الأخرى والرسمية، كما كان طلاب المدارس الريفية يأخذون إجازاتهم في مواسم الحصاد ومدتها شهرين[٢].

سادسًا : الإجازات :

كان أكبر اهتمام المسلمين في الفترة الإسلامية هو تحصيل العلوم والتفقه بها، ولا يطلبون لذلك شهادات، فشهادة الفقيه أو العالم هو علمه الذي يعبر عنه بلسانه أو فكره أو قلمه، وكانوا إذا أرادوا أن يعرفوا علم الشخص، يناقشه العلماء المشهورين ويناظرونه في العلوم فإذا رأوه عارفًا بالعلوم شهدوا له بأنه عالم، ومجرد شهادة العلماء المشهود لهم بالعلم لأي عالم بالعلم والمعرفة، تعتبر أقوى الشهادات على موجب ذلك يستطيع بعدها الفقيه التوظيف في القضاء أو التدريس[٣].

من ذلك أن الفقيه أبا الطيب طاهر بن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني، ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحدح، بين يدي عبدالنبي بن مهدي مرارًا، فقطعه واستظهر عليه، فولاه ابن مهدي قضاء ذي جبلة وأعمالها[٤].

ومع ذلك وُجِدَتْ شهادات علمية أو إجازات تبرهن بالدرجة الأولى أن الطالب درس على أحد الفقهاء المشهورين، كما أنها تعبر عن الأستاذ الذي درس عنده الطالب ومقدار شهرته، كما تعبر عن الكتاب الذي درسه الطالب وشهرة هذا الكتاب وما يحويه من علم، وكذلك تعبر عن نوعية الدراسة، أهي قراءة أو سماع أم تفقه، وتسمى الإجازة في الفقه " إجازة " فقط والإجازة في

---

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٧٤.

(٢) الجندي : السلوك، ج١، ص٢١١. فكان يخص شهر شعبان لقراءة صحيح البخاري، وشهر رمضان لأنه شهر الصوم، وشهر ذي الحجة لأنه شهر الحج.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٣٦.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٨.

الحديث تسمى " مسموعات "، وعلى ذلك يوجد هناك العديد من الإجازات، منها : إجازة سماع، وإجازة بكتاب، وإجازة بمؤلفات عالم وإجازاته، وإجازة عامة[1].

كانت إجازة السماع، غالبًا ما تطلق على كتب الحديث، فعندما يُنْتهي الطالب من سماع كتب الحديث وقراءتها على أستاذه يمنحه الأستاذ إجازة في الكتاب الذي أسمعه إياه.

وكانت إجازة السماع تكتب على نسخ الكتب التي يدرس بها الطالب، فمثلاً قرأ القاضي جعفر بن عبدالسلام على القاضي أحمد بن الحسن الكني ومن جملة ما قرأ كتاب " الزيادات " فمنحه إجازة السمع بهذا الكتاب[2].

أما الإجازة في كتاب، فتمنح لمن درس الكتاب المجاز به وهي تدل على أنه تفقه بكتاب فلان، وهذا الكتاب المجاز به له شهرته ومكانته لدى العلماء، وكذلك الأستاذ الذي تولى تدريسه، ومن خلال هذه الإجازة يستطيع العلماء الآخرون أن يقيموا الطالب علميًا من خلال الكتاب والأستاذ الذي منح الطالب الإجازة، ومن أمثلة ذلك أن منح إجازة في كتاب الشيخ أبي السعود بن خيران المولود سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م الذي درس على الإمام يحيى بن أبي الخير الفقه والقراءات، فأجازه في كتاب " الملخص " في الجدل لابن عبدويه[3].

أما الإجازة العامة، فكانت تمنح من فقيه لآخر في كتبه وجميع العلوم التي أخذها، وقد تمنح الإجازة الفقهية من شيوخ البلدان سواء كانت الإجازة لتدريس مؤلفاتهم أو تدريس الكتب التي أجيزوا بها، من ذلك أن الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير العمراني عندما سكن مكة بأهله بعد هروبه من ابن مهدي من اليمن، وصلته الإجازات من الشيوخ في البلدان[4].

وكانت الإجازات تمنح من الفقيه إلى جميع تلاميذه، إلا الذين يخالفونهم في الإجابة على المسائل الفقهية، من ذلك أن الفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البريهي أجاز أصحابه كلهم عدا الفقيه الذي خالفه[5].

من كل ذلك يتضح لنا أن الإجازة تعني السماح للمجاز له بتدريس الكتاب أو الكتب المجاز بها في العلوم الدينية واللغوية.

---

(١) الجندي : السلوك، ج١، ص٣٦٨-٣٦٩؛ السروري : المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، هامش ص٢٣٧.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص١٩٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٤٢٥.

(٥) ابن سمرة : المصدر السابق، ص١٩١.

الخاتمة

يتضح مما سبق دراسته أن علي بن مهدي ظل فترة طويلة يناضل من أجل إقامة دولته في زبيد والقضاء على الدولة النجاحية، بلغت ما يقارب العشرين سنة، شن فيها العديد من الغارات وخاض العديد من المعارك مع رجال الدولة النجاحية في زبيد، وذلك بسبب اتهام علي بن مهدي للنجاحيين بالظلم والفساد، وعدم القبول بحكمهم، حيث ظل يحاربهم حتى حقق الانتصار عليهم واستولى على زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م دون أن يوالي أيًا من الخلافتين العباسية أو الفاطمية.

وقد استخدم علي بن مهدي أسلوب الدعوة الد[illegible]بة في تكوين دولته التي تميل إلى الصوفية حيث بدأ بالتنسك والتعبد والحج ودعوة الن[illegible] إلى معرفة الدين حتى جذب إليه الكثير من الناس، وبعد ذلك تحول إلى الدعوة السياسية وا[illegible]ال من أجل إسقاط الدولة التي اعتبرها خارجة عن الدين.

وبعد أن تمكن علي بن مهدي من تكوين دولته ورّث أبناءه الحكم بعد وفاته فعملوا على التوسع في أنحاء اليمن فاستولوا على معظم اليمن الأسفل مثل الجَنَد وتَعِزْ وذي جِبْلَة من الزريعيين الذين كانوا إسماعيلية.

واستمر الصراع بين بني مهدي من جهة وبني زريع حكام عدن من جهة أخرى، مما جعل القبائل اليمنية المختلفة في اليمن تخاف من تو[illegible]ع بني مهدي نحو مناطقهم وخاصة دولة بني زريع في عدن وبني حاتم في صنعاء وبني جنب في ذمار، فعملوا على التحالف لمحاربتهم والحد من التوسع وكان ذلك حينما اتجه بنو زريع للاستعانة بهم، ونجح هذا التحالف القبلي من هزيمة بني مهدي والحد من توسعهم واسترجاع بعض مناطق الزريعيين في اليمن الأسفل، وأثناء ذلك الصراع القائم في اليمن بين دويلاتها قدم إليهم من مصر جيش جديد ودولة ناشئة جديدة، هي الدولة الأيوبية، فتمكنت من القضاء على دولة بني مهدي وكل دويلات اليمن المتعددة وتوحيد اليمن تحت نفوذهم لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة للحكم الأيوبي في اليمن.

وقد خلصت الدراسة لبعض السلبيات في حكم دولة بني مهدي، والتي ساعدت على انتهاء الدولة التي لم يطل حكمها أكثر من خمسة عشر عامًا، بداية من نظام التوريث في

الحكم حيث أنه أوجد في بعض الأحيان صراعًا بين أبناء علي بن مهدي، حتى تمكن أحدهم من أن ينحي أخيه عن الحكم منفردًا به لنفسه.

وعلى الصعيد السياسي أيضًا، افتقدت الدولة وجود نظام وزاري معاون للحكم، كذلك عدم وجود إدارات مالية، ودواوين حكومية تدار من خلالها الدولة، وهو الأمر الذي أدى إلى تركز الحكم في يد علي بن مهدي وأبنائه من بعده.

وجدير بالذكر أن أهم العوامل التي أسرعت بنهاية هذه الدولة هي السياسة العسكرية التي اتسمت بالشدة والعنف وسفك الدماء والغزو المستمر على مختلف البلدان اليمنية والاستيلاء عليها بهدف التوسع وزيادة النفوذ وامتلاك الأراضي شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا، مما أوغر في صدر أصحابها الانتقام منها والاستعانة بالقوى الداخلية والخارجية لمناهضة هذه الدولة والقضاء عليها.

ومما لاشك فيه أن آخر حكام دولة بني مهدي (عبدالنبي) كان له كبير الأثر على الصعيد السياسي والحربي، حيث أنه تمتع بقوة غاشمة وسياسة توسعية بحد السيف هددت كثير من البلدان اليمنية وساعده في ذلك طول سنى حكمه والتي بلغت عشر سنوات، تمكن من خلالها إلى الوصول بالدولة إلى أوج قوتها وثرائها، إضافة إلى ذلك امتلاك كثير من الحصون أو شرائها عنوة مع الاحتفاظ بكثير من الكنوز الثمينة.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان لزبيد دورًا حضاريًا برز في كافة مجالات الحياة، فعلى الصعيد الاقتصادي، برع أهل زبيد في ميدان الزراعة وكل ما يختص بها من أساليب الزراعة كالتسميد والحرث والبذر، وكذلك الري بمياه الأنهار أو الينابيع والعيون وحفر الآبار وإنشاء الصهاريج لتخزين المياه، وتنمية الحاصلات الزراعية، وخاصة الدخن والذرة لاعتبارهما من الغذاء الرئيسي لأهل زبيد، مع الاعتناء بطرق تخزين الغلال، تحسبًا لاضطراب الأحوال الاقتصادية في بعض الأوقات نتيجة لسياسة حكام الدولة واتي اتسمت بالحروب المستمرة.

كما خلصت الدراسة إلى أن مدينة زبيد في عهد دولة بني مهدي، اشتهرت بكثير من الصناعات التي تميزت بها عن غيرها من البلدان اليمنية ومنها صناعة المنسوجات وما يقوم عليها من ملابس، كالبرود الزبيدية من الكتان أو الحرير والبَيْرَم من القطن، والسباعيات من

الحرير الخالص أو الممزوج بالكتان، ويبلغ طول الواحد سبعة أذرع في عرض أربعة أذرع، واستخدام الصباغ الطبيعية والزخرفة لتجميلها، فاعتمد النساجون في زبيد علــى الأصــباغ النباتية سواء كانت المحلية أو المستوردة، التي كان يتم خلطها ببعض العطور لتفوح الملابس بالرائحة العطرية الجميلة، ومن أشهر الأصباغ والتلوين نبات النيل أو النيلــة، والزعفــران والورس والعصفر والفوّة التي كانت من أهم السلع اليمنية التي تأتي من عدن إلى زبيد.

كذلك اشتهرت زبيد بالصناعات الجلدية ودباغة الجلود لتوفر شجرة " النّبَــق " التــي تستخدم في دبغ الجلود ووجود جلود النمور بكثرة والتي تستوردها زبيد من جزيرة دَهْلَــك، ومن المصنوعات الجلدية التي تميزت في زبيد السروج الخاصة بالخيــل والإبــل وتــسمى القربوس، وحقيبة حمل السهام وتسمى الكنانة، والوعاء الذي يحفظ فيه السيف وكل ما يخص راكب الدواب، هذا فضلاً عن الأنطاع الصُتّ التي لا ينفذ منها الماء لمتانة صــنعها، وقــد ذخرت الجلود بزخارف ورسوم ملونة جميلة، وكل ذلك يوضح ضخامة إنتاج زبيد من جلود والدليل على ذلك ما يدفعه الضامن للمدبغة والذي يصل إلى ثلاثة عشر ألف دينار سنويًا.

كما تميزت زبيد ببعض الصناعات الأخرى كصناعة العطور والنبيذ وأيضًا الصناعات الغذائية ومنها المربى التي تفتن أهل زبيد صُنعها.

أما عن الصناعات المعدنية فمنها صناعة الحلي التي اشتهرت به زبيد لوجود معــدن البردخر أو اللازورد والزمرد العالي الجودة اللذان تقوم عليهما الصياغة بالإضافة إلى معدن العقيق والجزع الذي يأتي من جبل نقم قرب صنعاء، كما تصنع قــوائم الــسيوف ومقــابض السكاكين بجانب صناعة الأسلحة كالسيوف والخناجر، والأدوات التي يعتمد عليها الفلاح في زراعته كالفؤوس والمحاريث والمساحي والمناجل.

أما بالنسبة للتجارة في زبيد فقد نشطت نشاطًا كبيرًا عدا بعض الأوقات التي اضطربت فيها الأحوال السياسية وكثرت الحروب، فكانت الحركة التجارية بين القرى والمدن اليمنيــة نشيطة وخاصة القرى القريبة من ساحل زبيد فكانت تصدر للمدن الأصــناف العديــدة مــن منتجاتها سواء الزراعية أو الصناعية أو المواد الخام وأهمها الأخشاب التــي تــستخدم فــي العمارة، وكانت الأسواق مركز الحركة التجارية في زبيد وهي يومية أو أسبوعية أو موسمية

يلتقي فيها التجار من كل أنحاء اليمن، ولعل أشهر الأسواق الموسمية التي قامت في زبيد كانت في موسم حصاد النخيل.

ولما كانت زبيد تحتل موقعًا هامًا بين شمال تهامة وجنوبها باعتبارها امتدادًا طبيعيًا لميناء غلافقة فرضة عدن فقد تجمع فيها تجار من اليمن والحجاز والحبشة ومصر ومنها كانت تخرج بضائع للهند والصين.

وبالنسبة للمعاملات المالية، استطاعت الدراسة أن تثبت وجود عملة نادرة خاصة بحاكم دولة بني مهدي وهو عبدالنبي، وهي عبارة عن درهمين أحدهما ضرب في زبيد سنة ٥٥٩هـ والآخر في سنة ٥٦٦هـ، وتوضيح البيانات الخاصة بالعملة من خلال الدراسة التحليلية وما أثير حولهما من القضايا مع تقديم الدلائل التاريخية التي تثبت أو تنفي هذه القضايا.

وعلى الصعيد الاجتماعي كان للقبائل دورها كوحدة أساسية في المجتمع الزبيدي، والتي سُميت المناطق في زبيد بأسمائها وأهمها حِمْيَر ومنها خَوْلان، وكهلان ومنها هَمْدان وكان لهما شأوًا كبيرًا سياسيًا ومذهبيًا خاصة من قِبل زعمائها الذين أسهموا بدور كبير في ضعف دولة بني مهدي والقضاء عليها. كما تواجدت عناصر أهل الذمة من يهود ونصارى للمشاركة في أعمال التجارة في زبيد، سعيًا وراء المكاسب المالية، إلا أن دولة بني مهدي أساءت معاملتهم مما أدى إلى انزوائهم في أماكن وأحياء خاصة بهم يمارسون فيها شعائر دينهم بعيدًا عن الحياة العامة في زبيد.

وجدير بالذكر أن علي بن مهدي أول من أطلق على بقايا الأحباش من الدولة النجاحية بعد القضاء على دولتهم، لقب الأخدام، بعد بيعته الثانية، عندما أقسم أن يجعل منهم خدامًا للمجتمع اليمني.

كما كان لطبقة العلماء من فقهاء وقضاء ومحدثين ومفسرين وقراء دور كبير بجانب الأدباء والشعراء، في الحياة الاجتماعية والثقافية، على الرغم من اضطهاد دولة بني مهدي لكثير منهم مما أدى لفرار أغلبهم إلى البلدان المجاورة أو الجبال أو إلى مكة هربًا وخوفًا من بطش بني مهدي.

ولم دور طبقة العامة من أهل زبيد في الأحداث السياسية زمن دولة بني مهدي عدا محاولة الاستنجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، ليصد عنهم محاولات علي بن مهدي لدخوله زبيد والسيطرة عليها.

ومن لم الظواهر الاجتماعية التي تميز بها أهل زبيد عن غيرهم في العادات والتقاليد والاحتفالات الخاصة بموسم النخيل السنوي، وكان يستمر لثلاثة أشهر، يأتي خلاله اليمنيون من كل أنحاء اليمن، هذا فضلاً عن الاحتفال بسبوت النخيل في كل سبت والخروج إلى حدائق النخيل.

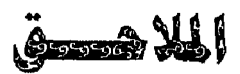
ومن الناحية العمرانية ترك آل مهدي بعض الآثار التي توضح دورهم في زبيد ومنها السور الثالث الذي تم بناؤه حول زبيد، وكذلك بناء المشهد الذي دفن فيه علي بن مهدي ومهدي بن علي بن مهدي، وجُعِلَ جامعًا يُصَلّى فيه الجمعة.

كما تعددت مجالات التأثير الثقافي فشملت تنوع المذاهب الإسلامية في زبيد واليمن الذي أدى إلى تنوع الثقافات الدينية وظهور المؤلفات التي يناقش ويشرح فيها مؤلفوها مذاهبهم ويبرزون سماتها ومميزاتها ويردون على المذاهب الأخرى، ويدحضون حجج معارضيهم بالمجالس والمناظرات العلمية المختلفة، غير أن المذاهب الرئيسية التي انتشرت في بلاد اليمن وكان لها تأثير على حياة الناس السياسية والدينية والاجتماعية هي مذاهب الشافعية والزيدية والإسماعيلية.

وكان ذلك دون شك له تأثير على الأدب وفنونه، الذي تأثر بالتيارات الموجودة في زبيد واليمن، وأيضًا الوافدة على اليمن، من أفكار ومبادئ خاصة بالتعاليم الاسماعيلية أو الزيدية وآراء المعتزلة التي ورَّد كتبها إلى اليمن القاضي جعفر بن عبدالسلام، هذا بجانب توثيق العلاقات الثقافية بين اليمن وغيرها من البلاد، ومنها مصر على سبيل المثال، فتعددت رحلات الأدباء والشعراء والمؤرخين إليها فمنها رحلة ابن الزبير الأسواني ومنها رحلة عمارة اليمني التي أثمرت كتبه القيمة عن تاريخ اليمن وشعرائها وعن الوزارات المصرية التي عاصرها، هذا بجانب ديوان شعره.

إذن ساهمت زبيد وغيرها من البلدان اليمنية في العطاء الفكري ونشر الثقافة اليمنية إلى كثير من البلاد الإسلامية امتدادًا بفترة حكم دولة بني مهدي في اليمن.

وأخيرًا جاءت نهاية الأسرة الحاكمة لهذه الدولة، فكانت عنيفة كسياستها مع الرعية والبلدان المجاورة، عندما أمر تورانشاه شنق أولاد بني مهدي على باب خان زبيد، وكانوا وقتئذ، عبدالنبي، وأحمد ويحيى، وكان ذلك سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م.


الملاحق

ملحق (١)

قائمة حكام دولة بني مهدي في زبيد

الاســـم	مدة الحكم
علي بن مهدي بن محمد الرعيني	١٤ رجب ٥٥٤هـ/ يوليو ١١٥٩م إلى ٦ شوال ٥٥٤هـ/ أكتوبر ١١٥٩م
مهدي بن علي بن مهدي	شوال ٥٥٤هـ/ أكتوبر ١١٥٩م إلى محرم ٥٥٩هـ/ نوفمبر ١١٦٣م
عبدالنبي بن علي بن مهدي	محرم ٥٥٩هـ/ نوفمبر ١١٦٣م إلى ربيع الأول ٥٦٩هـ/ أكتوبر ١١٧٤م

ملحق (٢)

الخطبة التي ألقاها علي بن مهدي على أتباعه

بعد وفاة الملكة (علم) سنة ٥٤٥هـ

" والله ما جعل الله فناء الحبشة إلا بي وبكم، وعما قليل إن شاء الله سوف تعلمون والله العظيم رب موسى وإبراهيم، أني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود، وإني أحدثكم فلا أكذبكم، وأعدكم فلا أخلفكم، ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرن، أو وضعاء لتشرفن، أو أذلاء لتعزن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم. ليجزي الله ﴿ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[1] فالأناة، الأناة، فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمنكم بنات الحبشة وأخواتهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم ثم قرأ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[2].

من كتاب عمارة : تاريخ اليمن، ص٣١٨، حاشية رقم (٩٦).

(١) سورة النجم، آية ٣١.

(٢) سورة النور، آية ٥٥.

ملحق (٣)

رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي المستضئ بأمر الله يخبره بمجهوداته وفتوحاته المتعددة في مصر والمغرب واليمن، ويخبره بنتائج حملة تورانشاه إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م

وجاء في تلك الرسالة ما يلي : " وكان باليمن ما عُلِمَ من أمر ابـــن مهـــدي، الـــضَّال الملحد، المبتدع، المتمرّد، وله آثار في الإسلام، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه ســـبى الشرائف الصالحات(١)، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس ودان ببدعة ودعا إلى قبر أبيه وسماه الكعبة، وأخذ الأموال فأنهضنا أخانا بعسكرنا ـــ بعد أن تكلفنا له نفقات وأسلحة رائعة ـــ وسار فأخذناه والحمد لله، وأنجز الله فيه القصد ".

وبعد أن استعرض صلاح الدين فتوحاته وحروبه قال : " والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة ... ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي كل مـــا تطبقه العهاد ".

---

(١) المقصود بالشرائف الصالحات المشار إليهن في هذه الرسالة، هن نساء الأمير قاسمَ بنْ غانم السليماني.

- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢، ص٤٨٦-٤٩٣؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٢٤١، ٢٤٤.

ملحق (٤)

من كتاب صلاح الدين إلى نور الدين

في أمر المُصَلَّبين وفي جملتهم عمارة اليمني

" قصر هذه الخدمة على متجدد سار في الإسلام، والمملوك لم يزل يتوسَّم من جُنْد مصر وأهل القصر أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام، ولم تزل عيونه بمقاصدهم موكَّلة، وخطراته في التحرُّز منهم مستعملة، لا يخلو شهر من مكر يجتمعون عليه، وحيلة يبرمونها. وكان أكثر ما يستروحون إليه المكاتبات إلى الفرنج، فسيَّر ملك الفرنج كاتبه، " جُرْج " رسولاً إلينا ظاهرًا، وإليهم باطنًا.

والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أبيه أن لا يبسطوا عقابًا مؤلمًا، وإذا طال لهم الاعتقاد خلَّى سبيلهم. ولا يزيدهم العفو إلا ضراوةً، ولا الرِّقَّةُ عليهم إلا قساوة. وعند وصول " جُرْج " ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مُخَاتَلة لا رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية. فأوهمناه الإغفال، فتوصل مرة بالخروج إلى الكنيسة إلى الاجتماع بحاشية القصر وأعوانهم، فتتالت إلينا أحوالهم فأمسكنا جماعة متمردة قد اشتملت على الاعتقادات المارقة وكُلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعًا، ومنهم أقرَّ بعد الضَّرب، وانكشفت المكتومات، وعيَّنوا خليفة ووزيرًا.

وكاتبوا " سِنانًا " صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، واستدعوا منه من يغتال المملوك. وكان الرسول خال ابن قرجلة، فقتل الله تعالى بسيف الشرع والفتاوى جماعة من الغُواة الدُّعاة إلى النار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدُورهم، ووقع التَّتبُّع لأتباعهم، وشُرِّدت الإسماعيلية، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد والحاشية في القصر إلى أقصى الصعيد، وثغر الإسكندرية، ... "(١).

(١) شمس الدين بن عثمان الذهبي : تاريخ الإسلام عن حوادث وفيات ٥٦١-٥٧٠هـ، ص٣٣٦، ٣٦٧.

ملحق (٥)

جزء من قصيدة للمؤرخ عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي يؤرخ شعراً لدولة بني مهدي والفتح الأيوبي لليمن

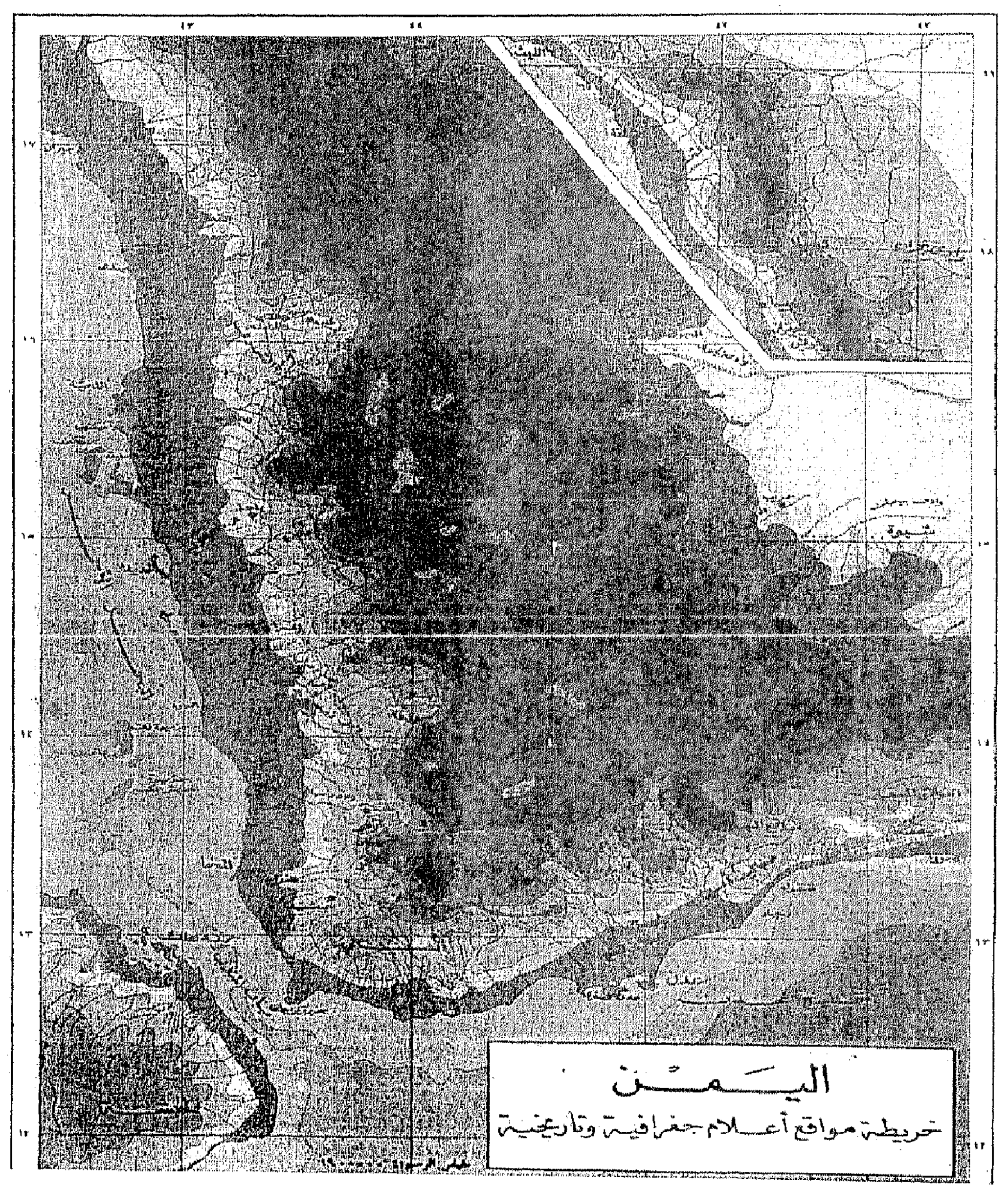
وقام في الملك ابن مهدي علي	سنة أربع ولما أن ولي
مات بعامة فقام مهدي	ولده في الملك ثم آردى
بالموت عام ثمان الخمسين	بعد الماء الخمس بغير تخمين
ثم ولي عبدالنبي أخوه	بعده ومات فأعلموه
للتسع وستين وخمسمائة	قد انقضت من سنوات الهجرة
مدتهم في الملك خمس عَشْرة	رأى بها دين الهدى ما يكره
وطلب الدين عزيز النصرة	فحازه توران رب الشهرة
وذاك بعد قتله عبدالنبي	فاحفظ هديت ما أقول تصب
ثم ولي توران شاه ملك اليمنْ	ثم أخوه طغتكين ذو المتنْ

ملحق (٦)

الخرائــط والصــور

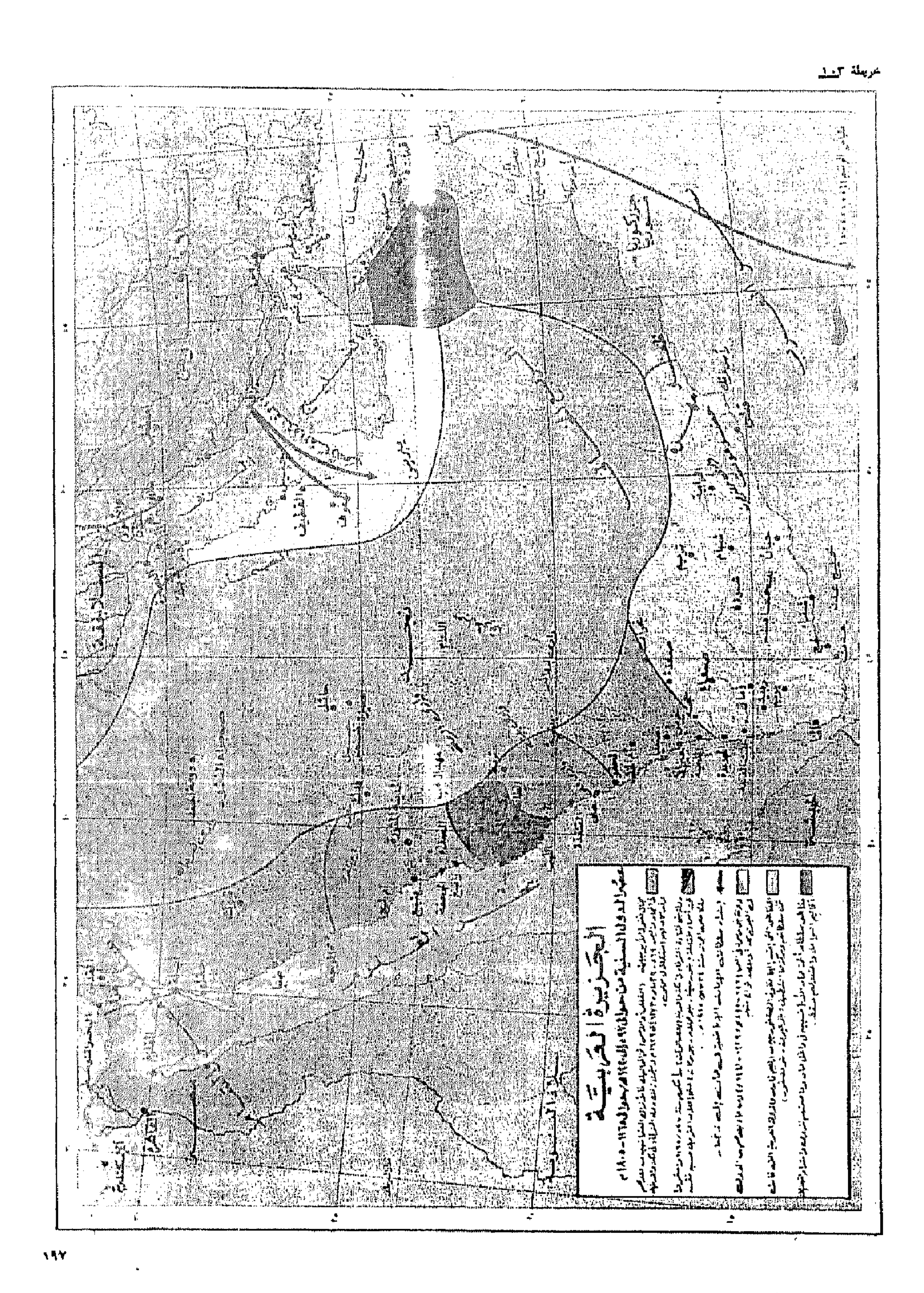
أولاً : الخرائط :

خريطة ١٠٦



نقلاً عن كتاب أطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس، ص١٩٥

خريطة ١٠٣



١٩٧

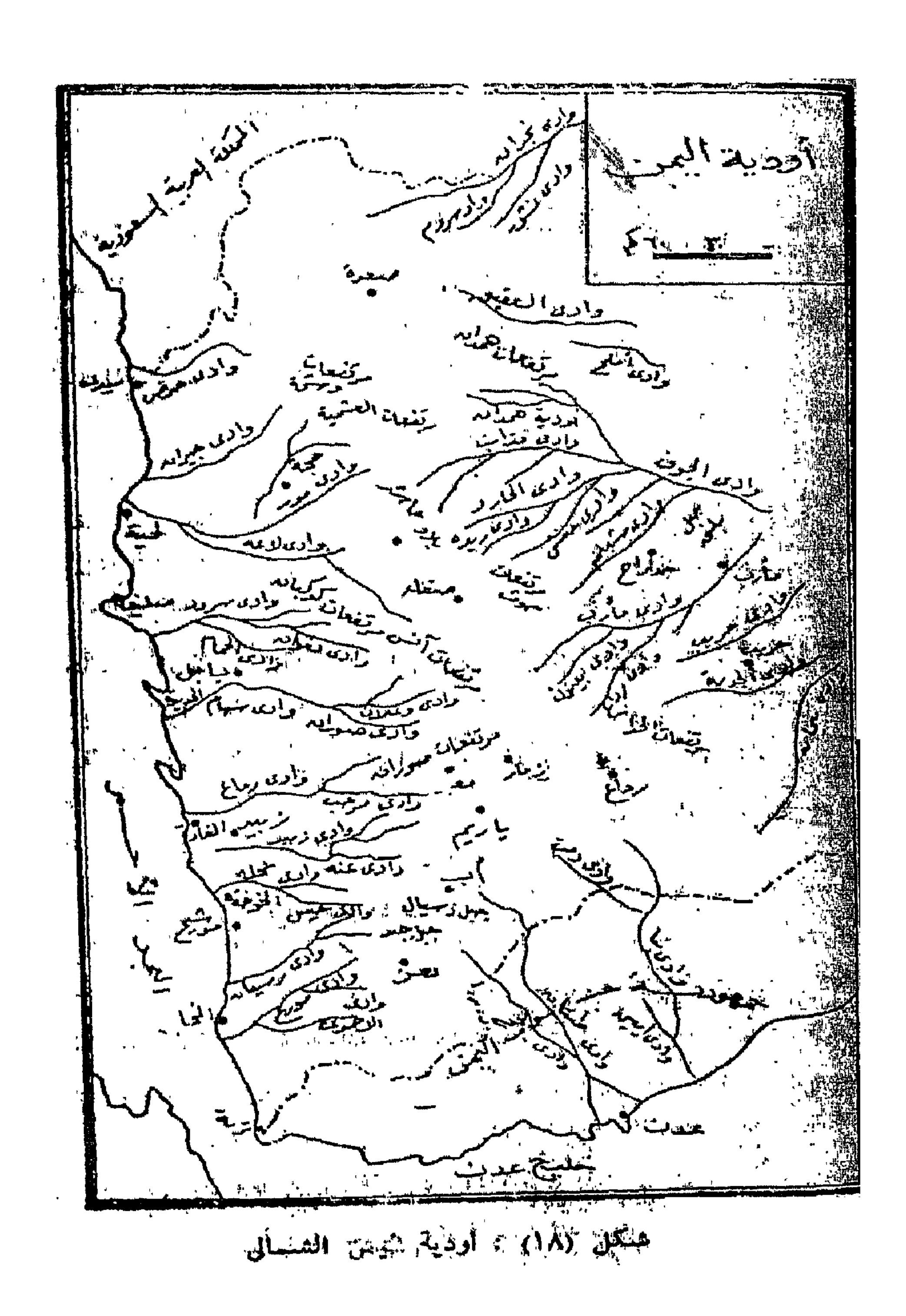
نقلاً عن كتاب أطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس، ص١٩٧

خريطة ١٠٠



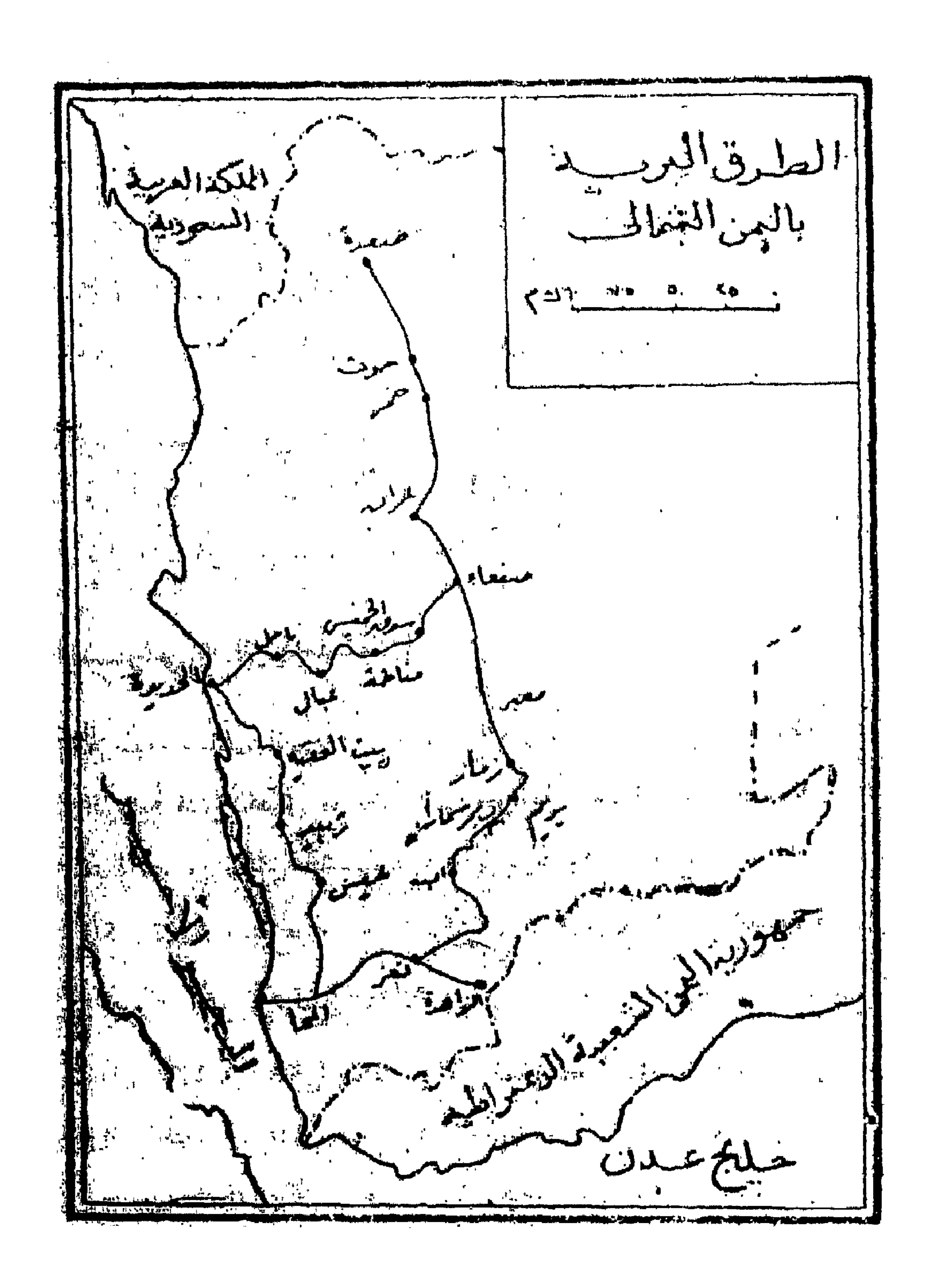
١٩٤

نقلاً عن كتاب أطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس، ص١٩٤

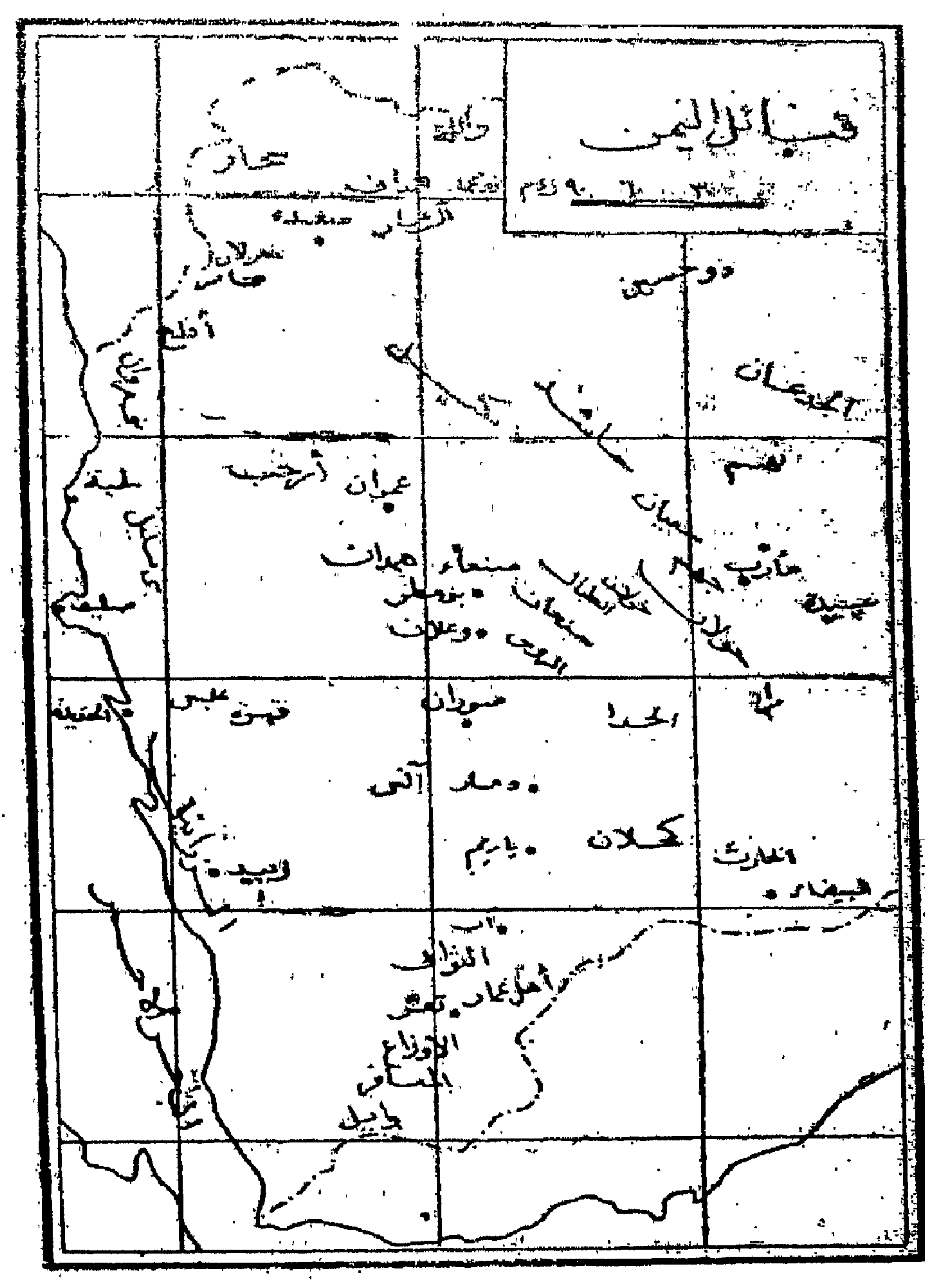


شكل (١٨) : أودية اليمن الشمالي

نقلاً عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة

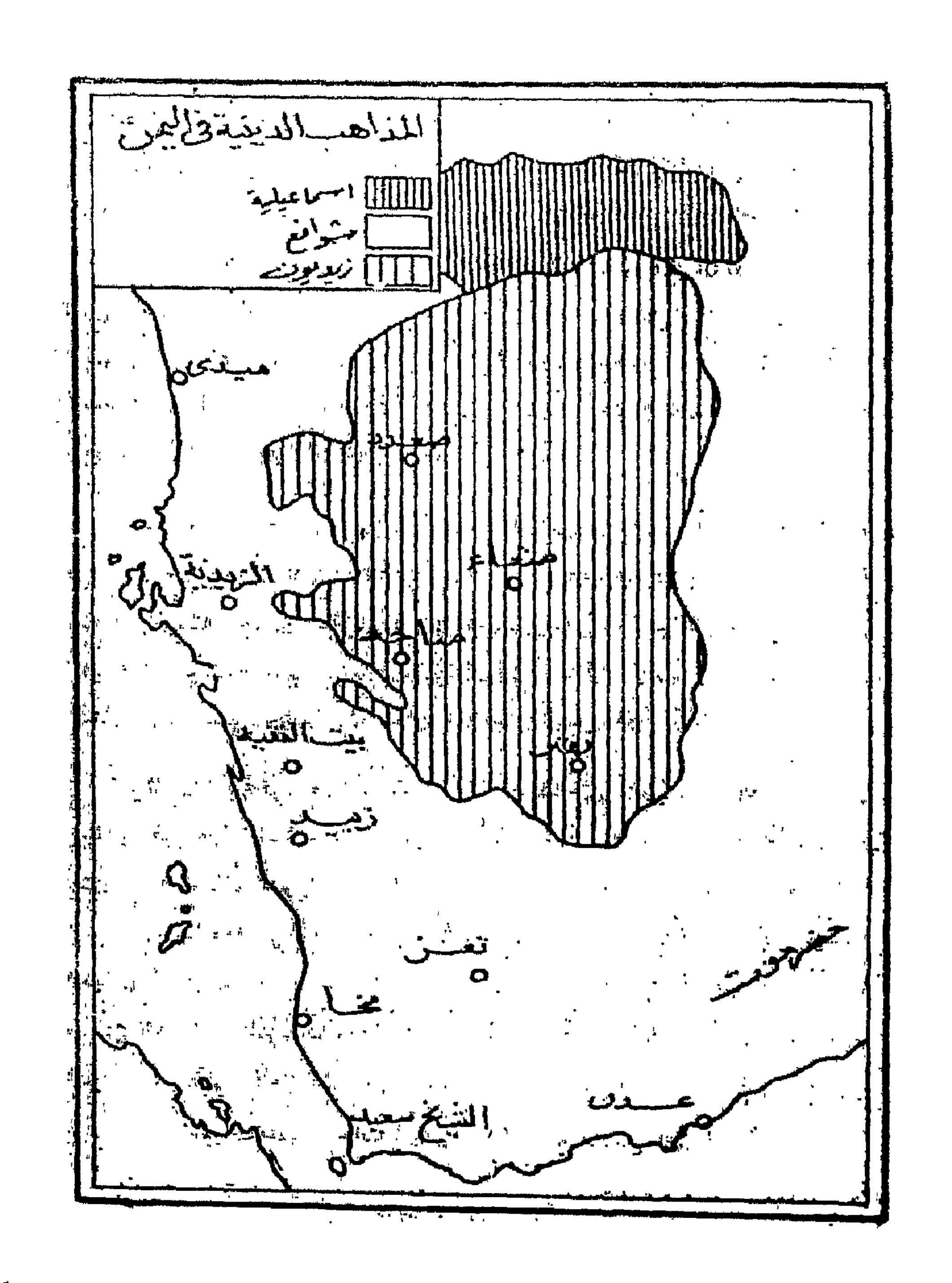


نقلاً عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة

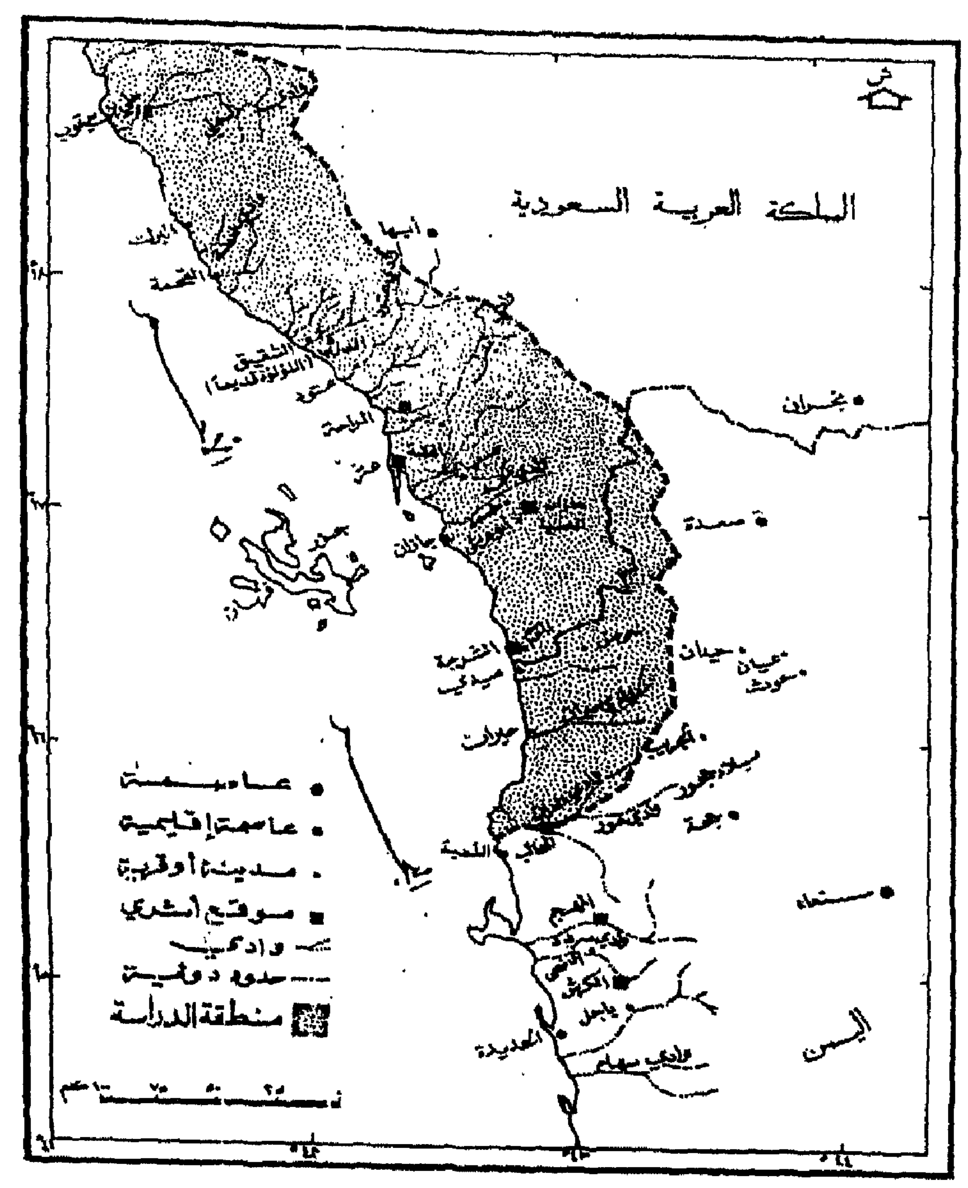


شكل (١٩) : قبائل اليمن الشمالي

نقلاً عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة



نقلاً عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة



خريطة رقم (٣)

المخلاف السليماني منطقة جازان في بعض فترات الدراسة

من كتاب جازان المخلاف السليماني في الجزيرة العربية، أحمد بن عمر الزيلعي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف السليماني أو منطقة جازان

علي بن أبي طالب

الحسن السبط

الحسن المثنى

عبدالله المحض

موسى الجون

عبدالله الشيخ الصالح

سليمان داود

أبو الفاتك عبدالله

عبدالرحمن

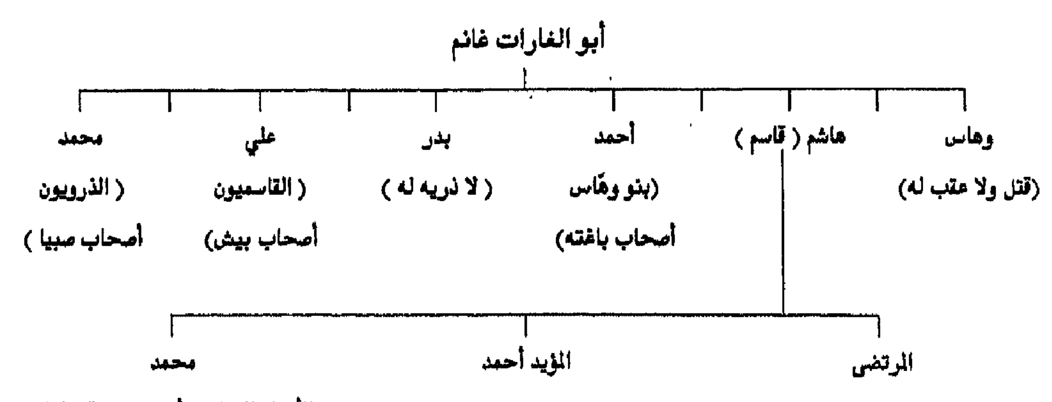
الطبيب داود

وَهّاس

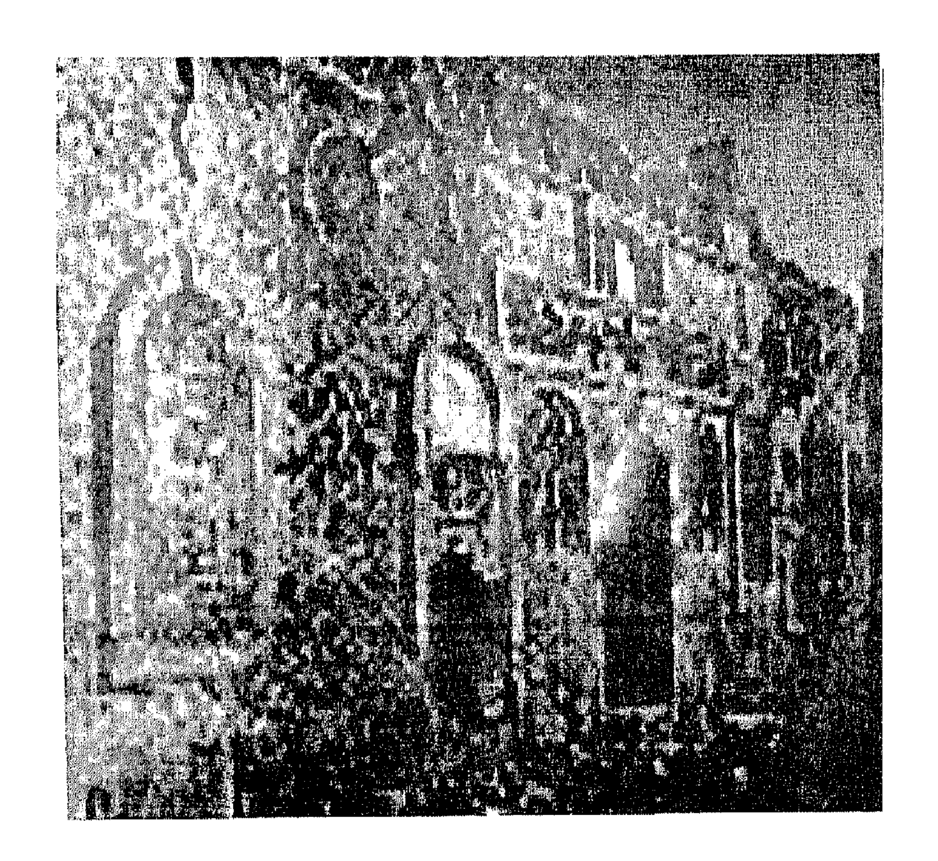
حمزة

يحيى

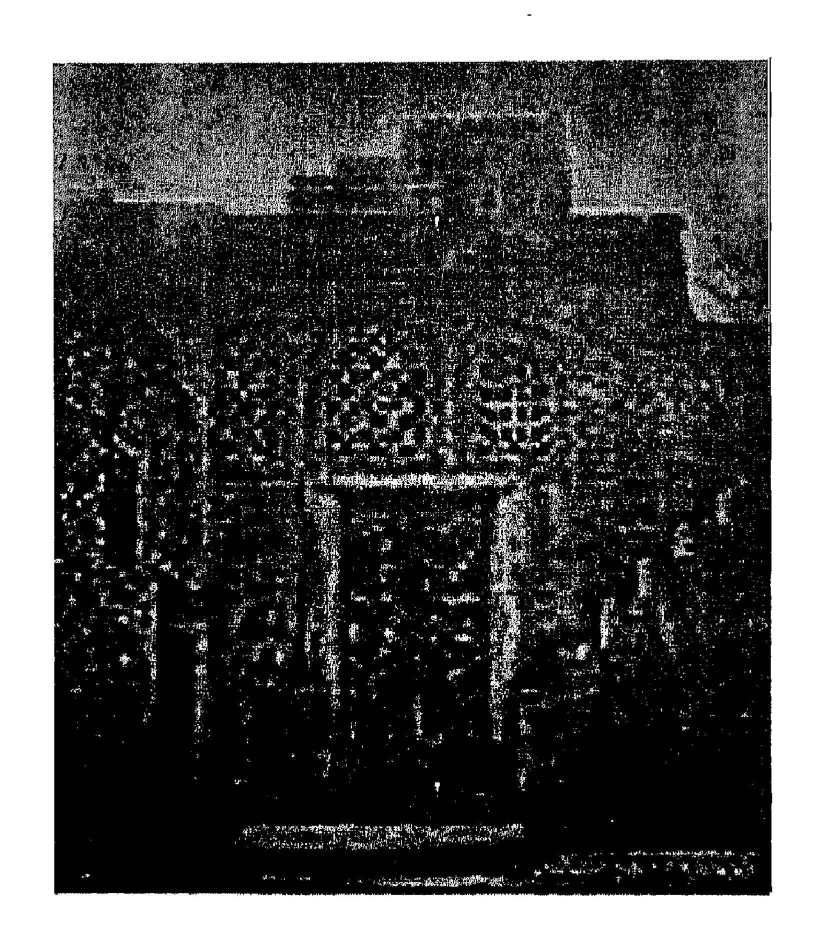
أبو الغارات غانم



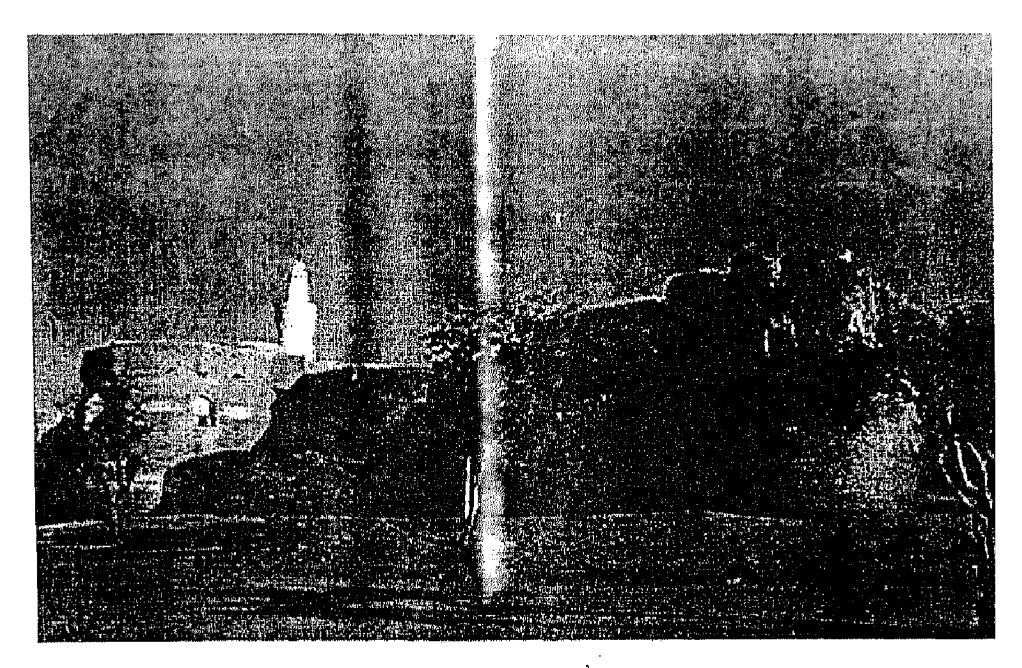
ثانياً : الصور :

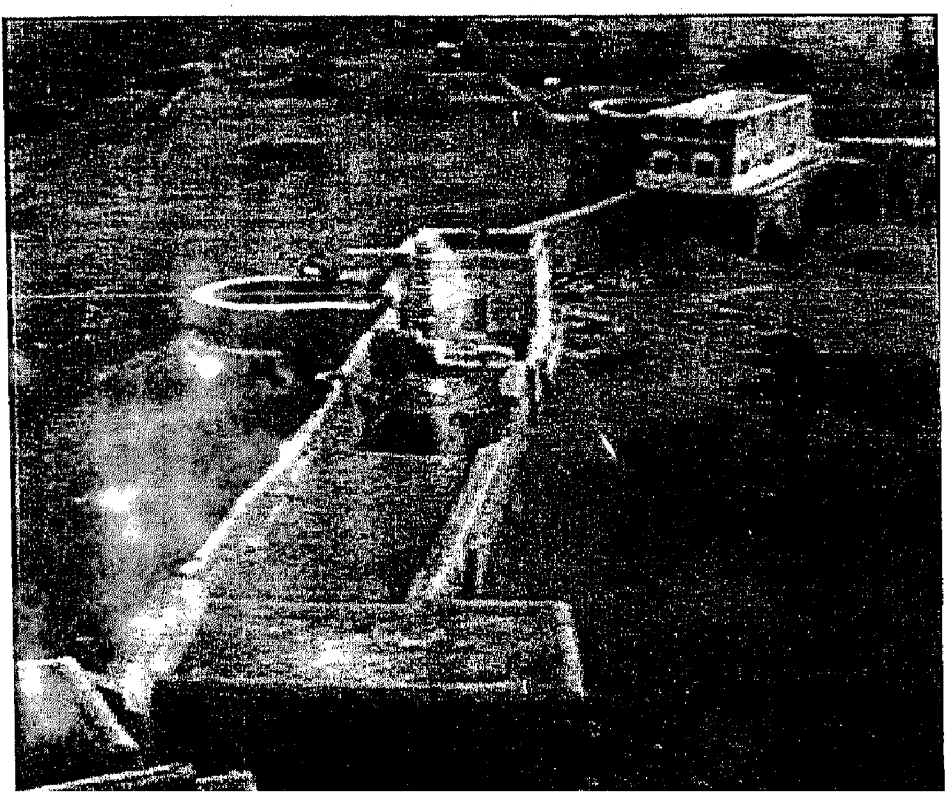


قلعة الحكم لدولة بني مهدي في زبيد

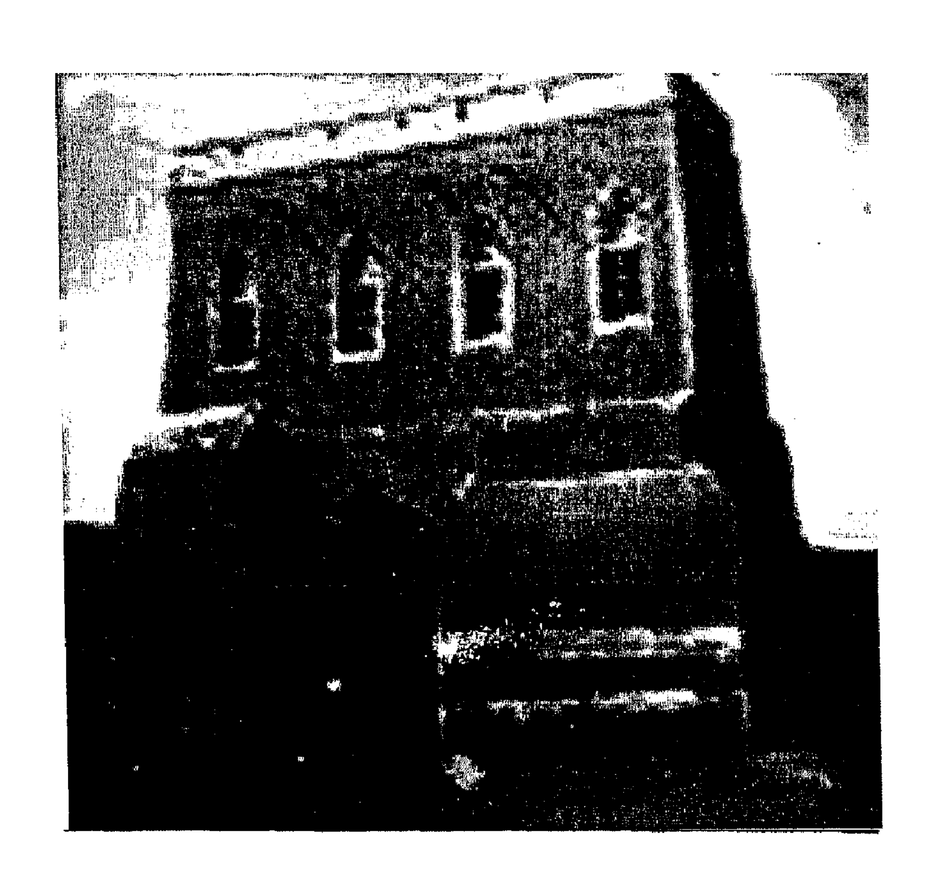


دار الإمارة من الداخل

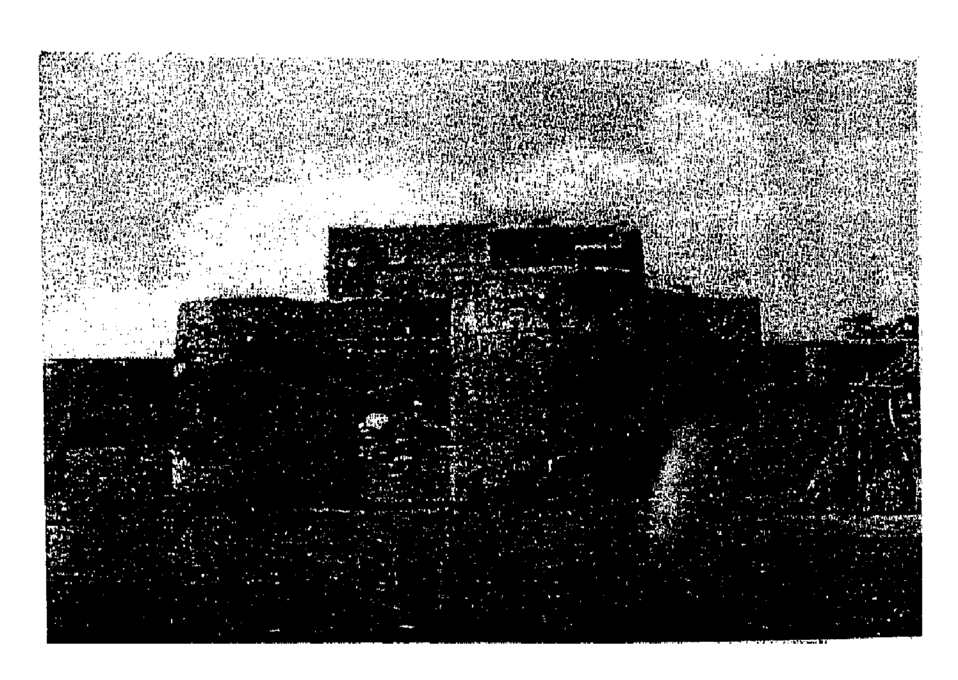




أسوار مدينة زبيد

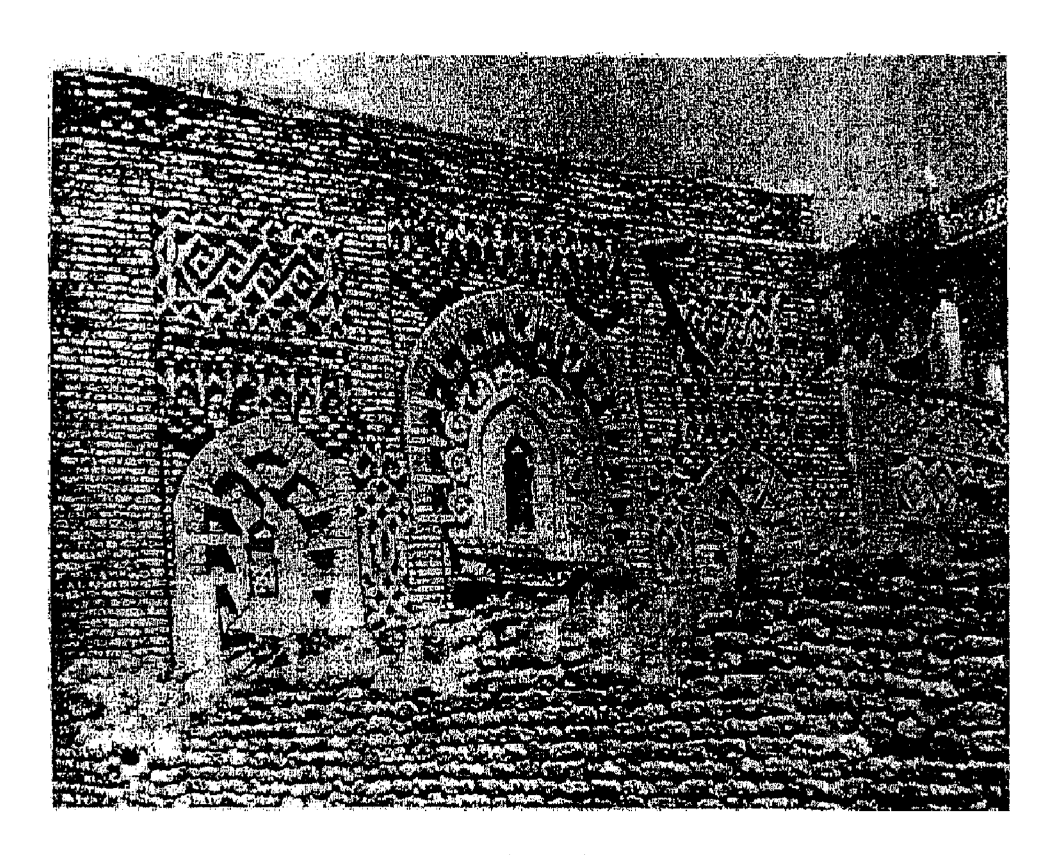


باب سهام بزبيد وهو المدخل الشمالي للمدينة



باب شبارق بزبيد ولعله أقدم أبواب هذه المدينة

باب شبارق بزبيد ولعله أقدم أبواب المدينة



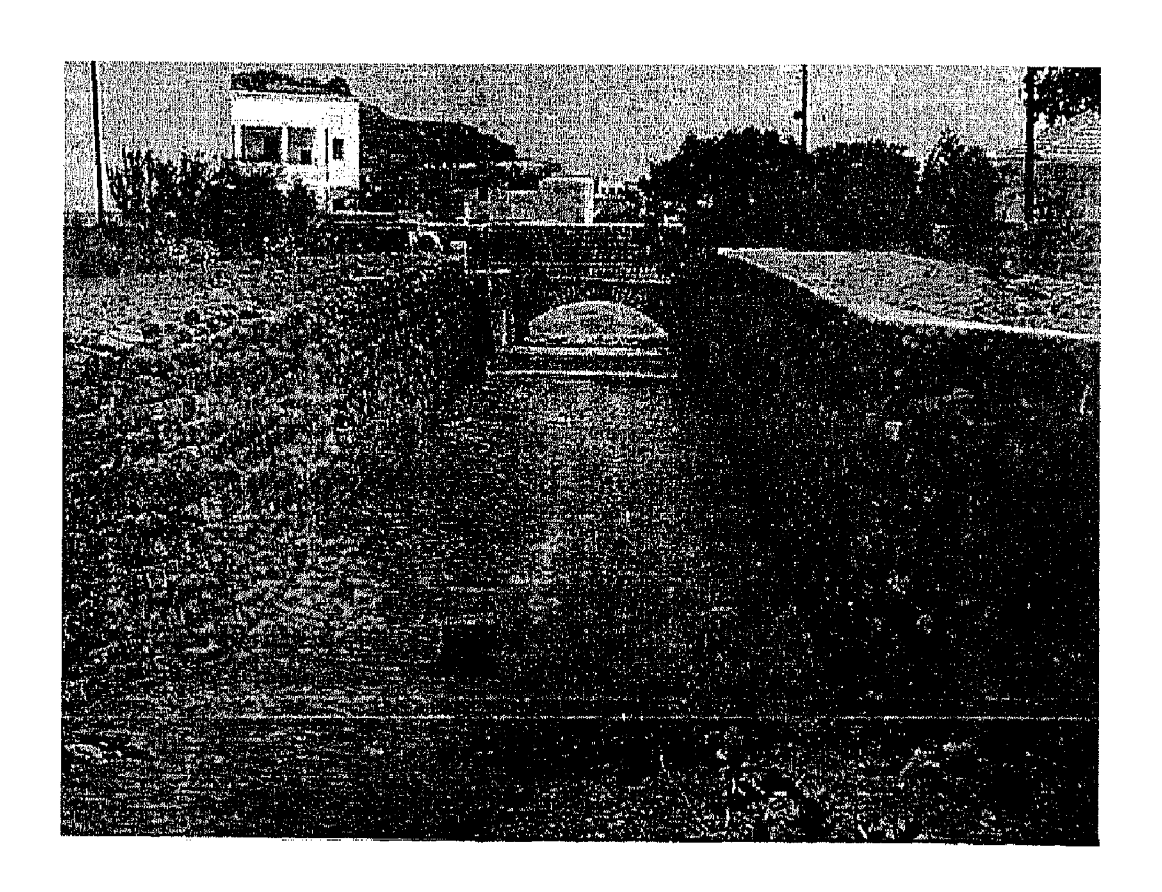
الفن المعماري بزبيد : واجهة بيت قديم

نموذج لبيوت زبيد

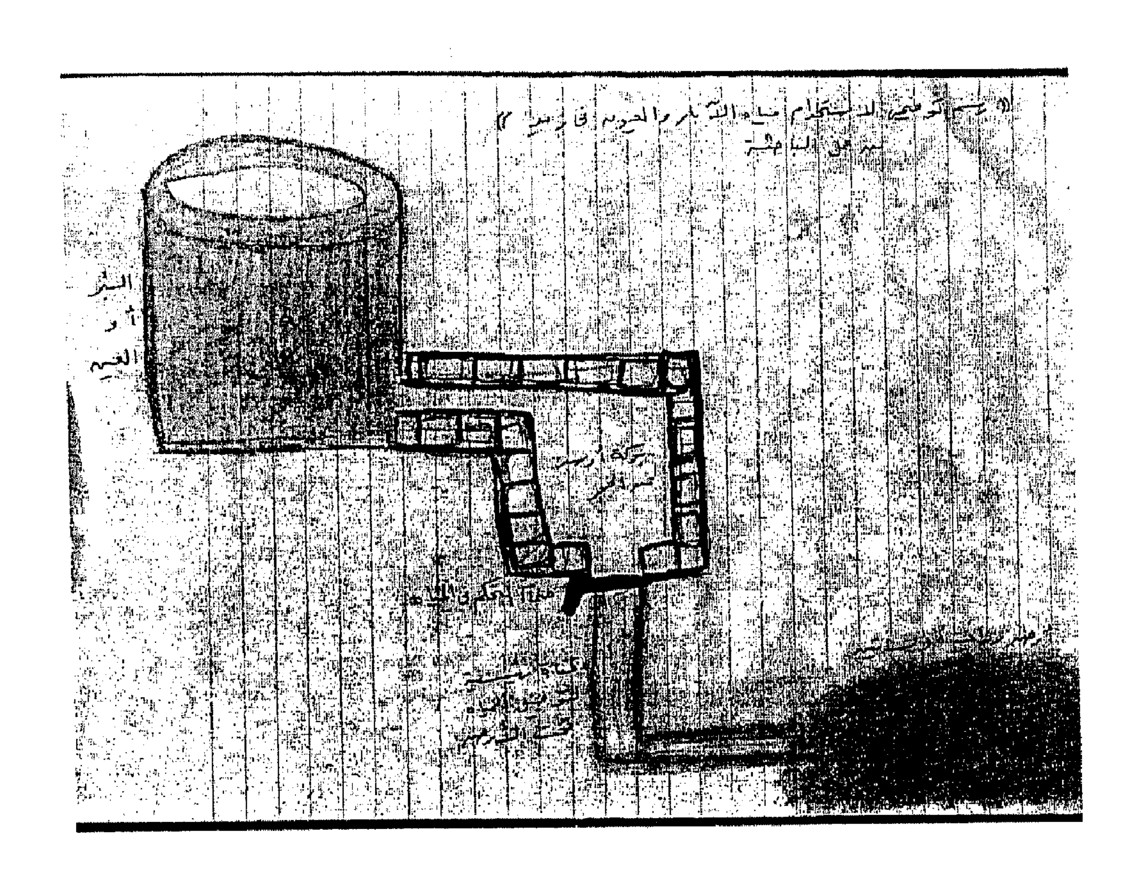




طريق الحاج اليمني مرورًا بزبيد نقلاً عن آثار منطقة عسير، ص٨٥

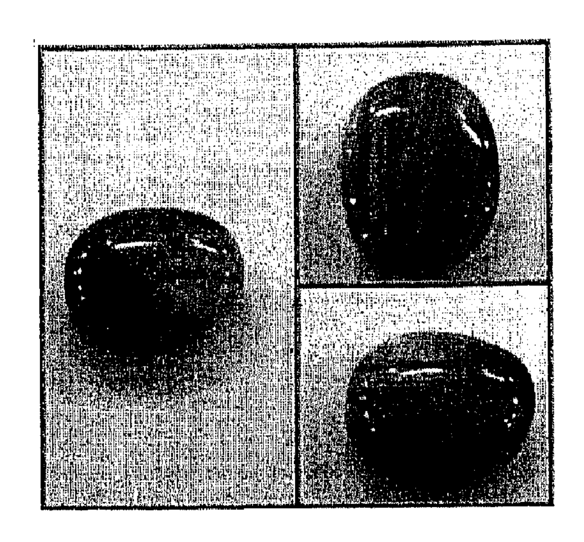


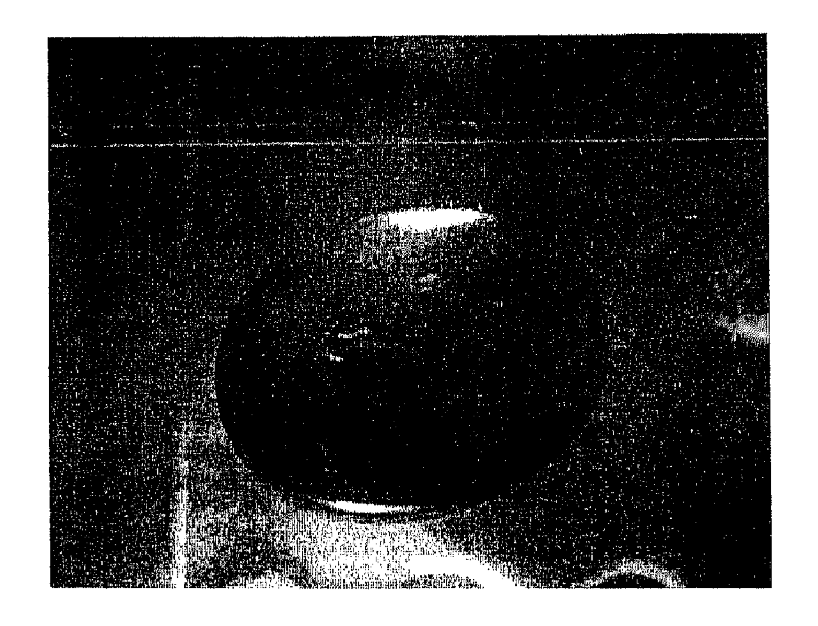
صهاريج وآبار زبيد



رسم توضيحي لاستخدام مياه الآبار والعيون في زبيد.

من عمل الباحثة





أنواع العقيق في زبيد واليمن



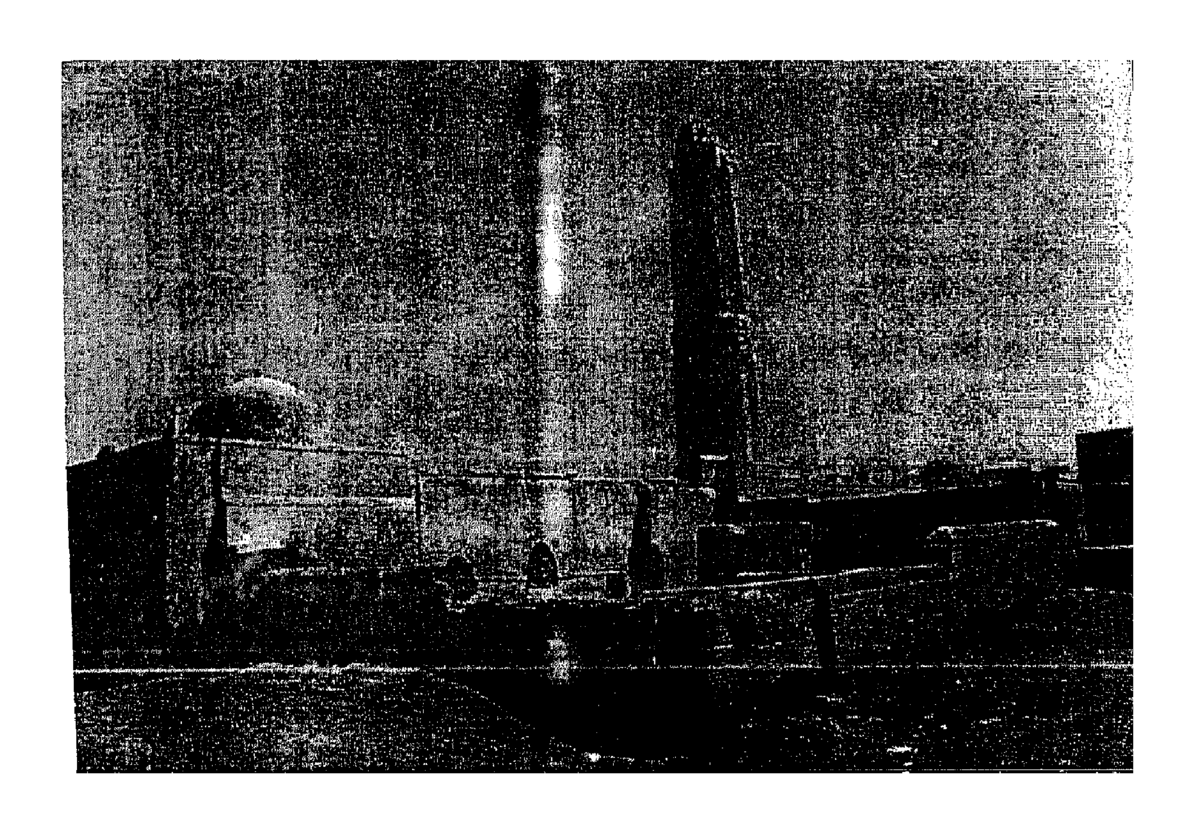
صورة لدرهم عبد النبي بن مهدي الذي سك بتاريخ ٥٥٩هـ ويزن ١،٥٦جرام ومكان ضربه في مدينة زبيد

وهذا هو الدرهم الاول لعبد النبي بن مهدي من درهمين وهما من العملات النادرة لهذه الدولة

وبقراءة بيانات هذا الدرهم اتضح مطابقة الكتابة مع نفس الدرهم الآخر،مع الاختلاف في تاريخ الضرب والوزن



درهم عبد النبي بن مهدي ضرب في زبيد ٥٦٦هـ



الجامع الكبير بزبيد

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

أ – المخطوطة :

ابن أسير : محمد بن محمد بن منصور، كان حيًا سنة ٩٥٠هـ :

- الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٢ تاريخ.

ابن الأنف : عماد الدين إدريس بن الحسن (ت سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) :

- نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٥٣ – ٣١/١ و – ٣١ ظ.

الأشرف بن رسول : أبي العباس إسماعيل بن العباس الأفضل بن علي ابن المؤيد داود بن رسول الغساني الملك الأشرف (ت ٨٠٣هـ) :

- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٣٦.
- فاكهة الزمن ومفاكهة ذي الألباب والفطن، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ٢٧٨٠٩.

الحمزي : عماد الدين إدريس (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م) :

- كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ١١٨٤ (خ) :

الخزرجي : أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ) :

- العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١/٧٣٦.

ابن الديبع : عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) :

- فضائل اليمن وأهله، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٦٢.

صارم الدين : إبراهيم بن عبدالقادر بن أحمد (د.ت) :

- التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١٥٢٩.

ابن عبدالسلام : جعفر بن أحمد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) :

- رسالة في الرد على المطرفية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطوط رقم ٢١٥٣.

المحلي: أبو عبدالله حسام الدين حميد بن أحمد الشهيد الهمداني الزيدي(، ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م):

- الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢١٢، ٢٢٦٣.

ابن الوزير : الهادي بن إبراهيم بن علي، (ت ١١٧٤هـ/١٧٣٥م) :

- تاريخ بني الوزير، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطوط رقم ٢٨٣١٦ ح.

ابن وهاس: أبو الحسن بن علي بن محمد بن إسماعيل الشافعي الزبيدي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م):

- الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن في الإسلام، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٨٢، ٩٦٨.

يحيى بن الحسين : ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد (ت ١٠٠٥هـ/١٦٨٣م) :

- أنباء الزمن في تاريخ اليمن، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٦٤.
- طبقات الزيدية المسمى الطبقات الزهر في أعيان العصر، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٢٩.

يحيى حميد : يحيى بن محمد بن الحسن المذحجي، (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) :

- نزهة الأنظار في ذكر أئمة الزيدية الأطهار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٥٨.

ب – المطبوعة :

القرآن الكريم.

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) :

- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ١١ جزء.

الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن محمد بن إدريس الحمودي الحسني (ت ٥٦٠هـ/١٣١١م):

- نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، عالم الكتب، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

الأشرف عمر بن رسول : عمر بن يوسف بن عمر (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) :

- كتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم، نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، السنة الثالثة، صنعاء، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

الإصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) :

- المسالك والممالك، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، تحقيق محمد جابر عبدالعال، محمد شفيق غربال.

الأهدل : بدر الدين أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الحسين بن عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) :

- تحفة الزمن في تاريخ اليمن، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- كشف القناع في معرفة أحكام الزراع، تحقيق عبدالله الحبشي، نشر في مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، سنة ١٩٨٠م.

إبراهيم بن القاسم : ابن الإمام المؤيد بالله (ت ١١٥٢هـ/١٦٤٣م) :

- طبقات الزيدية الكبرى، ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، د.ت، تحقيق عبدالسلام بن عباس الوجيه.

بامخرمة : أبو الطيب عبدالله الطيب بن عبدالله أحمد (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) :

- تاريخ ثغر عدن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

- مهذب رحلة ابن بطوطة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م، جزءان.

ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الطبعة الثانية، ١٦ جزء.

الجندي : أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي السكسكي (ت بعد ٧٣٢هـ/١٣٢٢م) :

- السلوك في طبقات العلماء والملوك، نشر ج.ع.ب وزارة الإعلام، ١٩٨٣م، تحقيق محمد بن علي الأكوع.

الجرجاني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي (د.ت) :

- التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق إبراهيم الإبياري.

بن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) :

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الركن، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

بن حاتم : بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني (ت بعد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م) :

- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز اليمن، لندن، ١٩٧٤م تحقيق ركس سميث.

الحنبلي : ابن العماد عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ١٩٨٥م.
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م، تحقيق ناظم رشيد.

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) :

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل (ت أواخر القرن الرابع الهجري) :

- صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت تقريبًا سنة ٣٠٠هـ) :

- المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م.

ابن خلّكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق إحسان عباس، (٨ أجزاء).

ابن الديبع : عبدالرحمن علي بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) :

- الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، تحقيق يوسف شلحد.
- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٧١م، تحقيق محمد ابن علي الأكوع.
- نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية وشرحه نشر اللآلئ السنية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

الذهبي : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) :

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٥م، تحقيق محمد محمود حمدان (٥ أجزاء).
- سيَرْ أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، تحقيق شعيب الأرناؤط (٢٥ جزء).

الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) :

- مختار الصحاح، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت.

أبي الربيع : سليمان بن موسى بن سليمان بن الجون الأشعري (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) :

- الرياض الأدبية في شرح الخمرطاشية، الهيئة الهامة للكتاب، صنعاء، ١٩٩٩م، تحقيق إسماعيل الجرافي، محمد بن علي الأكوع.

ابن رستة : أبو علي أحمد بن عمر بن رستة (ت ٢٩٥هـ/٨٩٠م) :

- الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، سنة ١٨٩١م.

ابن سمرة : عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت بعد ٥٨٦هـ/١١٩٠م) :

- طبقات فقهاء اليمن، دار القلم، بيروت، د.ت، تحقيق فؤاد سيد.

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

أبو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) :

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، تحقيق إبراهيم الزيبق.

ابن شداد : بهاء الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) :

- سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٨٨م.

شمس الدين : أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري :

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، أتوها رسوتز، ليبزيج، ١٩٢٤م.

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) :

- الملل والنحل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :

- الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الجزء العاشر.

ابن عبدالمجيد : تاج الدين عبدالباقي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) :

- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السَّنباني.

ابن العبري : أبو الفرج جمال الدين ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) :

- تاريخ الزمان، مجلة المشرق، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، ١٢٨٦هـ/١٩٨٦م.

أبو عبيدة : أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٧م) :

- كتاب الأموال، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. تحقيق محمد عمارة.

ابن العديم : كمال الدين (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) :

- زبدة الحلب، نشر سامي الدهان، ١٩٥٤م.

العرشي : حسين بن أحمد العرشي (د.ت) :

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩م.

العلوي : علي بن حمد عبيد الله العباسي :

- سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، دار الحياة، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق سهيل زكار.

ابن العماد : عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ٨ أجزاء.

عماد الدين إدريس : ابن الحسن الأنف (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) :

- عيون الأخبار وفنون الآثار، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، ٢٠٠٢م، تحقيق أيمن فؤاد سيد.

عمارة اليمني : نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي (ت سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م) :

- تاريخ اليمن، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، تحقيق حسن سليمان محمود.
- تاريخ اليمن المسمى " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها "، مطبعة السعادة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، تحقيق محمد بن علي الأكوع.
- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٩١م).

العمري : ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) :

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، المعهد الفرنسي، القاهرة، د.ت، تحقيق أيمن فؤاد سيد.

أبو الفداء : إسماعيل بن علي عماد الدين (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) :

- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٨٤٠م.
- المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) :

- مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.

القرشي الحنفي : محيي الدين أبى محمد عبدالقادر بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء (ت ٦٩٦-٧٧٥هـ/١٣٧٣م) :

- الجواهر المُضية في طبقات الحنفية، دار إحياء الكتب العربية، الرياض، (١٣٩٨هـ-١٤٠٨هـ/١٩٧٩-١٩٨٨م)، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو.

القرطبي : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) :

- التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، تحقيق سعد عبدالمقصود ظلام.

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) :.

- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ١٤ جزء.

ابن كثير : الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) :

- البداية والنهاية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ١٤ جزء.

ابن المجاور : محمد بن مسعود بن علي بن أحمد البغدادي النيسابوري (ت بعد ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :

- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز " المسمى تاريخ المستبصر "، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، تحقيق أوسكر لوفغرين.

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) :

• مـــروج الـــذهب ومعـــادن الجـــوهر، المكتبـــة العـــصرية، صـــيدا، بيـــروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ٤ أجزاء.

المقدسي : شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبـــي بكـــر المعـــروف بالبـــشاري (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) :

• أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م.

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

• السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م، تحقيق مصطفى زيادة.

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :

• لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، الطبعة الرابعة، (١٨ جزء).

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) :

• نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المـصرية العامـــة للكتـــاب، القـــاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المجلد الثامن والعشرون تحقيق محمد محمد أمين.

الهمداني : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) :

• الإكليل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، الجزء العاشر، تحقيق محـــب الـــدين الخطيب، والجزء الأول، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ١٠ أجزاء.

• صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمـــة والنـــشر، الريـــاض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، تحقيق محمد بن علي الأكوع.

الهرثمي : أبو سعيد الشعراني الهرثمي :

• مختصر سياسة الحروب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمـــة والطباعـــة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م، تحقيق عبدالرؤوف عون، مراجعة محمد مصطفى زيادة.

ابن هذيل الأندلسي : علي عبدالرحمن (من أعلام القرن الثامن الهجري) :

- حلية الفرسان وشعار الشجعان، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

ابن واصل : محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) :

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، د.ت، تحقيق جمال الدين الشيال، ٥ أجزاء.

ابن الوردي : زين الدين بن عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :

- تاريخ ابن الوردي (٣ أجزاء)، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م.

الوصابي : وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي (ت ٧٨٢هـ/١٣٨٠م) :

- تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م، تحقيق عبدالله الحبشي.

اليافعي : عبدالله بن أسعد بن علي (ت سنة ٧٦٨هـ/١٢٦٦م) :

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

ياقوت الحموي : ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) :

- معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٨ أجزاء.

يحيى بن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م):

- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور.

اليعقوبي : أحمد بن علي بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) :

- كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) :

- كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٠٤٥هـ/١٩٨٥م.

ثانياً : المراجع العربية :

إبراهيم أحمد المقحفي :

- معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٨م.

أحمد إبراهيم صلاح :

- زبيد بين الماضي والحاضر، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م.

أحمد أحمد البدوي :

- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م.

أحمد حسين شرف الدين :

- تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

أحمد بن حسن المعلم :

- القبورية في اليمن، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، صنعاء، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

أحمد شلبي :

- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧م، الطبعة الأولى، ١٤ جزء.

أحمد فضل بن علي محسن العبدلي :

- هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

أحمد بن محمد الشامي :

- تاريخ الفكر اليمني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- جناية الأكوع على ذخائر الهمداني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- قصة الأدب في اليمن، دار العمير للثقافة والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م.

أحمد بن محمد العقيلي :

- من أدب الجزيرة، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م.

أحمد محمد جلي :

- دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة "، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

أحمد المطاع :

- تاريخ اليمن الإسلامي، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦م.

إسماعيل بن علي الأكوع :

- المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ت.

الألوسي : جمال الدين أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله (ت ١٣٤٢هـ/١٩٣٣م) :

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، تصحيح محمد بهجة الأثري، الطبعة الثانية، د.ت.

أمين واصف بك :

- معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م.

إيمان أحمد شمسان :

- اليمن في العصر العباسي، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة، ٢٠٠١م.

أيمن فؤاد سيد :

- تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- بامطرف محمد عبدالقادر :

- الجامع " جامع شامل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم "، دار الهمداني، عدن، ١٩٨٤م.

بيوتروفسكي م. ب :

- اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.

جميل حرب محمود حسين :

- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، نشر تهامة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

جواد علي :

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

جودة حسنين جودة :

- شبه الجزيرة العربية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٨م.

جوردن البورت وليوبستمان :

- سيكولوجية الإشاعة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م، ترجمة مخيمر وعبده ميخائيل.

حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

حسن سليمان محمود :

- تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، ١٩٦٩م.

حسين بن أحمد العرشي :

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى مُلْك اليمن من ملك وإمـــام، مطبعـــة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩م.

حسين بن عبدالله العمري :

- مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

حسين بن علي الويسي :

- اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.

حسين بن فيض الهمداني :

- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار، دمشق، ١٩٥٥م.

حسين مؤنس :

- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلان العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

حمزة بن لقمان :

- تاريخ القبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٦م.

خالد العاقل :

- أطلس تاريخ العمارة، القاهرة، د.ت.

خالد عبدالله القاضي :

- الحياة العلمية في مصر الفاطمية، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.

خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٧هـ) :

- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

ذو النون المصري :

- عمارة اليمني، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.

حامد ربيع خليفة :

- الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

رجب عبدالجواد :

- المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

رزق الله منقريوس :

- تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

رؤوف الأنصاري :

- عمارة المساجد، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

زين العابدين نجم :

- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

سامح عبدالرحمن فهمي :

- المكاييل في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

سقاف علي الكاف :

- حضرموت، مكتبة أسامة، بيروت، د.ت.

السيد رزق الطويل :

- في علوم القراءات، مكتبة الفيصلية، مكة، ١٤١٥هـ.

السيد مصطفى سالم :

- تكوين اليمن الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٣م.

سيد مظفر الدين :

- التاريخ الجغرافي للقرآن، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

شاكر مصطفى :

- التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم الملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

شوقي ضيف :

- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م.

شوقي محمد بدران :

- العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

صبري المتولي :

- علم الحديث النبوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٨هـ.

عبدالرحمن بشير :

- من تاريخ اليمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م.

عبدالرحمن الرافعي، سعيد عبدالفتاح عاشور :

- مصر في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.

عبدالرحمن الشجاع :

- اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

عبدالرحمن عميرة :

- الاستراتيجية الحربية في إدارة المعارك في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

عبد الصاحب عمران الدجيلي :

- أعلام العرب في العلوم والفنون، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

عبد عون الروضان :

- موسوعة تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٤م.

عبدالغني محمود :

- الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٢م.

عبدالله سعيد الغامدي :

- صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

عبدالله الثور :

- هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الثالثة.

عبدالله عبدالسلام الحداد :

- مدينة حيس اليمنية (تاريخها وآثارها الدينية)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

عبدالله عبدالكريم الجرافي :

- المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

عبدالله كامل :

- الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

عبدالله محمد الحبشي :

- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.
- مؤلفات حكام اليمن، أبرخرد، ١٩٧٩م.

عبدالله عبدالوهاب الشماحي :

- اليمن، الإنسان والحضارة، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٥م.

عبدالمنعم الحنفي :

- موسوعة الصوفية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

عبدالهادي الفضلي :

- القراءات القرآنية، دار البيان العربي، جدة، ١٣٩٩هـ.

عبدالواسع بن يحيى الواسعي :

- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، المكتبة اليمنية الكبرى للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، ١٩٩٠م.

عصام الدين عبدالرؤوف الفقي :

- اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢م.

ابن علوي الحداد :

- الدعوة التامة والتذكرة العامة، القاهرة، ١٩٧١م.

عمر رضا كحاله :

- معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

غازي رجب :

- الفن العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٥م.

غيثان بن علي بن جريس :

- دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ – ق١٠هـ/ ق٧ – ق١٦م)، جامعة الملك خالد، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

فرج محمد غنيم :

- غذاء الباحث في التصوف، طنطا، ١٩٥٣م.

فضل علي أحمد غانم :

- البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

قائد الشرجبي :

- القرية والدولة في المجتمع اليمني، دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠م.

القشيري :

- الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، ١٩٧٢م.

القنوجي : صديق بن حسن (ت ١٣٠٧هـ) :

- أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق عبدالجبار زكا.

الكبسي : محمد بن إسماعيل الكبسي (ت ١٣٠٨هـ) :

- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٣م.

الكلاباذي :

- التعريف لمذهب أهل التصوف، القاهرة، ١٩٣٣م.

لويس ماسينيون :

- الإسلام والتصوف، القاهرة، ١٩٧٩م.

محمد بن أحمد العقيلي :

- تاريخ المخلاف السليماني، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ.

محمود إبراهيم حسين :

- الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

محمد أمين صالح :

- تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥م.
- النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

محمد آدم المرزوقي :

- قلعة زبيد (دار الإمارة)، دراسة تاريخية أثرية، صنعاء، ٢٠٠٩م.

محمد بن زبارة :

- خلاصة سيرة الهادي من أرجوزة الأئمة، مطبعة النصر الناصرية، تعز، د.ت.

محمد جمال الدين سرور :

- سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

محمد عبدالعال أحمد :

- الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

محمد عبدالله زغلول :

- المصنوعات الجلدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.

محمد عبده السروري :

- تاريخ اليمن الإسلامي، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٣م.
- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

محمد عبدالملك المروني :

- الثناء الحسن على أهل اليمن، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

محمد عيسى الحريري :

- دراسات وبحوث في تاريخ اليمن الإسلامي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- معالم التطور في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالفاطميين، دار القلم، الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

محمد بن علي الأكوع :

- اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

محمد أبو الفرج العش :

- المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٥م.

محمد بن علي مسفر :

- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ)، دار المدينة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

محمد كامل حسين :

- في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.

محمد كريم إبراهيم :

- عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣-١٢٢٨م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٥م.

محمد متولي :

- جغرافية شبه الجزيرة العربية (اليمن الشمالي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، الطبعة الثانية.

محمد يحيى الحداد :

- تاريخ اليمن السياسي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
- التاريخ العام لليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

محيي الدين بن عربي :

- شرح معجم اصطلاحات الصوفية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

مصطفى حلمي :

- منهج علماء السُنّة والحديث من أصول الدين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

مصطفى عبدالله شيحه :

- مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة اسكرين للدعاية والتجهيز الفني، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

مطهر الأرياني :

- القضاض، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

أبو الوفا التفتازاني :

- مدخل إلى التصوف، القاهرة، ١٩٧٦م.

يوحنا أبكاريوس :

- قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٨٩م، الطبعة الرابعة.

ثالثاً : الرسائل العلمية :

أحمد عبدالله عارف :

- المدارس الكلامية في اليمن فيما بين القرن الثالث والسادس الهجري، دكتوراه، دار علوم، القاهرة، ١٩٨٦م.

بدر عبدالرحمن محمد :

- النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي، ماجستير، القاهرة، ١٩٧٧م.

سليمان عبدالغني المالكي :

- بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري، القاهرة.

عطية أحمد القوصي :

- تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦هـ، دكتوراه، القاهرة، ١٩٧٣م.

عطية طه عبدالعزيز :

- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري، دكتوراه القاهرة، ١٩٩٥م.

علي أحمد بيومي :

- قيام الدولة الأيوبية في مصر، ماجستير، القاهرة، ١٩٤٦م.

محمد بهجت مختار :

- الصلات السياسية والحضارية بين مصر وبلاد الحجاز منذ بداية العصر الإسلامي حتى نهاية عصر المماليك (٢٠-٩٢٣هـ/٦٤١-١٥١٧م)، دكتوراه، عين شمس، ١٩٨٠م.

محمد عبده السروري :

- مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن من (٤٣٩-٦٢٦هـ/١٠٤٧-١٢٢٨م)، دكتوراه، القاهرة، ١٩٩٠م.

نصارى فهمي غزالي :

- العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية وتأثيرها السياسي والحضاري في اليمن، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، ١٩٨٤م.

رابعاً : الدوريات العربية :

أحمد الحاج :

- وهم القبيلة وخداع السياسية في اليمن، مجلة الحكمة، العددان ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٠٠٣م.

أحمد بن عمر الزيلعي :

- دولة بني مهدي من خلال درهم فضة ضرب زبيد ٥٦٦هـ في زمن عبدالنبي بن مهدي، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الأول، ٢٠٠٥م.

جعفر كرار أحمد :

- العلاقات التاريخية بين شبه الجزيرة العربية والصين منذ ظهور الإسلام وحتى أوائل القرن العشرين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٩٢، يناير، فبراير، مارس ١٩٩٩م.

دائرة المعارف الإسلامية، م١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، م٣، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

زاهر رياض :

- دولة حبشية في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٨، القاهرة، ١٩٥٩م.

سامي الصقار :

- الأيوبيون والرسوليون في اليمن، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مجلد ٦، ١٩٧٩م.

سيد إسماعيل الكاشف :

- دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥م.
- علاقة الصين بديار الإسلام، حولية كلية البنات، العدد ٣، يوليه ١٩٦١م.

شاكر مصطفى :

- التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد ١٣، يونيو ١٩٧٨ - جمادى الآخرة ١٣٩٨م.

عبدالعزيز المقالح :

- الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، دراسات يمنية، العدد ٥٠ أبريل يونيو ١٩٩٣م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

عبداللطيف سيف :

- الصناعة في الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م١٢، عدد ٢، سنة ١٩٨٥م.

على حسني الخربوطلي :

- المسجد في فجر الإسلام، حولية كلية البنات، جامعة عين شمس، مطبعة جامعة عين شمس، العدد ٣، يوليه ١٩٦١م.

فاطمة علي فضل :

- الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام) دراسات يمنية، صنعاء، العدد ٤٩ سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

محمد أمين صالح :

- دولة الخوارج في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢٥ لسنة ١٩٧٨م.

محمد عبدالستار عثمان :

- المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨ ، ذو الحجة ١٤٠٨هـ أغسطس ١٩٨٨م، المجلس الوطني الثقافي، الكويت.

محمد عبدالعال أحمد :

- دراسة عن أسباب الفتح الأيوبي لليمن، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١٣، جزء ٢، سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

محمد عيسى الحريري :

- تطور المذهب الزيدي في اليمن (قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لابن الشرفي)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، ١٩٨٧م.

محمد كامل حسين :

- التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مجلد ١٥، الجزء الأول، مايو ١٩٥٣م.

محمد كريم إبراهيم :

- جزر دهلك في البحر الأحمر، أهميتها وعلاقتها باليمن خلال العصور الإسلامية، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، السنة السابعة عشرة، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٩م.

محمد يوسف :

- علاقات العرب التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، القاهرة، المجلد ١٥، الجزء الأول، مايو ١٩٥٣م.

محمود ياسين التكريتي :

- الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي (٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٤-١٢٢٦م)، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد ١٢، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

مجلة الإكليل، عدد سبتمبر ١٩٨١م، ذو القعدة ١٤٠٤هـ.

إنجازات الأيوبيين في تشجيع وحماية التجارة، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، المجلد ٢٠، العدد الثاني، سنة ١٩٨٨م.

مصطفى عبدالله شيحة :

- بعض التأثيرات الأسيوية على العمائر والفنون الإسلامية، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤ يوليو ١٩٨٩م.

خامساً : المراجع الأجنبية :

References in Foreign Languages :

Aviva Klein – Franke ; The Jews of Yemen, Frankfurt, 1987

B. Ahmed :

- Imams, Notables et Bé douns du Yemen, Siecle, 1992.

Bannenfant, Baul :

- La, Qadad, Kes Maisons Tours De Sana'a, Lespresses Ducnrs, 1989.

C. H. Becker :

- Der islam, Hamburg, 1912.

Derenbourg :

- Oumara de Yémen, Paris.

El iyahu Ashtor :

- The Jews and Mediteranean Economy 10th – 15th Centuries, London, 1983.

Goitein :

- Jews and Arab, Their Contacts Through The age, New York, 1974.

Herbert S. Lewis :

- After The Eagles Landed The Yemenites of Israeal, London, 1989.

Joseph B. Schechtman :

- The Jews of Aden, Jewish Social, 1931.

Kay :

- Yaman; its Early Medieval history, London, 1892.

Malcolm, Cameronlyons :

- Saladin, Cambridge, 1982.

Michael Jenner :

- Yemen, London, 1983.

Oman : C.W.C. :

- " A history of The art of war in The Middle age ", London, 1962.

Paule. Walker :

- Exploring an Islamic Empire, (Fatimid History and its Sources), London, 2002.

R. B. Serjeant :

- Islamic Textiles in the Yemen, Lebanon, 1972.

R. B. Serjeant and Arnold :

- Sana and Arabian Islamic City, World of islam festival trust, 1983.

Robert W. Stookey :

- South Yemen, Croomhelm, London, 1982.

R. Smith :

- Studies in The Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997.

Solomon Grayzel :

- A History of The Jews, 1948.

Stephan Album :

- Rare Coins, Specialists I Islamic, Indian & Oriental Coins, California, 2009.

Stanly Lane – Poole :

- A history of Egypt in The Middle Ages.
- Mohammadan Dynasties, Paris, 1925.
- Saladin, Cooper Square, Press, 2002.

Werner Daum :

- From Aden to India and Cairo, : Jewish World trad in The 11th and 12th Centuries in Yemen 3000 Years of art Civilization in Arabia Felix, Frankfurt, 1987.

Yosef Tobi :

- The Jews of Yemen, Lieden, 1999.

سادساً : الدوريات والمقالات الأجنبية :

Periodicals. Essays in Foreigen Languages :

Bikhazi, Ramzi, J :

- " Coins of Al- Yemen, 132-569 A.H. Al-Abath ", Journal of Amercan University of Beirut, vol xxiii, No 1-4 December, 1970.

Goitein :

- Ameditermean Society, Jwish Communities of Arab world as Partrayed in Doucuments of the Cairo Geniza 969-1250, University of California.

Journal of Islamic Studies, 1990.

Paul, Auchterloine :

- Yemen, Revised Edition, Cliopress, Oxford, 1998, vol, 50.

R. Smith :

- The Ayyubids and Rasulids The Transfer for Power in 7th – 13th Century Yemen, Islamic Clture, 1969, vol, XLIII.

The Encyclopedia Americana, international Edition, 1829, (Yemen), vol. 2,29.

The New Encyclopedia Britannica, Yemen, vol. 13, 15, 19, London, 1974.

Tirton, A. S. :

- The Mutrrafya, Le Muson, Britishl ibrary, London, 1950, vol. BX.III.

Inv:101

Date:16/2/2016


9 789773 883324